الجمهورية العربية المتحدة
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة إحياء التراث الإسلامي

المعجب في تلخيص أخبار المغرب

[من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين]

[مع ما يتصل بتاريخ هذه الفترة من أخبار القراء وأعيان الكتاب]

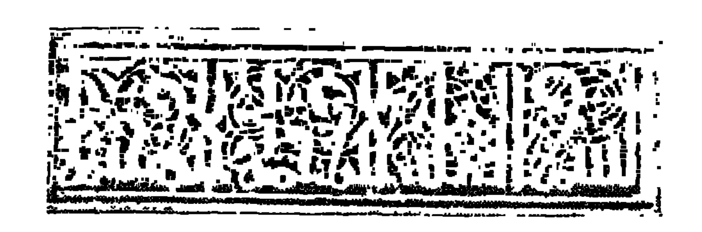
تأليف
عبد الواحد المراكشي
المتوفى سنة ٦٤٧ هـ

تحقيق

الأستاذ محمد سعيد العريان

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

الكتاب الثالث



تصـــدير

بقـــلم
الدكتور مهدى علام
رئيس لجنة احياء التراث الاسلامى

التاريخ هو رقيب الحياة ، يسجل الأَحداث ، ويحفظها لمن يطّلع عليها ليقرأَ فى ضوئها الماضى ، ويستمد منها العظة للحاضر ، ويخطط فى هديها للمستقبل .

وقد قال الرئيس جمال عبد الناصر فى « الميثاق الوطنى » : « إن العمل العظيم الذى تمكن الشعب من إنجازه بالثورة الشاملة ذات الاتجاهات المتعددة ، قد تحقق بفضل ضمانات تمكّن النضال الشعبى من توفيرها ، ومنها وعيه العميق بالتاريخ وأَثره فى الإنسان المعاصر من ناحية ، ومن ناحية أُخرى لقدرة هذا الإنسان على التّأْثير فى التاريخ .

والكِتاب الذى يسعدنى أَن أُقدمه للقراء ، « المُعْجب فى تلخيص

أخبار المَغْرب » تأْليف عبد الواحد المراكشى ، كتاب تاريخ يتحدث عن مرحلة من مراحل النضال العربى الإسلامى فى جزء عزيز من الوطن الكبير الذى يرتبط به كل عربى وكل مسلم .

وقد حققه وأكمل النقص الذى كان فى مخطوطاته أُستاذ له فى التاريخ والأَدب والتحقيق ماض مجيد ، وحاضر متدفق ، ومستقبل مشرق .

ولم يكن يستطيع القيام بهذا العمل إلا مؤَرخ بصير بالتاريخ ، وأديب فاحص ذو نظرة ناقدة للنصوص الأَدبية التى تشيع فى الكتاب .

وليس الأُستاذ محمد سعيد العريان فى حاجة لأَن يقدم للقراء فى العالم العربى ؛ فقد سبقت كتبه ومقالاته وبحوثه إلى التعريف به منذ ثلث قرن .

وحسبى أن أُقدم ، باسم لجنة إحياء التراث الإسلامى ، بالمجلس الأَعلى للشئون الإسلامية ، هذا العمل الجليل ، فى العيد الحادى عشر للثورة العربية التى قادها ورعاها الرئيس جمال عبد الناصر .

القاهره صفر سنة ١٣٨٣
يوليه (تموز) سنة ١٩٦٣

مهدى علام

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

موضوع الكتاب

هذا كتاب أدب وتاريخ ، أَلَّفه مولِّفه مدعوًّا إليه فى الربع الأَول من القرن السابع الهجرى ، ليكون تعريفاً لأَهل المشرق بأَحوال المغرب ، فجاءَ تعريفاً شافياً وافياً بما أراد موَلِّفه والمُوَلَّف له ، وقد مات موَلِّفه وانطوى تاريخه منذ قرون ، فليس لنا من أَسباب العلم به والكشف عن ذاته وصفاته ونسبه وأَدبه إلا اللمحاتُ الضئيلة الخافتة التى تلمع من ثنايا كتابه ، ومات السيد الكريم الذى أُلِّفَ من أَجلِه الكتاب ، فلسنا نعرف اسمه ولا رسمه ولا صفته ولا صلته بأَحداث عصره ، إلا ما يتراءَى لنا من ذلك فى ثنايا الكتاب كذلك ، على سبيل الحدس والتخمين لا على وجه القطع واليقين ؛ مات المؤَلِّف والمؤَلَّف له ، وانطوى تاريخهما فى مَدْرَجَة الإهمال أَو فى مَدْرجة النسيان ، ولكن الكتاب بقى تتوارثه الأَجيال خَلَفاً عن سلف حتى انتهى إلينا ، ليعرِّفنا التعريف الشافى الوافى بأَحوال المغرب العربى منذ كان للمغرب العربى دولة ، إلى السنة الحادية والعشرين من القرن السابع الهجرى . . .

أَما الحدود الجغرافية لهذا المغرب كما يصفه موَلِّف هذا الكتاب ، فتتسع وتنبسط حتى تشمل شبه جزيرة الأَندلس ، من جبال البرانس إلى المحيط

الأطلسى ، بما تضم من دول ومدائن ، ثم ما يلى بلاد الأندلس جنوبا على الشاطىء الأفريقى ، من المغرب الأقصى ، إلى الجزائر ، إلى تونس . . . إلى حدود مصر الغربية ؛ إذ كانت هذه المساحة المنبسطة فى عرف كثير من المؤرخين القدماء ، هى المغرب .

وأما الأحوال التى يصفها مؤلف الكتاب فى الكتاب من أحوال هذا المغرب الكبير ، فليست هى تاريخَه السياسىَّ وما تعاقَب على عرشه ، أو عروشه من ملوك وأمراء فحسب ، وليست هى كذلك تاريخَه الأدبىَّ والعلمىَّ وما ازدهر فيه من ألوان الأدب وفنون الفكر والمعرفة ومن اشتهر به من أهل البيان والرأى ، وليست هى الخصائص الاجتماعية والصفاتِ النفسيةَ لمن ينتسبون إليه وَيَدْرُجونَ على ظهره من أُمراء وسوقة ، وليست هى طبيعةَ أرضه وسمائه وخِصبه وجدبه وجنّاته وقِفاره ومناجمه وأنهاره . . . ولكنها كلٌّ ذلك وغيرُ ذلك من أحوال المغرب ؛ فهو كتاب يصف التاريخ السياسى لذلك المغرب الكبير فى تلك الحِقبة وصفاً شافياً وافياً فى إيجاز وبلاغة ، كما يصف تاريخَه الأدبىَّ والعلمى فى براعة وفن ، ولا يغفل إلى جانب ذلك أن يتحدث عن طبيعة المكان والسكان ، ما تراه العينُ من ذلك وما هو من إحساس النفس وإلهام العاطفة والشعور . . .

وقد ألَّف المؤلِّف كتابه هذا قبل أن يخلع إهاب الشباب ، فقد كان يوم ألَّفه فى الأربعين من عمره ، وهى آخر نضج الشباب وأولُ حكمةِ المشيب ، ألَّفه ليَذْكُرَ به وطنَه وهو بعيد عن وطنه ، قد فارَقَه منذ بضع سنين غيرَ آمل – فيما يبدو – أن يعود إليه ، فجاء صورةً من الشعور إلى صور

من الذكرياتِ تفيضُ بها نفسٌ جيّاشَةٌ بالحنين ؛ فهو إذن كتابُ أدب وفنّ ، وهو كتابُ تاريخ وسياسة ، وهو إلى هذا وذاك تقويمٌ جغرافىٌّ اقتصادى اجتماعى لذلك المغرب الكبير فى تلك الحقبة الزاهرة من تاريخه .

قيمته بين المراجع التاريخية

ولست أزعم أن لى حقّ الحكم على الكتاب من حيث قيمته بين المراجع التاريخية ، فلست عند نفسى بالمنزلة التى تؤهّلنى لمثل هذا الحكم ، ولكنى إلى ذلك أستطيع أن أؤكد أنه كتابٌ فريد بين كتب التاريخ فى موضوعه ، وموضوعُه الأصيل – فيما رأيتُ – هو تاريخُ دولة الموحدين ، فهو يصف تاريخها وصفَ عِيان ومشاهدة على نحوٍ لم يُشارك مؤلفَه فيه أحدٌ ممن دوّنوا تاريخ تلك الدولة ، وإن القارئ الخبير بألوان التعبير ليتبينُ روح الصدق فى كل ما يرويه المؤلف فى كتابه من خبر وما يصفُ من حادثة وما يرى من رأيٍ أيضاً ، برغم صواب ذلك الرأىِ أو خطئه . وبعضُ الخطأ فى الرأى نوعٌ من صدق الرأى !

أما ما قبل تاريخ الموحدين مما أورده مؤلف الكتاب ، فهو تلخيصٌ دقيق متقن لروايات فى تاريخ المغرب سبقَه إلى تدوينها مؤرخون قدماءُ روى عنهم موجزًا أو مسهباً ، على أُسلوبهم فى الرواية أو على أُسلوبه فى السرد والتسلسل والانسجام ، فانتهى إلينا علمُهم بالتاريخ – عن طريقِه – قبل أن ينحدر الزمنُ بذلك التاريخ إلى وادى النسيان ؛ ولكنه فى أىٍّ أَحواله . واصفاً أو راوياً ، لم يخرج عن الإطار العام الذى اختاره لموضوعه أو اختير

له ، فكان كتابه – كما أراد – أوفَى كتاب أدبى فى تاريخ المغرب لمن يريد أن يعرف موجَزا عن تاريخ المغرب إلى أواخر الربع الأول من القرن السابع الهجرى . . .

فهو إذن مرجعٌ أصيل من مراجع التاريخ عن دولة الموحدين لا يمكن أن يستغنى عنه باحث فى تاريخ تلك الدولة من دول المغرب ، وهو إلى ذلك موجَزٌ من رواياتٍ شتى عن تاريخ المغرب قبل دولة الموحدين قد ضاع كثيرٌ من مصادره فصار بذلك أصلا من أصول تاريخ المغرب قبل دولة الموحدين ، وهو إلى هذا وذاك كتابُ أديبٍ مغربى لم يكن تدوين التاريخ فنَّه الأصيل ، ولكنه طُلب إليه – فى غربته – أن يصفَ تاريخ بلاده فى كتاب ، فزاوَجَ بين الأدبوالتاريخ فى ذلك الكتاب !

إن له فيما يسرد من التاريخ وما يصف من حال البلاد أسلوبَ الأديب المطبوع وإن لم يُذكر له اسمٌ بين أدباء المغرب ولا أدباء المشرق ، وإنه ليخيَّل إلىَّ – من طول ما تصفَّحت من أساليب الكُتاب وأصحاب البيان ، ومن طول ما عالجتُ من فنون الكتابة – أن ذلك الكتابَ ليس هو أولَ ما أنشأ المؤلف من فصول وما حبَّر من صحائف ، بلى ، قد لا يكون له قَبل هذا الكتابِ كتاب ، ولكنى أكاد أُجْزم أنه كتب كثيرا وعالج من الكتابة فنوناً شتى قبل أن يعالج إنشاء هذه الفصولِ التى ضمَّنها هذا الكتاب وأحسبُه كان من كتاب الإنشاء فى بلاط بعض أُمراء الموحّدين قبل أن تَقذف به النَّوى إلى المشرق ليؤلِّف هذا الكتاب . . .

وإذا صحّ حَدْسى هذا فإنه يُلقى بصيصاً من الضوء على التاريخ الغامض

لهذا الأديب المجهول ، الذى فارق وطنه فى ظروف غامضة وهو لم يَزَلْ بعدُ فى الثانية والثلاثين من عمره ، ثم لم يَعُدْ إليه إلا اسماً على غلافِ كتاب ألّفه فى غربته النائية ، الباقية على مرّ القرون ...

مؤلف الكتاب

إنه أديبٌ غريب ، ومؤرِّخٌ ليس له تاريخ !

أولُ ما نعرف على وجه اليقين من أخباره ، أنّه مؤلّف هذا الكتاب ، وأن اسمه عبد الواحد بن على ، ينتسب إلى تميم ، ويُلقب «محيي الدين» ، وأصلُه من مراكش كذلك وُجد اسمه على غلاف كتابه ...

أما تاريخ حياته ، وكيف عاش ، وأين قَضَى ، وَمتى ، ولمن ألّف كتابه ذاك ، وأين – فكل ذلك مجهول لا سبيل إلى العلم به إلا لَمْحاً خاطفاً أو حَدْساً واستنتاجاً ، من خلال عبارات متناثرة بين أول هذا الكتاب وآخره ...

إن ذلك الكتاب هو تاريخ المغرب الكبير إلى أواخر الربع الأول من القرن السابع الهجرى ، وهو أيضاً تاريخ الأديب المغربى المجهول «عبد الواحد المراكشى» ، لا مرجع لتاريخه غيره ....

فمنه نعرف أنهُ وُلد فى مراكش فى السابع من ربيع الآخر سنة ٥٨١ فى بدء حكم أبى يوسف المنصور الموحِّدى[١] .

وأنه غادر مراكش وهو فى التاسعة إلى فاس ، حيث قرأ القرآن وجوّده

(١) انظر ص ٤٤٦

وأذن له في روايته ، ثم عاد إلى مراكش ، ولكنه لم يقطع صلته بفاس ، فلم يزل يتردّد بين الحاضرتين سنين[1] .

وأنه كان في فاس سنة ٥٩٥ وسنُّه إذ ذاك أربع عشرة سنة ، وفيها التقى بالعالم الطبيعي العظيم أبي بكر بن زهر ، وكان بينهما حديث ومسامرة ، وابنُ زهر يومئذ في الثمانين أو جاوزها[2] .

وأنه عَبر إلى الأندلس حين بلغ الثانية والعشرين ، حيث التقى بجماعة من أهل الفضل لهم ذِكر وصِيت[3] ، وحيث اتصل سببُه بالأمير أبي إسحاق ابن أبي يوسف المنصور الموحدي ، وكان يومئذ حاكماً لإشبيلية ، من قِبل أخيه محمد الناصر سلطان الموحدين لذلك العهد ، فصفا بينهما الودّ وتوثقت أواصر المحبة[4] .

وأنه نزحَ إلى قرطبة في العام التالي حيث لزم حلقة شيخه وأُستاذه أبي جعفر الحِمْيَرِيّ سنتين يتأدب بأدبه ويروى عنه[5] .

وأنه عاد إلى مراكش في سنة ٦١٠ وشهد بيعة السلطان يوسف الثاني في الرابع عشر من شعبان[6] .

وأنه قد أُتيح له بعد ذلك ببضعة أشهر ، وهو لم يزل بعدُ شابا في الثلاثين ، أن يخلو إلى السلطان يوسف هذا فيحدثه ويستمع إلى حديثه[7] .

---

(١) انظر ص ١٤٥
(٢) انظر ص ١٤٥
(٣) انظر ص ٣٨٧ - ٣٨٨
(٤) انظر ص ٣٧٨ - ٣٨٣
(٥) انظر ص ٣٧٩
(٦) انظر ص ٤٠٧
(٧) انظر ص ٤٠٩

وأنه لم يَطِبْ له المُقام بعد ذلك طويلا فى المغرب ، فعبر البحر ثانية إلى الأَندلس[١] ، ليقيم فى كنف صفيّه الأَمير أبى إسحاق حاكم إشبيلية وعمٍّ السلطان يوسف الثانى فيتصل بينهما الود حتّى يقول له الأَمير مرة بعد مرة . «والله إنى لأَشتاقك إذا غبتَ عنى أشدَّ الشوق وأصدقَه ...»[٢] .

وأنه فى آخر يوم من سنة ٦١٣ ، وعمرُه يومئذ اثنتان وثلاثون سنة ، ودّع صاحبه ، وودّع المغرب والأَندلس جميعاً[٣] لأَسبابٍ غيرِ معلومة ، فركب البحر المائج فى سنة ٦١٤ متجهاً إلى الشرق ، إلى مصر وما وراءَ مصر من بلاد المشرق ، ثم لم يَعُد ...[٤] .

وأنه قد انقطع عن المغرب منذ ذلك التاريخ ، لأَنه أنشأَ لنفسه حياة جديدة فى المشرق ، ولكنها حياة قلقة مضطربة ، كلها حنين وشكوى وضيق ، و«همومٌ تزدحم على الخاطر ، وغمومٌ تستغرق الفكر»[٥] .

وأنه قضى فى مصر سنين[٦] ، ثم غادرها إلى الحجاز[٧] ، ثم غادر الحجاز إلى غيره من بلاد المشرق ، إلى الشام ، أَو إلى بغداد[٨] ، تائهاً فى بيدَاءَ من الهموم والغموم والحنينِ الدائمِ والقَلَقِ المؤرِّق .

---

(١) انظر ص ٣٠٥ (٢) انظر ص ٣٨٨
(٣) انظر ص ٣٨٨ (٤) انظر ص ٣٨٨
(٥) انظر ص ٢٤ (٦) انظر ص ٤١٠
(٧) انظر ص ٣٨

(٨) حدثنى العلامة الأستاذ محمد الفاسى ، الوزير السابق فى المغرب ، ورئيس الجامعات المغربية ، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ فى أثناء زيارة له بمنزله بالرباط ـ أنه وقف على نص فى كتاب ـ لم يذكره لى ـ يؤرخ لبعض علماء بغداد فى القرن السابع فيذكر منهم عبد الواحد المراكشى . وهو خبر يمكن أن يضيف سطرا جديدا الى تاريخ مؤلف هذا الكتاب .

وأنه لقى فى أثناء تجواله ببلاد المشرق وزيرا من خاصة أمير المؤمنين أبى العباس أحمد الناصر لدين الله العباسى ، فأضفى عليه من عطفه ، وأصفاه ودَّه ، ولطف به ، «وتتوالى عليه نعمه ، ويأخذ بضبْعه من حضيضى الفقر والخمول اعتناؤُه وكرمه»[1] ، فيسأله ذلك الوزير بحق ما بينهما من الإحسان والحب ، أن يملى له أوراقاً «تشتمل على بعض أخبار المغرب ، وهيئته ، وحدود أقطاره ، وشىء عن سير ملوكه ، وخصوصاً ملوك المصامدة بنى عبد المؤمن ، من لدن ابتداء دولتهم ... » فيملى عبد الواحد كتاب المعجب هذا ، ويكون فراغه من إملائه يوم السبت لستٍّ بقين من جمادى الآخرة سنة ٦٢١ . . .[2] ثم يُقرأ عليه قراءة تصحيح بعد يومين من إملائه فى «السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٢١ ...[3] .

ثم تنتهى أخبار عبد الواحد ، فلا يعود إلى المغرب ، ولا يذكره أحد فى المغرب ؛ ويموت فلا يذكره ذاكر فى مراكش ، ولا فى فاس ، ولا فى إشبيلية ، ولا فى قرطبة ؛ وكان له أهل ودار فى مراكش ، ومسعىً إلى قصر سلطان الموحدين فى فاس ، وأشواقٌ مشبوبةٌ بينه وبين عم السلطان فى إشبيلية ، وذكرٌ على ألسنة الكثير من أهل العلم والأدب فى قُرطبة ...

ذلك هو عبد الواحد المراكشى كما تحدَّثَ عن نفسه فى كتابه «المعجب

(١) انظر ص ٢٣
(٢) انظر ص ٤٦١
(٣) انظر ص ٤٦١

فى تلخيص أخبار المغرب » فماذا كان فى حياته وبين أهله ، وأين كان موضعه من الحياة العامة فى بلاده ؟

هذا سؤال لم يُجب عنه أحد بعد ، لأن عبد الواحد لم يخلِّف مِن ذِكراه غيرَ هذا الكتاب ؛ ولكننى مع ذلك أزعم أننى أستطيع جواباً وإن لم يكن بين يدىّ من مصادر العلم غيرُ هذا الكتاب . . .

إن عبد الواحد المراكشى لم يكن نكرة فى قومه ، ولم يكن نكرة عند نفسه ، وإن فى هذا الكتاب الذى خلَّفه عبد الواحد تاريخاً لبلاده وتاريخاً لنفسه ، أمارات صريحةَ الدلالة على أرومته ومكانته من قومه وموضعِه من الحياةِ العامة فى بلادهِ . . .

إن فتىً من مراكش ، يتاح له فى الرابعة عشرة من عمره أن يرحل إلى فاس ليتخذ مجلساً فى حضرة العالم الطبيب أبى بكر بن زهر يتحدث إليه ويسمع منه وينتسب له ويذكر أباه وأهله . . .[1]

ويتاح له وهو فى الثانية والعشرين أن يكسب صداقة أمير إشبيلية ، وهو أمير من أمجد أمراء الموحدين ، كان أبوه أمير المؤمنين المنصور ، وأخوه لم يزل أمير المؤمنين الناصر . . .[2]

ويتاح له وهو شاب لم يبلغ الثلاثين أن يخلو إلى السلطان أبى يعقوب الثانى يتحدث إليه ويسمع منه وهو مَنْ هو صرامةً وعُنفواناً وقوة . . .[3]

---

(١) انظر ص ١٤٢ .

(٢) انظر ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨

(٣) انظر ص ٤٠٩ .

إن فتىً يتاح له كلُّ ذلك مما ذَكر فى كتابه ، ونحوُ ذلك مما لم يذكر ، لا يمكن أن يكون فتىً من سواد الناس .

وهنايقتضينى التحقيق أن أقف هنيهة عند بعض عبارات أوردها المراكشى فى كتابه ، تُلقى ضوءًا قوياً على بعض الغموض الذى يكتنف حياته وأسباب رحلته النائية إلى المشرق ؛ أما أُولاها فهى تعليقه على كتاب وصل إليه من صديق له من أبناء الولاة فى «سوس» سنة ٥٩٧ — وكانت سن المراكشى يومذاك ستّ عشرة سنة — يصف فيه موقعة بين جيش الناصر بن أبى يوسف وثائر من «جزولة» كان قد شق عصا الطاعة ، فيتعجب المراكشى من وصول نبإ هذه الموقعة إليه من صديقه «قبل وصوله إلىّ من جهة كتاب الموحدين المتولّين له » . . . [(١)] .

وعبارة أُخرى ، هى قوله عند الحديث عن الأمير أبى إسحاق إبراهيم من أولاد السلطان أبى يوسف المنصور . «وهو خيرُ ولده وأجدرُهم بالأمر لو كانت الأُمور جارية على إيثار الحق واطِّراح الهوى »[(٢)] .

وعبارة ثالثة ، هى قوله عند الحديث عن الوزير أبى عبدالله الحسنى . «سمعته يقول وأنا عنده فى بيته : جملةُ ما وصل إلىَّ من أمير المؤمنين أبى يوسف . . . الخ[(٣)] » .

وعبارة أهم من كل ذلك ، هى قوله عند الحديث عن الأمير يحيي من

---

(١) انظر ص ٣٩٦ .
(٢) انظر ص ٣٨٧ .
(٣) انظر ص ٣٩٢ .

أولاد السلطان أبي يعقوب بن عبد المؤمن . «كان يحى هذا ، رحمه الله ، لى صديقاً ، ومن جهته تلقيتُ أكثر أخبارهم ، لم أر فى الملوك ولا فى السُّوقة مثلَه ، رحمةُ الله عليه ؛ وما استجزت لفظة الصداقة ، مع أن الواجب لفظ الخدمة ، إلا لما كان رحمه الله يكتب إلىَّ : أخى وصديقى ، فى بعض الأوقات ، ووليِّى ، فى بعضها . اجتمعت عندى بخطِّه رقاعٌ كثيرة خلع علىَّ فيها من فضله وحلَّانى بما لم أكن أستحقُّه ... (١)» .

فما دلالة هذه العبارات جميعاً ؟

أليست أُولاها دليلا على أن عبد الواحد كان ـ وهو لم يزل فى السادسة عشرة ـ أهلا لأن يتلقى كلَّ أنباء الفتوح أو بعضَها «من جهة كتاب الموحدين المتولِّين لها» ؟

وهل يكون للعبارة الثانية دلالة غير أن عبد الواحد كان يرى أن ولاية الناصرعرش الموحدين دون أخيه أبى إسحاق كانت أمرًا يقوم على اطِّراح الحق وإيثار الهوى ؟

وعلام تدل العبارتان الأخيرتان ؟ ومن يكون عبد الواحد حتى يتحدث إليه الوزراءُ فى بيوتهم عما وصل إليهم من صِلات الملوك ، وحتى يصطفيه أبناءُ السلاطين ويتولَّوه بالإحسان والمبرة ويُفْضُوا إليه بأسرار الدولة ويكتبوا إليه الرِّقاع إذا غاب ؟ ...

(١) انظر ص ٣١٧ .

ثم نعود إلى ما بدأنا فنسأل كرة أخرى ، فيم كانت هجرة عبد الواحد إلى المشرق ، تلك الرحلة التى بدأت من إشبيلية حيث كان يعيش فى كنف الأمير أبى إسحاق فى موضع الإعزاز والكرامة ، والتى انتهت به إلى شكوى الفقر والاختلال والهموم والغموم والأحزان ؟

لغير الحج ولا شك كانت رحلته تلك ، ولغير طلب العلم أيضاً ، فلو أنها كانت للحج لما تأخر عن أداء الفريضة من سنة ٦١٤ - وهى السنة التى بدأ فيها رحلته من مرسية - إلى سنة ٦٢٠ وهى السنة التى حج فيها ، ولو أنها كانت للعلم لسمعنا من روايته وقرأنا من خبره فى مَسانِد الحديث ما يشير إلى بعض ما حصّله من العلم فى السنين السبع أو الثمان التى قضاها فى المشرق منذ غادر الأندلس إلى أن أملى كتاب المعجب؛ وإذن فإن رحلته لم تكن للحج والزيارة ، ولا للعلم والرواية ؛ ولكنها كانت لسبب آخر يتصل من قريب أو من بعيد بتطورات السياسة المغربية فى تلك السنين ، فقد عرفنا عرفاناً لا يتطرّق إليه الشك أن عبد الواحد كان ينتمى فى المغرب إلى أسرة عربية مجيدة يباهى بالانتساب إليها [1] .

وأن أسرته هذه كانت من الغنى والجاه بحيث أُتيح له فى سنٍّ مبكرة أن يَرُود أقطار المغرب فى العُدْوتَين ذهابا وجَيئة مراتٍ عدة [2] .

وأنه كان أهلا لأن يتلقى أنباء الفتوح فى إبّانها من جهة كتاب الموحدين المتولين لذلك الأمر [3] .

---

(١) انظر حديثه مع ابن زهر ص ١٤١ - ١٤٦ .

(٢) انظر ما اقتبسنا من تلخيص حياته فى ص ٥ - ١٢ من هذا التقديم .

(٣) انظر ص ١٧٥ .

وأنه كان يشهد بيعة السلطان[١] ، ويتاح له أن يخلو إليه[٢] ، ويتخذ من ولده صديقاً يأنس إليهم ويتلقى عنهم أخبار القصر مشافهة أو فى رقاع مكتوبة[٣] .

وأنه كان صاحب رأى فى سياسة الدولة يتيح له أن يقول فى سرّ أو فى علانية إن ذلك الأمير كان أحقَّ بعرش الموحّدين من ذلك الأمير وأنه أكفأُ له وأنْهَضُ بأعبائه ![٤] .

عرفنا ذلك كله عرفان اليقين ، وعرفنا معه أن عرش الموحدين فى تلك الحقبة من حياة عبد الواحد المراكشى كانت تتنازعه أسبابُ الانتقاض والفتنة ، ففى كل بلد ثائر من بنى عبد المؤمن أو من زعماء البربر ورؤساء القبائل أو من قادة الجند يحاول أن يستأثر بالحكم فيما يليه من البلاد ، فما تزال السرايا ذاهبة آيبة لتأديب العصاة والثائرين ، وما تزال الطير تأكل من الرؤوس المعلقة على أبواب مراكش وفاس .

وقد كان الخليفة على عرش الموحدين مدة من ذلك العهد هو السلطان محمد الناصر ، ابنُ السلطان أبى يوسف المنصور ، وأخو الأمير أبى إسحاق إبراهيم حاكم إشبيلية وصديق المراكشى ؛ ثم ولى ذلك العرش من بعده ولده أبو يعقوب الثانى ، وكان عبد الواحد من شهود بيعته ، وعمُّه

---

(١) انظر ص ٤٠٧ .
(٢) انظر ص ٤٠٩ .
(٣) انظر ص ٣١٧ و ٣٨٧ ــ ٣٨٨ .
(٤) انظر ص ٣٨٧ .

أبو إسحاق لم يزل حاكماً على إشبيلية[١] ، وهو الذى يصفه عبد الواحد فيقول إنه خير أبناء المنصور وأجدرهُم بالأمر «لو كانت الأمور جارية على إيثار الحق واطّراح الهوى» .

وكان الأمير أبو إسحاق هذا قد وَزَرَ لأخيه الناصر مدة[٢] ، ثم خُلع عن الوزارة وأُبعد ثانية إلى إشبيلية ، ومن أصفيائه هنالك عبد الواحد . . .

ثم نرى عبد الواحد يودّع صديقه أمير إشبيلية وداعاً لا لقاء بعده ، ليبحر إلى المشرق متنقلا بين بلاده فى هم وغم واضطراب وقلق وفقر وحاجة . . .

فمن ذا يزعم بعد ذلك أن عبد الواحد قد مضى فى هذه الرحلة مختارا ليخلّف ما كان فيه من الجاه والنعيم إلى الفقر والقلق واضطراب العيش؟

لم يهجر عبد الواحد بلاده إذن مختارًا كما كان يهجر المغاربة بلادهم فى تلك السنين للحج أو لطلب العلم ، وإنما هجرها مُكرها لسبب من تلك الأسباب السياسية الكثيرة التى يُبعد لمثلها الزعماءُ وأهلُ الرأى عن بلادهم فى أيام الجور والطغيان . . .

وفى ذلك المنفى الذى أُلجئ إليه بلا إرادة . أنشأ كتابه «المعجب» ، استجابة لدعاء الوزير العباسى الذى أصفاه وده وأغدق عليه إحسانه ، واستجابة فى الوقت ذاته لتلك العاطفة التى كانت تُدفئُ صدره شوقاً

---

(١) كانت ولاية الناصر محمد فى سنة ٥٩٥ ، وظل على العرش الى أن مات فى سنة ٦١٠ ، ثم ولى العرش من بعده ولده أبو يعقوب ، فأقام على العرش الى مابعد هجرة عبد الواحد من المغرب بسنين ذات عدد .

(٢) انظر ص ٣٨٧ .

إلى بلاده وحنيناً إلى صحابته هناك وأهله . . . وليس مثلَ اجترار الذكريات دواءٌ من داءِ الحنين إلى الأهل والوطن !

نقص الكتاب :

وقد قدمت فى صدر هذا البحث موجزا فى وصف ذلك الكتاب فلا أعود إليه ، وإنى لأرجو أن يصف الكتاب نفسه لقارئه أبلغ مما أستطيع أن أصف ، ولكنى لا أرى مندوحة من الإشارة إلى الحظ التعس الذى صاحب مؤلِّفه حيا وميتا ، ذلك الحظ الذى حَرَم قراءَ العربية وعلماءَ التاريخ قبل اليوم من الانتفاع بنسخة كاملة من كتابه «المعجب فى تلخيص أخبار المغرب» ، فكما اندثر ذكرُ مؤلِّفه المراكشى فى بلاده وفى بلاد هجرته منذ قرون عدّة ، اندثر كذلك كتابه فليس منه اليوم - فيما يُعرف - إلا مخطوطة واحدة فى مكتبة ليدن ، وأحسبها قد جلبت من المشرق ، الشام أو العراق[1] ، وهى إلى ذلك مخطوطة غير كاملة ، لأن كراسة منها تحتوى على عشرين ورقة قد فُقدتْ ، ويشير تسلسل التاريخ إلى أن هذه الكراسة كانت تتضمن الحديث عن تتمة تاريخ الحكم بن هشام ومن وليه من أمراء بنى أميه بالأندلس إلى عهد الحكم المستنصر ، وقد كانت ولاية الحكم الأول فى صفر سنة ١٨٠ وولاية الحكم الثانى فى رمضان سنة ٣٥٠ ، فبين الحَكَمين نحو مئة وسبعين سنة تضمنت تاريخَها تلك الكراسةُ المفقودة وعن هذه المخطوطة الناقصة أخرج العلّامة دوزى الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى سنة ١٨٤٧ منذ أكثر من مائة

(١) انظر التعليق رقم (٨) ص ٧ من هـذا التقديم .

عام ، ثم طُبع بعد ذلك فى مصر بلا تحقيق طبعتين ـ أو أكثر ـ نقلا عن طبعة دوزى ، باسمه حينا وباسم «تاريخ الأندلس» حينا آخر ، ثم طبعه دوزى طبعة ثانية فى سنة ١٨٨١ ، ثم أخرجته شركة النشر المغربية بفاس سنة ١٩٣٨ بتحقيق الأستاذ محمد الفاسى . . .

محـــــاولات لتكميل النقص :

ثم بدا لى أن أحاول نشره جديدا مكمّلا على أسلوب آخر يتحقق به النفع ، وكان لا بد أن يسبق هذه المحاولة بحثٌ طويل وجهدٌ متصل للوصول إلى نص أصلى لذلك الجزء الناقص من الكتاب . . .

وإذا كنت لم أقطع الأمل فى العثور على نسخة أخرى منه فى بعض الخزائن الخاصة أو العامة فى الشرق أو فى الغرب أستعين بها على تكميل ذلك النقص ، فإننى لم أركن إلى ذلك الأمل ومضيت ألتمس وسائل أخرى لتكميله . . .

وقد كان يَسَعُنى بأيسر الجهد أن أحاول ذلك التكميل بالسير على نهج المؤلف وطريقته فى السرد التاريخى والرواية لسدِّ الثغرة ، مع الإشارة إلى مكان الزيادة من الأصل والتنبيه إلى المراجع التى اقتبستُ منها أو أو استندت إليها ، كما يفعل كثير من ناشرى كتب التراث عن مخطوطات مبتورة ؛ ولكنى آثرت أن أحاول ـ قبل ذلك ـ محاولةً أخرى أقربَ إلى الصدق والأمانة ، فإن نجحت وإلا عدتُ مُكرها إلى ذلك السبيل . . .

وقد كانت المحاولةُ التى حاولتُها تقوم على أساس أن الحقبة التى يتناولها الجزءُ المفقود من تاريخ المغرب والأندلس تسبق مولد المؤلف بقرون ، فمن المؤكد أنه لم يكن مصدرًا أصيلًا فيما يَرْوى من أخبارها وإنما نقل عن غيره من مؤرخى جيل سبقَه ، ولعله قد نقل ما نقل عنهم بحروفه ونصّه ، على عادة القدماء فى أكثر ما يروون من علم السابقين ، فإذا كان الأمر على ما وصفتُه فإن من الممكن استكمالَ ذلك النقص لو أننى اهتديتُ إلى المصادر الأصيلة التى نقل عنها المراكشى ما أورد فى كتابه من تاريخ تلك الحقبة . . .

وعلى هذا النهج بدأتُ البحث ، فتتبّعت أسماء الرواة وأصحاب الأخبار الذين اعتمد عليهم المراكشى فيما ذكر من أحداث التاريخ فى كتابه ، وكان أكثر اهتمامى بتتبّع الرواة الذين نقل عنهم تاريخ الحقبة التى سبقت ذلك النقص والحقبة التى تلته ، فانتهيت من تتبعى إلى أن أكثر ما يرويه المؤلف من تاريخ الحقبتين مُسندُ الرواية إلى أبى نصر الحميدى ، أو منقول عن كتاب «جذوة المقتبس» . . .

ولم يخطر لى إلا بعد بحث طويل فى كتب الطبقات ومعاجم الرجال ، أن أبا نصر الحميدى من رواة الحديث لا من المؤرخين ولا من الأدباء ، فلما بحثت عنه ثمة وجدته ، وعرفت أنه صاحب «جذوة المقتبس» ؛ فهما مصدر واحد لا مصدران ، لأنهما مؤلِّفٌ وكتابُه ، ينقل عنهما المراكشى فيقول مرة . «روى أبو نصر الحميدى . . .» ويقول مرة أخرى . «وفى جذوة المقتبس . . .»

وقد عاش أبو نصر الحميدى فى القرن الخامس الهجرى ، وكان فيما يروى من فنون أهل الحديث يعرض للتاريخ فيسرد أخبارا ويقص قصصاً ويتحدث عن ملوك ودول وأحداث ، فقوِى عندى الظنّ أن يكون فى كتابه «جذوة المقتبس» شىءٌ من ذلك القبيل ، وأن يكون هو المصدر الذى نقل عنه المراكشى تاريخ تلك الحقبة التى اخترمها النقص ، فلو أننى وقفتُ عليه لاستطعت أن أخرج من الظن إلى يقين ، وربما هدانى ذلك إلى تكميل النقص فى كتاب المراكشى دون حاجة إلى انتظار العثور على نسخة أخرى من كتابه ...

وبحثت عن كتاب «جذوة المقتبس» فلم أقف له على خبر عند أحد ، إلا خبر واحد ، هو أن مخطوطة فريدة منه فى مكتبة أُكسفورد ، فالتمست السبيل إلى استنساخها أو تصويرها ... وأعاننى على ذلك الأستاذ الكبير أمين مرسى قنديل المدير السابق لدار الكتب العربية بالقاهرة بكل ما يملك من وسائله ...

وبعد جهد وزمن وصلت النسخة المصورة من كتاب «جذوة المقتبس ، فى ذكر ولاة الأندلس ، وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوى النباهة والشعر» ...

وكان وصول هذه النسخة المصورة إلى يدى فى سنة ١٩٤٩ [(١)] ، وفيها وجدتُ شيئاً يمكن أن يكون فيه تمام النقص [(٢)] .

---

(١) فى هذه السنة كنت احاول طبعة سابقة من كتاب المعجب ، فأشرت الى بعض هـذا الجهد فى مقدمتهـا .

(٢) نشر كتاب (جذوة المقتبس) بعد ذلك مطبوعا فى القاهرة عن هذه النسخة المصورة ، بتحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى .

إن صفحات كاملة من كتاب «جذوة المقتبس» تتطابق تمام التطابق مع صفحات كاملة من كتاب «المعجب فى تلخيص أخبار المغرب» قبل موضع النقص وبعده ، كأنهما - فى تلك الصفحات - نسختان من كتاب واحد لمؤلف واحد . . .

ولكن المراكشى إذ ينقل عن الحميدى فيلتزم نصّه ، لا يلتزم ترتيبه فى السرد فى كل الأحوال ، فهو ينقل عنه أسطرا ، ثم يقف وقفة ليزيد خبرًا أو يبسطَ قصة أو يروى شعرًا أو ما يشبه ذلك ، ثم يعود إلى حيث وقف فيستأنف النقل عن الحميدى ، على أن تلك الزيادات التى يُقحمها إنما ينقلها أو ينقل أكثرها كذلك عن الحميدى نفسه ، ولكنْ من فصل آخر من فصول «جذوة المقتبس» .

أيحقُّ لى - وقد هدتنى المقابلة بين الكتابين إلى كشف ذلك النوع من التطابق - أن أزعم أننى قد عثرت على مخطوطة أخرى من كتاب المعجب تختلف بعض الاختلاف عن المخطوطة المحفوظة فى مكتبة ليدن والتى نَشر عنها دوزى طبعتيه الأولى والثانية وعنهما نُشرت كل الطبعات التى ظهرت من بعد ؟

أم أقف دون ذلك فأزعم أننى قد عثرتُ على نسخة أخرى مخطوطة من الصفحات المفقودة ، هى الصفحات التى تقابلها من مخطوطة جذوة المقتبس؟ . . .

هو ذاك أو ما يشبهه شبهاً قريباً ، ولكنى لا أجرؤ على مثل ذلك الزعم ، وإن كان من حقى أن أقول إننى قد وجدت بديلا من الصفحات المفقودة

من كتاب المعجب يمكن أن يَكْمُلَ بها على صورة تَقْرُب من صورته الأُولى كأنها هى ، لو أننى أثبتُّ تلك الصفحاتِ مكان الصفحات المفقودة ، ملتزماً طريقة المؤلف فيما كان ينقل لكتابه عن جذوة المقتبس . ملتزماً النص ما أمكن ، دون التزام ترتيب السرد ؛ وهذا ما فعلته . . .

على أنى قد زدت على ذلك اقتباسات أخرى من مراجع أخرى ، على طريقة المراكشى كذلك ، ليكون الكتاب على نسق واحد ؛ وقد وضعت كل زيادة على مخطوطة ليدن بين علامتى الزيادة [ ] مع الإشارة إلى المرجع الذى نقلت عنه .

وما أرانى بعد الذى وصفتُ مسرفاً فى الدعوى إن زعمت أن هذه النسخة التى أنشرها من كتاب «المعجب فى تلخيص أخبار المغرب» هى النسخة الوحيدة الكاملة من هذا الكتاب ، أو الأقرب إلى الكمال ، ذلك لأن كل ما سبق نشره من نسخه — منذ نشره دوزى لأول مرة فى سنة ١٨٤٧ — ينقصه جزءٌ كبير من التاريخ الذى ألفه المراكشى ، وقد كمل فى هذه النسخة .

تكميل آخر :

على أن ذلك النقص الذى أشرت إليه ووفَّق الله إلى تكميله على هذا الوجه لم يكن هو كلَّ النقص فى ذلك الكتاب ، إذ كان فيه إلى ذلك نقص آخر طبيعى يجب أن يكمَّل على وجه ما . . .

ذلك أن الكتاب — على ما قدَّمتُ من وصفه — يُعتبر مرجعاً أصيلا فى تاريخ دولة الموحّدين فى المغرب ، وتلك ميزته الأُولى ، ولكن دولة الموحّدين

ـ وإن كانت قد دخلت فى طور الانحلال منذ وفاة الناصر محمد بن المنصور سنة ٦١٠ ـ لم ينته أجلها على التحقيق إلا فى سنة ٦٦٨ ؛ وكان فراغ المراكشى من إملاء كتابه فى سنة ٦٢١ ، قبل انتهاء أجل الدولة ببضع وأربعين سنة ، فلم يتضمن الفصول الأخيرة من تاريخها ؛ فهو فى تقدير القارئ الذى يريد أن يتتبع تاريخ الدولة كتاب يحتاج إلى تكميل . . .

ومن أجل ذلك عمدتُ إلى وجه آخر من التكميل ، بزيادة فصول على الكتاب ، مميّزة بعلامات الزيادة وبالتنبيه فى الهامش ، تصف الأحداث التى جرت على دولة الموحّدين منذ التاريخ الذى انتهى إليه عبد الواحد فى إملائه ، إلى آخر عهد الموحّدين فى المغرب والأندلس سنة ٦٦٨ ، ليكون عصر الموحدين كاملا بين دفّتى كتاب لم يؤلَّف عن دولة الموحدين كتابٌ مثله . . .

* * *

أما بعد فهذا كتاب «المعجب فى تلخيص أخبار المغرب» لم آلُ جهدًا فى إخراجه على أكمل وجه يمكن أن يخرج فيه لقراء العربية ، ولست أُحاول أن أصف ما بذلت له من الجهد أكثر مما يصف هذا الجهدُ نفسَه فى كل صفحة من صفحاته .

أسأل الله أن يضاعف النفع به ، وأن يجعل عملى فيه خالصاً لوجهه الكريم . . .

محمد سعيد العريان

مكتوب على الورقة الأولى من المخطوطة ما يأتى :

«قال الشيخ الفقيه العالم الحافظ محيي الدين أبو محمد عبد الواحد ابن على جامع هذا الكتاب :

«سمع علىّ جميع هذا التلخيص الذى جمعته فى أخبار المغرب مولانا الفقيه الإمام الفاضل الوزير الصاحب عز الدين قدوة العلماء أوحد الفضلاء أكمل الوزراء خاصة أمير المؤمنين أبو الفتح عبد الله ابن القاضى الأجل الوزير الفاضل الصاحب شمس الدين أبى محمد . . . ار بن محمد بن شريف الزهرى جمّل الله الزمان ببقائه و . . . . . . [1] الفاضل المتفنن أبو الفتح نصر ابن القاضى المخلص أبى محمد عبد الكريم بن يعلى وسمع بعضه الأمير الأجل الكبير المحترم شجاع الدين أبو نصر عيسى بن الأمير الأجل الكبير المحترم إلا . . .[1] الا . . .[1] نص . . . اللط . . . . [1]

(١) غير مقروء بالأصل .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مفنى الأُمم ، وباعث الرِّمم ، وواهب الحكم ، [ذى] البقاء والقِدم ، الذى لا مطمع فى إدراكه لثواقب الأذهان ونوافذ الهمم ؛ أحمده على ما علَّم وألهم ، وسوَّغ وأنعم ، وصلى الله على كاشف الظُّلم ، ورافع التُّهَم ، ومُوضح الطريق الأَمم[1] ، المخصوصِ بجوامع الكلِم ، والمبتَعَثِ إلى جميع العرب والعجم ، وعلى آله وصحبه أهل الفضل والكرم ، وسلَّم عليه وعليهم وشرَّفَ وعظَّم .

وبعد – أيها السيد الذى توالت علىَّ نِعمُه ، وأخذ بضَبْعى[2] من حضيضَى الفقر والخمول اعتناؤُه وكرمُه ، وقضى إحسانُه إلىَّ ومحبَّته التى جُبلتُ عليها بأن ألتزم من بره وطاعته ما أنا مُلتزِمُه – فإنك سألتنى – بوَّأك الله أعلى الرتب ، كما عَمَر بك أندية الأدب ، ومنحك من سعادتى الدنيا والآخرة أوفر القِسَم ، كما جمع الك فضيلتىَ التدبير والقلم – إملاءَ أوراق تشتمل على بعض أخبار المغرب وهيئته وحدود أقطاره ، وشىءٍ من سِير ملوكه ، وخصوصاً ملوك المصامدة بنى عبد المؤمن ، من لدن ابتداء دولتهم إلى وقتنا هذا – وهو سنة ٦٢١ – وأن ينضاف إلى ذلك

(١) الطريق القريب البين .

(٢) اخذ بضبعى : اخذ بيدى وانتشلنى . والضبع (بسكون ثانية) : العضد (وبضمه) : الحيوان المعروف .

نبذة من ذكر من لقيتُه أو لقيت من لقيه أو رويتُ عنه بوجه مّا من وجوه الرواية ، من الشعراء والعلماء وأنواع أهل الفضل ؛ فلم أر بُدًّا من إسعافك والمسارعةِ إلى ما فيه رضاك ؛ إذ هى الغاية التى أجرى إليها ، والبغية التى أثابر أبدًا عليها ، ولوجوب طاعتك علىَّ من وجوه يكثر تعدادها ؛ فاستخرت الله عز وجل فيما ندبتنى إليه ، واستعنته واعتمدت فى كل ذلك عليه ؛ فهو الموئل والملجأ ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

هذا مع أنى أعتذر إلى مولانا - فسَح الله فى مدته - من تقصيرٍ إن وقع ، بثلاثة أوجه من الأعذار :

فأولها ضعف عبارة المملوك وغَلَبةُ العِىِّ على طباعه . فمهما وقع فى هذا الإملاء من فتور لفظ ، أو إخلال بسرد ، فهو خليق بذلك .

والوجه الثانى أنه لم يصحبنى من كتب هذا الشأن شىءٌ أعتمد عليه وأجعله مستندًا كما جرت عادة المصنفين ، وأما دولة المصامدة خصوصاً فلم يقع إلىَّ لأحدٍ فيها تأليف أصلا . خلا أنى سمعت أن بعض أصحابنا جمع أخبارها واعتنى بسيرها . وهذا المجموع لا أعرفه إلا سماعا .

والوجه الثالث أن محفوظاتى فى هذا الوقت على غاية الاختلال والتشتت ؛ أوجبتْ ذلك همومٌ تزدحم على الخاطر ، وغموم تستغرق الفكر ، فرغبة المملوك الأصغر إجراءُ مولانا إياه على جميل عادته وحميد خلقه من التسامح والتغاضى ، لا زال مجده العالى يرفع الهمم ، ويعقد الذمم ، ويوصل النعم ، ويعمر ربوع الفضل والكرم .

القِسْم الأوّل
المَغْرِبُ قبْلَ عَصْرِ الموَحِّدين

فصـــل

فى ذكر جزيرة الاندلس وحدودها

فأول ما يقع الابتداءُ به ذكرُ جزيرة الأندلس(١) وتحديدها والتعريفُ بمدنها ونبذٍ من أخبارها وسِيَر ملوكها ، من لدن فتحها إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ ؛ إذ هى كانت معتمَد المغرب الأقصى ، والمعتبرةَ منه ، والمنظورَ إليها فيه ؛ وهى كانت كرسىَّ المملكة ، ومقرّ التدبير ، وأمَّ قُرى تلك البلاد ؛ لم يزل هذا معروفاً من أمرها إلى أن تغلَّب عليها يوسفُ بن تاشفين اللمتونى(٢) ؛ فصارت إذ ذاك تبعاً لمرّاكش من بلاد العُدْوة(٣) . ثم تغلَّب عليها المصامدة بعده(٤) ، فاستمر الأمر على ذلك إلى وقتنا هذا ، فأقول وبالله التوفيق :

أما حدود جزيرة الأندلس فإن حدها الجنوبى منتهى الخليج الرومى

---

(١) ليست جزيرة الاندلس جـزيرة يدور بها الماء من جميع جهاتها ، فهى تتصل من الشرق بالارض الكبيرة (فرنسا) ، وانما سميت جزيرة على المجاز، كما سميت جزيرة العرب فى آسيا جزيرة وليست كذلك .

(٢) يعنى دولة المرابطين ، وسيرد ذكرها فيما يأتى من الكتاب .

(٣) العدوة فى الأصل : المكان المتباعد ، وشاطىء الوادى ، ويعنى بها هنا : بلاد الشاطىء الافريقى ، او المغرب الأقصى ، وقد يعنى بها فى بعض ما يلى من الكتاب : الشـاطىء الأندلسى ، وكلا التعبيرين صحيح .

(٤) يعنى دولة الموحدين بنى عبد المؤمن .

الخارج من بحر مانطس ، وهو البحر الرومى[١] مما يقابل طنجة[٢] ، فى موضع يعرف بالزُّقاق ، سعة البحر هنالك اثنا عشر ميلا ؛ وهذا الخليج هو ملتقى البحرين ، أعنى بحر مانطس وبحر أُقيانس[٣] .

وحدَّاها الشمالى والمغربى البحر الأعظم ، وهو بحر أُقيانس المعروف عندنا ببحر الظلمة .

وحدها المشرقى الجبل الذى فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين البحرين : بحر الروم وهو مانطس ، والبحر الأعظم ؛ ومسافة ما بين البحرين فى هذا الجبل قريب من ثلاث مراحل ، وهو الحد الأصغر من حدود الأندلس.

---

(١) يعنى البحر المتوسط ، ومانطس عند الجغرافيين العرب القدماء هو اسم للبحر الذى نسميه الآن بحر آزوف ، ويستطرق بحر آزوف هذا الى البحر الأسود ، الذى يستطرق الى بحر مرمرة ، الى البحر المتوسط الذى كان يسميه القدماء بحر الروم ، فكانما سماه المراكشى بحر مانطس وهو يعنى بحر الروم ، تبعا لاستطراق الماء الى أقصاه من ناحية المشرق .

(٢) مرفأ على الساحل الأفريقى من بلاد مراكش يطل على البحر والمحيط وطنجة مدينة عريقة ، كان اسمها عند الرومان طنجيس (Tangus) وكان بها مولد الرحالة العربى الشهير ابن بطوطة .

(٣) هو الأوقيانوس ، أو المحيط الأطلسى ، نسبه الى سلسله جبال أطلس التى تشرف عليه من المشرق ، وله فى كتب القدماء أسماء شتى ، فهو الأوقيانوس ، وبحر الظلمات ، أو بحر الظلمة ، والبحر الأخضر ، والمحيط ، واليه بلغ عقبة بن نافع الفهرى فى فتوحه فى القرن الأول للهجرة ، وعلى شاطئه وقف على صهوة جواده وقفته المأثورة وهو يقول : اللهم رب محمد ، لولا انى لا أعلم وراء هذا البحر يابسة لاقتحمت بفرسى هذا الهول المائج لأنشر اسم مجدك العظيم فى أقصى حدود الدنيا ... أو كما قال :

ترى ماذا كان يحدث لو أن عقبة كان يعلم يومئذ أن وراء ذلك الهول المائج بلادا وناسا ودنيا تعدل فى الغنى والعمران سائر بلاد الدنيا القديمة !

ولكن أحفاد عقبة من عرب الأندلس قد علموا فيما بعد ، ووطئت أقدامهم أرض أمريكا قبل أن تطأها قدم كولمبوس بسنين ، ولكنهم ضيعوا الأمانة وافلتوا الفرصة ، فنسب فضل اكتشاف أمريكا دونهم الى الأسبان ! (انظر كتابنا العرب لا خروستوف كولمبس !)

وقد يسمى هذا المحيط الأطلنطى ، نسبة الى « أطلنطا » وهى الجزيرة الرملية التى خسف بها فى متاهات الصحراء الكبرى على ما جاء فى بعض الأساطير .

وحدّاها الأكبران الجنوبي والشمالي مسافةُ كل واحد منهما نحو من ثلاثين مرحلة .

وهذا الجبل الذى ذكرنا فيه هيكل الزهرة ، الذى هو الحد المشرق من الأندلس ، هو الحاجز ما بين بلاد الأندلس وبين بلاد إفرنسه من الأرض الكبيرة ، أرض الروم التى هى بلاد إفرنجة العظمى[١] .

والأندلس آخر المعمور فى المغرب لأنها كما ذكرنا منتهية إلى بحر أُقيانُس الذى لا عمارة وراءه[٢] .

ومسافة ما بين طُلَيطُلَة التى هى قريبة من وسط الأندلس ، ومدينة رومية قاعدة الأرض الكبيرة ، قريب من أربعين مرحلة .

ووسط الأندلس كما ذكرنا مدينة طليطلة العتيقة ، التى كانت قاعدة القوطا من قبائل الإفرنج ، ثم ملكها المسلمون زمان الفتح على على ما سيأتى بيانه .

وعرضها تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وطولها ثمان وعشرون درجة بالتقريب ، فصارت بذلك قريباً من وسط الإقليم الخامس .

وأقل بلاد الأندلس عرضاً المدينةُ المعروفة بالجزيرة الخضراء ، على البحر الجنوبى منها ، وعرضها ست وثلاثون درجة ؛ وأكثر مدنها عرضاً بعض المدائن التى على ساحلها الشمالى ، وعرض ذلك الموضع ثلاث وأربعون

---

(١) كل ما يلى شبه جزيرة الأندلس شرقا الى القسطنطينية ، كان يسمى عند القدماء بالأرض الكبيـــرة ، أو بلاد افرنجة ، وقاعدتهـــا رومية .

(٢) كذلك كانت معارفهم الى ذلك الوقت ، قبل اكتشاف القارة الأمريكية .

درجة ، فتبين بما ذكرنا أن معظم الأندلس فى الإقليم الخامس أَمْيَلُ إلى الشمال ، فلذلك اشتد بردها وطالت مدة الشتاء فيها وعظمت جسوم أهل ذلك الميل وابيضَّت ألوانهم وكانت أذهانهم إلى الغِلَظ ما هى ، فَنَبَتْ عن كثير من الحكمة.

وطائفة من الأندلس فى الإقليم الرابع ، كإشبيليَّةَ ومالَقَة وقُرْطُبة وغَرْنَاطَة والْمرِيَّة ومُرْسِية ، فهذه البلاد التى ذكرنا فى الإقليم الرابع أعدلُ هواءً وأطيبُ أرضاً وأعذبُ مياها من البلاد التى فى الإقليم الخامس ، وأهلها أحسن ألواناً وأجملُ صوراً وأفصحُ لغة من أُولئك ؛ إذ كان للميول والسُّموت فى اللغاتِ تأثيرٌ بين لمن استقرأ ذلك وفهم علتَه[1] .

وجملة مدن الأندلس التى هى أُمهات قراها ومراكز أعمالها ومواضعُ مخاطبات أولى الأمر منها ، أُولاها فى الحد الشمالى مدينة شِلْب ، ثم مدينة إشبيليَّة ، ثم قُرْطُبة ، ثم جَيَّان ، ثم أَغَرْناطة[2] ، ثم الْمرِيَّة ، ثم مُرسِيَة ، ثم بَلَنْسِية ، ثم مالَقة وهى على البحر الرومى .

فالذى على البحر الأعظم من هذه المدائن : شِلْب ، وإشبيلية[3] ، وبينهما قريب من خمس مراحل .

والذى على البحر الرومى المدينةُ المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وهى

---

(١) نفرد المراكشى هنا قاعدة فى علم الأحياء وعلم النفس الاجتماعى لا نعرف أحـــدا عرض لها قبله ، وذكرها ابن خلدون بعده بقرنين من الزمان .

(٢) كذلك تسمى ، كما تسمى غرناطة (بفتح فسكون) وكانت آخر ما بقى فى يد العرب حتى أجلاهم عنها الأسبان . ومعنى غرناطة بالاسبانية : الرمانة ، لأنها وســـط الجبال التى تكتنفها تشبه الرمانة .

(٣) تقع اشبيلية على نهر الوادى الكبير ، الذى يصب فى البحر الأعظم : الأطلسى .

من أعمال إشبيلية ؛ ثم مالقَة ، وهى مستقلة ، ثم الْمرِية ، ثم دانية ؛ هذه كلها على البحر الرومى .

ثم سائر ما ذكرنا من المدن ليست على ساحل .

ولما استقر أمر المسلمين بالأَندلس فى غُرة المائة الثانية تخيروا مدينة قُرطبة فجعلوها كرسىَّ المملكة ومقرَّ الإمارةِ ، فلم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولة بنى أمية بالأَندلس فتغلَّب على كل جهة من الجزيرة متغلِّبٌ على ما سيأْتى بيانه .

وهذه المدن التى ذكرتُ هى التى يملكها المسلمون اليوم ، وقد كانوا يملكون قبلها مدناً كثيرة لم أذكرها فى هذا الموضع ؛ إلا أَن ذكرها سيرد فيما يأْتى من تفصيل أخبار الأَندلس ، تعرف ذلك بقولى «أعادها الله للمسلمين» .

فهذه جملة من أَخبار الأَندلس وحدودها وبلادها الكائنة بأَيدى المسلمين .

ذكر فتح جزيرة الأندلس

ولمع من تفصيل اخبارها وسير ملوكها
ومن كان فيها من الفضلاء منها ومن غيرها

ثم نعود إلى افتتاحها فنقول والله الموفق :

افتتح المسلمون جزيرة الأَندلس فى شهر رمضان سنة ٩٢ من الهجرة ، وكان فتحها على يدى طارق ، قيل ابن زياد ، وقيل ابن عمرو ، وكان والياً على طنجة – مدينةٍ من المدن المتصلة ببرِّ القَيْرَوان [١] فى أقصى المغرب ، بينها وبين الأَندلس الخليج المذكور المعروف بالزُّقاق ، وبالمجاز رتّبه موسى بن نصير أمير القيروان ؛ وقيل إن مروان بن موسى بن نصير خلّف طارقاً هناك على العساكر وانصرف إلى أبيه لأَمرٍ عَرَض له ، فركب طارق البحر إلى الأَندلس من جهة مجاز الجزيرة الخضراء ، منتهزاً لفرصة أمكنته . . .

وذلك أن الذى كان يملك ساحل الجزيرة الخضراء وأعمالها من الروم [٢] خطَب إلى الملك الأَعظم ابنته ، فأَغضب ذلك الملك ، ونال منه وتوعّده ، فلما بلغه ذلك جمع جموعا عظيمة وخرج يقصد بلد الملك ، فبلغ طارقاً خلوُّ تلك الجهة ، فهذه الفرصة التى انتهزها . . .

(١) مدينة عظيمة بالمغرب . بناها عقبة بن نافع سنة ٤٥ هـ وجعلها معقلا وحصناً لعسكره،= ومقرا لولاة افريقية ، واليها ينسب الحسن بن رشيق صاحب (العمدة) .
والقيروان فى اللغة : القافلة تخرج للغزو .

(٢) يذكر المراكشى فيما يلى سببين لدخول طارق الأندلس ، خلاصتهما أن الذى حبب اليه ذلك هو حاكم الجزيرة الخضراء من قبل ملك القوط ، وعند غيره من المؤرخين ان الذى دعاه الى

وقيل إن العلج كتب إليه بالعبور لسبب أنا ذاكره ، وهو أن لُذْرِيقَ مِلِكَ الجزيرة – لعنه الله – كان له رسمٌ : يوجِّه إليه أعيان قواده و[أُمراء دولته] ببناتهم ، فيربيهن عنده فى قصوره ويؤدِّبهن بالآداب الملوكية حسبما كانوا يرونه ؛ فإذا بلغت الجارية منهن وحَسُن أدبُها ، زوّجها فى قصره لمن يرى أنه كفءُ أبيها ، فوجَّه إليه صاحب الجزيرة الخضراء وأعمالها بابنته على الرسم المذكور ، فكانت عنده إلى أن بلغت مبلغ النساء ، فرآها يوماً فأَعجبته ، فدعاها فأَبت عليه ، وقالت لا والله حتى تُحضِرَ الملوكَ والقواد وأَعيانَ البطارقة وتتزوجَنى ، هذا بعد مشورة أبى . فغلبتْه نفسه واغتصبها على نفسها ، فكتبت إلى أبيها تُعلمه بذلك ؛ فهذا كان السبب الذى بعثه على مكاتبة طارق والمسلمين فكان الفتحُ ، فالله أعلم أى ذلك كان .

فأَول موضع نزله فيما يقال منها : المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء اليوم : نزلها قُبيل الفجر ، فصلى بها الصبح بموضع منها وعقد الرايات لأَصحابه ، فبُنى بعد ذلك هناك مسجد وعرف بمسجد الرايات ، وهو باق إلى وقتنا هذا ، أسأَل الله إبقاءه إلى أن تقوم الساعة ...

= الغزو كان حاكما لسبتة أو طنجة ، على الشاطىء المغربى . ويصفه ابن القوطية بانه كان تاجرا من تجار العجم ، يعنى الروم ، أو القوط ، لا أميرا من أمرائهم ولا حاكما من حكامهم ، واسمه بوليان ، « وكان يختلف من الأندلس الى بلاد المغرب ، ويجلب الى لذريق ، ملك القوط ، عتاق الخيل والبزاة من ذلك الجانب ، فتوفيت زوجة ذلك التاجر وتركت له ابنة جميلة ، فأمره لذريق بالتوجه الى العدوة ، فاعتذر له بوفاة زوجته وانه ليس له أحد يترك ابنته معه ، فأمر بادخالها المقصر ، فوقعت عين لذريق عليها ، فاستحسنها ، فنالها ، فاعلمت اباها بذلك عند قدومه ... فقصد طارق بن زياد فرغبه فى الأندلس وذكر له شرفها وضعف اهلها وانهم ليسوا أهل شجاعة ...

ثم دخل طارق هذا الأندلس وأمعن فيها واستظهر على العدو بها ، وكتب إلى موسى بن نصير مُوَلِّيه بخبر الفتح وغَلَبتِه على ما غلَب عليه من بلاد الأندلس وما حصل له من الغنائم ، فحسده موسى على الانفراد بذلك ، وكتب إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان يُعلمه بالفتح وينسبه إلى نفسه وكتب إلى طارق يتوعده إذ دخلها بغير إذنه ، ويأمره ألا يتجاوز مكانه الذى ينتهى إليه الكتاب فيه حتى يلحق به ، وخرج متوجهاً إلى الأندلس ، واستخلف على القَيروان ابنه عبد الله ، وذلك فى رجب من سنة ٩٣ ، وخرج معه حبيب بن أبى عبدة الفهرى[١] ووجوه العرب والموالى وعرفاء البربر فى عسكر ضخم ، ووصل من جهة المجاز إلى الأندلس وقد استولى طارق على قرطبة دار المملكة وقتل لذريق الملك — لعنه الله — بالأندلس ، فتلقاه طارق وترضّاه ، ورام أن يستلَّ ما فى نفسه من الحسد له ، وقال له : إنما أنا مولاك ومِن قِبلك ، وهذا الفتح لك وبسببك . وحمل طارقٌ إليه ما كان غَنِم من الأموال ؛ فلذلك نُسب الفتح إلى موسى بن نصير ، لأن طارقاً من قِبله ، ولأنه أتم من الفتح ما كان بقى على موسى .

وأقام موسى بالأندلس مجاهدًا وجامعاً للأموال ومرتباً للأمور بقية سنة ٩٣ وسنة ٩٤ وأشهرًا من سنة خمس وتسعين ، وقَبض على طارق ، ثم استخلَف على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى ، وترك معه من العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد وسدِّ الثغور وجهاد العدو ، ورجع إلى القيروان ، ثم سار منها بما حَصَل له من الغنائم وأعدَّه من الهدايا إلى

(١) فى غيره : حبيب بن أبى عبيدة . جده عقبة بن نافع الفهرى صاحب الفتوح فى أفريقية .

الوليد بن عبد الملك – وكان مما وُجد بمدينة طُليطلة حين فتحها ، مائدةُ سليمان بن داود عليهما السلام ، فيقال إنها طوق ذهب وطوق فضة ، مكللة باللؤلؤ والياقوت – ومعه – فيما يقال – طارق ، فمات الوليد وقد وصل موسى إلى طبرية فى سنة ٩٦ ، فحمل ما كان معه إلى سليمان بن عبد الملك ؛ ويقال إنه وصل وأدرك الوليد حيا ، فالله أعلم .

وأقام عبد العزيز بن موسى بن نصير أميرًا على الأندلس إلى أن ثار عليه من الجند جماعة ، فيهم حبيب بن أبى عبدة الفهرى ، وزياد بن النابغة التميمى ، فقتله بعضهم ، وخرجوا برأسه إلى سليمان بن عبد الملك – وذلك فى صدر سنة ٩٨ – (١) بعد أن أمّروا على الأندلس أيوب ابن أخت موسى بن نصير (٢) ؛ ويقال إنهم كتبوا إلى سليمان بما أنكروا من أمره ، فأمرهم بما فعلوه ، فالله أعلم .

ثم اختلف الأمر هنالك ، ومكث أهل الأندلس بعد ذلك زماناً لا يجمعهم وال ، ثم ولىَ عليها السَّمْحُ بن مالك الخَوْلانى قبل المئة (٣) ، واجتمع عليه الناس

---

(١) كان مقتله فى المسجد وهو قائم لصلاة الصبح ، وكان قد اتخذ دارا فى كنيسة نشرف على مرج اشبيلية ، وأخذ امرأة لذربق القوطيه وسماها أم عاصم ، وآواها الى داره نلك ، وابتنى على باب الدار مسجدا هو الذى قتل فيه ، ويروى أن دمه قد بقى فى ذلك المسجد زمانا !

(٢) هو أيوب بن حبيب اللخمى .

(٣) كانت الأندلس يومئذ الى والى أفريقية يولى عليها من يختار ، وكانت ولاية أفريقية بعد عزل موسى بن نصير الى عبد الله بن يزيد مولى قيس ، فولى على الأندلس من قبله الحر بن عبد الرحمن ، فلم يزل عليها حتى استخلف عمر بن عبد العزيز ، فجعل على أفريقية اسماعيل ابن عبد الله مولى بنى مخزوم ، وعلى الأندلس السمح بن مالك الخولانى .

ثم ولى عليها الغمر بن عبد الرحمن بن عبد الله (١) .

ثم وليها عنبسة بن سحيم الكلبي وعُزل الغمر بن عبد الرحمن .

ثم وليها عبد الرحمن بن عبد الله العكّى نحوًا من العشر ومئة ، وكان رجلا صالحاً .

ثم وليها عبد الملك بن قَطَن الفهرى ،

ثم عُقبة بن الحجاج ، فهلك عقبةُ بالأندلس ورُدَّ عبد الملك بن قطن .

ثم جاء بلج بن بشر فادعى ولايتها من قبل هشام بن عبد الملك ، وشهد له بعض من كان معه ، ووقعت فتن من أجل ذلك ، وافترق أهل الأندلس فيها على أربعة أمراء ، حتى أُرسل إليهم والياً أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، فحسم مواد الفتن ، وجمعهم على الطاعة بعد الفرقة .

وفى تقديم بعض هؤلاء الأُمراء على بعضٍ اختلاف ، إلا أن هؤلاء المذكورين كانوا أُمراءها وولاة الحروب فيها أيام بنى أُمية قبل ذهاب دولتهم فى المشرق (٢) .

(١) فى غيره : الحر بن عبـــد الرحمن القيسى .

(٢) لم يتفق اثنان من رواة التاريخ ـ فيما وقفنا عليه ـ على تسمية الأمراء فى هـذه الفترة أو تعاقبهم ، فثمة النقص والزيادة والتقديم والتأخير ، وانما كان ذلك لأن الأندلس لذلك العهد لم تكن خالصة التبعية الى الخليفة الأموى فى دمشق ، بل كانت تتبعه حينا وحينـا تتبع والى افريقية ، ومن ثمة كان هذا الاختلاط والاختـلال .

ذكر من دخل الاندلس من التابعين

وأناذاكر ها هنا من دخل الأندلس من التابعين للجهاد والرباط :

فمنهم محمد بن أوس بن ثابت الأنصارى ، يروى عن أبى هريرة .

ومنهم حنش بن عبد الله الصنعانى يروى عن على بن أبى طالب وفضالة بن عبيد .

ومنهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، يروى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

ومنهم يزيد بن قاسط (١) ، وقيل ابن قسيط ، السكسكى المصرى ، يروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

ومنهم موسى بن نصير الذى يُنسب الفتح إليه ، يروى عن تميم الدارى .

(١) فى غيره : زيد بن قاصد .

فصــــل

فى فضل المغرب

وقد جاء فى فضل المغرب غير حديث ، فمن ذلك ما حدثنى الفقيه الإمام المتقن المتفنن أبو عبد الله محمد بن أبى الفضل الشيبانى سماعا عليه بمكة فى شهر رمضان من سنة ٦٢٠ قال : حدثنى المؤيد بن عبد الله الطوسى قراءة عليه بنيسابور قال : حدثنا الإمام كمال الدين محمد بن أحمد بن صاعد القراوى قراءة عليه قال : حدثنا ابن عبد الغافر الفارسى : حدثنا محمد ابن عيسى بن عمرويه الجلودى : حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن سفيان حدثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى قال : حدثنا يحيى بن يحيى عن هشام بن بشر الواسطى عن داود بن أبى هند عن أبى عثمان النهدى عن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق لا يضرُّهم مَن خَذَلهم حتى تقومَ الساعة » .

ومن فضل الأندلس أنه لم يُذكر قطُّ أَحدٌ على منابرها من السلف إلا بخير[1] .

---

(١) يشير الى بعض ما كان فى المشرق نتيجة للتنافس على الخلافة، فقد كان بنو امية يسبون عليا على منابر دمشق ، وكان بعض الشيعة فى بلاد المشرق ينالون من الشيخين ابى بكر وعمر ، وكان العبيديون فى مصر يذكرون معاوية ويزيد بالسوء ؛ واتسعت الفتنة فى ذلك حتى اثم به كل من خاض فيه ، وبرىء المغرب والأندلس من ذلك الشر ! .

فصل

اول الاختلال فى الاندلس

وما زالت الولاة بالأندلس تليها من قِبل بنى أمية أو من قِبل من يقيمونه بالقيروان أو بمصر ، فلما اضطرب أمرهم فى سنة ١٢٦ بقتل الوليد بن يزيد ابن عبد الملك ، اشتغلوا عن مراعاة أقاصى البلاد ، ووقع الاضطراب بـأفريقية والاختلاف بالأندلس أيضاً بين القبائل ، ثم اتفقوا بالأندلس على تقديم قرشى يجمع الكلمة إلى أن تستقر الأمور بالشام لمن يخاطب ، ففعلوا ، وقدموا يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، فسكنت به الأمور ، واتفقت عليه القلوب ؛ واتصلت إمارته إلى سنة ١٣٨ بعد ذهاب دولة بنى أمية بست سنين[1] .

---

(١) فى جذوة المقتبس بعد ذلك : « وكان ذهاب دولتهم جملة بقتل مروان بن محمد بن مروان بن الحكم فى بعض نواحى الفيوم من أعمال مصر فى آخر ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومئة بعد بيعة أبى العباس السفاح بتسعة أشهر . »

ذكر خبر دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس

وفى هذه السنة دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأندلس ، الملقب بالداخل ؛ فقامت معه اليمانية ، وحارب يوسف ابن عبد الرحمن بن أبى عبدة[1] بن عقبة بن نافع الفهرى الوالى على الأندلس المذكور آنفاً، فهزمه ؛ واستولى عبد الرحمن على قرطبة دار الملك ، وكان دخوله إياها يوم الأضحى من السنة المذكورة ، فاتصلت ولايته إلى أن مات سنة ١٧٢ .

وكان مولده بالشام سنة ١١٣ ، أمه أم ولد اسمُها «راح»[2] ويكنى أبا المُطرِّف ، دخل الأندلس فى ذى القعدة ، واستولى على قرطبة دار مُلكها فى التاريخ المذكور .

وذلك أنه هرب من الشام لما انتشرت دولة بنى العباس ، فلم يزل مستتراً ينتقل فى بلاد المغرب حتى دخل الأندلس ، ودخل حين دخلها طريدًا وحيدًا لا أهل له ولا مال ، فلم يزل يُصرِّفُ حِيَلَه ويسمُو بهمّته والقَدَرُ مع ذلك يوافقه ، إلى أن احتوى على مُلكها وملَكَ بعضَ بلاد العُدوة ؛ وكان أبو جعفر المنصور إذا ذُكر عنده قال : «ذاك صقر قريش[3]»

---

(١) انظر الهامش ص ٢٤ .

(٢) كانت امه « راح » بربريه ، من بنى نفرة فى طرابلس ، وكذلك كانت أم أبى جعفر المنصور بربرية ، فما أعجب التوافق بين الرجلين فى الصرامة وبعد الهمة والاجتراء على العظائم ، وكلاهما امه جارية من البربر .

(٣) روى ابن خلدون أن بنى امية لما نزل بهم بالمشرق ما نزل وغلبهم بنو العباس على الخلافة وازالوهم عن كرسيها وتتبعوا بنى امية بالقتل ، كان ممن أفلت منهم عبد الرحمن بن معاوية هذا ، وكان قومه يتحينون له ملكا بالمغرب ويرون فيه علامات لذلك يأثرونها عن مسلمة ابن عبد الملك (عم أبيه) . فكان يحدث نفسه بذلك ، فخلص الى المغرب ونزل على أخواله بنى

وكان عبد الرحمن بن معاوية من أهل العلم ، وعلى سيرة جميلة من العدل ؛ ومن قضاته معاوية بن صالح الحضرمى الحِمْصى [1] ، وله أدب وشعر ، ومما أنشدونا له يتشوق إلى معاهده بالشام قوله [2] :

أيُّها الراكبُ المُيمِّمُ أرضِى ۞ إقْرِ من بعضِىَ السلامَ لبعضى

إن جسمى كما علمت بأرضٍ ۞ وفؤادى ومالِكِيه بأرضِ

قُدِّرَ البَيْنُ بينَنَا فافترقنا ۞ وطوى البينُ عن جفونىَ غَمْضِى

قد قَضَى الله بالفِرَاقِ علينا ۞ فعسى باجتماعنا سوف يَقضِى !

وله شعر كثير أبرعُ من هذا أورده المؤرخون فى كتبهم [3] .

نفرة ، واستنصر بقوم من زناتة ، ثم انتقل الى مكناسة فمليله وبعث مولاه بدرا الى أشياع بنى مروان فى الاندلس يستنصرهم ، فاجتمعوا عليه وبنوا له فى الأندلس دعوة ونشروا له ذكرا ، ووافق قدومه ما كان من الاحن بين اليمنية والمضرية ، فاجتمعت اليمنيه على نصرته كيدا ليوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وعبر عبد الرحمن المجاز والظروف مواتية ، ونشبت الحرب بينه وبين يوسف وهو ينتصر فى موقعة اثر موقعة ، حتى غلب يوسف على أمره واحتز رأسه ودخل قرطبة حاضرة الملك …

وظل عبد الرحمن الداخل يدعو للمنصور على منابر الأندلس زمانا ثم قطع دعوته ، ولكنه اكتفى من ذلك بلقب الأمير تأدبا مع الخلافة ، وظل خلفاؤه من بعده مقتصرين على لقب الامارة حتى كان عقبة بن عبد الرحمن الناصر ، وهو الثامن من أمراء بنى أمية بالأندلس ، فتسمى بأمير المؤمنين ، كان ذلك حين ضعف امر الخلافة العباسية فى بغداد بعد المئة الثالثة ، وتوارث أبناؤه الامارة من بعده الى أن كانت آخرة الدولة المروانية فى الأندلس .

(١) فى الجذوة : معاوية بن طليح الحضرمى .

(٢) كتب بها الى أخته بالشام .

(٣) روى أن بعض اهله استقل ما رتب له من العطاء ، فكتب اليه يذكره بحقه ويسأله زيادة عطائه ، وكانما شعر عبد الرحمن بعض المن فى كتاب قريبه هذا المروانى ، فكتب اليه مجيبا :

شتَّانَ من قام ذا امتعاضٍ ۞ منتضىً الشفرتين نصلا

فجاب قفرًا ، وشقَّ بحرًا ، ۞ مُسامياً لجةً ومَحْلا =

وكانت مدة ولايته منذ استولى على قرطبة دارِ الملك إلى أن تُوفى ، اثنتين وثلاثين سنة .

= دبَّر مُلكا ، وشاد عزًّا ومنبرًا للخطاب فصلا

وجنَّد الجندَ حين أودى ومصَّر المصرَ حين أجْلى

ثم دعا أهله إليه حيث أنتأوا أنْ هَلُمَّ أهلا

فجاء هذا طريدَ جوعٍ شديدَ روع يخاف قتلا

فنال أمناً ، ونال شبْعاً ، ونال مالًا ، ونال أهلا

ألم يكن حقٌّ ذا على ذا أعظمَ من مُنعمٍ ومولى !

ويروى هذا الشعر على وجه آخر لسبب آخر ، ذلك ان جماعة من القادمين عليه من قبل الشام كانوا يتحدثون فى مجلسه عن شجاعة الغمر بن يزيد بن عبد الملك فى مجلس عبد الله ابن على السفاح أيام المحنة، حين جبهه بالمعارضةلم تردعه هيبة مجلسه ولا سيوف شيعته الحافين من حوله ، مستطيلا بنسبه وآله والملوك من آبائه ، حتى أغص عبد الله بن على بريقه، لم يسكت حتى تناولته سيوف بنى العباس تمزقه ...

فكأن الأمير عبد الرحمن حين استمع الى حديث أولئك القوم فى التنويه بشجاعة الغمر بن يزيد قد استصغر ذلك منه ورأى نفسه فيما بلغ بهمه اعظم قدرا منه ، فقال ذلك الشعر ...

* وبلغه وقد استقامت له الدولة ان بعض من اعانه يمن عليه بما بذل له من المعونة ويزعم انه لولا جهده ما بلغ الداخل مبلغا ، وأنه نال مانال بسعده لا بتدبيره وعقله ، فحرك ذلك عبد الرحمن الى شعر يروى له ، وهو :

لا يُلْفَ مُمْتنٌ علينا قائلٌ : « لولاى ماملك الأنامَ الداخلُ »

سعدى وحزمى والمهند والقنا ومَقَادرٌ بلغتْ وحالٌ حائل

إن الملوك مع الزمان كواكب نجمٌ يطالعنا ونجمٌ آفل

والحزمُ كلُّ الحزم ألا يَغْفُلُوا أيروم تدبيرَ البريةِ غافل ؟

ويقول قومٌ سعدُه لا عقلهُ خيرُ السعادة ما حماها العاقل =

ولاية الامير هشام بن عبد الرحمن

ثم ولى بعد عبد الرحمن ابنُه هشام ، يكنى أبا الوليد ، وسنه حينئذ ثلاثون سنة ، واتصلت ولايته سبعة أعوام إلى أن مات فى صفر سنة ١٨٠ وكان حسن السيرة ، متحرياً للعدل ، يعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، ويتصدق بالصدقات الكثيرة ، وربما كان يخرج فى الليالى المظلمة الشديدة المطر ومعه صُرَر الدراهم يتحرى بها المساتير وذوى البيوتات من الضعفاء؛ لم يزل هذا مشهوراً من أمره إلى أن مات فى التاريخ المذكور. أمه أم ولد اسمُها حوراء (١) .

= أبنى أمية قد جبرنا صَدْعَكم بالغرب رغما والسعودُ قبائل
ما دام من نسلى إمام قائمٌ فالملك فيكم ثابت متواصلُ

* ومن شعره وقد رأى نخلة فى رصافة بقرطبة :

تَبدَّتْ لنا وَسْطَ الرُّصافة نخلةٌ تناءت بأَرض الغرب عن بلد النخل
فقلتُ شبيهى فى التغرب والنوى وطولِ اكتئابى عن بنىَّ وعن أَهلى
نشأْتِ بأَرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ فمثلُكِ فى الإِقصاء والمنتأَى مثلى
سقَتْكِ غوادى المُزْن فى المنتأَى الذى يصح ويستمرى المساكين بالوبْل

(١) فى نفح الطيب ان امه اسمها حلل .

ولاية الحكم بن هشام الملقب بالربضي

ثم ولي بعده ابنه الحكم وله اثنتان وعشرون سنة ، يكنى أبا العاص ، أمه أم ولد اسمها زُخرف ، وكان طاغياً مسرفاً ، وله آثار سوءٍ قبيحة ، وهو الذى أوقع بأهل الرَّبَض الوقعة المشهورة [1] ، فقتلهم وهدم ديارهم ومساجدهم ؛ وكان الرَّبَضُ محلة متصلة بقصره ، فاتهمهم فى بعض أمره ، ففعل بهم ذلك . فسمى الحكم الربضيَّ لذلك.

وفى أيامه أحدث الفقهاءُ إنشاد أشعار الزهد والحضِّ على قيام الليل فى الصوامع . أعنى صوامع المساجد ، وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به ، مثل أن يقولوا : «يا أيها المسرف المتمادى فى طغيانه ، المصرُّ على كِبره . المتهاونُ بأمرِ ربه ، أَفِق من سكرتِك ، وتنبَّه من غفلتك ... » وما نحا هذا النحو ؛ فكان هذا من جملة ما هاجه وأوغر صدره عليهم ،

---

(1) تفصيل هذه الوقعة ان الحكم الربضى عدا فى صدر ولايته قد انهمك فى لذاته ومباذله حتى اشتهر أمره وتعقبه الناس بالسنتهم ، وكان الفقهاء يومئذ هم قادة الرأى فى البـــلاد ، فاجتمع منهم بقرطبةجماعةمن اهل الفقه والورع،منهم يحيىبن يحيىالليثى، وطالوت بنعبد الجبار المعافرى ، كلاهما من أصحاب مالك بن انس ومن رواة الموطا ، فثاروا به يريدون خلعه واقامة أخيه المدر بن هشام مكانه ، وكان اجتماعهم بالربض الغربى من قرطبة ، ثم زحفوا الى قصره ، فقاتلهم الحكم فغلبهم وهدم دورهم ومساجدهم، وفر من بقى منهم على وجهه ، فمنهـم من لحق بمــاس من أرض العدوة ، ومنهم من لحـــق بالاســـكندرية من ارض المشرق ؛ ثم لم يلبث هؤلاء الذين لحقوا بالاسكندرية أن ثاروا بهـــا ثورة اخرى ، وكانت مصر يومئذ الى عبد الله بن طاهر من قبل المأمون ، فزحف اليهم عبد الله بنطاهر وغلبهم ، ففروا من وجهـــه الى اقريطش (كريت) فلم يزالوا بها الى أن ملكها الافرنج منأيديهم بعد مدة .

وكان أشدّ الناس فى أمر هذه الفتنة الفقهاءُ ، هم الذين كانوا يحرضون العامة ويشجعونهم ، إلى أن كان من أمرهم ما كان .

وحكى أبو مروان بن حيان صاحب أخبار الأندلس ، أنه لما تُسُوِّر عليه القصرُ وأحس بالشر ، قال لأخص غلمانه : اذهب إلى فلانة ، إحدى كرائمه ، وقل لها تعطيك قارورة الغالية [1] . فأبطأ الغلام وتلكأ ، فأعاد ذلك عليه ، فقال : يا مولاى ، هذا وقت الغالية ؟ فقال له : ويلك يا ابن الفاعلة ! بم يُعرف رأسى إذا قطع من رؤوس العامة إن لم يكن مضمّخا بالغالية ؟ ثم إنه ظهر بعد هذا عليهم ، وذلك أنهم كانوا يقاتلون القصرَ وعامةُ الحشم والجندِ يشغلونهم إلى أن دهمتهم الخيلُ من ورائهم ، فانهزموا وقُتلوا قتلا قبيحاً ، وأمر بديارهم ومساجدهم فهدمت وحُرِّقت ، وأمر بنفى من بقى منهم عن البلاد ، فخرجوا حتى نزلوا جزيرة إقريطش من جزائر البحر الرومى المقابلة لبر برقة أول المغرب ، فلم يزالوا هنالك سنين إلى أن تفرقوا ، فرجع بعضهم إلى الأندلس ، واختار بعضهم سكنى صِقِلِّية ، وانتقل بعضهم إلى الإسكندرية [2] .

ومن أعجب ما حكى أبو مروان بن حيان المؤرخ مما يتصل بخبر هذه الوقعة ، قال : كان من أشد الناس على الحكم هذا تحريضاً ، رجلٌ من الفقهاء اسمه طالوت [3] كان جليل القدر فى الفقهاء ، رحل إلى المدينة وسمع من مالك بن أنس وتفقَّه على أصحابه ، وكان قوياً فى دينه ؛

---

(1) الغالية : نوع من العطر .

(2) ارجع الى ما أثبتناه فى التعليق رقم 1 ص 44 ففيه بعض خلاف لما يذكره المراكشى .

(3) هو طالوت بن عبد الجبار المعافرى .

فلما أوقع الحكم بأهل الربض – كما ذكرنا – وأمر بتغريب من بقى منهم ، كان ممن أمر بتغريبه طالوت الفقيه ، فعسر عليه الانتقال ومفارقة الوطن ، ورأى الاختفاء إلى أن تتغير الأحوال ، فاستخفى فى دار رجل يهودى سنة كاملة ، واليهودىُّ فى كل ذلك يكرمه أبلغ الكرامة ، ويعظِّمه أشد التعظيم ؛ فلما مضت السنة طال على الفقيه الاختفاءُ ، فاستدعى اليهوديَّ وشكره على إحسانه إليه ، وقال له : قد عزمت غدًا على الخروج وقصْدِ دارِ فلان الكاتب [(1)] ، لأنه قرأ علىّ ولى عليه حقُّ التعليم ، وقد بلغنى أن له جاها عند هذا الرجل ، فعسى هو يشفع لى عنده فيؤمِّننى ويدَعنى فى بلدى ! فقال له اليهودى : يا مولاى ، لا تفعل ، فما آمَنُهم عليك ! وجعل يحلف له بكل يمين يعتقده ، أنه لو أقام عنده بقية عمره ما أَمَلَّه ذلك ولا ثقُل عليه ؛ فأبى إلا الخروج ، فخلى بينه وبين ذلك ؛ فخرج حتى أتى دارَ ذلك الكاتب بغَلَس ، فاستأذن عليه فأذن له ، فلما دخل عليه رَحَّب به وأدنى مجلسه ، وسأله أين كان فى هذه المدة ؛ فقصّ عليه قصتَه مع اليهودى ، ثم قال له : اشفع لى عند هذا الرجل حتى يؤمننى فى نفسى ويَمُنَّ علىَّ بتركى فى بلدى ! فوعده بذلك ، وركب من فوره ودخل على الحكم ، فقال[(2)] [له كل ما سمع من طالوت ،

---

(1) هو ابو البسام الكاتب وزير الحكم بن هشام الربضى ، على ماحكاه صاحب نفح الطيب.

(2) من هنا يبدأ النقص الذى أشرنا اليه فى تقديم الكتاب ، الى السطر ١٥ من ص ٦٧ وما بين العلامتين [ ] هو الزيادة التى نقلناها عن جذوة المقتبس أو عن غيره لتكميل ذلك النقص . وقد جعلنا النجمة الواحدة (*) فى آخر كل اقتباس من الجذوة ، والنجمتين (* *) فى آخر كل اقتباس من غيره ، استغناء بهذا الرمز عن التعليق فى هامش الكتاب عند كل زيادة .

ووشى به إليه ؛ فأحضره الحكم إليه فعنفه ووبخه ، فقال له طالوت : كيف يحل لى أن أخرج عليك وقد سمعت مالك بن أنس يقول : « سلطان جائر مدةً خيرٌ من فتنة ساعة » ؟ قال الحكم : آلله تعالى لقد سمعت هذا من مالك ؟ قال طالوت : اللهم إنى قد سمعته . قال : فانصرف إلى منزلك وأنت آمن . ثم سأله أين استتر ، فقال : عند يهودى من مدة عام ، ثم إنى قصدتُ هذا الوزير فغدر بى ! فغضب الحكم على أبى البسام وعزله عن وزارته ، وكتب عهدًا ألا يخدمه أبدًا ؛ فَرُؤِىَ أبو البسام الكاتب بعد ذلك فى فاقة وذل ، فقيل : استجيبت فيه دعوة الفقيه طالوت ، رحمه الله تعالى (*) .

[واتصلت ولاية الحكم بن هشام إلى أن مات فى آخر ذى الحجة سنة ست ومئتين (**) .

ولاية عبد الرحمن بن الحكم

[ثم ولى بعده ابنه عبد الرحمن وله ثلاثون سنة ، ويكنى أبا المطرف ، وأمه أم ولد اسمها حلاوة] (*)

[ويعرف الأمير عبد الرحمن بالأوسط ، لأن الأول عبد الرحمن الداخل والثالث عبد الرحمن الناصر] (**)

[وكان وادعاً محمود السيرة (*) ... عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة ، وكانت أيامه أيام هدوء وسكون ، وكثرت الأموال عنده ، واتخذ القصور والمتنزهات وجلب إليها المياه من الجبال ، وجعل لقصره مصنعاً اتخذه الناس شريعة [1] ، وأقام الجسور ، وبنى بالأندلس جوامع كثيرة ورتّب رسوم المملكة ، واحتجب عن العامة .

[وكان مولعاً بالسماع مؤثّراً له على جميع لذّاته ، قدم عليه زرياب المغنى من العراق ، فركب بنفسه لتلقّيه ، وبالغ فى إكرامه ، وأقام عنده بخير حال ، وأورث صناعة الغناء بالأندلس] (**)

[واتصلت ولايته إلى أن مات فى صفر سنة ثمان وثلاثين ومئتين] (*)

---

(1) المصنع : حوض يتخذ ليجتمع فيه ماء المطر . والشريعة : المورد العام .

ولاية الامير محمد بن عبد الرحمن

[ثم ولى بعده ابنه محمد ، وأُمه أُم ولد اسمها تهتر[1] ، فاتصلت ولايته إلى أن مات فى آخر صفر سنة ثلاث وسبعين ومئتين (*) . . . لخمس وثلاثين سنة من ولايته ، ومولده سنة سبع ومئتين] (**)

[قال أبو محمد على بن أحمد : وكان محباً للعلوم ، مؤثرا لأهل الحديث ، عارفاً ، حسن السيرة ، ولما دخل الأندلس أبو عبد الرحمن بَقِيّ بن مَخْلَد بكتاب «مصَّنف أبي بكر بن أبي شيبة» وقرئ عليه أنكر جماعة من أهل الرأْى ما فيه من الخلاف واستشنعوه وبسطوا العامة عليه ومنعوه من قراءته ، إلى أن اتصل ذلك بالأمير محمد ، فاستحضروه واستحضر الكتابَ كلَّه ، وجعل يتصفَّحه جزءا جزءًا إلى أن أتى على آخره – وقد ظنو أنه يوافقهم فى الإنكار عليه – ثم قال لخازن الكتب . هذا كتاب لا تستغنى خزانتنا عنه فانظر فى نسخه لنا . ثم قال لبقّ بن مخلد : انشر علمك وارو ما عندك من الحديث واجلس للناس حتى ينتفعوا بك– أو كما قال – ونهاهم أن يتعرضوا له] (*)

[بقّ بن مَخْلَد]

[بقّ بن مخلد أبو عبد الرحمن من حفَّاظِ المحدّثين وأئمة الدين

(۱) فى بعض المراجع : تهتز .

والزهاد الصالحين ، رحل إلى المشرق فروى عن الأئمة وأعلام السنّة ، منهم الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل ، وأبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبى شيبة ، وأحمد بن إبراهيم الدورقى . وجماعة أعلام يزيدون على المئتين ، وكتب المصنَّفاتِ الكبار والمنثور الكثير ، وبالغ فى الجمع والرواية ورجع إلى الأندلس فملأها علماً جمّا ، وألف كتباً حسانا تدل على احتفاله واستكثاره .

أ [قال أبومحمد على بن أحمد :فمن مصنَّفات أبى عبد الرحمن بقىّ بن مخلد كتابه فى تفسير القرآن ، فهو الكتاب الذى أقطع قطعاً لا أستثنى فيه أنه لم يؤلَّف فى الإسلام مثلُه ، لا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره . ومنها فى الحديث مصنَّفه الكبير الذى رتَّبه على أسماء الصحابة رضى الله عنهم ؛ فروى فيه عن ألف وثلاثمئة صاحب ونيّف ، ثم رتَّب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام ، فهو مصنَّف ومسند ؛ وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله . مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله فيه فى الحديث وجودة شيوخه ؛ فإنه روى عن مئتى رجل وأربعة وثمانين رجلا ليس فيهم عشرة ضعفاءُ وسائرهم أعلام مشاهر . ومنها مصنَّفه فى فتاوى الصحابة والتابعين ومن دونهم الذى أربى فيه على «مصنَّف أبى بكر بن أبى شيبة» . و «مصنف عبد الرازق بن همام» . و «مصنَّف سعيد بن منصور» ، وغيرها ، وانتظم [مصنَّفه] علماً عظيما لم يقع فى شيء من هذه [المصنفات] ، فصارت تواليف هذا الإمام الفاضل قواعد للإسلام لا نظير لها ، وكان متخيّرا لا يقلّد أحدًا ، وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل

وجاريا فى مضمار أبى عبد الله البخارى وأبى الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى وأبى عبد الرحمن النَّسائى رحمة الله عليهم .هذا آخر كلام أبى محمد .

[قال أبوسعيد بن يونس فى تاريخه إن بقىّ بن مخلد مات بالأندلس سنة ست وسبعين ومئتين . . .

[روى أبو نصر الحميدى بسنده] أن امرأة جاءت إلى بقىّ بن مخلد فقالت له : إن ابنى قد أسره الروم ولا أقدر على مال أكثر من دُويرة ولا أقدر على بيعها ، فلو أشرتَ إلى من يفديه بشىء ، فإنه ليس لى ليل ولا نهار ولا نوم ولا قرار ! فقال : نعم ، انصرفى حتى أنظر فى أمره إن شاء الله قال : وأطرق الشيخ وحرّك شفتيه . . . قال . فلبثنا مدة ، فجاءت المرأة ومعها ابنها فأخذت تدعو له وتقول : قد رجع سالما وله حديث يحدّثك به. فقال الشاب : كنت فى يدى بعض ملوك الروم مع جماعة من الأسارى ، وكان له إنسان يستخدمنا كل يوم. يُخرجنا إلى الصحراء للخدمة ثم يردّنا وعلينا قيودنا ، فبينا نحن نجىءُ من العمل مع صاحبه الذى كان يحفظنا ، فانفتح القيد من رجلى ووقع على الأرض . . . ووصف اليوم والساعة ، فوافق الوقتَ الذى جاءت المرأة ودعا الشيخ . [قال الشاب] : فنهض إلىَّ الذى كان يحفظنى وصاح علىّ وقال : كسرت القيد ! فقلت : لا ، إلا أنه سقط من رجلى . قال : فتحيّر وأخبر صاحبه ، وأحضر الحداد وقيّدونى ، فلما مشيت خطوات سقط القيد من رجلى ، فتحيروا فى أمرى ، فدعوا رهبانهم فقالوا لى : ألك والدة ؟ قلت : نعم . فقالوا : وافق دعاؤها الإجابة . وقالوا : أطلقك الله فلا يمكننا تقييدك . فزوّدونى وأصحبونى إلى ناحية المسلمين.) (٥)

ولاية المنذر بن محمد

[ثم ولى بعده ابنه المنذر بن محمد ، ويكنى أبا الحكم ، وأمه أم ولد اسمها أثل ، وكان مولده فى سنة تسع وعشرين ومئتين ، فاتصلت ولايته سنتين غير خمسة عشر يومًا ، ومات وهو على قلعة يقال لها بُبَشْتَر محاصرا لعمرو بن حفصون ، خارجيّ قام هناك وتحصّن . وكان موته فى سنة خمس وسبعين ومئتين.] (*)

ولاية عبد الله بن محمد

[فولى بعده أخوه عبد الله بن محمد ، وكان مولده سنة ثلاثين ومئتين ، يكنى أبا محمد ، أُمه أُم ولد اسمها عشار ، طال عمرها إلى أن ماتت قبل موته بسنة وشهر ، وكان وادعاً لا يشرب الخمر ، وفى أيامه امتلأت الأندلس بالفتن وصار فى كل جهة متغلِّب ، فلم يزل كذلك طول ولايته إلى أن مات مستهل ربيع الأول سنة ثلاثمئة] (*)

ولاية عبد الرحمن الناصر

[ثم ولى بعده ابن ابنه عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ، وكان والده محمد قد قتله أخوه المطرّف بن عبد الله فى صدر دولة أبيهما عبد الله ، وترك ابنه عبد الرحمن هذا وهو ابن عشرين يوماً ، فولى الأمر وله اثنتان وعشرون سنة .

[قال أبو محمد علىّ بن أحمد : وكانت ولايته من المستطرف ، لأنه كان فى هذا الوقت شاباً وبالحضرة جماعة أكابر من أعمامه وأعمام أبيه وذوى القعدد فى النسب من أهل بيته . فلم يعترض معترض واستمرّ له الأمر . وكان شهما صارماً .

[وكلُّ من ذكرنا من الأمراءِ أجدادِه إلى عبد الرحمن بن محمد هذا فليس منهم أحد تسمّى بإمرة المؤمنين ، وإنما كان يسلَّم عليهم ويُخطَب لهم بالإمارة فقط . وجرى على ذلك عبد الرحمن بن محمد إلى آخر السنة السابعة عشرة من ولايته . فلما بلغه ضعفُ الخلافة بالعراق فى أيام المقتدر وظهورُ الشيعة بالقيروان تَسَمَّى عبدُ الرحمن بأمير المؤمنين ، وتَلَقَّب بالناصر لدين الله .

[وكان يُكنى أبا المطرّف ، وأمه أم ولد اسمها مزنة .

[ولم يزل منذ ولى يستنزل المتغلبين حتى استكمل إنزال جميعهم فى خمس وعشرين سنة من ولايته وصار جميع أقطار الأندلس فى طاعته.] (*)

[وهابته ملوك الروم فأرسلوا الرسل والهدايا يخطبون وده ويطلبون مهادنته . وكان فيمن قدم عليه منهم رسل صاحب القسطنطينية ، وذلك سنة ست وثلاثين وثلاثمئة ، فاحتفل الناصر لقدومهم فى يوم مشهود ، وارتجل بين يديه فى ذلك اليوم أبو الحكم منذر بن سعيد البلُّوطى خطبته التى ملأت الأسماع وبهرت القلوب] (**)

(منذر بن سعيد البلوطى)

[وذلك أن الحكم المستنصر – ولده – كان مشغوفاً بأبى علىّ القالى صاحب «النوادر» يؤهِّله لكل مُهمّ فى بابه ، فلما ورد رسول ملك الروم أمره عند دخول الرسول إلى الحضرة أن يقوم خطيبا بما كانت العادة جاريةً به . فلما كان فى ذلك الوقت وشاهد أبو علىّ الجمع وعاين الحفل جَبُن ولم تحمله رجلاه ولا ساعَده لسانه . وفطن أبو الحكم منذر بن سعيد ، فوثب وقام مقامه وارتجل خطبة بليغة على غير أُهبة . وأنشد لنفسه فى آخرها :

هذا المقام الذى ما عابه فَنَدُ … لكنّ صاحبَه أزْرى به البلدُ

لو كنت فيهم غريبا كنت مطَّرَفاً … لكننى منهمو فاغتالنى النكدُ

لولا الخلافةُ أبقى الله مهجتها … ما كنتُ أبقى بأرض ما بها أحد] (*)

[قالوا : كأنه عرَّض بأبى علىّ القالى وتقديمهم إياه فى هذا المقام . والله أعلم.

وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه وثبات جنانه وبلاغة لسانه ، وكان الناصر أشدَّهم تعجبا منه ، وأقبل على ابنه الحكم فسأله عنه — ولم يكن يُثْبت معرفتَه — فقال له : هذا منذر بن سعيد البلُّوطى . فقال : والله لقد أحسن ما شاء ، ولئن أخَّرنى الله بعدُ لأرفعنَّ من ذِكره ، فضع يدك يا حكَمُ عليه واستخلصه وذكِّرنى بشأنه ، فما للصنيعة مذهبٌ عنه. ثم ولَّاه الصلاة والخطابة فى المسجد الجامع بالزهراء ، ثم ولَّاه قضاء الجماعة بقرطبة ؛ ولما تُوفىَّ الناصر وولى ابنُه الحكم أقرَّه على القضاء ، واستعفى غير مرة فما أعفاه ؛ وكان وقوراً صليبا فى الحكم مُقْدِماً على إقامة العدل والحق وإزهاق الجوْر والباطل ، آمرًا بالمعروف ناهياً عن المنكر ، له كتب فى السنة والورع ، والردِّ على أهل الأهواء والبدع ؛ ومن مصنَّفاته المتداولة : أحكام القرآن ، وكتاب الناسخ والمنسوخ . وله رسائل وخطبٌ مجموعة . وأشعار متفرِّقة مطبوعة . . .

[ومن شعره فى تلك الوقعة التى ارتجل فيها الخطبة بين يدى الناصر قوله :

مقالى كحدِّ السيف وسْطَ المحافل ... فَرقْتُ به ما بين حقٍّ وباطل
بقلب ذكىٍّ ترتمى جَمراتُــه ... كبارقِ رعدٍ عند رَعْشِ الأنامل
فمادَحَضَتْ رجلى ولا زلَّ مِقْوَلى ... ولا طاش عقلى يوم تلك الزلازل
وقد حَدَّقَتْ حولى عيونٌ إخالها ... كمثلِ سهـامٍ أُثْبتَتْ فى المَقاتل
لِخير إمام كان أو هو كائن ... لمُقتَبَلٍ أو فى العصورِ الأوائل
ترى النـاس أفواجاً يؤمُّون بابه ... وكلُّهمو ما بين راجٍ وآمل

وفودُ ملوكِ الرومِ وسْطَ فِنائه مخافةَ بأسٍ أو رجاءً لنائل
فعش سالمًا أقصى حياة مؤمَّلا فأنت رجاءُ الكلِّ حافٍ وناعل
ستملكها ما بين شرقٍ ومغرب إلى دربِ قسطنطينَ أو أرضِ بابل

[وذُكر أن الناصر قال لابنه الحكم بعد أن سأله عنه : لقد أحسن ما شاء ، فلئن كان حبَّر خطبتَه هذه وأعدَّها مخافة أن يدور ما دار فيتلافى الوهى إنه لبديع من قدرته واحتياطه ، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته إنه لأعجبُ وأغرب] (**)

[البلُّوطى منسوب إلى موضع هناك قريب من قرطبة يقال له فحص البلُّوط . ولى قضاء الجماعة بقرطبة فى حياة الحكم المستنصر بالله ، وكان عالما فقيها ، وأديباً بليغاً ، وخطيباً على المنابر وفى المحافل مِصْقَعًا . . .

[قال أبو علىّ محمد بن أحمد : وكان مائلا إلى القول بالظاهر ، قوياً على الانتصار لذلك . ومن مصنَّفاته كتاب «الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله» . وكتاب «الإبانة عن حقائق أصول الديانة». وقد كانت له رحلة كَتب فيها وطَلَب ، وسمع من ابن ولَّاد بمصر كتاب «العين» للخليل بن أحمد . ومن أبى بكر بن المنذر كتاب «الإشراف» ، ولقى أبا جعفر أحمد بن محمد النحاس النحوى بمصر ، وله معه حكاية مشهورة ؛ وذلك أنه حضر مجلساً فى الإملاء . فأملى أبو جعفر فى جملة ما أملَى قولَ الشاعر :

خليلىَّ هل بالشام عينٌ حزينة تُبَكِّى على ليلى لعلِّ أُعينُها
قد اَسْلَمَها الباكون إلا حمامةً مطوَّقةً باتت وبات قرينُها

تُجاذبُها أُخرى على خَيْزُرانَة   يكاد يُدانيها من الأَرضِ لينُها

فقال له منذر بن سعيد : أيها الشيخ أعزَّك الله ، باتا يصنعان ماذا ؟ فقال أبوجعفر : فكيف تقول أنت ؟ فقال له منذر : بانت وبان قرينها . فاستبان أبو جعفر ما قال ، وقال له ارْتَفِع . ولم يزل يرفعه حتى أدناه منه ؛ وكان يعرف ذلك له بعد ذلك ويكرمه .

[اتصلت ولاية الناصر - خمسين سنة وأشهرًا - إلى أن مات فى صدر رمضان سنة خمسين وثلاثمئة . ولم يبلغ أحد من بنى أمية مدته فيها .] (*)

ولاية الحكم المستنصر

[ثم تولى بعده ابنه الحكم بن عبد الرحمن ، ويلقّب بالمستنصر بالله ، وله إذْ ولى سبع وأربعون سنة ، يكنى أبا العاص ، وأُمه أُم ولد اسمها مرْجان ، وكان حسن السيرة جامعاً للعلوم محباً لها مكرماً لأهلها.] (*)

[قال أبو محمد ابن حزم : أخبرنى تليد الخصىّ – وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان – أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفى كل فهرسة عشرون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر الدواوين لا غير . وأقام للعلم سوقاً نافقة جُلبت إليها بضائعُه من كل قُطر .

[ولما وفد على أبيه أبو علىّ القالى صاحبُ «النوادر» من بغداد أكرم مثواه وحسنت منزلتُه عنده . وأورثَ أهل الأندلس علمه ، واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه .] (**)

[أبو على القالى]

[وهو إسماعيل بن القاسم أبو علىّ القالى اللغوى ، ولد بِمِنَازْ جِرْد من ديار بكر فنشأ بها ورحل إلى العراق فى طلب العلم ، فدخل بغداد فى سنة ثلاث وثلاثمئة ، وسمع من شيوخها ... ومال بطبعه إلى اللغة وعلوم

الأدب فبرع فيها واستكثر منها ، وأقام ببغداد خمساً وعشرين سنة ، ثم خرج منها قاصداً إلى المغرب فى سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة ، ووصل إلى الأندلس فى سنة ثلاثين وثلاثمئة ، فى أيام عبد الرحمن الناصر ، وكان ابنه ابو العاص الحكم بن عبد الرحمن من أحب ملوك الأندلس للعلم وأكثرهم اشتغالاً به وحرصاً عليه ، فتلقّاه بالجميل وحظى عنده وقَرُب منه وبالغ فى إكرامه . ويقال إنه هو كان قد كتب إليه ورغّبهُ فى الوفود عليه. واستوطن قرطبةَ ونشر علمه بها ؛ وكان إماماً فى علم اللغة متقدماً فيها متقنا لها ؛ فاستفاد الناس منه وعوّلوا عليه واتخذوه حجة فيما نقله ؛ وكانت كتبُه على غاية التقييد والضبطِ والإتقان . وقد ألّف فى علمه الذى اختص به تواليفَ مشهورة تدل على سعة روايته وكثرة إشرافه ، وأملى كتاباً سماه «النوادر» يشتمل على أخبار وأشعار ولغة . سمع منه جماعات وحدّثوا عنه ... وممن روى عنه أبوبكر محمد بن الحسن الزبيدى النحوى صاحب «مختصر كتاب العين» و «أخبار النحويين» و «الواضح فى النحو» . وكان حينئذ إماماً فى الأدب . ولكنْ عرف فضلَ أبى على فمال إليه واختص به واستفاد منه وأقرّ له . وقال : سألت أبا على عن نسبه فقال : أنا إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد ابن سلمان مولى محمد بن عبد الملك بن مروان . قال : وكان أحفظ أهل زمانه للغة وأرواهم وأعلمهم بعلل النحو على مذهب البصريين وأكثرهم تدقيقاً فى ذلك ، قال : وسألته لم قيل له القالى ، فقال ، لما انحدرنا إلى بغداد كنا فى رُفقة فيها أهل «قالى قلا» وهى قرية من قرى مِنَازْجرْد ،

وكانوا يُكرمون لمكانهم من الثغر ، فلما دخلنا بغداد نُسبتُ إليهم لكونى معهم وثبتَ ذلك على .

[قال أبو محمد على بن أحمد – وقد ذكر كتاب أبى على المسمى بالنوادر فى الأخبار والأشعار – فقال : وهذا الكتابُ مُبارٍ للكتاب «الكامل» الذى جمعه أبو العباس المبرّد ، ولئن كان كتاب أبى العباس أكثر نحوا وخبرًا إن كتاب أبى على لأكثرُ لغة وشعرًا . قال : ومن كتبه فى اللغة «البارع» كاد يحتوى على لغة العرب ، وكتاب فى «المقصور والممدود والمهموز» لم يؤلَّف فى بابه مثلُه . وكان الحكم المستنصر قبل ولايته الأمور وبعد أن صارت إليه يبعثه على التأليف وينشِّطه بواسع العطاء ويشرح صدره بالإفراط فى الإكرام .

[ومات أبو على بقرطبة فى أيام الحكم المستنصر بالله فى ربيع الآخر سنة ست وخمسين وثلاثمئة . وكان مولده سنة ثمانين ومئتين . وقيل سنة ثمان وثمانين . . . وأكثر من يحدِّث عنه بالمغرب أو يحكى عنه يقول : أبوعلى إسماعيل بن القاسم البغدادى ؛ نسبوه إليها لطول مقامه بها ووصوله إليهم منها .] (*)

عود إلى الحكم المستنصر

[وكان الحكم يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها ، حتى جَلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه ، وبعث فى كتاب الأغانى إلى مصنِّفه أبى الفرج الأصفهانى – وكان نسبُه فى بنى

أ.بية — وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يُخرجه إلى العراق ، وكذلك فعل مع القاضى الأبهرى المالكى فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكم ، وأمثال ذلك ، وجمع بدارِه الحذّاق فى صناعة النَّسخ والمَهَرَة فى الضبطِ والإجادة فى التجليد فأوعى من ذلك كله ، واجتمعت بالأندلس خزائنُ من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، إلا ما يُذكر عن الناصر العباسى ابن المستضىء.

[وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر فى أىِّ فن كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتى من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده ، لعنايته بهذا الشأن.] (**)

[واستوزر جماعة من أهل الأدب والشعر ....

[المصحفى وأبو بكر الزبيدى]

[منهم أبو الحسن جعفر بن عثمان المعروف بالمصحفى . وكان من أهل العلم والأدب البارع . وله شعر كثير يدل على طبعه وسعة أدبه . وكان الوزيرَ الناظرَ فى الأمور طوالَ عهد الحكم المستنصر وصدرا من عهد هشام المؤيد ولدِه ، ثم قوِى المنصور ابنُ أبى عامر وتغلَّب فنكَبه . . .

[ومنهم أبو بكر محمد بن الحسن الزُّبيدى النحوى ، كان صاحب شرطته ؛ وكان من الأمة فى اللغة العربية ، ألّف فى النحو كتاباً سماه «الواضح» واختصر كتاب «العين» اختصارًا حسناً ، وجمع فى «الأبنية» وفى «لحن العامة» وفى «أخبار النحويين» كتباً مشهورة ، وفى غير نوع

من الأدب ، وكان شاعرًا كثير الشعر . أخبر أبوعمر يوسف بن عبد البر قال : كتب أبوبكر محمد بن الحسن الزبيدى النحوى إلى أبي مسلم بن فهد :

أبا مسلم إن الفتى بجَنَانه ... ومِقْولِهِ لا بالمراكب واللُّبْسِ

وليست ثيابُ المرء تُغنى قُلامةً ... إذا كان مقصورًا على قصر النَّفْس

وليس يُفيد العلم والحلمَ والحِجَا ... أبا مسلم طولُ القعودِ على الكُرْسى

[وقال أبو محمد علىّ بن أحمد : كتب الوزير أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفى إلى صاحب الشرطة أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدى اللغوى كتاباً فيه « فاضت نفسه » بالضاد ، فجاوبه الزبيدى بمنظوم بيّن له فيه الخطأ دون تصريح ، وهو :

قل للوزير السَّنِىِّ مَحْتِدُهُ ... لى ذمةٌ منك أنت حافظُها

عنـاية بالعلوم مفخرة ... قد بَهَظ الأولين باهظُها

يقرّلى «عَمْرُها »و «مَعْمَرُها[1] » ... فيها و« نَظَّامها » و« جاحظُها »

قد كان حتماً قبولُ حُرمتها ... لكنَّ صرفَ الزمان لافظُها

وفى خطوب الزمان لى عظة ... لو كان يَثْنِى النفوسَ واعظُها

إن لم تحافظ عصابةٌ نُسبت ... إليك قِدْمًا فمن يحافِظُها

لا تَدعَنْ حاجتى مُطَرَّحَةً ... فإن نفسى قد فاظ فائظُها

---

(1) يعنى سيبويه ، وابا عبيدة معمر بن المثنى .

فأجابه المصحفى :

خَذْ فواقا فأنت أوحدُها علمـا ونقَّابها وحافظها
كيف تضيعُ العلومُ فى بلد أبناؤه كلُّهم يُحافظُها
ألفاظُهم كلُّها معطَّلـةٌ ما لم يعوِّل عليك لافظُها
من ذا يساويك إن نطقت وقد أقرّ بالعجز عنك «جاحظُها»
علمٌ ثَنى العالَمين عنـك كما ثَنى عن الشمس من يلاحظُها
وقد أتتنى فُدِيتَ شاغلةٌ للنَّـفس أنْ قلتَ فاظ فائظُها
فأوضِحَنْها تَفُزْ بنادرة قد بَهَظَ الأولين باهظُها

[فأجابه الزبيدى وضمَّن شعره الشاهدَ على ذلك :

أتانى كتابٌ من كريم مكرَّمٍ فنفَّس عن نفس تكاد تفيظ
فَسَرَّ جميع الأولياء ورودُهُ وسِيءَ رجالٌ آخرون وغِيظوا
لقد حفِظ العهد الذى قد أضاعه لَدَىَّ سواه والكريمُ حفيظ
وباحثْتَ عن «فاظت» وقبلِىَ قالها
رجالٌ لديهم فى العلوم حظوظ
روى ذاك عن «كيسان» «سهلٌ» وأنشدوا
مقالَ أبى الغيَّاظ وهو مغيظ
«وسُمِّيتَ غَيَّاظا ولست بغائظ عدوًّا ولكنْ للصديقِ تغيظُ»
«فلا حفِظَ الرحمنُ روحك حيَّةً
ولا وَهْى فى الأرواحِ حين تفيظُ»

[قال أبو محمد : وقد يقال : «فاضت نفسه» بالضاد .

[ومن شعر الزبيدى وقد استأذن الحكم المستنصر فى الرجوع إلى أهله بإشبيلية فلم يأذن ، فكتب إلى جارية له هنالك تُدعى سلمى :

وَيْحَكِ يا سلْمَ لا تُراعى لا بد للبين من زِماعِ
لا تحسبينى صبرْتُ إلا كصبر مَيْتٍ على النِّزَاع
ما خَلق الله من عذابٍ أشدَّ من وقفةِ الوداع
ما بيننا والحِمامِ فَرقٌ لولا المناحاتُ والنواعى
إن يفْتَرِقْ شملُنا وشيكا من بعد ما كان ذا اجتماع
فكلُّ شملٍ إلى افتراقٍ وكلُّ شعبٍ إلى انصداع
وكل قُرب إلى بِعاد وكل وصلٍ إلى انقطاع

توفى أبو بكر الزبيدى قريباً من الثمانين وثلاثمئة .

ومن شعر أبى الحسن جعفر المصحفى وزير الحكم المستنصر ، أنشده أبو محمد على بن أحمد :

يا ذا الذى أودَعنى سرَّه لا تَرْجُ أن تسمعه مِنىّ
لم أجْرِهِ بعدك فى خاطرى كأنَّه ما مرَّ فى أُذْنى

وله :

أُجارى الزمان على حالِه مُجاراةَ نفْسى لأَنفاسها
إذا نَفَسٌ صاعد شفَّها توارت به دون جُلَّاسِها
وإن عكَفَتْ نكبةٌ للزمان عكفتُ بصدرى على راسِها] (*)

* * *

فأجابه المصحفى :

خَنِّض فواقا فأنت أوحدُها علمـا ونقّابها وحافظها
كيف تضيعُ العلومُ فى بلد أبناؤه كلُّهم يُحافظُها
ألفاظُهم كلُّها معطَّلـةٌ ما لم يعوِّل عليك لافظُها
من ذا يساويك إن نطقت وقد أقرّ بالعجز عنك «جاحظُها»
علْمٌ ثَنى العالَمين عنـ لك كما ثَنى عن الشمس من يلاحظُها
وقد أتتنى فُدِيتَ شاغلةٌ للنَّـ فس أنْ قلتَ فاظ فائظُها
فأوضِحَنْها تَفُزْ بنادرة قد بَهَظَ الأوّلين باهظُها

[فأجابه الزبيدى وضمَّن شعره الشاهدَ على ذلك :

أتانى كتابٌ من كريم مكرَّمٍ فنفَّس عن نفس تكاد تفيظُ
فَسَرَّ جميع الأولياء ورودُهُ وسِيء رجالٌ آخرون وغِيظوا
لقد حفِظ العهد الذى قد أضاعه لَدَىَّ سواه والكريمُ حفيظ
وباحثْتَ عن «فاظت» وقبلَ قالها
رجالٌ لديهم فى العلوم حظوظ
روى ذاك عن «كيسان» «سهلٌ» وأنشدوا
مقالَ أبى الغيَّاظ وهو مغيظ
«وسُمِّيت غَيَّاظا ولست بغائظ عدوًا ولكنْ للصديقِ تغيظُ»
«فلا حفِظَ الرحمنُ روحك حيَّةً
ولا وَهْى فى الأرواحِ حين تفيظُ»

[قال أبو محمد : وقد يقال : «فاضت نفسه» بالضاد .

[ومن شعر الزبيدى وقد استأذن الحكم المستنصر فى الرجوع إلى أهله بإشبيلية فلم يأذن ، فكتب إلى جارية له هنالك تُدعى سلمى :

وَيْحَكِ يا سلْمَ لا تُراعى   لا بد للبين من زِماعِ
لا تحسبينى صبرْتُ إلا   كصبر مَيْتٍ على النِّزَاع
ما خَلق الله من عذابٍ   أشدَّ من وقفةِ الوداع
ما بيننا والحِمامِ فَرقٌ   لولا المناحاتُ والنواعى
إن يفْتَرِقْ شملُنا وشيكا   من بعد ما كان ذا اجتماع
فكلُّ شملٍ إلى افتراقٍ   وكلُّ شعبٍ إلى انصداع
وكل قُرب إلى بِعاد   وكل وصلٍ إلى انقطاع

توفى أبو بكر الزبيدى قريباً من الثمانين وثلاثمئة .

ومن شعر أبى الحسن جعفر المصحفى وزير الحكم المستنصر ، أنشده أبو محمد على بن أحمد :

يا ذا الذى أودَعنى سرَّه   لا ترْجُ أن تسمعه منِّى
لم أجْرِهِ بعدك فى خاطرى   كأنَّه ما مرَّ فى أُذْنى

وله :

أُجارى الزمان على حاله   مُجاراةَ نفْسى لأنفاسها
إذا نَفَسٌ صاعد شفَّها   توارت به دون جُلّاسِها
وإن عَكَفَتْ نكبةٌ للزمان   عكفتُ بصدرى على راسِها] (*)

* * *

[وللحكم المستنصر شعر جيد ، فمما ينسب إليه قوله :

إلى الله أشكو من شمائلِ مُسرف ... عَلَيَّ ظَلُومٍ لا يَدِينُ بما دِنْتُ

نأتْ عنه داري فاستزاد صدوده ... وإني على وجدِي القديم كما كنتُ

ولو كنتُ أدرى أن شوقَ بالغٌ ... من الوجدِ ما بُلِّغْتُهُ لم أكُنْ بِنْتُ

وقوله :

عجبتُ وقد ودَّعتُها كيف لم أمُتْ ... وكيف انْثَنَتْ بعد الوداع يدى معى

فيامُقلتِى الْعَبْرٰى عليها اسْكُبِي دماً ... ويا كَبِدى الحَرَّى عليها تَقطَّعِى] (*)

[وكان الحكم قد رام قطعَ الخمر من الأندلس وأمر بإراقتها ، وتشدَّد فى ذلك ، وشاوَرَ فى استئصال شجرة العنب من جميع أعماله ، فقيل له إنهم يعملونها من التين وغيره ، فتوقَّف عن ذلك .

[وفى أمرِه بإراقة الخمور فى سائر الجهات يقول أبو عمر يوسف بن هارون الكِنْدى[1] قصيدته المشهورة فيها ، متوجّعا لشاربيها ، وإنما أوردناها تحقيقاً لما ذَكَرْنا عنه من ذلك ، وهى قوله :

---

(1) قال الحميدى فى جذوة المقتبس : يعرف بالرمادى ، أظن أحد آبائه كان من « رمادة » موضع بالمغرب ، شاعر قرطبى كبير الشعر سريع القول مشهور عند العامه والخاصة هنالك، لسلوكه فى فنون من المنظوم ، وتفق عند الكل حتى كان كبير من شيوخ الأدب فى وقته يقولون: فتح الشعر بكندة وختم بكندة . يعنون امرأ القيس ، والمتنبى ويوسف بن هارون ، وكانا متعاصرين ، واستدللت على ذلك بمدحه أبا على اسماعيل بن القاسم (القالى) عند دخوله الأندلس بالقصيدة التى انشدها عنه الحاكم ابو بكر مصعب بن عبد الله الازدى ، وأولها :

مَنْ حاكمٌ بينى وبين عذولى ... الشجوُ شَجْوِى والعويلُ عويلى

وكان وصول أبى على القالى الى الأندلس سنة ثلاثين وثلاثمئة .

بِخَطْبِ الشاربين يضيقُ صدرى ... وتُرْمِضُنى بليَّتُهُم لَعَمْرِى

وهل هُمْ غيرُ عشاقٍ أصيبوا ... بفقدِ حبائبٍ ومُنُوا بِهجْرِ

أعُشَّاقَ المُدامةِ إن جَزِعْتُم ... لِفُرْقَتِهَا فليس مكان صبرِ

سعى المُبَلّاكم حتى أريقت ... دماء فوقَ وجه الأرض تجرى

تَضوَّع عَرْفُها شرقاً وغرباً ... وطبَّقَ أُفْقَ قُرْطبةٍ بعطر

فقل للمُسْفِحين لها بِسَفْحٍ ... وما سكنتْه من ظَرْف بِكَسْر

وللأبوابِ إحراقا إلى أن ... تركتم أهلهـا سكان قَفْـر :

تحَرَّيتُم بذاك العدل فيها ... بزعمكمو فإن يَكُ عن تَحَرِّى

... فإن أبا حنيفة وهو عدلٌ ... وَفَرَّ عن القضاء مسير شهر ...

فقيهٌ لا يُدانيه فقيهٌ ... إذا جاء القياس أتى بِدُرٍّ

وكان من الصلاة طويل ليل ... يُقَطِّعُه بلا تغميض شفر

وكان له من الشُرّاب جارٌ ... يواصل مغربا فيها بفجْر

وكان إذا انتشى غنيَّ بصوت الْـ ... ـمُضَاع بسجنه من آل عمْرو [1]

« أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا ... ليوم كريهةٍ وسدادِ ثغْر ! »

فغيَّب صوت ذاك الجار سجنٌ ... ولم يكن الفقيهُ بذاك يدرى ![2]

فقال وقد مضى ليل وثان ... ولم يسمعه غنيَّ :ليت شعرى ...

... أجارى المُؤْنسى ليلا غِناءً ... لِخَيرٍ قَطْعُ ذلك أم لِشَرِّ ؟

---

(١) يعنى العرجى الشاعر ، وله البيت الذى بعده .

(٢) إلى هنا تنتهى الزيادة التى أوردها نقلا عن الحميدى (*) وعن عمرو (**) [illegible] النص الذى أشرنا إليه فى المقدمة . ويتصل الكلام بعد ذلك كما جاء فى مخطوطة لندن .

فقالوا إنه فى سِجنِ عيسى[1]   أتَوْهُ [به] بلَيل وهو يَسرِى
فنادى بالطُّويلةِ : وهى مما   يكون برأسِه لجليل أمرٍ[2]
وَيَمَّم جارَه عيسى بنَ موسى   فلاقاه بإكرامٍ وبِرٍّ
وقال : أحاجةٌ عرَضتْ فإنى   لَقَاضِيهَا ومُتْبِعُها بشكرٍ !
فقال : سَجَنْتَ لى جارا يُسمَّى   بِعمرٍو ! قال : يُطْلَقُ كلُّ عمرو . . .
. . . بِسجنِى حيثُ وافَقَه اسمُ جارِ ال   فقيه ولو سَجنْتُهمُو بوتْر !
فاطلقَهُم له عيسى جميعاً   لجَارٍ لا يبيتُ بغير سُكر !
فإن أحببتَ قُلْ : لجوارِ جارٍ   وإن أحببتَ قل : لِطِلاب أجْرِ
فإن أبا حنيفةَ لم يَؤُبْ مِنْ   تَطَلُّبِه تَخَلُّصه بوِزْرِ[3]

وتلخيص هذه الحكاية التى نظمها أبو عُمر فى شعره ، أن أبا حنيفة رحمه الله كان يجاوره رجلٌ كيَّالٌ[4] ، فكان كلَّ ليلة يأخذ سمكة ورغيفاً وشيئاً من النبيذ ، فإذا صلى العشاء الآخرة أكل ثم شرب ، حتى إذا انتشى رفع عقيرته واندفع ينشد هذا البيت :

أضاعُونى وأىَّ فتىً أضاعوا   لِيوم كريهةٍ وسدادِ ثغرِ

فلا يزال يُعيده حتى يغلبه النوم ، وكان أبو حنيفة ـ على ما اشتهر عنه ـ يُحيِي الليل كلَّه صلاةً ، فلما كان فى بعض الليالى فقَدَ صوْتَ ذلك الرجل

---

(١) عيسى بن موسى صاحب الشرطة فى بغداد لذلك العهد .
(٢) الطويلة كلمة يفسرها الشاعر : لباس خاص للرأس .
(٣) بعد هذا البيت فى رواية الحميدى .
نُواقِعُها من اجلِ النهى سراً   وكم نهيٍ نواقِعُه بجهر
(٤) فى الجذوة انه كان اسكافا .

فقال لبعض مَن عنده : ما فعَل جارُنا هذا الذى كان يُغنى كلَّ ليلة ؟ أهو مريض أم غائب ؟ فقالوا له : إنه مسجون ! فقال : ومَنْ سَجَنَه ؟ فقالوا : خرج فى الليل لبعض حاجته فلقيه أصحابُ عيسى بن موسى صاحبِ الشُرطة فأتوا به فأمر بسجنه ؛ فلما أصبح أبو حنيفة لبس ثيابه وركب دابته وقصد عيسى بن موسى فى بيته ، فلما أُعلم عيسى بمكان أبى حنيفة خرج يتلقاه مسرعاً ، وبالغ فى تكريمه وبِرِّه ، وسأله عن حاجته ، فقال : لى فى سجنك جارٌ اسمه عمرو ؛ فقال عيسى يُطلقُ كلُّ من كان اسمه عمرٌو بسجنى من أجل جار الفقيه ! فأَطلقه وخلقاً كثيرًا معه ؛ فأَتى الرجلُ أبا حنيفة يتشكر له ، فلما وقعت عينه عليه قال له : أضعْناكَ ؟ قال الرجل : لا والله ، بل حفظتَ الجِوار حفظك الله !

[قال الحميدى : وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان]

والبيت الذى نظمه أبو عمر وكان يُغنى به الرجل جارُ أبو حنيفة ، هو للعرْجى ، رجل من ولد عثمان بن عفان ، سجنه المغيرةُ خالُ هشامُ بن عبد الملك وعامله على مكة ، فلم يزل بسجنه إلى أن مات وخرجت جنازته من السجن .

[أبو عمر الرمادى]

ولأبى عُمر هذا شعر كثير الجيد ، وهو من الطبقة الثالثة من طبقات شعراء الأندلس ؛ فمما على حفظى له أول قصيدة يمدح بها أبا علىّ القالى المتقدم الذكر ، وهى :

مَنْ حاكمٌ بينى وبين عذولى ... الشجوُ شَجْوِى والعويلُ عويلى

أقصِرْ فما دِينِ الهوى كُفرٌ ولا ... أعْتدُّ لوْمك لى من التنزيل

عجباً لقوم لم تكن أذهانهم ... لِهَوًى ولا أجسادهُم لِنُحُول

دقَّتْ معانى الحب عن أفهامهم ... فتأوَّلوه أقبحَ التأْويل

فى أىِّ جارحةٍ أصونُ مُعذِّبى ... سَلِمتْ من التعذيبِ والتنكيل

إن قلتُ فى عينى فَثَمَّ مَدامعى ... أو قلتُ فى قلبى فثَم غَليلى

[لكن جعلتُ له المسامع موضعاً ... وحجبتُها عن عَذْل كل عذولِ[1]]

هذا ما بقى فى حفظى منها . وكان أبو عُمر هذا من مقدَّمى شعراء الحكم المستنصر . وكان مختصاً بأبى الحسن المُصْحَفىّ[2] ، منضويا إليه ؛ وهو الذى حمله على هَجْوِ محمد بن أبى عامر[3] ، فلما أفضى الأمر إلى محمد قبض على المصحفىّ واستصفى أمواله ووضعه فى المُطْبِق ، فلم يزل به حتى مات جوعاً وهُزالًا ؛ وأما ما كان من أبى عمر الشاعر فإنه أوسعه عقوبة ونكالا . وأمر بتغريبه[4] ، فشُفِعَ له عنده فى أن يتركه ببلده ، فأذن فى

(١) ما بين العلامتين زيادة عن نفح الطيب .

(٢) انظر ص ٦٢ .

(٣) هو المنصور بن أبى عامر ، وكان الحكم قد استوزره لولده هشام ، فترقى أمره حتى بلغ ما بلغ من الجاه والسلطان ، وصارت الدولة ، والعرش ، والقصر ، والخليفة الصبى ، وأم الخليفة — كل أولئك طوع يمينه ، وسيأتى من مفصل أمره ما يغنى هنا عن الافاضة .

(٤) لم تكن اول حال الرمادى مع المنصور بن ابى عامر تؤذن بهذه الخاتمة ، فقد كان له عليه دالة وعنده مكان ، روى أن المنصور قال له يوما : « كيف ترى حالك معى ؟ » قال أبو عمر : « فوق قدرى ودون قدرك ! » قالوا . فأطرق المنصور كالغضبان ، فانسل الرمادى وخرج وقد ندم على ما بدر منه ، وجعل يقول : اخطأت ، لا والله ما يفلح مع الملوك من يعاملهم بالحق ، ما كان ضرنى لو قلت له انى بلغت السماء وتمنطقت بالجوزاء ؟!

ذلك ، غير أنه خَرَج الأمر من جهته ألا يكلمه أحد من العامة ولا من الخاصة : أمر مناديه أن ينادىَ [بذلك] فى جميع جهات قُرطبة ؛ فأقام أبو عامر هذا كالميت إلى أن مات موتة الوفاة فى آخر أيام أبى عامر .

* * *

وكان الحكم المستنصر مواصلا لغزو الروم ومَن خالَفَه من المحاربين ، فاتصلت ولايته إلى أن مات فى صفر سنة ٣٦٦ ، فكانت مدة ولايته منذ بويع له إلى أن مات ست عشرة سنة وأشهرًا ؛ وانقرض عقبه بعد موت ابنه هشام المؤَيد ؛ لم يعش له ولد غيره .

وكان فى المجلس من يجد عليه على مكانه من المنصور ، فوجد فرصة ، فقال : وصل الله لمولانا العلاء والسعد ، إن هذا الصنف صنف زور وهذيان ، لا يشكرون نعمة ، ولا يرعون إلا ولا ذمة ، كلاب من غلب ، وأصحاب من أخصب ، وأعداء من أجدب !..

قالوا : فرفع المنصور رأسه ــ وكان محامياً لأهل الأدب والشعر ــ وقد اسود وجهه وظهر فيه الغضب المفرط ، ثم قال : ما بال قوم يشيرون فى شىء لم يستشاروا فيه ، ويسيئون الأدب بالحكم فيما لا يدرون أيرضى أم يسخط .. إلى آخر ما روى .

انظر الجزء الثانى من نفح الطيب « قصة الرمادى الشاعر مع المنصور » .

ولاية هشام المؤيد بن الحكم المستنصر

ثم ولى بعده ابنه هشام بن الحكم ، يكنى أبا الوليد ، أمه أم ولد اسمها صبح ، وسنّه إذ وَلى عشرة أعوام وأشهر ، فلم يزل متغيّباً لا يظهر[1] ولا ينفذُ له أمر ؛ وكان الذى تغلب على أمره أولا وتولى حجابته وتنفيذ أموره وتدبير مملكته ، أبو عامر محمد بن عبد الله بن أبى عامر محمد بن الوليد ابن يزيد بن عبد الملك بن عامر المعافرى القحطانى .

[المنصور بن أبى عامر]

وكان أصل ابن أبى عامر هذا من المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، من قرية من أعمالها تسمى طُرُّش ، على نهر يسمى وادى آرُه ، إلا أنه كان شريف البيت قديم التعيُّن ، ورد شابا إلى قرطبة ، فطلب العلم والأدب وسمع الحديث ، وتميَّز فى ذلك ؛ وكانت له همة يحدِّث بها نفسه بإدراك معالى الأمور ، وتزيَّدَ فى ذلك حتى كان يحدِّث من يختص به بما يقع له من ذلك ؛ وله فى ذلك أخبار عجيبة ، قد أورد منها الشيخ الفقيه المحدِّث

(١) فى الجذوة : متغلبا عليه لا يظهر ..

الضابط المتقن أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الحُمَيْدِى[1] طرفا فى كتابه المترجم بـ « الأمانى الصادقة » ، فمن جملتها قال الحميدى :

حدثنى أبو محمد على بن أحمد بن حزم قال : أخبرنى أبو عبد الله محمد ابن إسحاق التميمى قال :

كان محمد بن أبى عامر نازلا عندى فى حجرة فوق بيتى ، فدخلت عليه فى بعض الليالى فى آخر الليل ، فوجدته قاعدًا على الحال التى تركته عليها أولَ الليل حين فصَلْتُ عنه ، فقلت له : ما أراك نمت الليلة ! قال : لا . قلت : فما أسهرك ؟ قال : فكرة عجيبة ! قلت : فى ماذا تفكر ؟ قال : فكرت إذا أفضى إلىَّ الأمر ومات محمد بن بشير القاضى بمن أَستبدِلُه ومن الذى يقوم مقامه ؟ فجُلْتُ الأندلس كلها بخاطرى فلم أجد إلا رجلا واحدًا . قلت : لعله محمد بن السَّليم[2] ؟ قال : هو والله هو ، لَشَدَّ ما اتفق خاطرى وخاطرك !

---

(١) كان الحميدى شاعرا مؤرخا حافظا راوية ، تتلمذ على الامام الفيلسوف ابن حزم الظاهرى ، وعنه روى أكثر علمه ، وكان مولده سنة ٤٢٠ ووفاته سنة ٤٨٨ وكان له رحلة الى المشرق ، ألف فيها كتابه « جذوة المقتبس » ، وعن كتابه الآخر المسمى بـ « الأمانى الصادقة » ، وهو مفقود ، نقل عبد الواحد كثيرا من أخباره عن المدة الأولى من تاريخ المغرب والأندلس . وانظر المقدمة ص ١٧ . والتعليق رقم ٢ ص ١٨ .

(٢) هو أبو بكر محمد بن اسحاق الشهير بالسليم ، قاضى الجماعة بقرطبة ، ذكره المقرى ممن كانت لهم رحلة الى المشرق ، وله شعر تقرب به الى الحكم المستنصر ، هو قوله :

لو أن أعضاء جسمى ألسنٌ نطقت ... بشكر نعماك عندى ، قلَّ شكرى لكْ

أو كان ملّكنى الرحمن من أجلَى ... شيئا وصلتُ به يا سيدى أجَلَكْ

ومن تكن فى الورى آماله كثرتْ ... فانما أملى فى أن ترى أملكْ !

توفى سنة ٣٦٧ .

قال الحميدى : وأخبرنى الفقيه أبو محمد على بن أحمد قال : كان ابن أبى عامر يوماً جالساً مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم ، فقال لهم : لِيَخْتَرْ كلٌّ واحد منكم خطة أُولِّيه إياها إذا أفضى إلىَّ الأَمر ! فقال أحدهم : تولينى قضاء كورة رَيَّة ، وهى مالقة وأعمالُها ؛ فإنه يعجبنى هذا التينُ الذى يجىءُ منها !

وقال الآخر : تولينى حِسبة السوق ؛ فإنى أحب هذا الإسفنج !

وقال الثالث : إذا أفضى إليك الأَمر فأمر أن يُطاف بى قُرطبة كلها على حمار ووجهى إلى الذنب وأنا مطلىٌّ بالعسل ليجتمع علىَّ الذباب والنحل[1] !

وافترقوا على هذا ؛ فلما أفضى الأَمر إليه كما تمنى بلَّغ كلَّ واحد منهم أُمنيته على نحو ما طلب !

ولم تزل حاله تعلو منذ ورد قرطبة إلى أن تعلق بوكالة السيدة صبح أُم هشام المؤيد بن الحكم [المستنصر] والنظر فى أموالها وضِياعها ، فزاد أَمره فى الترقى معها إلى أن مات الحكم المستنصر ؛ وكان هشام صغيراً كما ذكرنا وخِيفَ الاضطراب ، فضمن لصبح سكونَ الحال وزوال الخوف واستقرارَ المُلك لابنها ؛ وكان قوىَّ النفس ، وساعدته المقادير ، وأمدّته المرأة بالأَموال ؛ فاسْتَالَ العساكر إليه ، وجرت أحوال علت قدمه فيها ، حتى صار صاحب التدبير والمُتغلِّبَ على الأُمور ؛ وحجب هشاماً المؤيد ، وتَلقَّب هو بالمنصور ؛ فأَقام الهيبة ، فدانت له أَقطار الأَندلس كلها

(١) واضح أن صاحبه هذا كان يسخر من أمنيته تلك ، فلم يخطر فى وهمه أن يكون شىء من ذلك ، ولكن كل ذلك قد كان ، لتبلغ السخرية تمامها !

وأمنت به ، ولم يضطرب عليه شيء منها أيام حياته ، لعظم هيبته وفرط سياسته .

واستوزر جماعة منهم الوزير أبو الحسن جعفر بن عثمان الملقب بالمصحفى [1] ومنهم الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيرى [2] ، ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى الذى اختصر كتاب العَيْن ـ وقد تقدم ذكره [3] ـ وكان قد ولاه شرطته ، وكان الزبيدى هذا من بطانة الحكم المستنصر ووجوه أصحابه .

واستوزر أبا العلاء صاعدَ بن الحسن الرَّبَعِيَّ اللغوى البغدادى ، وله معه أخبار مستطرفة ، ولعلى سأُورد طرفاً منها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وكان محباً للعلوم مؤْثِرًا للأَدب مفرطاً فى إكرام من ينسب إلى شيء من ذلك [ويفد] عليه متوسلًا به ، بحسب حظه منه وطلبه له ومشاركته فيه [4] .

أبو العلاء صاعد

ورد عليه الأندلس فى أيام إمارته أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعى [5] المذكور آنفاً ، فعظمت منزلته عنده ونال منه أموالًا جمة ؛ وكان وروده

---

(1) انظر ص ٦٢ .

(2) ترجم له الحميدى فى جذوة المقتبس .

(3) انظر ص ٦٢ .

(4) انظر قصة الفتى وروايتها فى الملحق رقم ٤ ص ٧٠ عما كان من شأنه وشأن الرمادى فى بعض مجالسه .

(5) انظر الجذوة ص ٢٢٣ .

عليه سنة ٣٨٠ ؛ أظن أصله من بلاد الموصل ، دخل بغداد فقرأ بها ، وكان عالما باللغة والآداب والأخبار ، سريع الجواب ، حسن الشعر ، طيب المعاشرة ، فكه المجالسة ممْتعاً ؛ فأكرمه المنصور وأفرط فى الإحسان إليه والإفضال عليه ؛ وكان مع ذلك محسنا لظريف السؤال ، حاذقاً فى استخراج الأموال ، طَبًّا بلطائف الشكر .

أخبرنى بعض مشايخ الأندلس بإسناد له ، أن أبا العلاء دخل على المنصور أبى عامر يوماً فى مجلس أُنسه ، وقد كان تقدَّم له أن اتخذ قميصاً من رقاع الخرائط التى كانت تصل إليه فيها الأموال منه ، فلبسه تحت ثيابه ؛ فلما خلا المجلس ووجد فرصة لما أراد ، تجرّد وبقى فى القميص المتخذ من الخرائط ، فقال له : ما هذا يا أبا العلاء ؟ فقال : هذه الخرائط التى التى وصلتْ إلىَّ فيها صِلات مولانا أتخذها شعارًا ! وبكى ، وأتبع ذلك من الشكر فصلا كان رواه ، فأعجب ذلك المنصور ، وقال له : لك عندى مزيد ! وكان كما قال .

وألف له أبو العلاء هذا كتبا ، فمنها كتاب سماه « كتاب الفصوص » على نحو كتاب النوادر لأبى على القالى ؛ واتفق لهذا الكتاب من عجائب الاتفاق أن أبا العلاء دفعه حين كمل لغلام له يحمله بين يديه وعبر النهر ، نهر قرطبة ؛ فخانت الغلام رجله فسقط فى النهر هو والكتاب ؛ فقال فى ذلك بعض الشعراء – وهو أبو عبد الله محمد بن يحيى المعروف بابن العريف – بيتاً مطبوعاً بحضرة المنصور : وهو :

قد غاص فى البحر كتاب الفصوص وهكذا كلُّ ثقيل يغوص !

فضحك المنصور والحاضرين ، فلم يَرُع ذلك صاعدًا ولا هالَه[1] ، وقال مرتجلًا مجيبا لابن العريف :

---

(١) يبدو أن مكانة صاعد من أبي عامر المنصور قد أحفظت عليه قلوبا كثيرة فاتجهت الحسدة إلى معاداته والغض من قدره ، وكان من أشد مناهضيه ابن العريف النحوي هذا المذكور ، وكان صاعد لا يدعه حتى يأخذ منه نصفه ، روى أن ابن العريف دخل على المنصور يوما وعنده صاعد اللغوي ، بالعامرية ، وهي قصر أنشأه إلى جانب الزهراء تسرح العين في بهائه والجمال في أبهائه ، فأنشده ابن العريف أبياتا ، منها

فالعامرية تُزهَى على جميع المبانى
وأنت فيها كَنَيف قد حل فى غمدان

وغمدان قصر الأذواء من ملوك اليمن ، وقد كان المنصور يرعى بيمانيته ، فقام صاعد يناقض ابن العريف مرتجلا :

يأيها الحاجب المعتلى على كيوان
ومن به قد تناهى فخارُ كل يمان
العامرية أضحت كجنة الرضوان
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان

ثم مضى في إنشاده إلى أن قال في وصف العامرية :

انظر إلى النهر فيها ينساب كالثعبان
والطيرُ يخطب شكرًا على ذرا الأغصان
والقضْب تلتفُّ سُكرا بميس القضبان
والروض يفترُّ زهوًا عن مبسم الأقحوان
والنرجس الغضّ يرنو بوجنة النعمان
وراحة الريح تمنا ر نفحة الريحان
فدم مدى الدهر فيها فى غبطة وأمان !

عاد إلى معدنه إنما توجد فى قعر البحار الفصوص

وكتاباً آخر على نحو كتاب الخزرجى أبى السَّرِىّ سهل بن أبى غالب ، سماه «كتاب الهَجَفْجَف بن غَدَقَان بن يشربى مع الخِنَّوْتِ بنت مخرمة ابن أنيف» . . .

وكتاباً آخر فى معناه سماه «كتاب الجوّاس بن قَعْطَل المَذْحِجى مع ابنة عمه عفراء» ، وهو كتاب مليح جدا انخرم أيام الفتن بالأندلس فنقصت منه أوراق لم توجد بعد ؛ وكان المنصور كثير الشغف بهذا الكتاب أعنى الجوّاس ، حتى رتّب له من يخرجه أمامه كل ليلة .

ويقال إن أبا العلاء لم يحضر بعد موت المنصور مجلس أنس لأحد ممن ولى الأمور بعده من ولده ، وادّعى وجعًا لحقه فى ساقه لم يزل يتوكأ منه على عصا ويعتذر به فى التخلف عن الحضور والخدمة إلى أن ذهبت دولتهم ، وفى ذلك يقول فى قصيدته المشهورة فى المظفَّر أبى مروان عبدالملك بن المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر ، وهو الذى ولى بعد أبيه ، وأولها :

إليك حدوتُ ناجية الركاب محمَّلةً أمانىَ كالهِضابِ
وبِعتُ ملوكَ أهلِ الشرق طُرًّا بواحدِها وسيِّدها اللُّبابَ

= فاستحسن المنصور ارتجاله ، وقال لابن العريف. مالك فائدة فى مبافضة من هذا ارتجاله، فكيف تكون رويته ؟ فقال ابن العريف . انما أبطئه وقرب عليه المأخذ احسانك ! فقال له صاعد : فيخرج من هذا ان قلة احسانك لك أسكنك وبعد عليك المأخذ !

فضحك المنصور وقال : غير هذه المنازعة أليق بأدبكما !

وقد كانت كثرة حساد صاعد سببا الى ماشاع على ألسنة الرواة من أنباء انتحاله واحتياله وتزيبه .

على أن الحق ان أبا العلاء كان أديبا من أهل الذوق والبيان لا راويه من أهل العلم باللغة والخبر فحسب .

وفيها يقول :

إلى الله الشَّكِيَّةُ من شَكاةٍ رَمَتْ ساق فجلَّ بها مُصابى

وأقصتْنى عن الملكِ المُرَجَّى وكنتُ أَرِمُّ حالى باقترابى

ومما استُحسن له قوله [فيها] :

حَسِبْتُ المنعِمين على البَرَايا فألفيتُ اسمَه صَدْرَ الحساب

وما قدّمته إلا كأَنِّى أُقدِّم تالياً أُمَّ الكتاب

قال أبو عبد الله الحميدى[1] : أخبرنى أبو محمد على بن الوزير أبى عمر أحمد بن سعيد بن حزم ، أنه سمع أبا العلاء ينشد هذه القصيدة بين يدى المظفّر فى عيد الفطر سنة ٣٩٦ — قال أبو محمد : وهو أول يوم وصلت فيه إلى حضرة المظفّر . ولما رآنى أبو العلاء أستحسنُها وأُصغى إليها كتبها لى بخطه وأنفذها إلىّ . انتهى كلام الحميدى .

وكان أبو العلاء كثيرا ما تستغربُ له الأَلفاظ ويُسأَل عنها فيجيب بأسرع جواب ، على نحو ما يحكى عن أبى عمر الزاهد المطرّز غلام ثعلب ؛ ولولا أن أبا العلاء كان كثير المزْح لحُمل على التصديق فى كل ما يأتى به من ذلك ؛ وقد ظهر صدقه فى بعض ما قال ؛ فمما يحكى عنه من هذا المعنى أنه دخل على المنصور يوما وفى يد المنصور كتاب ورد عليه من عامل له فى بعض البلاد اسمه مبرمان بن يزيد ، يذكر فيه القلب والتزبيل ، وهذه عندهم أسماء لمعاناة الأرض قبل الزرع ، فقال له : أبا العلاء ! قال :

---

(١) جذوة المقتبس ص ٢٢٤ .

لبيك مولانا ! قال : هل رأيت فيما وقع إليك من الكتب كتاب « القوالب والزوابل »[١] لميدمان بن يزيد ؟ قال : إى والله يا مولانا ؛ رأيته ببغداد فى نسخة لأبى بكر بن دُريد بخط كأكرُع النمل فى جوانبها علامات الوُضَّاع هكذا هكذا . . . فقال له : أما تستحى أبا العلاء ؟ هذا كتاب عاملى ببلد كذا وكذا واسمه كذا يذكر فيه كذا – للذى تقدم ذكره – وإنما صنعت لك هذه الترجمة[٢] مولَّدة من هذه الألفاظِ التى فى هذا الكتاب ونسبْتُه إلى عاملى لأختبرك ! فجعل يحلف له أنه ما كذب وأنه أمرٌ وافَق .

وقال له المنصور مرة أُخرى وقد قدم طبق فيه تمر : يا أبا العلاء ، ما التَّمَرْكُلُ فى كلام العرب ؟ قال : يقال تَمرْكَل الرجلُ تَمرْكُلًا إذا التف فى كسائه !

وله من هذا كثير ، ولكنه مع هذا كان عالماً .

قال أبو عبد الله الحميدى[٣] : حدثنى أبو محمد على بن أحمد قال : حدثنى الوزير أبو عبدة حسان بن مالك بن أبى عبدة . عن أبى عبد الله العاصمى النحوى قال : لما قدم صاعد بن الحسن اللغوى على المنصور أبى عامر محمدبن أبى عامر ، جَمَعنا معه ، فسألناه عن مسائل من النحو غامضة فقصر فيها ، فلما رآه ابن أبى عامر كذلك قال : دعوه هو من طبقتى فى النحو ، أنا أُناظره . قال : ثم سألنا صاعد فقال : ما معنى قول امرىء القيس :

---

(١) فى الأصل : القوالب والدوالب ، والصحيح عن « أنباء الرواة » وانما آثرناه لأن الزوابل » أقرب الى أن تكون مولدة من « التزبيل » على ما يشار اليه بعد .

(٢) فى الجذوة : وانما صنعت هذا تجربة لك .

(٣) الجذوة ص ٢٢٥ .

كأنَّ دماءَ الهادِياتِ بِنحرهِ عُصارةُ حِنَّاءٍ بِشيبٍ مُرجَّلِ... ؟

فقلنا : هذا واضح ، وإنما وصف فرساً أشهب عُقِرَتْ عليه الوحش فتطاير دمها على صدره فجاء هكذا . فقال صاعد : سبحان الله ! أنسيتم قوله قبل هذا :

كُمَيْتٌ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حال مَتْنِهِ كما زلَّت الصفواءُ بالمتنزِّلِ... ؟

قال : فبُهتنا كأنا لم نقرأ هذا البيت قط ، واضطُرِرنا إلى سؤاله عنه ، فقال : إنما عَنَى أحد وجهين : إما أنه تَغَشَّى صدره بالعرق ، وعرقُ الخيل أبيض ، فجاء مع الدم كالشيب ؛ وإما شيءٌ كانت العرب تصنعه ، وهو أنها كانت تَسِمُ باللبن الحارِّ فى صدور الخيل فيتمعَّط ذلك الشَّعر وينبت مكانه شعرٌ أبيض ؛ فأَيَّما عنى من أحد هذين الوجهين فالوصف مستقيم .

قال أبو عبد الله [الحميدى] : وحدثنا أبو محمد على بن أحمد قال : حدثنى أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الفقيه ، أن أبا العلاء صاعدًا سأل جماعة من أهل الأدب فى مجلس المنصور أبى عامر عن قول الشَّمَّاخ بن ضِرار :

دار الفتاة التى كُنا نقول لها يا ظبيةً عُطُلًا حسَّانةَ الجيد

تُدْنى الحمامةُ منها وهى لاهيةٌ من يانع المردِ قِنوانَ العناقيدِ

فقالوا : هى الحمامة ، تنزل على غصن الأراكة أو الكرْمة فتنفضُه فتتمكن الظبية منه فترعاه . فأنكر ذلك عليهم صاعد وقال : إن الحمامة فى هذا البيت هى المرآة ، وهى اسم من أسمائها ؛ فأراد أن هذه الجارية

المشبَّهة بالظبية إذا نظرت فى المرآة أدنت المرآةُ منها فى المنظر شَعرَها الذى هو كقِنوان العناقيد من يانع الكرْم أو المُرْدِ ، فرأته .

ومن عجائب الدنيا التى لا يكادُ يتفق مثلها ، أن صاعد بن الحسن اللغوى هذا أهدى إلى المنصور أبى عامر أيِّلًا وكتب معه بهذه الأبيات :

يا حرْزَ كلِّ مُخَوَّفٍ ، وأمانَ كـ لِّ مُشَرَّدٍ ، ومُعِزَّ كل مُذلَّل
جَدْواكَ إن تخْصُصْ به فلأَهلِه وتعُمُّ بالإحسان كلَّ مؤمِّل
كالغيثِ طبَّق فاستوى فى وبْلِه شُعْثُ البلادِ مع المراد المقبل
الله عونك ما أبرَّك بالهدى وأشدَّ وقْعك بالضلال المُشْعل
ما إن رأت عينى ، وعِلمُك شاهد شِرْوَى علائك فى مُعِمٍّ مُخْوِلِ
أَنْدَى بمُقْرَبَة كسِرْحانِ الغَضَا ركضاً ، وأَوْغَل فى مُثار القَسطَلِ
مولاى ؛ مؤنِس غُربتى ، مُتخطِّفى من ظُفْر أيامى ، مُمَنِّعَ مَعْقِلى
عبدٌ نشَلْتَ بضَبْعِهِ وغرستَه فى نعمة أهدَى إليك بأيِّل
سَمَّيْتُهُ «غَرسِيَّةً» وبعثتُه فى حَبله ليُتاح فيه تفاؤُلى
فلئِن قبلتَ فتلك أسْنَى نعمة أسْدى بها ذو منحة وتطوُّل
صَبحَتْكَ غاديةُ السرور وجَللتْ أَرجاءَ رَبعِك بالسحاب المُخْضِل

فقضى الله فى سابق علمه أن غَرْسِيَةَ بن شانجُه من ملوك الروم –[1] وكان أمنع من النجم – أُسر فى ذلك اليوم بعينه الذى بعث فيه صاعد بالأيِّل وسماه غرسية متفائلا بأسره ؛[2] وهكذا فليكن الجدُّ للصاحب والمصحوب .

---

(١) ملك البشكنس .

(٢) روى صاحب نفح الطيب خبر اسره فقال :

« وسبب اخذه أنه خرج يتصيد ، فلقيته خيل للمنصور من غير قصد ، فاسرته وجاءته به ، فكان هذا الاتفاق مما عظم به العجب ! »

وكان أسر غرسية هذا فى ربيع الآخر سنة ٣٨٥ .

خرج أبو العلاء صاعد هذا من الأندلس أيام الفتن وقصد صقلية فمات بها فى قريب من سنة ٤١٠[1] - فيما بلغنى - عن سن عالية .

رجع إلى المنصور بن أبى عامر

ولم يزل المنصور أبو عامر محمد بن أبى عامر طول أيام مملكته مواصلا لغزو الروم ، مفرطاً فى ذلك لا يشغله عنه شئ .

وكان له مجلس فى كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ما كان مقيما بقرطبة .

وبلغ من إفراط حبه للغزو أنه ربما خرج للمصلَّى يوم العيد فحدثت له نية فى ذلك فلا يرجع إلى قصره ، بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره إلى الجهاد ، فتتبعه عساكره وتلحق به أولا فأولا ، فلا يصل إلى أوائل بلاد الروم إلا وقد لحقه كل من أراده من العساكر . غزا فى أيام مملكته نيفاً وخمسين غزوة ذكرها أبو مروان ابن حيان كلها فى كتابه الذى سماه بـ «المآثر العامرية» ، واستقصاها كلها بأوقاتها وذكر آثاره فيها ؛ وفتح فتوحاً كثيرة ، ووصل إلى معاقل قد كانت امتنعت على من كان قبله ، وملأ الأندلس غنائم وسَبْياً من بنات الروم وأولادهم ونسائهم . . .

---

(١) كذا روى المراكشى نقلا عن الحميدى ، وفى ابن خلكان وياقوت ان وفاته كانت بصقلية سنة ٤١٧ وفى انباه الرواة : سنة ٤١٩ وروى ابن الأبار فى التكملة انه كان بقرطبة سنة ٤١٤ يقرىء اللغة .

وفى أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهِّزون به بناتهم من الثياب والحلى والدور ؛ وذلك لرخص أثمان بنات الروم ، فكان الناس يرغِّبون فى بناتهم بما يجهزونهن به مما ذكرنا ، ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرة ؛ بلغنى أنه نُودى على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة -وكانت ذات جمال رائع- فلم تساو أكثر من عشرين ديناراً عامرية .

وكان فى أكثر زمانه لا يُخِلُّ بأن يغزو غزوتين فى السنة ، وكان كلما انصرف من قتال العدو إلى سرادقه يأمر بأن ينفض غبارُ ثيابه التى حضر فيها معمعة القتال ، وأن يُجمع ويُحتفظَ به ؛ فلما حضرته المنية أمر بما اجتمع من ذلك أن يُنثر على كفنه إذا وُضع فى قبره[1] .

وكانت وفاته بأقصى ثغور المسلمين ، بموضع يعرف بمدينة سالم ، مبطوناً ؛ فصحَّت له الشهادة ، وتاريخ وفاته سنة ٣٩٣ فكانت مدة إمارته نحواً من سبع وعشرين سنة .

وكان معافرىَّ النسب ، وأمه تميمية اسمها فريهة[2] بنت يحيى بن زكريا التميمى ، كان يعرف بابن بَرْطَل ؛ ولذلك قال فيه أبو عمر أحمد ابن محمد بن درّاج الشاعر المعروف بالقسطلى من قصيدة له :

تلاقتْ عليه من تميمٍ ويَعرُب شُموس تَلالا فى العلا وبُدُورُ
من الحِمْيَرِيِّين الذين أكفُّهم سحائبُ تَهْمِى بالنَّدى وبُحورُ

(١) ويروى أنه امر بما اجتمع من ذلك التراب ان تصنع منه لبنة يجعلونها كالوسادة لراسه فى قبره ، رحمه الله !
(٢) فى الجذوة : بريهة .

[ابن دراج القسطلى]

وأبو عمر هذا من فحول شعراء الأندلس والمجيدين منهم ، ذكره أبو منصور الثعالبى فى كتاب اليتيمة وقال فيه : القسطلى عندهم كأبى الطيب بصقع الشام . هذا قول أبى منصور أو معناه[1] ؛ وكنت أنا فى أيام شبيبتى مولعًا بشعره كثير الدراسة له ، فلم يبق اليوم على خاطرى منه شىءٌ أصلا ، خلا بيتين هما مما ارتجل فى بعض مجالسه ، وهما :

أجدِ الكلام إذا نطقتَ فإنما عقلُ الفتى فى لفظِه المسموعِ
كالمرءِ يَختبرُ الإناءَ بصوته فَيَرى الصحيح به من المصدوع

[المظفر بن أبى عامر]

ثم تقلد الوزارة والحجابة بعد ابن أبى عامر هذا ، ابنُه أبو مروان عبد الملك بن أبى عامر ، وتَلقب بالمظفَّر ، فجرى فى الغزو والسياسة والنيابة عن هشام المؤيد [وحجابته] على سَنَن أبيه ؛ وكانت أيامه أعيادًا فى الخصب والأمان ، دامت سبع سنين ، إلى أن مات وثارت الفتن بعده .

---

(١) نص عبارة الثعالبى : « ابو عمر ... كان بصقع الاندلس كالمتنبى بصقع الشام ، وهو احد الشعراء الفحول ، وكان بجيـــد ما ينظم و يقول :

الناصر ابن ابى عامر

[أول الفتنة]

ثم تقلد ما كان يتقلده من بعده ، أخوه عبد الرحمن ، وتلقب بالناصر فخلط وتَسمَّى وليَّ العهد[١] ؛ ولم يزل مضطربَ الأُمور مدة أربعة أشهر ، إلى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، لثمان عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ ، فخلع هشاما المؤيد ، وأسلمت الجيوشُ عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر ، فقُتل وصُلب[٢] . — وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار — المتقدم ذكره — لما قام تَلَقَّب بالمهدى — وبقى الأمر كذلك إلى أن قُتل محمد بن هشام بن عبد الجبار . . .

ورُدَّ هشام المؤيد إلى الأمر ؛ وذلك يوم الأحد السابع من ذى الحجة سنة ٤٠٠ ؛ وبقى كذلك وجيوش البربر تحاصره مع سليمان بن الحكم بن

---

(١) حمل هشاما المؤيد — وكان لم يـزل محجوبا مكفوف اليد عن التصرف فى شـئون الدولة — على أن يوليه العهد من بعده ، فكان هذا اول الفتنة .

(٢) حكى صاحب نفح الطيب عن ابن الرقيق قال :

« ومن اعجب ما رؤى أنه من نصف نهـار يوم الثلاثاء لأربع بقين من جمادى الآخرة الى نصف نهار يوم الأربعاء ، فتحت قرطبـة ، وهدمت الزهراء ، وخلع خليفة وهـو المؤيد ، وولى خليفة وهو المهدى ، وزالت دولة بنى عامر العظيمة ، وقتل وزيرهم محمد بن علاجة ، واقيمت جيوش من العامة ، ونكب خلق من الوزراء ، وولى الوزارة آخـرون ، وكان ذلك كله على يد عشرة رجال فحامين وجزارين وزبالين ، وهم جند المهدى » !

سليمان[1] ؛ واتصل ذلك إلى خمس خلون من شوال سنة ٤٠٣ ؛ فدخل البربر مع سليمان قُرطبة ، وأَخلَوها من أهلها ، حاشا المدينة وبعض الرَّبَض الشرق ، وقُتل هشام المؤيد بن الحكم المستنصر

وكان - كما ذكرنا - فى طول دولته متغلَّبًا عليه لا ينفُذ له أَمر ؛ وغَلَب عليه فى هذ الحصار ، أَعنى حصار البربر ، واحد بعد واحد من العبيد ، بعد محمد بن أَبى عامر المنصور وولديه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن الناصر .

(1) هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الأموى الذى تلقب فيما بعد بالمستعين .

[تفصيل ما سبق إجماله]

ولاية محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدى

قام[1] محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، على هشام بن الحكم فى جمادى لآخرة – كما تقدم – فخلعه وتَسمَّى بالمهدى ، وكان يُكنى أبا الوليد ، أُمه أُمُّ ولد اسمُهَا مُزْنة ، وكان له ولد اسمه عبيد الله . وكان مولد المهدى فى سنة ٣٦٦ ، وقُتل وله من العمر سبع وثلاثون سنة[2] .

ولم يزل [المهدى] واليا إلى أن قام عليه – يوم الخميس لخمس خلون من شوال سنة ٣٩٩ – هشامُ بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر مع البربر ، فحاربه بقيةَ يومه والليلة الآتية وصبيحةَ اليوم الثانى ؛ فقام عامّةُ أهل قُرطبة مع المهدى ، فانهزم البربر وأُسر هشام بن سليمان ، فأُتى به إلى المهدى فضَرب عنقه .

واجتمع البربر عند ذلك فقدَّموا على أنفسهم سليمانَ بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، وهو ابن أخى هشام القائم المذكور ؛ فنهض بالبربر إلى الثغر ، واستجاش النصارى وأتى بهم إلى باب قرطبة ؛ فبرز إليه جماعةُ أهلِ قرطبة ، فلم تكن إلا ساعة حتى قُتل من أهل قرطبة نيفٌ وعشرون ألف رجل ، فى جبل هنالك يعرف بجبل قنطِش ،

---

(١) فى الأصل ثم قام .

(٢) لعل صوابها : اربع وثلاثون سنة .

وهى الوقعة المشهورة ، ذهب فيها من الخيار والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين خلقٌ كثير .

واستتر محمد بن هشام المهدى أياماً ، ثم لحق بِطُلَيْطُلة ؛ وكانت الثغور كلها من طُرْطُوشة إلى الأَشبونة باقيةً على طاعته ودعوته . واستجاش بالإفرنج وأتى بهم إلى قرطبة ؛ فبرز إليه سليمان بن الحكم مع البربر ، إلى موضع بقربِ قرطبة على نحو بضعة عشر ميلا يدعى «دار البقر»[1] ، فانهزم سليمان والبربر ، واستولى المهدى على قرطبة ؛ ثم خرج بعد أيام إلى قتال جمهور البربر ، وكانوا قد عاثوا بالجزيرة ، فالتقوا بموضع يعرف بوادى آرُه ؛ فكانت الهزيمة على محمد بن هشام المهدى ؛ وانصرف إلى قرطبة ، فوثب عليه العبيد مع واضح الصقلبى[2] ، فقتلوه وردُّوا هشاما المؤيد كما تقدم قبل[3] .

فكانت مدة ولاية المهدى منذ قام إلى أن قُتل ستة عشر شهرًا ، من جملتها الستة الأشهر التى كان فيها سليمان بقرطبة وكان هو بالثغر ؛ وانقرض عقبه فلا عقب له[4] .

---

(١) فى الجدوة . عقبة البقر .

(٢) كان واضح الصقلبى من موالى بنى عامر ، وكان يسمى أيضا واضحا العامرى ، فقد أخذ بثأر مواليه اذن حين أعان على قتل المهدى ، كما مهد الامر لنفسه بذلك ، اذ تولى الحجابة بعدها لهشام المؤيد .

(٣) انظر الصفحة السابقة .

(٤) حكى الحمرى عن ابن الرقيق قال . « وقد كان قيامه مشئوما على الدين والدنيا ، فانه فاتح أبواب الفتنة بالأندلس وماحى معالمها ، حتى تفرقت الدولة وانتثر السلك وكثر الرؤساء وتطاول العدو اليها واخذها شيئا فشيئا حتى محى اسم الاسلام منها » .

ولاية سليمان بن الحكم بن سـليمان بن عبد الرحمن الناصر المتلقب بالمستعين بالله

قام سليمان بن الحكم يوم الجمعة لست خلون من شوال سنة ٣٩٩ ، وتلقب بالمستعين بالله ، ثم دخل قُرطبة كما تقدم فى ربيع الآخر سنة ٤٠٠ ، فتلقب حينئذ بالظافر بحول الله ، مضافاً إلى المستعين بالله ؛ ثم خرج عنها فى شوال من السنة بعينها ، فلم يزل يجول بعساكر البربر معه فى بلاد الأندلس ، يفسد وينهب ويُقفر المدائن والقُرى بالسيف والغارة ، لا يُبقى البربرُ معه على صغير ولا كبير ولا امرأة ، إلى أن دخل قرطبة فى صدر شوال سنة ٤٠٣ .

[أولية بنى حمود]

وكان من جملة جنده رجلان من ولدالحسن بن على بن أبى طالب ، يسميان القاسم وعليا ابنى حمود بن ميمون بن أحمد بن على بن عبيد الله ابن عمر بن إدريس [بن إدريس] بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم ؛ فجعلهما قائدين على المغاربة ، ثم ولى أحدهما سبتة وطنجة ، وهو علىٌّ الأصغر منهما ؛ وولىَّ القاسم الجزيرة الخضراء ، وبين الموضعين المجاز المعروف بالزُّقاق ، وسعة البحر هنالك اثنا عشر ميلا ، وقد ذكر فيما قبل .

وافترق العبيد إذ دخل البربر مع سليمان قرطبة ، فملكوا مدنا عظيمة وتحصنوا فيها ، فراسلهم على بن حمود المذكور – وقد حدث له طمعٌ فى ولاية الأندلس – فكتب إليهم يذكر لهم أن هشام بن الحكم إذ كان محاصرًا بقرطبة كتب إليه يولِّيه عهده[1] . فاستجابوا له وبايعوه ، فزحف من سبتة إلى مالَقة ، وفيها عامر بن فَتُوح الفائق ، مولى فائق مولى الحكم المستنصر ؛ فاستجاب له وأدخله مالقة ؛ فتملكها على بن حمود وأخرج عنها عامر بن فَتُوح ؛ ثم زحف بمن معه من البربر وجمهور العبيد إلى قرطبة ، فخرج إليه محمد بن سليمان فى عساكر البربر فانهزم محمد ابن سليمان ، ودخل قرطبةَ علىٌّ بن حمود ، وقتل سليمان بن الحكم صبرًا : ضرب عنقَه بيده يوم الأحد لتسع بقين من المحرم سنة ٤٠٧ ، وقتل أباه الحكم بن سليمان بن الناصر أيضاً فى ذلك اليوم ، وهو شيخ كبير له اثنتان وسبعون سنة !

وكانت مدة ولاية سليمان – منذ دخل قرطبة إلى أن قتل – ثلاثةَ أعوام وثلاثةَ أشهر وأياماً ، وكان قد ملكها قبل ذلك ستة أشهر على ما تقدم ؛ وكانت مدته – منذ قام مع البربر إلى أن قُتل – سبعة أعوام وثلاثة أشهر وأياما .

وانقطعت دولة بنى أمية فى هذا الوقت وذِكْرُهم على المنابر فى جميع أقطار الأندلس ، إلى أن عادت بعد ذلك فى الوقت الذى نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) يذكر هنا أن عبد الرحمن الناصر بن ابى عامر زعم ان هشاما المؤيد ولاه عهده ، وكان ذلك اول الفتنة التى تقوض بها بنيان بنى عامر وبدا انحلال الأندلس !

وكانت أم سليمان هذا أمَّ ولدٍ اسمها ظبية ، ومولده سنة ٣٥٤ ، ترك من الولد وليَّ عهده محمدًا ، لم يعقب ، والوليد ، ومَسْلَمة .

وكان سليمان أديباً شاعرًا ؛ قال الحميدى : أنشدنى أبو محمد على بن أحمد قال : أنشدنى فتى من ولد إسماعيل بن إسحاق المنادى الشاعر كان يكتب لأبى جعفر أحمد بن سعيد بن الدب ، قال : أنشدنى أبو جعفر قال : أنشدنى أمير المؤمنين سليمان الظافر لنفسه . قال أبو محمد : وأنشدنيها قاسم بن محمد المروانى قال : أنشدَنيها وليد بن محمد الكاتب لسليمان الظافر أمير المؤمنين :

عجبا يهابُ الليثُ حدَّ سِنانى ... وأهاب لحْظَ فواترِ الأجفانِ
وأُقارعُ الأهوال لا مُتهيِّباً ... منها سوى الإعراض والهجران
وتملكت نفسى ثلاثٌ كالدُّمى ... زُهْرُ الوجوه نواعمُ الأبدان
ككواكب الظلماءِ لُحْنَ لِناظر ... من فوق أغصان على كُثبان
هذى الهلالُ وتلك بنتُ المشترِى ... حُسناً ، وهذى أُخت غصن البان
حاكمتُ فيهن السُّلوَّ إلى الصِّبَى ... فقضى بسلطان على سُلطانى
فابحْن من قلبى الحِمى وثَنَينَنى ... فى عزِّ مُلْكِى كالأسير العانى
لا تعذِلوا مِلكا تذلَّل للهوى ... ذُلُّ الهوى عِزٌّ ومِلْكٌ ثان
ما ضرَّ أنىَّ عبدُهُنَّ صبابةً ... وبنو الزمان وهُنَّ من عبْدانى
إن لم أُطع فيهن سلطانَ الهوى ... كَلفًا بهن فلستُ من مرْوان
وإذا الكريمُ أحبَّ أمَّن إلْفَه ... خطْب القِلَى وحوادث السُّلوان
وإذا تجارى فى الهوى أهلُ الهوى ... عاش الهوى فى غِبطة وأمان

وإنما قصد المستعين بهذه الأبيات معارضةَ الأبيات التى عملها العباسُ ابن الأحنف على لسان هرون الرشيد فنسبت إليه ، وهى :

ملَكَ الثلاثُ الآنساتُ عِنانى وحلَلْن من قلبى بكلِّ مكان
ما لى تُطاوِعُنى البريةُ كلُّها وأطيعهن وهن فى عِصيانى
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قَوينَ أعزُّ من سلطانى

[ابن حزم الظاهرى]

أبو محمد الذى يحدِّث عنه الحُميدىّ : هو أبو محمد على بن أحمد ابن سعيد بن حزم بن غالب بن صلح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسى ، مولى يزيد بن أبى سفيان بن حرب بن أُمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى ، قُرئَ علىَّ نسبُه هذا بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه .

أصْلُ آبائه الأدنين من قرية من إقْليم لبْلَة من غرب الأندلس ، سكن هو وأبوه قرطبة ، وكان أبوه [1] من وزراء المنصور محمد بن أبى عامر ، ووزراء ابنه المظفَّر بعده ؛ وكان هو المدبِّر لدولتيهما ، وكان ابنه أبو محمد الفقيه وزيرًا لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر الملقب بالمستظهر بالله ، أخى المهدى المذكور آنفاً ؛ ثم إنه نبذ الوزارة واطَّرحها اختيارًا ، وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسُّنن ، فنال من ذلك ما لم ينل أحدٌ قبله بالأندلس .

---

(١) هو الوزير ابو عمر احمد بن حزم .

وكان على مذهب الإمام أبي عبد الله الشافعى رحمه الله ، أقام على ذلك زماناً ، ثم انتقل إلى القول بالظاهر ، وأفرط فى ذلك حتى أربى على أبي سليمان داود الظاهرى وغيره من أهل الظاهر ؛ وله مصنَّفات كثيرة جليلة القدر شريفة المقصد فى أصول الفقه وفروعه ، على مهْيعِه الذى يسلكه ، ومذهبه الذى يتقلده ؛ وهو مذهب داود بن على بن خلف الأصبهانى الظاهرى ومَن قال بقوله من أهل الظاهر ونُفَاةِ القياس والتعليل .

بلغنى عن غير واحد من علماء الأندلس أن مبلغ تصانيفه فى الفقه والحديث والأصول والنِّحل والمِلل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المخالفين له - نحو من أربعمئة مجلد - تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة : وهذا شىء ما علمناه لأحد ممن كان فى مدة الإسلام قبله إلا لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفاً ، فقد ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغانى فى كتابه المعروف بالصِّلة . وهو الذى وصل به تاريخ أبى جعفر الطبرى الكبير : أن قوماً من تلاميذ أبى جعفر لخصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفى فى سنة ٣١٠ وهو ابن ست وثمانين سنة ، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته ، فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة ؛ وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بكريم عناية البارى تعالى وحسن تأييده له .

ولأبى محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة ، وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة ؛ فمن شعره :

هل الدَّهرُ إلا ما عَرفْنا وأدركْنا فجائعُه تبقَى ولذَّاتُه تفنَى

إذا أمكنتْ فيه مَسرَّةٌ ساعة تولّت كمرِّ الطَّرف واستخلفت حُزنا
إلى تَبِعاتٍ فى المَعَادِ وموقفٍ نَودُّ لديه أننا لم نكن كُنا
حصلْنا على همٍّ وإثم وحسرة وفات الذى كنا نقَرُّ بهِ عينا
حنينٌ لما ولّى ، وشُغْلٌ بما أَتى وغَمٌّ لما يُرجى ، فعيشك لا يَهْنَا
كأن الذى كنا نُسَرُّ بكونه إذا حققته النفسُ لفظٌ بلا معنى

وله من قصيدة طويلة :

أنا الشَّمْسُ فى جوِّ العلوم منيرة ولكن عيبى أن مطلعى الغربُ
ولو أننى من جانب الشرقِ طالعٌ لجدَّ على ما ضاع من ذكرى النَّهْبُ
ولى نحو أكناف العراق صبابة ولاغَرْو أن يَستوحِشَ الكَلِفُ الصَّبُّ
فإن يُنزل الرحمنُ رحلىَ بينهم فحينئذ يبدو التأَسُّفُ والكربُ
فكم قائلٍ : أغفلتُهُ وهو حاضرٌ وأَطلبُ ما عنْهُ تجىءُ به الكُتْبُ!
هنالك يدرِى أن للبعد قصة وأن كساد العلم آفتُه القُرب !
[فياعجباً[1] من غاب عنهم تشوَّقوا له ، ودُنُوُّ المرءِ من دارهم ذنبُ
وإن مكاناً ضاق عنى لضيِّقٌ على أنه فُسْحٌ مَهامِهُهُ سُهْبُ
وإن رجالًا ضيَّعونى لَضُيَّعٌ وإن زماناً لم أنل خِصبهُ جدْبُ[1]]

ومنها فى الاعتذار عن مدحه لنفسه :

ولكنَّ لى فى يوسفٍ خيرُ أُسوةٍ وليس على من بالنبىِّ ائْتسى ذَنْبُ
يقول ـ وقال الحقَّ والصدقَ - إننى حفيظٌ عليمٌ ؛ ما عَلَى صادق عَتْبُ

---

(1) ما بين العلامتين [ ] زيادة عن نفح الطيب .

ومن المختار له قوله :

لا يَشْمَتَنْ حاسِدِى إن نكبةٌ عرضتْ
فالدهر ليس على حال بِمُتَّرَكِ

ذو الفضلِ كالتبرِ طورًا تحت مِيقعةٍ [1]
وتارةً فى ذُرى تاجٍ على مَلِكِ !

ومن ذلك قوله :

لئن أصبحتُ مرتحِلًا بشخْصى فروحى عندكم أبدًا مُقيمُ
ولكنْ للعِيانِ لطيفُ معنًى له سأَلَ المُعاينةَ الكلِيمُ

ومن أجود ما أحفظ له بيتان قالهما فى رجل نمام :

أَنَمُّ من المِرآة فى كلِّ ما درى وأقطَعُ بين الناس من قُضُب الهند
كأَن المنايا والزمانَ تَعلَّما تحيُّلَهُ فى القطع بين ذوى الوُدِّ !

وُجد بخطه أنه وُلد يوم الأربعاء بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٤ .

توفى رحمه الله فى سلخ شعبان من سنة ٤٥٦ .

وإنما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل وإن كانت قاطعة للنسق مزيحةً عن بعض الغرض ، لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم وأكثرهم ذكرًا

---

(١) الميقعة : خشبة القصار التى يدق بها ، والمطرقة • ورواية نفح الطيب : تحت متربة •

فى مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء ؛ وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبداده بعلم الظاهر ، ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علمت ، وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم [١] .

(١) كذلك كان شأنه – فيما يحكى المراكشى – بعد وفاته بما يقرب من قرنين ، أما فى حياته فكم شنع عليه الفقهاء وطعنوا فيه حتى نفرت عليه قلوب الخاصة والعامة ، وحتى نفر الى البادية طريدا مستوحشا الى ان مات ، ولا يبتئس اصحاب الرأى بما يلقون فى حياتهم من عنت وشقوة [illegible] . وكانما كان ابن حزم – رحمه الله – ينظر الى هذا المعنى بظهر الغيب حين قال :

* فكم قائل : اعقله وهو حاضر * الأبيات !

ولاية على بن حمود الناصر

ثم ولى علىٌّ بن حمود على ما تقدم ، وتسمى بالخلافة ، وتلقب بالناصر.

ثم خالف عليه العبيد الذين كانوا بايعوه ، وقدّموا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، ولقّبوه بالمرتضى ، وزحفوا به إلى غرناطة ، وهى من البلاد التى تغلب عليها البربر ؛ ثم ندموا على تقديمِه لما رأوا من صرامته وحِدَّة نفسه ، وخافوا من عواقب تمكُّنه وقدرته ، فانهزموا عنه ودسُّوا عليه من قتله غِيلة ، وخفى أمره .

وبَقِى على بن حمود بقرطبة مستمرًّ الأمر عامين غير شهرين ، إلى أن قتله صقالبةٌ له فى الحمام سنة ٤٠٨ ، وكان له من الولد يحيى ، وإدريس .

ولاية القاسم بن حمود المأمون

ثم ولى بعده أخوه القاسم بن حمود ، وكان أسنّ منه بعشرة أعوام ، وكان وادعاً ، أمِن الناسُ معه ، وكان يُذكرُ عنه أنه تشَيَّعَ ؛ ولكنه لم يُظهر ذلك ولا غيَّر على الناس عادةً ولا مذهبا ، وكذلك سائر من ولى منهم بالأندلس[1] .

فبقى القاسم كذلك إلى شهر ربيع الأول سنة ٤١٢ ، فقام عليه ابن أخيه يحيى بن على بن حمود ، بمالَقة ، فهرب القاسم عن قُرطبة بلا قتال وصار بإشبيلية ، وزحف ابن أخيه المذكور من مالَقة بالعساكر ودخل قرطبة بلا قتال ، وتسمَّى بالخلافة ، وتلقَّب بالمعتلى ؛ فبقى كذلك إلى أن اجتمع للقاسم أمره واستمال البربر وزحف بهم إلى قرطبة ، فدخلها سنة ٤١٣ وهرب يحيى ابن على إلى مالقة ، فبقى القاسم بقرطبة شهورًا واضطرب أمره .

وغلب ابن أخيه يحيى على المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وهى كانت معقِلَ القاسم ، وبها كانت امرأته وذخائره .

وغلب ابن أخيه الثانى إدريس بن علىٍّ صاحب سَبتة على طنجة ، وهى كانت عُدة القاسم ، يلجأُ إليها إن رأى ما يخافه بالأندلس .

---

(١) يعنى بنى حمود ، وهم – كما علمت – من بنى الحسن بن على .

وقام عليه جماعة أهل قرطبة بالمدينة ، وغلَّقوا أبوابها دونه[1] ، وحاصرهم نيفاً وخمسين يوماً ، وأقام الجمعة فى مسجد خارج قرطبة ، يعرف بمسجد ابن أبى عثمان ، أثرهُ باق إلى اليوم ؛ ثم إن أهل قرطبة زحفوا إلى البربر ، فانهزم البربر عن القاسم وخرجوا من الأرباض كلها فى شعبان سنة ٤١٤ ، ولحقت كلٌ طائفة من البربر ببلدٍ غَلبت عليه .

وقصد القاسم إشبيلية ، وبها كان ابناه محمد والحسن ، فلما عرف أهل إشبيلية خروجه عن قرطبة ومجيئه إليهم ، طردوا ابنيه ومن كان معهما من البربر ، وضبطوا البلد ؛ وقدَّموا على أنفسهم ثلاثة من أكابر البلد ، أحدهم القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللَّخْمى[2] ، ومحمد بن يريم الألهانى ، ومحمد بن الحسن الزبيدى ؛ ومكثوا كذلك أياماً مشتركين فى سياسة البلد وتدبيره ؛ ثم استبد القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد بالأمر والتدبير ، وصار الآخران من جملة الناس .

ولحق القاسم بِشَريش ، واجتمع البربر على تقديم ابن أخيه يحيي ، فزحفوا إلى القاسم فحاصروه حتى صار فى قبضة ابن أخيه ، وانفرد ابن أخيه يحيي بولاية البربر .

وبقى القاسم أسيرًا عنده وعند أخيه إدريس بعده إلى أن مات إدريس ، فقُتل القاسم خنقاً سنة ٤٣١ ، وحُمل إلى ابنه محمد بن القاسم بالجزيرة ، فدفنه هناك .

---

(١) لما ثار عليه اهل قرطبه ونقضوا طاعته، خرج الى ما وراء الأسوار فحاصرهم بالمدينة .
(٢) هو راس أسرة بنى عباد ملوك اشبيلية فيما بعد .

فكانت ولاية القاسم منذ تسمى بالخلافة بقرطبة إلى أن أسره ابن أخيه ، ستة أعوام ، ثم كان مقبوضاً عليه ستٌّ عشرةَ سنة عند أبنى أخيه يحيى وإدريس ، إلى أن قتل – كما ذكرنا – فى أول سنة ٤٣١ .

ومات وله ثمانون سنة ، وله من الولد محمد والحسن ، أمهما أميرة بنت الحسن بن قَنُّون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب .

ولاية يحيى بن على المعتلى

اختلف فى كنيته ، فقيل أبو القاسم[1] ، وقيل أبو محمد ؛ وأمه لَبُونَةُ بنت محمد بن الحسن بن القاسم المعروف بقَنُّون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب .

وكان الحسن ابن قنُّون من كبار ملوك الحسَنِيين وشُجعانهم ومَرَدتِهم وطُغاتهم المشهورين .

فتسمى يحيى بالخلافة بقرطبة سنة ٤١٣ كما ذكرنا ، ثم هرب عنها إلى مالقة سنة ٤١٤ كما وصفنا ، ثم سعى قوم من المفسدين فى ردِّ دعوته إلى قرطبة فى سنة ١٦ فتم لهم الأمر ، إلا أنه تأخر عن دخولها باختياره ، واستخلف عليها عبد الرحمن بن عطَّاف اليفْرَنى[2] ، فبقى الأمر كذلك

---

(١) فى الجذوة : فقيل أبو اسحاق .

(٢) منسوب الى يفرن : من قبائل البربر ، وقد بلغ من جاهه وسلطانه أن عبيد الله بن محمد المهدى ـ وكان أبوه الخليفة بعد انتهاء دولة بنى عامر ـ كتب اليه مسترفدا :

أقول لآمالى : ستبلغ إن بدا … محيا ابن عطاف ، ونعم المؤمل!

فقالت : دعانى ؛ كلَّ يوم تعلُّلُ … فقلت لها : إنْ لاح يُغنى التعللُ

لئن كان منى كلَّ حين تَرحُّلٌ … فإنىَ إن أحلُلْ به لست أرحل

فتىً تَردُ الآمالُ فى بحر جودهِ … وليس على نُعْمى سواه المعوَّل =

إلى سنة ١٧ ، ثم قُطعت دعوته عن قرطبة ، وبقى يتردد عليها بالعساكر إلى أن اتفقت على طاعتِه جماعةُ البربر ، وسلموا إليه الحصون والقلاع والمدن ، وعظم أمره بقرمونة ، فصار محاصرًا لإشبيلية طامعاً فى أخذها ،

= قالوا : فضن عليه ابن العطاف اليفرنى حتى برد الجواب ، فكتب اليه ابن المهدى ثانية يقول :

أيها المكن من قدرتهِ لا يراك الله إلا محسنا
إنما المرءُ بما قدَّمه فتخيَّر بين ذم وثنا
لا تكن بالدهر غِرًّا وإذا كنتَ فانظر فِعلَه فى ملْكِنا !
كل ما خُوِّلْتَ منه ذاهبٌ إنما تَصحب منه الكفنا
مُدَّ كفًّا نحو كفٍّ طالما أمطرتْ منه السماءُ الهَتَنَا
أو أرِحْنى بجواب مؤْنس فمِطالُ البر من شر العنا

ولكن ابن العطاف مع ذلك لم يلن له ، ولان له احد كتابه فاعطاه خمسين درهما ، فلما سمع بذلك ابن العطاف طرده .. ثم لم يلبث ابن عطاف أن نزلت به النكبة، فتزوج ذلك الكاتب امرأته وسكن فى داره وتخول فى نعمته ، فكتب بالفحم على حائط تلك الدار :

أيا دارُ قولى أين ساكنك الذى أبى لؤْمه أن يترك الشكر خالدا
تسمَّى وزيرًا ، والوزارةُ سبَّةٌ لمن قد أبى أن يستفيد المحامدا
وولَّى ولكن ليس يبرح ذمُّه فها هو قد أرضى عدوًّا وناقدا
وأضحى وكيلٌ كان يأنف فعلَه نزيلَك فى الحوض الممنَّع واردا
جزاءً بإحسان لذا ، وإساءة لذاك ، وساعٍ ورَّث الحمد قاعدا

وانما أوردنا هذه الحكاية لدلالتها على مقدار ما كان من تبدل أمور الدولة ومنازل الأشراف فى غمار تلك الفتنة التى كانت !

فخرج يوماً وهو سكران إلى خيل ظهرتْ من إشبيلية بقرب قرمونة ، فلقيها وقد كمنوا له ، فلم يكن بـأَسرعَ من أن قتلوه ، وذلك يوم الأَحد لسبع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ .

وكان له من الولد : الحسن ، وإدريس ، لأُمَّيْ ولد .

[ردُّ الأمر إلى بنى أمية]

ولاية عبد الرحمن بن هشام المستظهر

ولما انهزم البربر عن قرطبة مع أبى القاسم كما ذكرنا ، اتفق رأى أهل قرطبة على ردّ الأمر إلى بنى أمية ، فاختاروا منهم ثلاثة : وهم عبد الرحمن ابن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، أخو المهدى المذكور آنفاً(١) ، وسليمان بن المرتضى المذكور آنفاً(٢) ، ومحمد بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان القائم على المهدىّ بن الناصر(٣) .

ثم استقر الأمر لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ، فبويع بالخلافة لثلاث عشرة ليلة خلت لرمضان سنة ٤١٤ ، وله اثنتان وعشرون سنة ، وتلقب بالمستظهر ؛ وكان مولده سنة ٣٩٢ فى ذى القعدة ، يكنى أبا المطرف ، وأمه أمٌّ ولدٍ اسمُها غاية .

ثم قام عليه أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر ، مع طائفة من أراذل العوام ، فقتَل عبد الرحمن ابن هشام ، وذلك لثلاث بقين من ذى القعدة سنة ٤١٤ المؤرخة ، ولا عقب له .

---

(١) انظر ص ٨٨ .

(٢) انظر ص ٩٨ .

(٣) كان أول من قام على المهدى ، هشام بن سليمان بن عبد الرحمن ، ثم خلفه على رياسة البربر بعد مصرعه ، ابن أخيه سليمان بن الحكم بن سليمان . انظر ص ٨٨ .

وكان فى غاية الأدب والبلاغة والفهم ورقة النفس ؛ كذا قال أبو محمد على بن أحمد ، وكان خبيرًا به لأنه وَزَرَ له .

وقال الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شُهيد : كان المستظهر شاعرًا [مطبوعًا][1] ويستعمل الصناعة فيجيد ، وهو القائل فى ابنة عمه :

حمامةُ بيتِ العبْشَمِيِّين[2] رفرفتْ ... فطِرتُ إليها من سَراتِهمُ صقْرا

تَقِلُّ الثريا أن تكون لها يدًا ... ويرجو الصباحُ أن يكون لها نَحرَا

وإنى لطَعَّانٌ إذا الخيلُ أقبلتْ ... جوانبُها حتى ترى جُونها شُقْرا

ومُكْرِمُ ضَيفى حين ينزلُ ساحتى ... وجاعلُ وفْرى عند سائله وفْرا

وهى طويلة ، قالها أيام خِطْبَتِهِ لابنة عمه أم الحكم بنت سليمان المستعين

قال أبو عامر : «وكان متهماً فى أشعاره ورسائله ، حتى كتب أبياتاً ليعلى بن أبى زيد حين وفد عليه ارتجالًا ، فعجب أهل التمييز منه ، وأما أنا فقد كنت بلوته ، وكان ورود يعلى فجأة ولم يبرح من مجلسه حتى ارتجل الأبيات وأنا والله أخاف أن يزل ، فأجاد وزاد . » هذا آخر كلام أبى عامر .

(١) الزيادة عن الجذوة .

(٢) العبشميون : بنو عبد شمس .

ولاية محمد بن عبد الرحمن المستكفى بالله

ولى محمد بن عبد الرحمن المذكور وله ثمان وأربعون سنة وأشهر ، لأن مولده فى سنة ٣٦٦ ، وكنيته أبو عبد الرحمن ، أمه أمٌّ ولد اسمُها حوراءُ ، وكان أبوه قد قتله ابن أبى عامر فى أول دولة هشام المؤيد ، لسعيه فى القيام وطلبه للأمر .

وكان محمد بن عبد الرحمن هذا يلقب بالمستكفى بالله ، وكانت ولايته ستة أشهر وأياماً ، وكان فى غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير ؛ وَزَرَ له رجلٌ حائك يعرفُ بأحمد بن خالد ، هو كان المدبِّر لأمره والمدير لدولته ؛ فقل فى دولة يُديرها حائك . . . !

ولم يزل كذلك إلى أن خُلع وقُتل وزيره المذكور فى داره : دخل عليه عوامّ أهل قرطبة نهارًا فتولَّوه بالحديد إلى أن برَد ، وخلعوا المستكفى بالله وأخرجوه عن قرطبة ، بعد أن أقام ثلاثة أيام مسجوناً لا يصل إليه طعام ولا شراب ؛ ثم نَفَوه ــ كما ذكرنا ــ فلحق بالثغور ، ورجع الأمر إلى يحيى ابن على الفاطمى[1] .

وانتهى المستكفى المذكور من الثغر إلى قرية تعرف بـ « شَمُنْت » بالقرب من مدينة سالم ، ومعه أحد قواده ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن

---

(١) يعنى المعتلى ابن حمود ، وآل حمود فاطميون من بنى الحسن بن على كما مر .

السليم ، من ولد سعيد بن المنذر القائد المشهور أيام عبد الرحمن الناصر ، فكره هذا القائد التمادى معه ؛ فاستدعى المستكفى غداءه ، فعمد القائد إلى دجاجة فدهنَها له بعُصارة نبت يقال البِيش[1] – وهو كثير ببلاد الأندلس وخصوصاً بتلك الجهة – فلما أكلها المستكفى مات مكانه ، فغسّله وكفّنه وصلّى عليه ودفنه ؛ فقبره هناك ، ولا عقب له[2] .

ثم أقام يحيى بن على الفاطمى فى الولاية نافذ الأمر ، إلا أنه لم يدخل قرطبة ، وإنما كان مقيما بقرمونة كما قد قدمنا[3] إلى أن قُتل فى التاريخ الذى تقدم ذكره[4] .

---

(١) زهرة ذات الوان ، عصارتها سم ناقع .
(٢) وهو أبو « ولادة » صاحبة ابن زيدون .
(٣) ونائبه على قرطبة هو ابن عطاف المذكور آنفا . انظر ص ١٠٢ – ١٠٣ .
(٤) انظر ص ١٠٤ .

ولاية هشام المعتد بالله

ولما انقطعت دعوة يحيى بن على الفاطمى عن قرطبة فى التاريخ الذى ذكرنا ، أجمع رأى أهل قرطبة على ردّ الأمر إلى بنى أمية ، وكان عميدهم فى ذلك والذى تولى مُعظمه وسعى فى تمامه ، الوزير أبو الحزم جهْور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغَمر بن يحيى بن عبد الغافر ابن أبى عبدة ؛ وقد كان ذهب كل من ينافس فى الرياسة ويخُبُّ فى الفتنة بقرطبة ؛ فراسل جهور من كان معه على رأيه من أهل الثغور والمتغلّبين هنالك على الأمور ، وداخلَهم فى هذا الأمر ، فاتفقوا بعد مدة طويلة على تقديم أبى بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، وهو أخو المرتضى المذكور آنفاً[1] .

وكان هشام هذا مقيما بحصن يدعى أَلبُنْت ، من الثغور ، عند أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم القائد المتغلّب بها ؛ فبايعوه فى شهر ربيع الأول سنة ٤١٨ ، وتلقّب بالمعتدّ بالله .

وكان مولده فى سنة ٣٦٤ ، وكان أسنّ من أخيه المرتضى بأربعة أعوام ، وسنّه يوم بُويع له أربع وخمسون سنة ، أمّه أمُّ ولد اسمُها «عاتب» .

فبقى ينتقل فى الثغور ثلاثة أعوام لا يستقر بموضع ، ودارت هنالك فتن عظيمة بين الرؤساء المتغلّبين واضطراب شديد ، إلى أن اتفق أمرهم واجتمع

(١) انظر ص ٩٨

رأيهم على أن يسير إلى قرطبة قصبةِ المُلك ، فسار إليها ودخلها فى الثامن من ذى الحجة سنة ٤٢٠ ، فلم يُقم بها إلا يسيرًا حتى قامت عليه طائفة من الجند ، فخُلع ، وجَرَت أمور يطول شرحها ، من جملتها إخراج المعتدّ بالله هذا من قصرِه هو وحشمِه ، والنساءُ حاسراتٌ عن أوجههن ، حافيةٌ أقدامُهن ، إلى أن أُدخلوا الجامع الأعظم على هيئة السبايا ، فأقاموا هنالك أياماً يُتعطَّفُ عليهم بالطعام والشراب ، إلى أن أُخرجوا عن قرطبة .

ولحق هشام ومن معه بالثغور بعد اعتقالٍ بقرطبة ، فلم يزل يجول فى الثغور إلى أن لحق بابن هود المتغلِّب على مدينة لارده وسَرَقُسْطَة وأفراغة وطُرْطُوشة وما والى تلك الجهات ، فأقام عنده هشام إلى أن مات فى سنة ٤٢٧ ولا عقب له ؛ فهشام هذا آخر ملوك بنى أُمية بالأندلس .

نسبُه : هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم .

وبخلعه انقطعت الدعوةُ لبنى أُمية وذِكرُهم على المنابر بجميع أقطار الأندلس والعُدوة إلى الآن .

فهذا آخر ما انتهى إلينا من أخبار بنى أُمية بالأندلس على شرط التلخيص .

ذكر أخبار الاندلس

بعد انتقال الدعوة الأُموية عنها

ومن ملكها من الملوك الى وقتنا هذا ، وهو سنة ٦٢١

ومآل قرطبة بعد انتهاءالدولة الاموية

ولما انقطعت دعوة بنى أُمية كما ذكرنا بالأندلس ولم يبق من عقبهم من يصلح للإمارة ولا من تليق به الرياسة ، استولى على تدبير مُلك قُرطبة جَهْور بن محمد بن جهور ، ويكنى أبا الحزم ، وقد تقدم ذكر نسبه فى ترجمة هشام المعتد .

وأبو الحزم هذا قديم الرياسة شريف البيت ، كان آباؤه وزراء الدولة الحكمية والعامرية ، وهو موصوف بالدهاء وبُعد الغَور وحصافة العقل وحسن التدبير ؛ ولم يدخل من دهائه فى الفتن الكائنة قبل ذلك ؛ كان يتصاونُ عنها ويُظهر النزاهة والتديُّن والعفاف ؛ فلما خلا له الجوُّ وأصفَر الفِناءُ وأقفر النادى من الرؤساء وأمكنته الفرصة ، وثب عليها فتولى أمرها واضطلع بحمايتها .

ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهرًا ، جرياً على ما قدّمنا من إظهار سُنن العفاف ؛ بل دبَّرها تدبيرًا لم يُسبَق إليه ؛ وذلك أنه جعل نفسه مُمْسِكًا للموضع إلى أن يجىء من يتفق الناس على إمارته فيسلِّم إليه ذلك ؛ ورتَّب البوابين والحشمَ على تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ، ولم يتحوَّل عن داره إليها ، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدى رجال رتَّبهم لذلك وهو المشرف عليهم ، وصيَّر أهل الأسواق جُندًا له ،

وجعل أرزاقَهم رءُوس أموال تكون بأيديهم مُحْصاةً عليهم يأخذون ربحها ورءُوسُ الأموال باقية محفوظة ، يُؤْخَذون بها ويراعوْن فى كل وقت كيفَ حِفظُهم لها ، وفرّق السلاح عليهم وأمرهم بتفرقته فى الدكاكين والبيوت ، حتى إذا دهمهم أمرٌ فى ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو دكانه .

وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز ويعود المرضى ، جاريا على طريقة الصالحين ، وهو مع ذلك يدبِّر الأُمور تدبير الملوك المتغلِّبين ، وكان آمناً وادعاً وقرطُبةُ فى أيامه حرماً يأْمن فيه كلٌّ خائف .

واستمر أمره على ذلك إلى أن مات فى غرة صفر سنة ٤٣٥ فكانت مدة تدبيره منذ استولى إلى أن مات أربع عشرة سنة وأشهرًا .

ثم ولِى ماكان يتولَّى من أمر قرطبة بعده ابنُه أبو الوليد محمد بن جهْور ، فجرى فى السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه ، غير مُخِلٍّ بشىء من ذلك ، إلى أن مات أبو الوليد المذكور فى سِلخ شوال من سنة ٤٤٣ .

فغلب عليها بعد أُمور جرتْ ، الأَميرُ الملقَّب بالمأْمون بن ذى النون صاحب طُلَيْطلة ، فدبَّرها مدة يسيرة إلى أن مات .

وخلَفَ فيها بعده من البربر رجلٌ يعرف بابن عكاشة ، أظن اسمه موسى ؛ فكان بها إلى أن غلبه عليها وأخرجه منها الأَميرُ الظافر بحول الله أبو القاسم محمد بن عباد على ما يأْتى بيانه إن شاء الله تعالى .

فهذا آخر أَخبار قرطبة وكونِها دارًا للملك .

وبعد غَلَبة المعتمد عليها صارت تبعاً لإشبيلية .

فصـــــل

[رجع الحديث إلى بنى حمّود]

ومطمع بنى عباد فى التغلب على قرطبة

وأما أحوال الحسَنيين ، فإنه لما قُتل يحيى بن على [1] كما ذكرنا لسبع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ ، رجع أبو جعفر أحمد بن موسى المعروف بابن بقَنّة ، ونجا الخادمُ الصَّقْلَبى ، وهما مدبِّرا دولة الحسَنيين ، فأتيا مالَقة ، وهى دار مملكتهم ، فخاطبا أخاه إدريس بن على ، وكان بسَبْتة ، وكان يملك معها طنجة ، واستدعياه ، فأتى مالقة ، وبايعاه بالخلافة على أن يجعل حسَنَ بن يحيى المقتول مكانه بسبتة ؛ ولم يبايعا واحدًا من ابنَى يحيى ، وهما إدريس وحسن ، لصغرهما ؛ فأجابهما إلى ذلك ؛ ونهض نَجا مع حسن هذا إلى سبتة وطنجة ، وكان حسن أصغَر ابنَى يحيى ولكنه أسَدُّهما رأياً .

وتلقَّب إدريس بالمتأيِّد ، فبقى كذلك إلى سنة ٣٠ أو ٣١ ، فتحركت فتنة ، وحدث للقاضى أبى القاسم محمد بن إسماعيل بن عبّاد صاحب إشبيلية أملٌ فى التغلُّب على تلك البلاد ، فأخرج ابنه إسماعيل فى عسكر

---

(١) يعنى المعتلى بن حمود .

مع من أجابه من قبائل البربر ، ونهض إلى قرمونة فحاصرها ، ثم نهض إلى حصن يدعى أُشُونة ، وحصن آخر يدعى أَسْتِجة ، فأَخذهما ؛ وكانا بيد محمد بن عبد الله ، رجل من قواد البربر من بنى بَرْزال ؛ فاستصرخ محمدُ بن عبد الله إدريس بن علىّ الحسنى وقبائل صنهاجة ، فأَمدَّه صاحب صنهاجة بنفسه ، وأمدّه إدريس بعسكر يقوده ابنُ بَقَنَّة أَحمدُ ابن موسى مدبِّرُ دولته ؛ فاجتمعوا مع محمد بن عبدالله ، ثم غلبت عليهم هيبةُ إسماعيل بن محمدبن إسماعيل بن عباد ، قائدِ عسكر أَبيه القاضى أَبى القاسم ، فافترقوا ، وانصرف كل واحد منهم إلى بلده ؛ فبلغ ذلك إسماعيل ابن محمد ، فقوِى أملُه ، ونهض بعسكره قاصدًا طريق صاحب صنهاجة ، وقدّر صاحب صنهاجة أنه سيلحقه ، فوجّه إلى ابن بقَنَّة يسترجعُه ، وإنما كان فارقه قبل ذلك بساعة ، فرجع إليه ، والتقت العساكر ؛ فما كان إلا أن تراءى الجمعان ، فولى عسكرُ ابن عباد منهزما ، وأسلموا إسماعيل ، فكان أولَ مقتول ، وحُمل رأْسُه إلى إدريس بن على الحسنى .

وقد كان إدريس استشعر بالهلاك ، فنزل عن مالقة إلى جبل بُبَاشتر ، وهو الذى قام فيه ابن حفصون المتقدم الذكر [1] ، فتحصّن به وهو مريض مُدْنَف ، فلم يَعِش إلا يومين ومات ، وترك من الولد يحيى ، قُتل بعده ، ومحمدًا الملقب بالمهدى ، وحسناً المتلقب بالسامى ؛ وكان له ابن هو أكبر بنيه ، اسمه على ، مات فى حياة أبيه وترك ابنا اسمه عبد الله ، أخرجه عمه ونفاه لما وَلِى .

(١) انظر ص ٥٢ .

وقد كان يحيي بن على المذكورُ قبلَ قد اعتقل ابنَيْ عمه محمدًا والحسن ابنَيْ القاسم بن حمود بالجزيرة ، وكان الموكَّل بهما رجلًا من المغاربة يعرف بأبي الحجاج ، فحين وصل إليه خبرُ قتل يحيي ، جمع من كان فى الجزيرة من المغاربة والسودان ، وأخرج محمدًا والحسن ، وقال ؛ هذان سيِّداكم ! فسارع أجمعهم إلى الطاعة لهما ، لشدة ميل أبيهما إلى السودان قديماً وإيثاره لهم ؛ وانفرد محمدٌ بالأمر دون الحسن ، ومَلك الجزيرة ، إلا أنه لم يتَسَمَّ بالخلافة ، وبقى معه أخوه الحسن مدة ، إلى أن حدث له رأى فى التنسك ، فلبس الصوف وتبرأ عن الدنيا وخرج إلى الحج مع أخته فاطمة بنت القاسم ، زوجة يحيي بن على المعتلى [1] .

فلما مات إدريس كما تقدم ، رام ابنُ بقَنَّة أحمدُ بن موسى ضَبْطَ الأمر لولده يحيي بن إدريس المعروف بِحَيُّون ، ثم لم يجسر على ذلك الجَسْرَ التام ، وتحيَّر وتردَّد .

ولما وصل خبر قتل إسماعيل بن عباد وموت إدريس بن علىّ إلى نَجا الخادم الصَّقْلبى ، وكان بسبته ، استخلف عليها من وثق به من الصقالبة ، وركب البحر هو وحسن بن يحيي إلى مالقة ، ليرتِّب الأمر له ؛ فلما وصلا إلى مرسى مالقة ، خارت قوى ابن بقَنَّة وهرب إلى حصن كمارش ، على ثمانية عشر ميلا من مالقة .

---

(١) رواية المقرى : « وكان محمد بن القاسم بن حمود لما اعتقل ابوه القاسم بمالقة سنة ٤١٤ فر من الاعتقال ولحق بالجزيرة الخضراء وملكها ولقب بالمعتصم ، الى ان هلك سنة ٤٤٠ ، ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواثق الى أن هلك سنة ٤٥٠ » .

ولم يذكر المقرى شيئا عن تنسك محمد بن القاسم ولبسه الصوف .

ودخل حسن ونجا مالقة ، واجتمع إليهما من بها من البربر ، فبايعوا حسن بن يحيي بالخلافة ، وتَسَمَّى المستعلى ، ثم خاطب ابن بقنَّة وأمّنه ، فلما رجع إليه قبض عليه وقتله ، وقتل ابن عمه يحيي بن إدريس .

ورجع نجا إلى سبتة وطنجة ، وترك مع الحسن رجلا كان من التجار يعرف بالسطيفى ، كان نجا كثيرَ الثقة به ، فبقى الأمر كذلك نحواً من عامين .

وكان الحسن بن يحيي متزوجاً بابنة عمه إدريس ، فقيل إنها سمَّته أسفاً على أخيها ، فلما مات احتاط السطيفى على الأمر ، واعتقل إدريس ابن يحيي ، وكتب إلى نجا بالخبر .

وكان للحسن ابنٌ صغير عند نجا ، فقيل إنه اغتاله أيضاً فقتله ، فالله أعلم .

ولم يُعقب حسن بن يحى ، فاستخلف نجا على سَبتة وطنجة من وثق به من الصقالبة عند وصول الخبر إليه ، وركب البحر إلى مالقة ، فلما وصل إليها زاد فى الاحتياط على إدريس بن يحى ، وأكَّد اعتقاله ، وعزم على محو أمر الحسنيين جملة ، وأن يضبطَ تلك البلاد لنفسه ، فدعا البربر الذين كانوا جندَ البلد ، وكشفَ الأمر علانية ، ووعدهم بالإحسان فلم يجدوا لمساعدته بدًا ، فوافقوه فى الظاهر ، وعظم ذلك فى أنفسهم باطناً ؛ ثم جمع عسكره ، ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم ، فحاربه أياماً ، ثم أحسّ بفتور نيات الذين معه ، فرأى أن يرجع إلى مالقة فإذا حصل فيها نَفَى من يخاف غائلته منهم واستصلح سائرهم

واستدعى الصقالبةَ من حيثما أمكنه ليقوى بهم على غيرهم ؛ وأحسَّ البربر بهذا منه ، فاغتالوه فى الطريق من قبل أن يصل إلى مالقة ، فقُتل وهو على دابته فى مضيق صارَ فيه وقد تقدَّمه إليه الذى أراد الفتك به ، وفرّ من كان معه من الصقالبة بأنفسهم ؛ ثم تقدم فارسان من الذين غدروا به يركضان حتى وردا مالقة ، فدخلا وهما يقولان : البشرى البشرى ! فلما وصلا إلى السطيفى ، وضعا سيفيهما عليه فقتلاه .

ثم وافى العسكر فاستخرجوا إدريس بن يحيى من محبسه ، فقدموه وبايعوه بالخلافة ، وتسمّى بالعالى ، فظهرت منه أُمور متناقضة ، منها أنه كان أرحمَ الناس قلبا ، كثير الصدقات : يتصدق كل يوم بخمسمائة ، وردَّ كلَّ مطرود عن وطنه إليه ، وردَّ عليهم ضياعهم وأملاكهم ، ولم يسمع بَغْياً فى أحد من الرعية ؛ وكان أديب اللقاء ، حسن المجلس ، يقول من الشعر الأبياتَ الحسان [1] ؛ ومع هذا فكان لا يَصحبُ ولا يُؤْثر إلا كلَّ ساقطٍ رَذْل ، ولا يحْجُبُ حُرَمَه عنهم ، وكل من طلب منه حصناً من حصون بلاده ممن يجاوره من صنهاجة أو بنى يَفْرَنَ أعطاه إياه ؛ وكتب إليه أمير صنهاجة أن يسلم إليه وزيره ومدبِّر أمره وصاحب أبيه وجدِّه : موسى بن عفان السبتى ، فلما أخبره بأن الصنهاجيَّ كتب إليه يطلبه منه وأنه لا بد من تسليمه إليه ، قال له موسى بن عفان : افعل ما تومر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ! فبعث به إلى الصنهاجى فقتله.

---

(١) مدحه أبوزيد عبد الرحمن بن مقانا الفنداقى الأشبونى من شعراء الذخيرة ، بقصيدته المشهورة التى يقول فى أولها :

وكان قد اعتقل ابنى عمه محمدًا وحسناً ابنى إدريس بن على فى حصن إيرُش ، فلما رأى ثقتُه الذى فى الحصن اضطراب آرائه ، خالف عليه وقدَّم ابنَ عمه محمد بن إدريس ، فلما بلغ ذلك السودان المرتَّبين فى قصبة مالقة ، نادوا بدعوة ابن عمه محمد بن ادريس ، وراسلوه بالمجىء إليهم وامتنعوا بالقصبة .

ألبرقٍ لائح من أندرين ذرفت عيناك بالماءِ المعين
لعبت أسيافه عارية كمخاريق بأيدى لاعبين
ولصوت الرعد زجر وحنين ولقلبي زفرات وأنين
وأناجي فى الدجى عاذلتى : ويكِ الا أسمع قول العاذلين

الى ان يقول بعد وصف رائع لمجلس أنس وشراب :

وكأن الشمس لما أشرقت فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه إدريس بن يحيى بن عليٍّ بن حمّودٍ أمير المؤمنين

وبمضى فى مدحه حتى ينتهى الى قوله :

يابنى أحمد يا خير الورى لأبيكم كان وفد المسلمين
نزل الوحى عليه فاحتبى فى الدجى فوقهم والروح الأمين
خُلقوا من ماءِ عدل وتقى وجميع الناس من ماءٍ وطين
انظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين !

قيل انه أنشده اياها من وراء حجاب ، اقتفاء لطريقه خلفاء بنى العباس فى المشرق ، فلما بلغ قوله :

* انظرونا نقتبس من نوركم *

امر ان يرفع الحجاب ، وقابل وجهه وجه الشاعر دون حجاب ، وأمر له باحسان جزيل .

واجتمعت العامة إلى إدريس بن يحيى ، واستأذنوه فى حرب القصبة والدفاع عنه ؛ ولو أذن لهم ما ثبت السودان فُوَاقَ ناقة [1] ، فأبى ، فقال لهم : الزموا منازلكم وَدعُونى ؛ فتفرقوا عنه .

وجاء ابن عمه ، فسُلِّم عليه ، وبويع بالخلافة ، وتسمى بالمهدى ، وولى أخاه عهده ، وسماه السامى ، واعتقَل ابن عمه إدريس بن يحيى فى الحصن الذى كان هو معتقلا فيه .

وظهرت من محمد بن إدريس هذا شهامةٌ وجرأة شديدة هابه بها جميع البربر ، وأشفقوا منه ، وراسلوا المرتَّب فى الحصن الذى فيه إدريس بن يحيى هذا واستمالوه ، فأجابهم وقام بدعوة إدريس .

وقد كان إدريس أولَ ولايته بعد قتل نجا – كما تقدم – قد ولى سبتَة وطنجة رجلين من بَرغْوَاطَة ، قبيلة من قبائل البربر ، من عبيد أبيه ، اسم أحدهما رزق الله ، والآخر سَكات ؛ فلما خُلع إدريس كما تقدم ، بقيا حافظين لمكانَيْهما .

فلما قام – كما ذكرنا – بدعوته صاحبُ حصن إيرُش ، لم يُظهر محمدٌ مبالاةً بذلك ، بل ثبت ثباتًا شديدًا ، وكانت والدته تشجعه وتقوِّى مَتْنَه وتُشرف على الحرب بنفسها فتُحسن إلى من أبْلَى : فلما رأى البربر شدةَ عزمه وثباته ، فَتَّ ذلك فى أعضادهم وتخلَّوا عن إدريس بن يحيى ، ورأوا أن يبعثوا به إلى سَبتة وطنجة ، إلى البَرغْواطيَّيْن اللذين ذكرنا ، وقد كان إدريس جعل ابنه عندهما فى حضانتهما ؛ فلما وصل إليهما

---

(١) كناية عن السرعة

أظهرا تعظيمه ومخَاطَبتَه بالخلافة ، إلا أنهما حَجَباه حجاباً شديدًا ولم يَدَعا أحدًا من الناس يصل إليه ؛ فتلطَّف قوم من أكابر البربر حتى وصلوا إليه ، وقالوا له : إن هذين العبدين قد غَلَبا عليك ، وحالا بينك وبين أمرك ؛ فأْذن لنا نَكفِيكهُما ؛ فأَبى ؛ ثم أَخبرهما بذلك ، فنفيا أولئك القوم ، وأَخرجا إدريس بن يحيى وبَعثَا به إلى الأَندلس ، وتمسكا بولده لصغره ؛ إلا أنهما فى كل ذلك يخطبان لإدريس بالخلافة .

ثم إن محمد بن إدريس أنكر من أَخيه الملقب بالسامى أمرًا ، فنفاه إلى العُدوة ، فصار فى جبال غُمارة ، وهى بلاد تنقاد لهؤُلاءِ الحسَنيين ، وأهلُها يعظِّمونهم تعظيما مفرطًا .

ثم إن البرابرة خاطبوا محمد بن القاسم [1] الكائن بالجزيرة الخضراء ، واجتمعوا إليه ووعدوه بالنصر ؛ فاستفزَّه الطمع وخرج إليهم ، فبايعوه بالخلافة ، وتسمى بالمهدى ؛ وصار الأَمر فى غاية الأُخلوقة [2] والفضيحة : أربعةٌ كلُّهم يتسمَّى بأَمير المؤْمنين ، فى رقعة من الأَرض مقدارها ثلاثون فرسخاً فى مثلها .

فأَقاموا معه أياماً ثم افترقوا عنه إلى بلادهم ، ورجع محمد [3] خاسئاً إلى الجزيرة ومات لأَيام ؛ فقيل إنه مات غماً ؛ وترك نحواً من ثمانية ذكور .

---

(١) أبو القاسم بن حمود الذى ولى الخلافة قبل ابن أخيه يحيى المعتلى وتلقب بالمـــأمون ، وكان محمد هذا مقيما بالجزيرة منذ خروجه من أشبيلية ودورة الدائرة على أبيه . انظر ص ٩٨ و ١٠١ .

(٢) كذا بالأصل ، ويظن دوزى أنهـا محرفة عن « الأصحوكة » ، ولا داعى لهذا الظن .

(٣) يعنى محمد بن القاسم .

فتولى أمرَ الجزيرة بعده ابنُه القاسم بن محمد بن القاسم ، إلا أنه لم يتسمَّ بالخلافة .

وبقي محمد بن إدريس [المهدى] بمالقة إلى أن مات سنة ٤٤٥ (١) .

وكان إدريس بن يحيي المعروف بالعالى (٢) عند بنى يفْرن بتاكِرُونَّهْ ؛ فلما تُوفِّ محمد بن إدريس بن يحيي ردت العامةُ إدريس العالى إلى مالقة واستولى عليها ، وهو آخر من ملكها من الحسَنيين (٣) ؛ فلما مات (٤) أجمع البربر رأيَهم على نفى الحسنيين عن الأَندلس إلى العُدوة والاستبداد بضبط ما كانوا يملكونه من البلاد ، ففعلوا ذلك وتم لهم ما أرادوا منه .

كانت الجزيرة الخضراءُ وما والاها من القرى إلى تاكِرُونَّه ، ومالقة وما والاها أيضاً إلى حصن منكّب ، وغَرنَاطة وأعمالها – فى ملك البربر ؛ وملكوا مع ذلك بعض أعمال إشبيلية ، كحصن أشونة ، وقرمونة ، وشَلَّبرْ ؛ ولم يزالوا كذلك إلى أن أخرجَ من أيديهم ما كانوا يملكونه من أعمال

---

(١) فى نفح الطيب ان وفاته كانت سنة ٤٤٤ .

(٢) هو ممدوح أبى زيد الأشبونى السابق ذكره .

(٣) يروى المقرى ان ادريس بن يحيى العالى لم يكن آخر ملوكهم ، فقد بويع من بعده ولده محمد بن ادريس ولقب بالمستعلى ، ثم سار اليه باديس بن حبوس سنة ٤٤٩ فتغلب على مالقة ، وسار محمد المستعلى هذا الى المرية مخلوعا ، ثم استدعاه أهل المغرب الى مليلة وبايعوه سنة ٤٥٦ وظل الى ان مات سنة ٤٦٠ ...

وقد سبق فى هامش ص ١١٥ مانقلناه عن المقرى من حديث عن الواثق بن المعتصم بن القاسم ابن حمود ، وانه ظل أميرا على الجزيرة الخضراء الى سنة ٤٥٠ .

فان صح ما رواه المقرى من هذا لم يكن ادريس بن يحيى المهدى آخر ملوك بنى حمود فى الأندلس ، الا ان يكون المراكشى قد اراد – فيما نقله من ذلك عن الحميـــدى – انه آخرهم فى مالقة . وقد كانت مالقة دار ملكهم منذ ضعف شان البربر فى قرطبة .

(٤) كانت وفاته بين سنتى ٤٤٦ – ٤٤٧

إشبيلية المعتضدُ بالله أبو عمرو عبّاد بن محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى ، ثم أتم ابنه أبو القاسم المعتمد على الله ما ابتدأه أبوه من ذلك .

وهذا آخر أخبار الحسنيين وما يتعلق بها ، حسبما أورده أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدى ، عليه عوّلت فى أكثر ذلك ، ومن كتابه نقلت ، خلا مواضع تبينت غلطه فيها أصلحتُها جهد ما أقدر .

وعلى الله قَصْدُ السبيل وهو المسئول فى الهداية قولا وعملا .

فصـــــل

يتضمن ذكر أحوال الأندلس بعد انقطاع
الدعوة الاموية عنها على الاجمال لا على التفصيل

وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بنى أمية ، فإنَّ أهلها تفرَّقوا فِرقاً ، وتغلَّب فى كل جهة منها متغلِّب ، وضَبط كلٌّ متغلِّب منهم ما تغلب عليه ، وتقسَّموا ألقاب الخلافة ؛ فمنهم من تسمى بالمعتضِد ، وبعضهم تسمَّى بالمأمون ، وآخر تسمى بالمستعين ، والمقتدر ، والمعتصِم ، والمعتمد ، والموفق ، والمتوكل ؛ إلى غير ذلك من الألقاب الخِلافية ؛ وفى ذلك يقول أبو على الحسن بن رشيق :

مما يزهِّدنى فى أرض أندلسٍ   سَمَاعُ مُقتَدِرٍ فيها ومعتضِدِ
ألقابُ مملكةٍ فى غير موضعها   كالهرِّ يحْكى انتفاخًا صولة الأسد

وأنا ذاكرٌ إن شاء الله فى هذا الفصل أسماءهم والجهات التى تغلَّبوا عليها ، على نحو ما شرطتُ من الإجمال ؛ إذ لكل منهم أخبار وسِيرَ ووقائعُ لو بسطتُ القولَ فيها خرج هذا التصنيف عن حد التلخيص إلى حيز الإسهاب ، وأيضاً فالذى منعنى عن استيفاء أخبارهم أو أخبار أكثرهم قلةُ ما صَحِبَنى من الكتب ، واختلالُ معظم محفوظاتى .

ملوك الطوائف

فأوّلهم فى الربع الشرقى ،[1] رجل اسمه سليمان بن هود ، تلقّب بالمؤتمن ، وتلقب ابنه بالمقتدر ، وتلقب ابنه بالمستعين [2] .

كان بنو هود هؤلاء يملكون من مدن هذه الجهة الشرقية [3] : طُرْطُوشَه [4] وأعمالَها؛ وسَرَقُسْطَة [5] وأعمالَها ؛ وأفْراغة ، ولاردة ،

---

(١) فى الأصل : الجنوبى ، وانما تقع البلاد الآتى ذكرها فى الشرق الشمالى لا فى الجنوب.

(٢) كذا بالأصل ، وفى غيره من المراجع أن سليمان بن هود هذا تلقب بالمستعين ، وابنه بالمقتدر ، وابنه بالمؤتمن . وهو أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود بن عبد الله بن موسى ، مولى ابى حذيفة الجذامى ، وجدهم هود هو الداخل الى الاندلس .

(٣) فى الأصل : الجنوبية .

(٤) مدينة جليله على نهر أبره ، اسمها الرومانى درتوزه (Dertcsa) استولى عليها ا لعرب فى بداية الفتح ، ثم عاد الأسبان فملكوها ، فاسترجعها عبد الرحمن بن الحكم فى عهد أبيه الحكم بن هشام الربضى ، ولوجودها فى طرف بلاد المسلمين كان الخلفاء يجعلونها منفى لمن يرون ابعاده من أهل الفتنة ، ولما انحلت وحدة الدولة ونجم ملوك الطوائف ، صارت طرطوشة امارة مستقلة يحكمها مولى من موالى بنى عامر اسمه نبيل الصقلبى ، ويحكم معها بلنسية ، وفى سنة ٤٥٢ ثارت طرطوشة بأميرها هذا الصقلبى ، فلجأ الى المقتدر بن هود صاحب سرقطة ، ودخلت طرطوشة منذ ذلك اليوم فى طاعة بنى هود .

ثم كان استيلاء النصارى عليها فى منتصف شعبان سنة ٥٤٣ ، وكان الذى استولى عليها هو ريموند بيرانجه صاحب برشاونه ، بمساعدة فرسان الهيكل الصليبيين وأساطيل بيزة وجنوة ، كما استولى فى السنة نفسها على أفراغة ولاردة ، وتقع افراغة ولاردة مما يلى طرطوشة نحو الشمال على ساحل بحر الروم .

(٥) مدينة كبيرة على نهر ابره ، ترتفع عن البحر ١٨٤ مترا ، تحدق بها البساتين ، فتحها العرب سنة ٩٤ واتخذوها قاعدة من قواعدهم فى الأندلس ، وكان صاحب الامر فيها لعهد بنى مروان أمير من بنى قصى ، وهى أسرة أسبانية دانت بالاسلام ، وكان منها أمراء وقواد فى جيش الدولة .

ثم توارثها محمد بن لب آخر أمراء بنى قصى الأسبانى الأصل ، أمراء من بنى تجيب ، وبنو تجيب : أسرة عربية كانت تقيم بسرقسطة منذ اول الفتح .

فلما كانت أيام الفتنة ، وثب أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود عامل لاردة على سرقسطة ، فاستخلصها لنفسه من بنى تجيب ، وجعلها حاضرة ملكه ، وتسمى أبو أيوب هذا بالمستعين ، وهذا مبدأ دولة بنى هود ، وتوفى المستعين فى سنة ٤٣٨ ، فخلفه ابنه احمد المقتدر سيف الدولة الى سنة ٤٧٤ ، وتسلسل الملك فى بنى هود الى أن استولى النصارى على سرقسطة سنة ٥١٢ .

وقلعة أيوب [1] . هذه اليوم كلُّها بأَيدى الأَفرنج ، يملكها صاحب برشنونة لعنه الله ؛ وهى البلاد التى تسمى أرْغُن ، حد هذا الاسم آخر مملكة البرشنونى مما يلى بلاد إفرنسة .

* * *

[[2] ويجاور بنى هود هؤلاء رجل آخر اسمه عبد الملك بن عبد العزيز يكنى أبا مروان ، قديم الرياسة ، هو أَحق ملوك الأَندلس بالتقدم لشرف بيته ، ولا أعلم له لقباً ، كان يملك بلنسية وأَعمالها[2]]

* * *

وكان يلى الثغر رجل آخر يقال له أَبو مروان بن رزين ، كان يملك إلى أول أعمال طليطلة .

* * *

وكان الذى يملك طليطلة وأعمالها : الأَمير أَبو الحسن يحيى بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن عامر بن مطرف بن موسى بن ذى النون .

---

(١) مدينه من اعمال سرقسطة ، بالقرب من مدينة لبلة ، بنى قلعتها أيوب بن حبيب اللخمى ابن اخت موسى بن نصير الفاتح ، واليه ننسب، وكان سقوطها فى يد الأسبان أوائل القرن السادس .

(٢) اثبت العلامه دوزى هـذه الزيادة فى طبعه نقلا عن هامش المخطوط ، وقد أثبتناها حذوه ، وابو مروان هذا حفيد المنصور بن ابى عامر ، ولقبه المظفر ، وقد ولى أمر بلنسية منذ مات ابوه المؤتمن سنه ٤٥٢ الى أن استولى عليها المأمون بن ذى النون سنة ٤٥٧ ...

وكان عبد الملك بن عبد العزيز هذا صهرا لمجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية.

انظر « البيان المغرب فى اخبار الأندلس والمغرب » لابن عذارى .

وانظر ص ١٨١ من هذا الكتاب .

وأبو الحسن هذا أقدمُ ملوك الأندلس رياسة وأشرفهم بيتاً وأحقهم بالتقدُّم ، تلقَّب بالمأمون ؛ كان أبوه إسماعيل هو الذى تغلب على طليطلة من قبلُ واستبد بملكها أول الفتنة .

ولم يزل أبو الحسن هذا يملك طليطلة وأعمالها كما ذكرنا ، إلى أن أخرجه عنها الأذفنش لعنه الله[1] ، واستولى عليها النصارى فى شهور سنة ٤٧٨ [2] ، فهى قاعدة ملك النصارى إلى وقتنا هذا .

* * *

وكان يملك قُرطبة وأعمالَها إلى أول الثغر: جهْور بن محمدبن جهور المتقدم ذكره ونسبه[3] إلى أن غلبه عليها صاحب طليطلة إسماعيل بن ذى النون والد أبى الحسن المذكور آنفاً .

* * *

وكان يملك إشبيلية وأعمالها القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل ابن عبَّاد اللخمى[4] ، تغلب عليها بعد أن أخرج عنها القاسم بن حَمود وابنيه محمداً والحسن على ما سيأتى الإيماءُ إليه إن شاء الله عز وجل .

---

(١) هو ألفونس السادس ملك قشتالة .

(٢) فى الأصل : سنة ٣٧٦ ، وهو خطأ صوابه ما أثبتناه ، وطليطلة من أول ما استرد الافرنج من مدن الأندلس العظيمة ، وفى ذلك يقول عبدالله بن فرج اليحصبى :

يا أهل أندلس حثُّوا مطيكمو   فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى   ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا   كيف الحياة مع الحيات فى سَفط ؟

(٣) انظر ص ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ .

(٤) انظر ص ١٠٠ .

وكان يملك مالقة والجزيرة وغرناطة وما والى ذلك: البربر بنو بَرْزَال الصَّنْهاجيُّون على ما قدمناه[1] .

وتغلب على المريَّة وأعمالها زهير العامرى الخادم ، ثم ملكها بعده خيران العامرى أيضاً الخادم ، ثم تغلب عليها بعدهما أبو يحيى محمد ابن معن بن صمادح المتلقب بالمعتصم ؛ فلم يزل فيها إلى أن أخرجه عنها يوسف بن تاشفين اللمتونى فى شهور سنة ٤٨٤ .

* * *

وكان يملك دانية وأعمالها مجاهدٌ العامرى ، أصله رومى؛ مولى لأبى عامر محمد بن أبى عامر ، ثم ملكها بعده ابنه على بن مجاهد وتلقب بالموفَّق ، لا أعلم فى المتغلبين على جهات الأندلس أَصْوَنَ منه نفساً ولا أطهر عرضاً ولا أنقى ساحة ، كان لا يشرب الخمر ولا يقرب من يشربها ، وكان مؤثرًا للعلوم الشرعية مكرماً لأهلها ، توفى قبل فتنة المرابطين بيسير ، لا أتحقق تاريخ وفاته [2] .

[بنو الأفطس]

وكان يملك الثغر الذى من الجهة المغربية [3] من الأندلس وبعضَ المدن المجاورة للبحر الأعظم : ابنُ الأفطس المتلقب بالمظفَّر ، ذهب عنى اسمه[4] ، ثم كان له ابنٌ اسمه عمر ، يكنى أبا محمد ، تلقب بالمتوكل على الله ، كان يملك بَطَلْيوس وأعمالَها ، ويابرة ، وشنترين ، والأشبونة .

---

(١) يعنى أصحاب بنى حمود .

(٢) ظل على بن مجاهد على أمر دانية حتى غلبه عليها المقتدر أحمد بن سليمان بن هود . صاحب سرقسطة ، سنة ٤٦٨ ، وخرج عنها وكان آخر العهد به .

(٣) فى الأصل الشمالية .   (٤) هو محمد بن عبد الله .

كان المظفر هذا أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ونوادر الأخبار وعيون التاريخ ، انتخب مما اجتمع له من ذلك كتاباً كبيرا ترجمه باسمه ، على نحو الاختيارات للروحى ، وعيون الأخبار لأبى محمد بن قتيبة ؛ جاء هذا الكتاب فى نحو من عشرة أجزاء ضخمة[1] وقفت على أكثره ، ترجمته «المظفرى» .

وكان لابنه المتوكل قدم راسخة فى صناعة النظم والنثر ، مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة ، وكان لايُغِبُّ الغزو ولا يشغله عنه شىء ، واتصلت مملكته إلى أن قتله المرابطون أصحاب يوسف بن تاشفين ، وقتلوا ولديه الفضل والعباس صبراً : ضربوا أعناقهم فى غرة سنة ٤٨٥ .

وكانت أيام بنى المظفر بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم ، وكانوا ملجأً لأهل الآداب ، خلدت فيهم ولهم قصائد شادت مآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم

[عبد المجيد بن عبدون]

وفيهم يقول الوزير الكاتب الأبرع ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد ابن عبدون ، من أهل مدينة يابرة ، قصيدته الغراء ، لابل عقيلته العذراء ،

---

(١) قال ابن بسام : كان المظفر أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع ، وله التصـنيف والمشتهر أيضا اسمه بالكتاب المظفـــرى ، فى الرائق ، والتأليف الفائق ، المترجم بالتذكرة ، خمسين مجلدا ، يشتمل على فنون وعلوم ، من مغاز وسير ومثل وخبر وجميـــع ما يختص به علم الأدب .

ويقول ابن الأبار انه كان كثير الأدب جم المعرفه محبا لأهل العلم جماعة للكتب ذا خـزانة عظيمـــة .

وحكى الشقندى أن كتاب « المظفرى » فى نحو مائة مجلدة !

توفى المظفرى سنة ٤٦٠ .

التى أزرت على الشعر ، وزادت على السحر ، وفعلت فى الألباب فعل الخمر ، فجلّت عن أن تُسامَى ، وأنفت من أن تُضَاهى ؛ فقل لها النظير ، وكثر إليها المشير ، وتَساوى فى تفضيلها وتقديمها باقلٌ وجرير ؛ فلله هى من عقيلة خدرٍ قَرُبتْ بسهولتها حتى أطمَعتْ ؛ وبَعُدَت حتى عَزّت فامتنعت ؛ أوردتها فى هذا المصنف وإن كان فيها طولٌ مخرج عن الحد الذى رسمته ؛ مُخِلٌّ بالتلخيص الذى شرطته ؛ لصحة مبانيها ؛ ورشاقة ألفاظها وجودة معانيها ؛ سلك فيها أبو محمد رحمه الله طريقة لم يُسْبَق إليها ؛ وورد شرْعةً لم يُزَاحَم عليها ؛ فلذلك قل مثلها لابل عُدِم ، وعز نظيرها فما تُوُهِّم ولا عُلم ، وهى[1] :

[قصيدة ابن عبدون]

الدهر يُفجع بعد العَين بالأثر	فما البكاءُ على الأشباح والصور ؟
أنهاكَ أنهاك لا آلوك موعظةً	عن نَوْمةٍ بين ناب الليث والظُفُرِ
فالدهرُ حربٌ وإن أبدَى مُسالَمَةً	والبيضُ والسُّودُ مثلُ البيض والسُّمر
ولا هُوادَةَ بين الرأس تأخذه	يدُ الضِّرابِ وبين الصارمِ الذَّكَرِ
فلا تَغُرَّنْكَ من دنياك نَوْمَتُها	فما صِناعةُ عينيها سوى السَّهَرِ
ما لِلّيالى - أقالَ اللهُ عثرتَنا	من الليالى وخانتْها يدُ الغِيَرِ -

(١) اذ سرنا فيما سبق من الكتاب على ايراد النصوص الادبية التى ذكرها المؤلف دون شرح لها او تعليق عليها ، اذ كان فى معاجم اللغة ما يغنى عن ذلك ، ولكننا فى هذه القصيدة ـ دون غيرها ـ قد اثرنا ان نخرج عن هذا النطاق الى حد ما ، لنوضح الرموز التاريخية التى اشار اليها ابن عبدون فى تضاعيف قصيدته .

في كلِّ حينٍ لها في كلِّ جارحةٍ ... منّا جراحٌ وإن زاغتْ عن النَّظَرِ
تَسُرُّ بالشيءِ لكنْ كيْ تُغَرَّ بهِ ... كالإيمِ ثارَ إلى الجاني من الزَّهَرِ
كم دولةٍ وَلِيَتْ بالنصرِ خدمتَها ... لم تُبْقِ منها وَسَلْ ذِكراكَ — من خبرِ (1)
هوَتْ بدَارا وفَلَّتْ غَرْبَ قاتلهِ ... وكان عَضْباً على الأَملاكِ ذا أُثُرِ (2)
واسترجعتْ من بني ساسانَ ما وهبتْ ... ولم تَدعْ لبني يُونانَ من أثرِ (3)
وأَلحقتْ أختَها طَسْماً ، وعادَ على ... عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقضُ المِرَرِ (4)
وما أقالتْ ذوى الهيئاتِ من يَمنٍ ... ولا أجارت ذوى الغايات من مُضَرِ (5)

---

(1) الضمير هنا أيضا يعود على الليالى . والمعنى : كم دولة هيأت لها الليالى أسباب النصر والتأييد ، ثم كرت عليها فسلبتها كل ما منحت ولم تبق لها خبرا .

(2) دارا : ملك من ملوك الفرس ، قالوا انه لبث فى الملك ثلاثين سنة ، ثم قتله الاسكندر ، والفل الكسر ، والغرب : الحد ، والعضب : السيف ، والأملاك : جمع ملك ، والأثر بضم الهمزة والثاء : فرند السيف ، والمعنى : أن الليالى سقطت بدارا عن عرشه ، وكان على أعدائه من الملوك سيفا قاطعا ، ثم لم تبق على قاتله فحطمت سيفه وجرعته منيته . وقد تغلب الاسكندر على سائر ملوك عهده ، وبسط سلطانه على أكثر المعمور ، ومات وله من العمر بضع وثلاثون سنة !

(3) بنو ساسان : الأكاسرة من ملوك فارس ، حكموها بعد ملوك الطوائف الى عهد الفتح العربى . وكانت مدة حكمهم أربعة قرون ونصف قرن .

(4) طسم ، وأختها جديس : من قبائل العرب البائدة ، كان موطنهما باليمامة ، ولهما خبر مشهور فى تاريخ الجاهلية ، فقد كان ملك القبيلتين رجلا من طسم اسمه عملوق ، وكان غشوما ظالما منقادا لشهواته ، مجترئا على حرمات الناس ، وكانت جديس تلقى من شره ما لا طاقة به ، فأجمعت أمرها — بتدبير امرأة منها اسمها عفيرة — على الفتك به ، فكان من ذلك ابادة طسم وجديس . و « عاد » التى ورد ذكرها فى البيت : هى التى عناها الله سبحانه بقوله : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » . « وأما جرهم » فقبيلة من بنى يعرب بن قحطان ، هاجرت من اليمن الى الحجاز انتجاعا للرزق ، وأصهر اليهم اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، وقد كثر عديدهم فى الحجاز حتى صاروا ذوى قوة وسلطان ، ثم بغوا وضلوا فأبادهم الله وأذهب ريحهم . والمرر بكسر الميم : جمع مرة ، وهى القوة وشدة الخلق ، وناقض المرر : هو الدهر ، لأنه لا يدع ذا قوة على قوته !

(5) كانت الرياسة والملك وترف الحضارة فى اليمن ، وكان المضريون من أهل الشمال أصحاب مثل وغايات وأهداف بعيدة ، ولأمر ما كان محمد بن عبد الله — صلوات الله عليه — مضريا ، ولكن الليالى لم تبق على أحد من هؤلاء ولا من أولئك !

ومزقت سَبَأً في كلِّ قاصية فما الْتَقَى رائحٌ منهم بمُبْتَكِرِ [1]

وأنفذتْ في كُلَيْبٍ حُكمَها ، ورمتْ مُهلهِلاً بين سمْعِ الأرضِ والبصرِ [2]

ولم تردَّ على الضِّليلِ صحتَهُ ولا ثَنَتْ أسداً عن ربِّها حُجُرِ [3]

ودوَّخَت آل ذُبْيانٍ وإخوتَهُمْ عَبْساً ، وغَصَّت بني بدر على النهَرِ [4]

---

(١) يشير الى قوله تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال : كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم ... » الآيات الى قوله تعالى : « وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ... » وكانت أرضهم « مأرب » من بلاداليمن . والابتكار ، والبكور : ضد الرواح ، والمعنى أنهم تفرقوا في أقاصي البادية فلم يلتق رائح منهم بغاد !

(٢) كليب : هو كليب بن ربيعة الذى يقال فيه « أعز من كليب وائل » وبلغ من عزه أنه كان لا يوقد أحد نارا مع ناره ، ولا يورد أحد ابلا مع ابله ، وكانت أخته زوجا لابن عمهما جساس بن مرة ، الذى يقال له حامي الجار ومانع الذمار ، وكان لجساس جارة اسمها البسوس تدل بجواره وحمايته ، وكان لها ناقة اسمها السراب ، فبينما ابل كليب ذات يوم على الحوض ترتوى ، اذ لمح كليب بينها هذه الناقة ، ففوق اليها سهمه فأصاب ضرعها ، فرأى جساس فى ذلك انتهاكا لحرمته ، فخرج الى كليب معتقلا رمحه فصرعه ، فشبت الحرب بين بكر وتغلب ابنى وائل ، ودامت فيما يقاله أربعين سنة ، وتشتهر فى تاريخ الجاهلية باسم حرب البسوس ، وكان الساعى لثأر كليب أخاه الحارث ، ولقبه مهلهل - وانما لقب كذلك لأنه أول من هلهل الشعر ، أى رققه ، وهو خال امرىء القيس - فلما وضعت الحرب أوزارها ، ذهب المهلهل فى الأرض حتى نزل بقوم من مذحج ، فاقام بين اظهرهم ، وأصهر اليهم ، واطمأنت به الدار ، ولكن القدر كان يتربص به ، فبينما هوذات يوم فى بعض القفار ومعه عبدان من عبيده ، اذ بدا لعبديه أن يقتلاه لسبب ما ، فأنفذا ما اعتزما ، ومات سيد ربيعة فى بلد قفر لم يدر به أحد ، فذلك قول ابن عبدون : وأنفذت فى كليب... البيت .

(٣) الضليل : هو امرؤ القيس بن حجر ملك كندة ، وكانت أسد قد قتلت أباه حجرا . فحمل امرؤ القيس عبء الثأر له ، ومضى على وجهه يتنقل بين البلاد مستعديا على بنى أسد ، حتى بلغ بلاط قيصر ، ثم اعتل علة لا برء منها ، وأدركه أجله - فيما يقال - بأنقرة من بلاد الروم .

(٤) ذبيان ، وعبس : أخوان من بنى بغيض بن ريث بن غطفان ، وبنو بدر : بطن من ذبيان ، وكانت بين عبس وذبيان فى الجاهلية حرب كحرب البسوس ، تشتهر باسم حرب داحس والغبراء ، وداحس والغبراء : فرسان ذكر وأنثى لقيس بن زهير العبسى ، وحمل بن بدر الذبيانى ، فأجرياهما ذات مرة فى السباق على رهان ، ثم تلاحيا ووقع بينهما دم ، فشبت تلك الحرب ، وكان من قتلاها حمل بن بدر ، واخوه حذيفة ، وكان عندما دهمتهما خيل عبس يستنقعان فى ماء بموضع اسمه جفر الهباءة ، وظلت الحرب ناشبة زمانا بين عبس وذبيان ، وفيها اشتهر عنترة ابن شداد العبسى .

وألحقَتْ بعَديٍّ بالعراقِ على يد ابنه أحمرَ العينين والشَّعَر [1]

وأهلكتْ إبْرَويزاً بابنهِ ورَمتْ بيزْدَجرد إلى مروٍ فلم يَحُر [2]

وبلَّغت يزْدَجُرْدَ الصينَ واختزَلتْ عنه سوى الفُرسِ جمعَ التُّركِ والخزَر

ولم تردَّ مواضى رُسْتمٍ وقنَا ذِى حاجبٍ عنه سعداً فى ابنةِ الغِيَر [3]

يومَ القَليبِ بنُو بدرٍ فنُوا وسعى قَليبُ بدرٍ بمن فيه إلى سَقَرِ [4]

---

(١) هو عدى بن زيد الشاعر ، وكان نصرانيا فى الجاهليه ، ومقـــامه بالحيرة من ارض العراق ، وقد حبسه النعمان بن المنذر ملك الحيرة ثم قتله ، وكان له ولد اسمه زيد بن عدى ، قد احفظه مصرع ابيه على يد النعمان ، فلم يزل يلتمس الأسباب الى كسرى ابرويز ملـك فارس حتى صار له فى بلاطه شأن ، فانتهز فرصة أمكنه وأوغر صدر كسرى على النعمان ، فتوعده بالسر، وعلم النعمان بذلك ففر عن عرشه وقاعدة ملكه يتنقل بين القبائل فى بادية الجزيرة ٠٠ ثم مثى الى كسرى ، يأمل أن يحمله على الصفح ، فلقيه ثمة زيد بن عدى شامتا ، وانتهى أمره الى القتل، أمر به كسرى فرمى بين أرجل الفيلة فوطئتـــه حتى مات ، وكان بالنعمان برص ، فهـذا معنى قول ابن عبدون « أحمر العينين والشعر » ٠

(٢) ابرويز : هو كسرى ابرويز بن هرمز ، من أشد ملوك الفرس وانفذهم رأيا ، غدر اباه وولى العرش بعده ، ثم خشى أن يفعل به ولده مافعل هو بأبيه ، فتفاهم ، وثقل على الرعية أمره فارادوا الخلاص منه ، فقصدوا ابنــه شيرويه فى بابل ، فبايعوه بالملك ، ولقى ابرويز على يدى ولده شيرويه مثل ما لقى أبوه هرمز عـــلى يديه .

أما يزدجرد : فهو يزدجرد بن شهريار ابرويز ، آخر ملوكهم ، وقد فر عن عرشه وقاعدة ملكه حين وطىء جيش سعد بن أبى وقاص أرض بلاده ، وامر ان تنقـــل أمواله الى الصين ، وقد ظل الأمل يداعبه فى العودة الى عرشه سنين ، فلما كانت أيام عثمان بن عفان وخرج الأحنف ابن قيس الى الصين غازيا ، وبدا ليزدجرد ان يقاوم ، فعقد مع الترك والصغد والخزر حلفـــا ، وكان مقام كسرى فى ذلك الوقت بمرو الروذ ، قد عاد اليها من الصين على أمل ، فلما التقت جيوش المسلمين بجيوش كسرى وحلفائه من الترك والصغد والخزر ، انخزل حلفـــاء كسرى وخذلوه ، ففر على وجهه فلم ير بعـــــدها الا قتيلا ٠

فهذا ما عناه ابن عبدون فى هذا البيت والبيت الذى يليه ٠ ولم يحر : لم يرجع ، فعله : حار ، يحور ٠

(٣) رستم : هو رستم الأرمنى قائد جيش الفرس يوم القادسية ، وذو حاجب : هو خرزاد حامل رايتهم ، وسعد : هو ابن أبى وقاص قائد جيش المسلمين فى فارس ، وابنـــــة الغير : الداهيه ٠

(٤) يشير الى غزوة بدر وما أصاب المشركين فيها من انكسار وذلة .

ومزَّقتْ جعفراً بالبيض واختلستْ ... من غيله حمزةَ الظَّلامَ للجُزُر (١)

وأشرفتْ بخُبَيْبٍ فوق فارعةٍ ... وألصقت طلحةَ الفيَّاضَ بالعفرِ (٢)

وخَضَّبتْ شَيبَ عثمانٍ دماً وخطَتْ ... إلى الزُّبَيْرِ ولم تَسْتَحْيِ من عُمرِ (٣)

ولا رَعَتْ لأبى اليقْظانِ صُحْبَتَهُ ... ولم تُزَوِّده إلا الضَّيْحَ فى الغُمُرِ (٤)

وأجزرتْ سيفَ أشقاها أبا حسَنٍ ... وأمكنتْ من حُسيْنٍ راحَتَىْ شَمِرِ (٥)

---

(١) يعنى جعفر بن أبى طالب ، وحمزة بن عبد المطلب ، وقد استشهد أولهما يوم مؤتة ، واستشهد حمزة يوم أحد . والجزر جمع جزور، وهو الجمل ، وظلام الجزر : الكريم .

(٢) يشير الى مصرع خبيب بن عدى الأنصارى ، وطلحة بن عبيد الله التميمى ، أما خبيب وكان من خبره أنه أسر يوم الرجيع ـ فى السنة الثالثة بعد الهجرة ـ فذهب به الى مكة حيث اشتراه بعض موالى عقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ، وكان خبيب قد قتل أباه الحارث يوم بدر فأرادوا أن يقتلوه به ، وقد صلبه المشركون على خشبة فى التنعيم من أرض مكة ، والفارعة : الطويلة ، والمقصود خشبة الصلب .

وأما طلحة فقتل يوم الجمل ، قتله مروان بن الحكم ، وهو أحد العشرة الذين شهد لهم النبى صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وكان من أجواد قريش ، ويقال له طلحة الخير ، وطلحة الفياض ، وطلحة الطلحات أيضا .

(٣) يعنى عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعمر بن الخطاب ، وكان مصرع عثمان فى المدينة يوم الجمعة [illegible] عيد الأضحى سنة خمس وثلاثين من الهجرة ، ولم يعرف قاتله على التعيين ، وأما الزبير فقتله ابن جرموز فى غير حرب يوم الجمل ، وذلك أن الزبير يومئذ كان من حزب عائشة ، ولما تراءى الجمعان دعاه على اليه فتقاولا ، فكأنما بدا للزبير بعد حديثه مع على أن الاستمرار فى الحرب حماقة ، فأزمع اعتزال الحرب ، وحينئذ اعترضه ابن جرموز [illegible] فقتله ، وأما عمر فقتله أبو لؤلؤة النصرانى غلام المغيرة بن شعبة ، وخبره مشهور .

(٤) أبو اليقظان : عمار بن ياسر ، وقد قتل بأيدى أصحاب معاوية يوم صفين سنة سبع وثلاثين ، والضيح : اللبن ، وكان قد عطش ودعا بشربة ماء ، فأتى بضيحة فشربها ، ثم قال أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اللبن آخر شربة أشربها فى الدنيا !

(٥) أبو حسن : على بن أبى طالب ، وأشقاها : عبد الرحمن بن ملجم المجيبى ، قاتل على ، وقد ورد فى بعض الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يا على ، أشقاها الذى تخضب هذه من هذه) وأشار الى لحية على ورأسه . وحسين . هو ابن على بن أبى طالب ، وشمر هو ابن الجوشن ، وكان ممن أعان على قتل الحسين بكربلاء على شاطىء الفرات .

والمعنى أباحت الليالى لسيف ابن ملجم أن يقتل عليا ، وأمكنت شمر بن الجوشن من قتل الحسين .

وليْتَها إذ فَدَتْ عَمْرًا بخارجةٍ
فدَت عَليًّا بمن شاءَت من البشرِ (١)

وفى ابن هندٍ وفى ابن المصطفى حَسنٍ
أتتْ بمُعضلةِ الأَلباب والفكَرِ (٢)

فبعضُنا قائلٌ ما اغتاله أَحدٌ
وبعضُنا ساكتٌ لم يؤْتَ مِن حَصَرِ (٣)

وأرْدَتْ ابنَ زيادٍ بالحسْينِ فلم
يَبُؤْ بشِسْعٍ له قد طاحَ أَو ظُفُرِ (٤)

---

(١) عمرو : هو عمرو بن العاص حليف معاويه وصاحب مصر ، وخارجة : رجل من رهط عمرو بن العاص فى مصر • والبيت يشير الى قصة ومثل • وتفصيل الأمر أن الخوارج فى أيام الفتنة قالوا : ان عليا ومعاوية وعمرو بن العاص قد أفسدوا أمر هذه الأمة ، فلو قتلناهم لعاد الأمر الى حقه ، فوكل الى عبد الرحمن بن ملجم ان يقتل عليا ، والى الحجاج بن عبد الله الصريمى المعروف بالبرك ، ان يقتل معاوية ، والى زادويه الفارسى أن يقتل عمرا ، على أن يكون قتل الثلاثة فى موعد واحد ، أما على فقتله ابن ملجم اغتيالا ، وأما معاوية فأصاب الحجاج أليته ونجا ، وأما عمرو بن العاص فقد اشتكى وجعا فى الليلة الموعودة لقتله ، لأمر اراده الله ، فخرج خارجة ليصلى بالناس بدله ، فحين رآه زادويه علاه بسيفه فصرعه ، وسيق الى مجلس عمرو ، فلما رأى الناس يخاطبونه بالامرة قال : أو مافتلت عمرا ؟ قال : لا ، انما قتلت خارجة • فقال : « اردت عمرا وأراد الله خارجة » فذهبت مثلا • وقيل هو خارجة بن غانم ، قرشى من بنى عدى ، شهد فتح مصر ، وكان على شرطة عمرو بن العاص ، او قاضيا له •

(٢) ابن هند : معاويه بن أبى سفيان ، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة ، وحسن : هو الحسن بن على •

(٣) الحصر : العى ، وهو يشير الى ارتياب بعض المسلمين فى ميتة الحسن بن على وزعمهم ان امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندى سقته سما بدسيسة معاوية ، ليخلص العرش لولده يزيد !

(٤) ابن زيادة : هو عبيد الله بن زياد ابن ابيه ، وكان أميرا على الكوفة من قبل الأمويين حين وفد اليها الحسين يستنصر شيعته للمطالبة بالخلافة ، فدبر عبيد الله مقتله فى كربلاء ، ثم لم يلبث ابن زياد ان لقى مصرع الحسين على يد ابراهيم بن الأشتر النخعى ، وكان على جيش المختار بن عبيد الثقفى ، وابن زياد على جيش لعبد الملك بن مروان •

ويبوء : يرجع والشسع : رباط النعل ، .. والمعنى : ان الليالى اقتصت للحسين من ابن زياد ، وان لم يساو شسع نعله او قلامة ظفره !

وعَمَّمتْ بالظُّبَى فَوْدَىْ أبِى أَنَسٍ ولم ترُدَّ الرَّدَى عنه قنا زُفَرِ[1]
وأنزلتْ مُصْعباً من رأس شاهقةٍ كانت بها مهجة المختارِ فى وَزَرِ[2]
ولم تراقِبْ مكانَ ابنِ الزُّبير ولا راعتْ عياذَتَه بالبيتِ والحجرِ[3]
وأعْملتْ فى لطيم الجنِّ حيلَتَها
وأستَوْسقتْ لأَبِى الذِّبانِ ذى البَخَرِ[4]
ولم تدع لأَبِى الذِّبَّان قاضِبه ليس اللطيمُ لها عمرٌو بمنتصرِ[5]

---

(١) أبو انس : هو الضحاك بن قيس الفهرى ، وكان يدعو لعبد الله بن الزبير ، ومعــه صاحبه زفر بن الحارث الكلابى ، فخرج للقائهما عبد الملك بن مروان ، فالتقى جيشاهما بمرج راهط من أرض الشام سنة ٦٤ ، فدارت الدائرة على الضحاك ، قتله دحية بن عبد الله الكلبى ، وفر عنه زفر بن الحارث .

(٢) يعنى مصعب بن الزبير ، وكان على الكوفة من قبل أخيه عبد الله ، فخرج عبد الملك ابن مروان لقتاله ، فالتقيا فى موضع يعرف بالجاثليق ، فخذل مصعبا أصحابه ولم يناصره الا قلة، ثم قتل وحمل رأسه الى عبد الملك ، فخر عبد الملك لله ساجدا .

وأما المختار : فهو المختار بن عبيد الثقفى، رجل من أهل الفتنة ، كان يدعو تارة لمحمــد ابن الحنفيــة ، وطورا لعبــد الله بن الزبير ، و حينا لنفسه ، فلما انكشف سوء قصده ، خرج لحربه مصعب بن الزبير ، فتحصن المختار بقلعة الكوفة ، وحاصره مصعب فى القلعة حتى أوشك أن يموت هو وأصحابه ظمأ وجوعا ، فخرج يقاتل حتى قتل .

وقلعة الكوفة هذه ، هى الشاهقة التى كانت وزرا وملجأ للمختار ، والتى نزل منهــا مصعب فيما بعد ليلقى حتفه بالجاثليق ، وقد كان منها فى منعة لو انه بقى !

(٣) يريد عبد الله بن الزبير ، وكان يسمى العائذ ، لأنه كان يقول : أنا العــائذ بالبيت ، ولكن عياذته بالبيت لم تمنع الحجاج بن يوسف الثقفى من نصب المجانيق لرمى الكعبة وهو عائذ بها ، ثم من احتزاز رأسه وصلبه منكســا على خشبة قد أمسكت رجليه وتدلى منها جسده !

(٤) لطيم الجن : عمرو بن سعيد الأموى ، نبز بهذا الميل كان فى فمه ، وبه أيضــا سمى الأشدق ، وقيل سمى الأشدق لتشــادقه فى الكلام ، وكان من فصحاء قريش وأهل الخطابة . وقد استدرجه عبد الملك بن مروان بحيلته حتى خلا به فى داره ، فذبحه بيده وهو يقول كالمسوغ لفعلته : « او علمت يا أبا أمية انك تبقى ويسلم لى ملكى لفديتك بدم النواظر ، ولكن قلما اجتمع فحلان فى ذود الا عدا أحدهما على الآخر ! » ثم رمى برأسه الى أصحابه المحتشدين على البــاب ونثر على رءوسهم الدنانير ، فبردت حميتهــم ، واستوسق الملك بمقتل عمر لعبد الملك ، وكان عبد الملك أبخر ، وينبز بأبى الذبان !

(٥) قاضبه : سيفه ، والمعنى : لم تدع الليالى لعبد الملك سيفه الذى طالما قضب الأعنــاق واحتز الرءوس .

وأحرقتْ شِلوَ زَيدٍ بعد ما احترقتْ
عليه وجداً قلوبُ الآى والسُّوَر [1]

وأظفرتْ بالوليد بن اليزيد ولم تُبقِ الخلافةَ بين الكأْس والوتَر [2]

حَبَابةٌ حَبٌّ رُمَّانٍ أُتيحَ لها وأحمرٌ قطرته نفحة القطر [3]

ولم تعدْ قضب السفَّاح نائيةً عن رأْسِ مَرْوانَ أَو أَشياعِهِ الفُجُر [4]

---

(١) الشلو : العضو ، وزيد هو زيد بن على بن الحسين ، خرج الى الكوفة فى سنة ١٢٢ فى عهد هشام بن عبد الملك ، وبايعه أهلها بالخلافة ، ونشبت الحرب بينه وبين عمال بنى أمية ، فانفض عنه من كانوا معه ، فقال لصاحبه نصر بن خزيمة : « يا نصر بن خزيمة ، أنا أخاف أن يكونوا قد فعلوها حسينية ! » يعنى أن أهل الكوفة قد خدعوه ، ودعوه ثم أسلموه ، كما فعلوا مع الحسين من قبل ، وكذلك كان ، ولقى زيدمصير جده ، ودفن بمجرى ماء ، ثم دل عليه عامل بنى أمية ، فنبشه ، واحتز رأسه فبعث به الى دمشق حيث صلب على باب المدينة ، وصلب جسده بالكوفة ، وظل على خشبته ثلاث سنين ، ثم أنزل فأحرق !

(٢) يشير الى مصرع الوليد بن يزيد ، وكان صاحب كأس ووتر ، مسرفا فى شهواته ، منهما فى دينه !

(٣) حبابة : قينة كانت ليزيد بن عبد الملك ــ وكان كذلك صاحب كأس ووتر ــ وقد عشقها عشقا ملك عليه نفسه ، فبينما هو ذات يوم فى خلوة بها وقد صفت لهما الدنيا وطاب المكان ، اذ تناولت رمانة فشرقت ببعض حباتها فماتت ، فحزن عليها حزنا هلك به بعد أسابيع ، ويعنى بالأحمر الذى قطرته نفحة القطر : الخمر ، وقد جاء هذا البيت هنا موهما أن حبابة كانت صاحبة الوليد المذكور فى البيت الذى سبقه ، وانما هى صاحبة ابيه يزيد بن عبد الملك ، وكان بينهما فى الخلافة ، هشام بن عبد الملك ، وقد لبث على عرش أمية عشرين سنة !

ولحبابة هذه أخبار مشهورة بين الجوارى المغنيات ، هى وسلامة القس ، وكانت مثلها من جوارى يزيد .

(٤) السفاح : هو عبد الملك بن محمد بن على ، أول خلفاء الدولة العباسية ، وسمى السفاح ، لما سفح من دم بنى أمية ، أو لكرمه وما سفح من المال ، والقضب : السيوف ، ومروان المذكور فى البيت : هو مروان بن محمد ، آخر خلفاء الدولة الأموية ، وقد فر الى مصر بعد ذهاب ريحه ، وكان مصرعه بقرية من قرى الفيوم يقال لها (بوصير) ثم احتز رأسه وبعث به الى السفاح ، فخر السفاح ساجدا لله وتمثل بشعر العدوانى :

لو يشربون دمى لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني !

وبمقتل مروان استتب الملك لبنى العباس .

وأسبلت دمعة الروح الأمين على ... دم بفخٍّ لآلِ المصطفى هَدَر (1)

وأشرقتْ جعفراً والفضلُ يَنظرُه ... والشيخُ يحيى بريقَ الصارم الذَّكَر (2)

وأخفرتْ في الأمين العهدَ، وانتدبتْ ... لجعفر بابنِه والأَعبُدِ الغُدُر (3)

وما وفَتْ بعُهُودِ المستعينِ ولا ... بما تأكَّدَ للمعتزِّ من مِرَرِ (4)

وأوثقتْ في عُراها كل مُعتمدٍ ... وأشرَقتْ بقذاها كلَّ مُقتدرِ

وروَّعتْ كلَّ مأمونٍ ومؤتَمَنٍ ... وأسلمتْ كلَّ منصورٍ ومُنتصرِ (5)

---

(1) فخ: موضع على فرسخ من مكة، قتل به من بني الحسن بن علي: الحسين بن علي بن الحسن، والحسن بن محمد بن الحسن، وعبدالله بن اسحاق بن ابراهيم بن الحسن، وكان مقتلهم في أيام المهدى العباسى، وذهب دمهم هدرا.

(2) جعفر، والفضل ابنا يحيى بن خالد البرمكى، وأشرقت، اغصت، يعنى: سقت الليالى جعفرا بريق السيف، وجاءته النكبة بغتة، وأخوه وأبوه ينظرانه، يعنى تعلقت آمالهما به وهو فى عنفوان عزه وسلطانه. ونكبة البرامكة مشهورة فى التاريخ فلا حاجة بنا الى الحديث عنها.

(3) الأمين: هو محمد بن هرون الرشيد، وكان الرشيد عقد ولاية العهد من بعده، وجعل العهد من بعده لأخيه المأمون، وأخذ عليهما المواثيق ألا يغدر أحدهما بصاحبه. فلما ولى الأمين الخلافة، بدا له أن يخلع أخاه من ولاية العهد ويجعلها من بعده لابنه موسى، فكان ذلك أول الشر بين الأخوين، واستشرت الفتنة حتى انتهت بقتل الأمين وتولى أخيه العرش. أما جعفر المذكور بعده فهو جعفر بن المعتصم الملقب بالمتوكل، عاشر خلفائهم، أعان على قتله ابنه المنتصر، وكان قتله من عبيده. والأعبد: العبيد، والغدر: جمع غادر، وكان سبب مقتله أنه اراد أن تكون الخلافة من بعده لولده المعتز، دون أخيه المنتصر، فحفظها له. وكان مقتل المتوكل أول ما ظهر من تسلط الموالى والعبيد فى الدولة العباسية.

(4) المستعين: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم، ولى الخلافة بعد المنتصر بن المتوكل، سنة ٢٤٨ ثم نشبت الفتنة بينه وبين المعتز بن المتوكل فخلع فى سنة ٢٥٢ ثم قتل بعد خلعه بأشهر. وتولى المعتز بعد خلعه، فاجتمعت له الكلمة وبايعه الناس، ولكنه لم يلبث فى الخلافة الا ثلاث سنين وأشهرا ثم قتل.

(5) المعتمد، والمقتدر، والمأمون، والمؤتمن، والمنصور، والمنتصر: ألقاب خلافية، لا يعنى بها الشاعر ـ فيما أرى ـ أحدا بعينه، وأحسبه اراد أن يقول: ان الأيام لا تفى بعهد لخليفة ولا تبقى على نعمة الملك!

وأعثرت آل عَبَّادٍ لَعاً لَهُمُ

بذيْل [زَبَّاءَ] لم تَنفِرْ من الذُّعُر [١]

* * *

بنى المظفَّر والأيامُ — لا نُزِلتْ —

مراحِلٌ ، والورى منها على سَفر [٢]

سُحقاً ليومكمُ يوماً ولا حملتْ

بمثله ليلةٌ فى غابرِ العُمُر

مَن للأَسِرَّة ، أو مَن للأعِنَّة ، أو من للأَسِنَّة يُهديها إلى الثَّغر

من للظُّبى وعوالى الخط قَدْ عُقدتْ أطراف أَلسُنها بالعيِّ والحَصر

وطَوَّقت بالمنايا السودِ بَيْضَهمُ فاعجب لذاك وما منها سوى الذكر

من لليراعة أو من للبراعة أو من للسماحة أو للنفع والضرر

أو دفع كارثةٍ أو ردع آزفةٍ أو قَمْع حادثةٍ تَعْيا على القُدَرِ

وَيْبَ السَّماح وويْبَ البأس لو سَلِما

وحسرةُ الدين والدنيا على عُمر [٣]

---

(١) « لعا » : كلمة توجع تقال للعاثر ، والزباء : الداهية الشـديدة ، أو الناقة قد كثر الشعر فى وجهها وتخايلت طلاله أمام عينيها أشباحا فتذعر وتنفر ، وموضع هذه الكلمة بياض بالأصل ، وقوله « لم تنفر من الذعر » اشارة الى المثل المشهور « كل ازب نفور » ، ويروى البيت على وجـه آخر ، وهو :

واعثرت آل عباس — لعالهم — بذيل رباء من بيض ومن سـمر

وقال ابن بدرون فى تفسيرها : « قوله بذيل رياء من بيض ومن سمر . تنبيها على كثرة عدد عبيدهم — يعنى العباسيين — وقدرتهم على السلاح » قلت : وتنبيها على تعدد الوان هـؤلاء العبيد ، فمنهم الترك والعجم والروم والزنج ، والبيض والسمر .

(٢) يبدأ الشاعر من هذا البيت حديثه فى رثاء بنى الأفطس ، اذ كانوا أول القصد ومدار القول وسبب الادكار ومبعث الاعتبار .

(٣) هو أبو محمد عمر المتوكل بن المظفر .

سقَتْ ثَرَى الفضلِ والعباس هامِيَةٌ
تُعْزَى إليهم سَماحاً لا إلى المطر [1]

ثلاثةٌ ما رأى السعدان مثلَهمُ
وأخبر ولو عزِزا فى الحوت بالقمر [2]

ثلاثةٌ ما ارتَقَى النَّسران حيث رَقُوا
وكلُّ ما طار من نَسْرٍ ولم يَطِرِ

ثلاثةٌ كذوات الدهر منذ نأَوا
عنى ، مضى الدهرُ لم يربعْ ولم يحُرِ [3]

ومرَّ من كلِّ شىء فيه أطيَبُهُ حتى التمتُّعُ بالآصالِ والبُكَرِ
أين الجلالُ الذى غضَّت مهابتَهُ قُلوبنا وعُيونُ الأَنجمِ الزُّهُرِ [4]
أين الإباءُ الذى أرْسَوا قواعدَه على دعائم من عِزٍ ومن ظَفَرِ
أين الوفاءُ الذى أصْفوا شرائعَه فلم يَرِدْ أحدٌ منها على كَدَرِ

كانوا رواسىَ أرضِ الله ، منذ مَضوْا
عنها اسْتطارت بمن فيها ولم تَقَرِ

كانوا مصابيحها فمذْ خبَوا عَثَرتْ
هذى الخليقةُ يا للهِ فى سَدَرِ [5]

---

(١) الفضل والعباس : ابنا المتوكل ، وقد قتلهما المرابطون حين اجتاحوا ارض بطليوس .
(٢) كذا بالاصل ، وفى غيره :

ثلاثة ما رأى العصران مثلَهمو فضلاً ولو عُزِّزوا بالشمس والقمر

(٣) لم يربع بفتح الباء : لم يقف .
(٤) مهابته : منصوب على السببية ، يعنى : غضت لمهابته قلوبنا .
(٥) السدر : الحيرة .

كانوا شَجَى الدهر فاستهوتْهُمُ خدَعٌ

منه بأَحلام عاد فى خطى الحضر[1]

وَيْلُمِّهِ مِن طَلُوبِ الثأْرِ مُدْرِكِه

منهم بأسدٍ سُراة فى الوغَى صُبُر[2]

منْ لى ولا مَنْ بهمْ إن أظلمَتْ نُوَبٌ

ولم يكن ليلُها يُفْضِي إلى سَحرِ[3]

منْ لى ولا مَنْ بهمْ إن عُطِّلتْ سُننٌ

وأُخفيتْ ألسُنُ الآثارِ والسِّيَرِ

مَنْ لى ولا مَنْ بهم إن أَطبقتْ مِحَنٌ ولم يكن وِرْدُها يَدعو إلى صَدَرِ

على الفضائلِ إلا الصبرَ بَعدَهمُ سلامُ مُرتَقِبٍ للأَجرِ منتظرِ

يرجو عسى وله فى أُختها أَمَلٌ

والدهرُ ذو عُقَبٍ شَتَّى وذو غُيرِ

قَرَّطتُ آذانَ مَن فيها بفاضحةٍ

على الحسانِ حَصَى الياقوتِ والدُّرَرِ

سَيَّارةٍ فى أَقاصى الأَرضِ قاطعةٍ

شَقَاشِقاً هَدَرَتْ فى البدْوِ والحَضَرِ

مُطَاعةِ الأَمرِ فى الأَلبابِ قاضيةٍ من المسامع مالَم يُقضَ من وَطَرِ

---

(١) فى رواية اخرى : « فى خطى الخطر » .

(٢) ويروى عجز البيت « لو كان دينا على الايام ذى عسر » .

(٣) ويروى صدر البيت « من لى ومن لهمو ان اظلمت نوب » .

وكان أبو محمد هذا[1] يكتب للمتوكل على الله ، ونمتْ حاله معه ؛ وهو أحد كتَّاب المغرب ، وممن جمع منهم فضيلتى الكتابة والشعر، على أنه مُقِلٌّ من النظم ، لم يثبت له منه إلا يسير بالنسبة إلى غزارة آدابه ونباهة قدره ؛ وسيمر من مختار رسائله فى موضعه من هذا الكتاب ما يدل على ما وصفناه به .

حكى عن نفسه رحمه الله أنه كان بين يدى مؤدِّبه ، وسنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة ، فعنَّ للمؤدِّب أن قال :

* الشِّعْر خُطَّةُ خَسْفِ *

وجعل يردد هذا القول . قال الوزير أبو محمد رحمه الله : فكتبت فى لوحى مجيزاً له :

* لكل طالبِ عُرْفِ *

ثم خطر لى بيت ثان ، وهو :

للشيخ عيْبَةُ عيْبِ وللفتى ظَرْفُ ظَرْفِ

قال : فنظر إلىَّ المؤدب وقال : يا عبد المجيد ، ما الذى تكتب ؟ فأريته اللوح ؛ فلما رآه لطمنى وَعرك أُذنى وقال : لا تشتغل بهذا ! وكتب البيتين عنده[2] .

---

(١) يعنى ابن عبدون ناظم هذا الشعر .

(٢) مؤدبه هذا — كما جاء فى نفح الطيب — هو ابو الوليد بن ضابط النحوى المالقى ، وكان فى ذلك الوقت شيخا يستجدى بالشعر ، فكانما اراد ابن عبدون — وهو لم يزل صبيا بعد — التعريض به لاتخاذه الشعر سببا الى طلب العرف .

وروى ابن خاقان فى القلائد ، ان الذى نظم صدر البيت « الشعر خطة خسف » هو المتوكل ابن الأفطس ، ثم ارتج عليه ، فاجازه ابن عبدون .

اما ابن بسام فى الذخيرة فيروى الخبر على نحو ما رواه المراكشى .

والعيبه : الظرف والوعاء .

ومن غزارة حفظه رحمه الله ما حدَّث الوزير الأَجلُّ أبو بكر محمد ابن الوزير أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن عبد الملك ابن زهر – وكان أبو بكر هذا قد مات عن سن عالية ، نيَّف على الثمانين [1] – قال :

---

(١) كان مولده – فيما يروى – سنة ٥٠٧ وتوفى سنة ٥٩٥ وهى السنة التى لقيه فيها المراكشى بمراكش كما سيأتى بعد .

وقد ذكره ابن دحية فى كتابه « المطرب من أشعار المغرب » فقال : كان شيخنا الوزير ابو بكر بن زهر بمكان من اللغة مكين ، ومورد من الطب عذب معين ، وكان يحفظ شعر ذى الرمة وهو ثلث لغة العرب ، مع الاشراف على جميع أقوال أهل الطب ، والمنزلة العليا عند أصحاب المغرب ، مع سمو النسب ، وكثرة الأموال والنشب . ومن شعره الذائع قوله :

وَمُوَسَّدين على الأَكفِّ خدودَهم ... قد غالهم نومُ الصباح وغالنى

مازلت أَسقيهم وأَشرب فضلهم ... حتى سكرتُ ونالهم ما نالنى

والخمر تعلم كيف تأْخذ ثأْرها ... إِنى أَملْتُ إناءها فأَمالنى !

وروى أنه كان بمراكش فى أواخر القرن السادس ، وقد فارق باشبيليه طفلا له ، فذكره وحن اليه ، فانشأ يقول متشوقا :

ولى واحد مثلُ فرْخ القَطا ... صغيرٌ تخلَّف قلبى لديْه

وأُفرِدْتُ عنه ، فياوحشتَا ... لذاك الشُّخيْصُ وذاك الوُجيْه !

تَشَوَّقنى وتشَوَّقْتُه ... فيبكى علىَّ وأَبكى عليه

وقد تعب الشوق ما بيننا ... فمنه إلىَّ ومنى إليه !

فبلغت هذه الأبيات أبا يوسف المنصور سلطان المغرب ، فاخذته لذلك رقة ، وأراد أن يفاجىء أبا بكر بما يسره ، من غير أن يفارق حضرته بمراكش ، فارسل مهندسين الى اشبيلية ، وأمرهم أن يحيطوا علما ببيوت ابن زهر وحارته ، ثم يبنوا مثلها فى مراكش ، ففعلوا ما أمرهم فى أقرب مدة ، وفرشها بمثل فرشه ، وجعل فيها مثل آلته ، ثم أمر ان ينقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه الى تلك الدار ، ثم احتال عليه حتى جاء الى ذلك الموضع ، فرآه أشبه شىء ببيته وحارته ، فتحير لذلك وظن أنه نائم وأن ذلك احلام ، فقيل له ادخل البيت الذى يشبه بيتك ، فدخله ، فاذا ولده الذى تشوق اليه يلعب فى البيت ، فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ولا يعبر عنه !

« بينا أنا قاعد فى دهليز دارنا وعندى رجل ناسخ أمرته أن يكتب لى كتاب الأغانى ، فجاء الناسخ بالكراريس التى كتبها ؛ فقلت له : أين الأصل الذى كتبتَ منه لأقابل معك به قال : ما أتيت به معى ؛ فبينا أنا معه فى ذلك إذ دخل الدهليزَ علينا رجلٌ بذُّ الهيئة ، عليه ثياب غليظة أكثرُها صوف ، وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها ؛ فحسبتُه لما رأيته من بعض أهل البادية ، فسلَّم وقعد وقال لى يابنىّ ، استأذن لى على الوزير أبى مروان ؛ فقلت له : هو نائم ؛ هذا بعد أن تكلفتُ جوابه غايةَ التكلف ؛ حملنى على ذلك نزوةُ الصِّبا وما رأيتُ من خشونة هيئة الرجل ؛ ثم سكت عنى ساعة ، وقال : ما هذا الكتاب الذى بأيديكما ؟ فقلت له : ما سؤالك عنه ؟ فقال : أحب أن أعرف اسمه ، فإنى كنت أعرف أسماء الكتب ! فقلت : هو كتاب الأغانى : فقال إلى أين بلغ الكاتب منه ؟ قلت : بلغ موضع كذا ، وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قالَبه ، فقال : وما لكاتبك لا يكتب ؟ قلت : طلبتُ منه الأصل الذى يكتب منه لأعارض به هذه الأوراق ، فقال لم أجئْ به معى ؛ فقال : يا بنىّ ، خُذ كراريسك وعارِض ؛ قلت : بماذا ؟ وأين الأصل ؟ قال : كنت أحفظ هذا الكتاب فى مدة صباى ؛ قال : فتبسمت من قوله ، فلما رأى تبسُّمى قال : يا بنى أمسك علىَّ ؛ قال : فأمسكت عليه وجعل يقرأُ ، فوالله إن أخطأ واواً ولا فاءً ؛ قرأ هكذا نحواً من كراستين ، ثم أخذت له فى وسط السِّفر وآخره ، فرأيت حفظَه فى ذلك كلِّه سواء .

« فاشتد عجبي ، وقمت مسرعاً حتى دخلت على أبي[1] فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل ؛ فقام كما هو من فَوْره ، وكان ملتفًّا برداءٍ ليس عليه قميص ، وخرج حاسر الرأس حافى القدمين لا يَرْفُقُ على نفسه ، وأنا بين يديه ، وهو يُوسعنى لوماً ، حتى ترامى على الرجل وعانقه ، وجعل يقبِّل رأسه ويديه ويقول : يا مولاى اعذرنى ، فوالله ما أَعْلَمَنى هذا الجِلْفُ إلا الساعة ؛ وجعل يسبُّنى ، والرجل يُخَفِّض عليه ويقول : ما عرفنى ؛ وأبى يقول : هَبْهُ ما عَرفك ، فما عُذرهُ فى حُسن الأدب .

ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدَّثا طويلا ؛ ثم خرج الرجل وأبى بين يديه حافياً حتى بلغ الباب ، وأمر بدابته التى يركبها فأُسْرِجت ، وحلف عليه لَيَرْكبنَّها ثم لا ترجع إليه أبداً .

«فلما انفصل قلت لأبى : من هذا الرجل الذى عظَّمته هذا التعظيم ؟ قال لى : اسكت ويحك ! هذا أديب الأندلس وإمامها وسيِّدُها فى علم الآداب ، هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، أيسرُ محفوظاته كتابُ الأغانى ؛ وما حِفْظُهُ فى ذكاء خاطره وجودة قريحته ؟ »

---

(١) هو الوزير أبو مروان عبـد الملك بن زهر .

[أبو بكر بن زهر]

سمعت هذه الحكاية من أبي بكر بن زهر رحمه الله حين دخلت عليه وقد وفد على مراكش لتجديد بيعة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف في شهور سنة ٥٩٥ .

وأنشدني الوزير أبو بكر المذكور في هذا التاريخ لنفسه — بعد أن سألني عن اسمي وعن نسبي فتسمَّيت وانتسبت وتسمى لي هو رحمه الله وانتسب من غير استدعاءٍ ، تواضعاً منه وشَرفَ نفس وتهذيبَ خُلق ، قدس الله روحه وسامحه — :

لاح المَشيبُ على رأسي فقلت له :
الشَّيبُ والعيبُ لا والله ما اجْتَمَعا

يا ساقيَ الكأْس لا تعدِلِ إليَّ بها
فقد هَجرتُ الحُميَّا والحميمَ معا

وأنشدني رحمه الله وقال احفظ عني :

إنيِّ نظرتُ إلى المرآة إذ جُليت
فأَنكَرَتْ مُقلتايَ كلَّ مارأتا

رأيت فيها شُيَيْخاً لست أعرفه
وكنت أعرفُ فيها قبل ذاك فَتَى[1]

---

(١) اورد نفح الطيب بعد هذين البيتين ·

فقلت أين الذى بالأَمس كان هنا
متى ترَّحلَ من هذا المكان متى ؟

فاستضحكتْ ثم قالت وهى معجبةٌ
إن الذى أنكرَتْه مقلتاك أتى

كانت سُليمى تنادِي : ياأُخَيَّ !وقد
صارت سُليمى تنادِي اليوم :يا أَبتا !

هذا ما أنشدنى لنفسه بلفظه ، رحمه الله ؛ وله شعر كثير أجاد فى أكثره ؛ وأما الموشحات خاصة فهو الإمام المقدَّم فيها ، وطريقته هى الغاية القصوى التى يجرى كلٌّ من بعده إليها ؛ هو آخر المجيدين فى صناعتها ، ولولا أن العادة لم تجر بإيراد الموشحات فى الكتب المجلدة المخلدة(١) لأوردتُ له بعض ما بقى على خاطرى من ذلك .

[رجع القول إلى ملوك الطوائف]

ثم رجع بنا القول إلى ذكر أحوال الأندلس ؛ فهؤلاء الرؤساءُ الذين ذكرنا أسماءهم هم الذين ملكوا الأندلس بعد الفتنة وضبطوا نواحيها ؛ واستبدَّ كلٌّ رئيس منهم بتدبير ما تغلب عليه من الجهات وانقطعت الدعوة للخلافة وذِكر اسمها على المنابر ؛ فلم يُذكر خليفة أموى ولا هاشمى بقطر من أقطار الأندلس ، خلا أيام يسيرة دُعى فيها لهشام المؤيد بن الحكم المستنصر بمدينة إشبيلية

---

(١) قلت : يظهر أن الموشحات الى ذلك العهد ـ سنة ٦٢١ ـ لم تكن عندهم من الادب الذى يستحق التدوين والتخليد ، وانما كانت فنا شعبيا لا يبلغ مقام الشعر ، هذا الى أن موازين الأدب فى الأندلس كانت تجعل الأدب المشرقى هو القدوة وعلم المشارقة هو العلم ، كما ينظر بعضنا اليوم الى الثقافة الأوربية ، جهلا بمقدار نفسه ، وقد أسرت الى بعض هذا فيما كتبت عن ابن عبد ربه فى مقدمة طبعة كتاب العقد التى اخرجتها المكتبة التجارية سنة ١٩٤١ ـ وعلى هذا الأساس كانوا ينظرون الى الموشحات ، اذ كانت فنا أندلسيا خاصا ليس من فنون المشارقة !

انظر نماذج من موشحات ابن زهر فى الجزء الاول من نفح الطيب .

وأعمالها ، حسبما اقتضته الحيلة واضطر إليه التدبير ، ثم انقطع ذلك حسبما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى [1] .

فأشبهت حالُ ملوك الأندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا بن دارا [2] .

[أولية المرابطين بالأندلس]

ولم يزالوا كذلك وأحوال الأندلس تضعف وثغورها تختلّ ، ومُجاورِوها من الروم تشتد أطماعهم ويقوى تشوُّفهم ؛ إلى أن جمع الله الكلمة ، ورأبَ الصَّدع ، ونَظَم الشَّمل ، وحسَمَ الخلاف ، وأعز الدين ، وأعلى كلمة الإسلام ، وقطع طمع العدو ؛ بيُمن نَقيبه أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتونى ، رحمه الله ؛ ثم استمر على ذلك ابنُه علىّ ، وأعادا إلى الأندلس معهود أمنها وسالف نضارة عيشها ؛ فكانت الأندلس فى أيامهما حرماً آمناً ؛ وأولُ دعاءٍ دُعى للخلافة العباسية - أبقاها الله - على منابر الأندلس فى أيامهما ؛ ولم تزل الدعوة العباسية وذِكر خلفائها على منابر الأندلس والمغـرب ؛ إلى أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصامدة فى بلاد السوس [3] ، على ما يأتى بيانه إن شاء الله عز وجل .

---

(١) انظر ص ١٥٢ .

(٢) قتله الاسكندر الأكبر . انظر الهامش رقم ٢ ص ١٣٠ من هذا الكتاب .

(٣) انظر ما كتبناه فى المقدمة عن البلد الذى ألف فيه المراكشى كتابه : فهنا دلالة على هواه مع العباسيين ، ولوزير من وزراء الخليفة العباسى كان املاء كتابه ، فهل نجد هنا أيضا دلالة على خصومة سياسية بينه وبين الموحدين بنى تومرت الذين أكرهوه على الاغتراب عن وطنه ؟

فصل

ملك بنى عباد باشبيلية

وإذ ذكرنا أحوال ملوك الأندلس المتغلّبين عليها بعد الفتنة على ما شرطنا من الإجمال ، فلنرجع إلى ذكر مملكة إشبيلية خصوصاً من جزيرة الأندلس ، وذكرِ من مَلكها ؛ فبذلك يتصل نَسقُ الأخبار كما نريده ، ويتطرق لنا القول فيما نقصده ؛ لأن مَلك إشبيلية هو كان السبب فى دخول يوسف بن تاشفين مع المرابطين الأندلس ، على ما سيذكرُ إن شاء الله تعالى ؛ فنقول :

أما أحوال إشبيلية فإنها كانت فى طاعة الفاطميين ، أعنى : على ابن حمود ، والقاسم بن حمود ، ويحيى بن على بن حمود : أيام كان الأمر دائرا بينهم على ما تقدم ذكره[1] ؛ فلما زحف يحيى بن على بالبرابر إلى قرطبة ، وهرب القاسم بن حمود منها وقصد إشبيلية — وقد كان ابناه محمد والحسن[2] مقيمين بها — اجتمع أمر أهل إشبيلية واتفق رأيهم على إخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أبيهما ؛ فأخرجوهما ؛ وجاء القاسم فمنعوه دخول البلد أيضاً ، واتفقوا

---

(١) انظر ص ٩٠ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٢) يعنى : ابنى القاسم .

على تقديم رجل منهم يرجع إليه أمرهم وتجتمع به كلمتهم؛ فتوارد اختيارهم بعد مخض الرأى وتنقيح التدبير على القاضى أبى القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى[1] ؛ لما كانوا يعلمونه من حصافة عقله ، وسعة صدره ، وعلو همته ، وحسن تدبيره ؛ فعرضوا عليه ماراوه من ذلك ، فتهيب الاستبداد ، وخاف عاقبة الانفراد أولا ، وأبى ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجالا سماهم ، لكى يكونوا له أعواناً ووزراء وشركاء ؛ لا يقطع أمرًا دونهم ، ولا يُحدث حدثاً إلا بمشورتهم . . .

وهولاء المسمون هم : الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى ومحمد بن يريم الألهانى ، وأبو الأصبغ عيسى بن حجاج الحضرمى ، وأبو محمد عبد الله بن على الهوزنى ، فى رجال آخرين ذهبت عنى أسماؤهم إلا أنى أعرف قبائلهم وبيوتهم . . .

ففعلوا ذلك وأجابوه إلى ما أراد ؛ ولم يزل يدبر أمر إشبيلية وهؤلاء المذكورون وزراؤه .

وكان له من الولد إسماعيل ، وهو الأكبر ، يكنى أبا الوليد ؛ وعباد ، يكنى أبا عمرو ؛ فأما إسماعيل فخرج إلى لقاء البربر بعد أن

---

(١) كان قاضيا لمدينة اشبيلية . أصله من لخم ، من ولد النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة وفد جده السابع ، واسمه نعيم ، الى الاندلس . وكان قبل ذلك مصريا من اهل العريش ، فاقام بقرية بقرب تومس من اقليم طشانة من أرض اشبيلية . ومحمد بن اسماعيل هذا اول من نبغ من ولده ، فلما ولى قضاء اشبيلية احسن السياسة مع الرعية والملاطفة بهم ، فرمقته القلوب ، فلما كانت الفتنة وانقضى امر يحيى بن على المعتلى ، ولاه اهل اشبيلية أمرهم .

حدث لأبيه أمل فى التغلب على ما كان البربر يملكونه من الحصون القريبة من إشبيلية ، بعسكر من جند إشبيلية ، فالتقى هو وصاحب صنهاجة ؛ فأسلمت إسماعيل عساكره وكان أول قتيل ،وقطع رأسه وسير به إلى مالقة ، إلى إدريس بن على الفاطمى كما تقدم[1] .

وبقى الأمر كذلك ، والقاضى أبو القاسم يدبر الأمور أحسن تدبير ، وكان صالحاً مصلحاً ، إلى أن مات فى شهور سنة ٤٣٩ .

(١) انظر ص ١١٣ ـ ١١٤ .

ولاية المعتضد بالله العبادى

ثم ولى ما كان يليه بعده من أمور إشبيلية وأعمالها ، ابنه أبو عمرو عبّاد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، فجرى على سنَن أبيه فى إيثار الإصلاح وحسن التدبير وبسط العدل ، مدة يسيرة .

ثم بدا له أن يستبد بالأُمور وحده ؛ وكان شهماً صارماً حديد القلب شجاع النفس بعيد الهمة ذا دهاءٍ ، وواتته مع هذا المقادير ؛ فلم يزل يعمل فى قطع هؤلاء الوزراءِ واحدا واحداً ، فمنهم من قتله صبراً ، ومنهم من نفاه عن البلاد ، ومنهم من أماته خمولا وفقراً ؛ إلى أن تم له ماأراده من الاستبداد بالأَمر ؛ وتلقب بالمعتضد بالله .

وقيل إنه ادعى أنه وقع إليه هشام المؤيد بالله ، ابن الحكم المستنصر بالله ؛ وكان الذى حلمه على تدبير هذه الحيلة ما رآه من اضطراب أهل إشبيلية ، وخاف قيام العامة عليه ، لأَنهم سمعوا بظهور من ظهر من أمراء بنى أُمية بقرطبة : كالمستظهر ، والمستكفى ، والمعتد[1] ؛ فاستقبحوا بقاءهم بغير خليفة ، وبلغه أَنهم يطلبون من أولاد بنى أُمية من يقيمونه ؛ فادعى ما ادعاه من ذلك ؛ وذكر أنهشاماً عنده بقصره ، وشهد له خواصٌّ من حشمه ، وأنه فى صورة الحاجب له

(١) انظر ص ١٥٠ ـ ١٠٨

المنفذ لأموره ؛ وأمر بالدعاء له على المنابر ؛ فاستمر ذلك من أمره سنين ، إلى أن أظهر موته ونعاه إلى رعيته فى سنة ٤٥٥ واستظهر بعهدٍ عهده له هشام المذكور فيما زعم ، وأنه الأمير بعده على جميع جزيرة الأندلس[1] .

ولم يزل المعتضد هذا يدوخ الممالك وتدين له الملوك من جميع أقطار الأندلس .

وكان قد اتخذ خُشباً فى ساحة قصره جللها برؤوس الملوك والرؤساء عوضاً عن الأشجار التى تكون فى القصور ؛ وكان يقول : فى مثل هذا البستان فليُتنزَّه .

وجملة أمر هذا الرجل أنه كان أوحد عصره شهامة وصرامة وشجاعةَ قلب وحِدَّةَ نفس ؛ كانوا يشبهونه بأبى جعفر المنصور من ملوك بنى العباس ؛ كان قد استوى فى مخافته ومهابته القريبُ والبعيد ، لاسيما منذ قَتَل ابنه وأكبر ولده المرشحَ لولاية عهده صبراً .

وكان سبب ذلك أن ولده المذكور — وكان اسمه اسماعيل — كان يبلغه

---

(١) ينسب أبو محمد بن حزم الظاهرى فى كتاب « نقط العروس » هذه الواقعة الى أبيه القاضى محمد بن عباد ، ويرويها على الوجه الآتى :

« أخلوقة لم يقع فى الدهر مثلها ، فانه ظهر رجل يقال له خلف الحصرى ، بعد نيف وعشرين سنة من موت هشام بن الحكم المنعوت بالمؤيد ، وادعى أنه هشام ، فبويع وخطب له على جميع منابر الأندلس فى أوقات شتى ، وسفكت الدماء وتصادمت الجيوش فى أمره ، وأقام المدعى أنه هشام نيفا وعشرين سنة ، والقاضى محمد بن اسماعيل فى رتبة الوزير بين يديه ، والأمر اليه ... » .

وانظر ص ٨٦ و ٩٨ من هذا الكتاب : دعوى الناصر ابن أبى عامر ، ودعوى على بن حمود ان كلا منهما ولاه هشام المؤيد عهده !

عنه أخبار مضمونُها استطالةُ حياته وتمنّى وفاته ، فيتغاضى المعتضد ويتغافلُ تغافل الوالد ، إلى أن أدّى ذلك التغافلُ إلى أن سكر إسماعيل المذكور ليلةً وتسوّرَ سورَ القصر الذى فيه أبوه ، فى عُبْدانٍ وأراذل معه ، ورام الفتك بأبيه ؛ فانتبه البوابون والحرس ، فهرب أصحاب إسماعيل ، وأُخذ بعضُهم فأقر وأخبر بالكائنة على وجهها ؛ وقيل إن إسماعيل لم يكن معهم وإنما بعثهم على ذلك وجعل لمن قَتل أباه المعتضد جُعْلاً سنيًّا ، فالله أعلم ؛ فقبض المعتضد على ابنه إسماعيل هذا واستصفى أمواله وضرب عنقه ؛ فلم يبق أحد من خاصته إلا هابه من حينئذ .

وبلغنى أنه قتل رجلا بمكة كان يدعو عليه بها : كان هذا الرجل من بادية إشبيلية . كان المعتضد قد وضع يده على بعض مالٍ لهذا الرجل الأعمى ، وذهب باقى مالِه حتى افتقر ؛ ورحل إلى مكة ، فلم يزل يدعو على المعتضد بها إلى أن بلغه عنه ذلك ، فاستدعى بعض من يريد الحج وناوله حُقًّا فيه دنانير مطليّة بالسم ، وقال : لا تفتح هذا حتى تدفعه إلى فلان الأعمى بمكة ؛ وسلم عليه عنًّا ! فاتفق أن سَلِم الرجلُ ومعه الحق ، فحين وصل مكة لقى الأعمى ودفع إليه الحُق ، وقال : هذا من عند المعتضد ؛ فأنكر ذلك الأعمى ، وقال : كيف يظلمنى بإشبيليه ويتصدق علىّ بالحجاز ؟ فلم يزل الرجل يُخَفِّضه إلى أن سكن وأخذ الحق ، فكان أولَ شيء فعله أن فتح الحُق وعمد إلى دينار من تلك الدنانير فوضعه فى فمه ، وجعل يقلِّب سائرها بيده ، إلى أن تمكن منه السم ، فما جاء الليل حتى مات ؛ فاعجب لرجل بقاصية المغرب يعتنى بقتل رجل بالحجاز !

وقتل على هذه الصورة رجلا من المؤذنين من أهل إشبيلية ؛ فرّ منه إلى طليطلة ، فكان يدعو عليه بها فى الأسحار ، مقدِّراً أنه أمن غائلته إذ صار فى مملكة غيره[1] ؛ فلم يزل يُعمِل فيه الحيلة إلى أن بعث من قتله فجاءه برأسه .

وكان أكبر من يناويه من المتغلبين المجاورين له وأشدهم عليه ، البربر : صُنهاجة وبنو بَرْزَال الذين بِقَرْمونة وأعمالها من نواحى إشبيلية فلم يزل يصرِّف الحيلة تارة ويجهِّز الجيوش أخرى إلى أن استنزلهم ؛ ففرّق كلمتهم وشتَّت منتظِم أمرهم ونفاهم عن جميع تلك البلاد وصفتْ له أموره .

كان له عَيْنٌ بقرمونة يكتب له بأخبار البربر ؛ بَلَغ من لطف حيلة المعتضد وقد أراد أن يكتب إلى ذلك الرجل الذى جعله عيناً له بقرمونة كتاباً فى بعض أمره ، أن استدعى رجلا من بادية إشبيلية شديد البَله كثير الغفلة ، وقال له : اخلع ثيابك . وألبسه جُبة جعل فى جيبها كتاباً وخاط عليه ، وقال له : اخرج إلى قرمونة ، فإذا وصلت بقربها فاجمع حُزمة حطب وادخل بها البلد وقِفْ حيث يقف أصحاب الحطب ، ولاتَبِعْهَا إلا لمن يشتريها منك بخمسة دراهم ؛ وكان قد قرر هذا كلَّه مع صاحبه الذى بقرمونة ؛ فخرج البدوى كما أمره المعتضد ، فلما قرب من قرمونة جمع حُزمة من الحطب ، ولم يكن قبل هذا يعانى جمعه ؛ فجمع حُزمة صغيرة ودخل بها البلد ، ووقف فى موقف الحطابين ، فجعل الناس

---

(1) كان على طليطلة فى ذلك الوقت بنو ذى النون .

يمرون عليه ويسومون منه حُزمته ، فإذا قال لا أبيعها إلا بخمسة دراهم ، ضحك من يسمع هذا القول منه ومرَّ عنه ؛ فلم يزل كذلك إلى إن أجنَّه الليل والناس يسخرون منه ، فبعضهم يقول : هذا آبَنُوس ! ويقول الآخر : لا بل هو عُودٌ هندى ! وما أشبه هذا ؛ حتى مرَّ به صاحب المعتضد ، فقال له : بكم تبيع حزمتك هذه ؟ فقال : بخمسة دراهم ! فقال : قد اشتريتها فاحملها إلى البيت ؛ فقام يحملهاوالرجل بين يديه حتى بلغ بيته ، فوضع الحزمة ودفع إليه الخمسة الدراهم ؛ فلما أخذها وهم بالانصراف قال له : أين تريد فى هذا الوقت وقد علمتَ خوف الطريق ؟ فبِت الليلة عندى فإذا أصبحتَ رجعت إلى منزلك .

فأجابه ؛ فأدخله إلى بيت وقدّم له طعاماً ، وسأله كأنه لا يعرفه : من أين أنت ؟ فقال : أنا من بادية إشبيلية ؛ قال : يا أخى ، ما الذى جاء بك إلى هذا الموضع وقد علمت نكد البربر وشؤمهم وهوانَ الدماء عليهم فقال : حملتْنى على هذا الحاجة ! ولم يُظهر له أن المعتضد أرسله ؛ فلم يزل الرجل يحادثه إلى أن أخذه النوم ، فلما رأى غلبةَ النوم عليه قال له : تجرَّد من ثوبك هذا فهو أهنأُ لنومك وأرْوحُ لجسمك ! فتجرَّد الرجل ونام ، وأخذ صاحب المعتضد الجبةَ ففتق جيبها ، واستخرج الكتاب فقرأه وكتب جوابه ، وجعله فى جيب الجبة وخاط عليه كما كان ؛ فلما أصبح الرجل لبس جبته ورجع إلى إشبيلية وقصد باب دار الإمارة واستأذن ، فأُدخل على المعتضد ، فقال له : اخلع تلك الجبة ؛ وكساه ثياباً حسانا فرح بها البدوى ، وخرج من عنده فرحاً يَرَى أنه قد

خاتم عليه ؛ ولم يعلم فيمَ ذهب ولا بم جاء ؛ وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة فقرأه وتمم ما أراد من أمره .

وله فى تدبير ملكه وإحكام أمره حيل وآراء عجيبة لم يُسبق إلى أكثرها ، يطول تعدادها ويخرج عن حد التلخيص بسطها .

ولما قَتل ابنه اسماعيل — كما تقدم — وكان قد لقبه المؤيد ، عهد بعده إلى ابنه أبى القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، ولقَّبه بالمعتمد على الله ؛ فحسنتْ سيرةُ أبى القاسم هذا فى حياة أبيه وبعد وفاته .

[نشأة المرابطين فى مراكش]

وفى إمارة المعتضد بالله هذا نزل لمتونة ومسوفةُ — قبيلتان عظيمتان من البربر — رحبةَ مراكش ؛ فتخيروها دار ملكهم لتوسُّطها البلاد ؛ وكانت إذ نزلوها غيضةً لاعُمران بها ، وإنما سميت بعبدٍ أسود كان يستوطنها يُخيف الطريق اسمه مراكش[1] ؛ فاستوطنها البربر كما ذكرنا وقدموا عليهم رجلا منهم اسمه تاشفين بن يوسف .

وكان المعتضد فى كل وقت يستطلع أخبار العُدوة : هل نزل البربر رحبة مراكش ؟ وذلك لما كان يراه فى ملحمةٍ كانت عنده أن هؤلاء القوم خالِعُوه أو خالعوا ولدِه ومُخرجوه من ملكه ؛ فلما بلغه نزولهم

(١) ويروى ابن خلكان أن « مراكش » معناها « امش مسرعا » بلغة المصامدة ، وكان موضعها مأوى للصوص ، وكان المارون فيه يقولون لرفقائهم هذه الكلمة ، فعرف الموضع بها !

جمَع ولده وجعل ينظر إليهم مصعِّداً ومصوِّباً ويقول : ياليت شعرى مَن تناله مَعَرَّةُ هؤلاء القوم ، أنا أو أنتم ؟ فقال له أبو القاسم من بينهم : جعلنى الله فداك وأنزل بى كل مكروه يريد أن يُنزله بك ! فكانت دعوةً وافقت المقدار .

وكان نزول لمتونة ومسوفة قبيلتَى المرابطين رحبة مراكش ، فى صدر سنة ٤٦٣ وانفصالهم عنها جملةً واحدة فى وسط سنة ٥٤٠ ؛ فكانت مدة إقامتهم فى الملك منذ نزلوا رحبة مراكش إلى أن انفصلوا عنها وأخرجهم عنها المصامدة ، نحواً من ست وسبعين سنة .

ثم توفى المعتضد بالله فى شهر رجب من سنة ٤٦٤ ، واختُلف فى سبب وفاته ، فقيل إن ملك الروم سمَّه فى ثياب أرسل بها إليه ؛ وقيل إنه مات حَتْفَ أنفه ، فالله أعلم .

ولاية أبي القاسم بن عباد المعتمد على الله

ثم قام بالأمر من بعده ، ابنه أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد إسماعيل بن عباد ؛ وزاد إلى المعتمد على الله : الظافر بحول الله .

وكان المعتمد هذا يُشَبَّه بهارون الواثق بالله من ملوك بني العباس ، ذكاء نفْس وغزارةَ أدب ؛ وكان شعره كأنه الحلل المنشَّرة ، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب مالم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس ؛ وكان مقتصراً من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضمّ إليه ؛ وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية مالا يحصى ، كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة ، إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة ؛ وفي الجملة فلا أعلم خصلة تُحمد في رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم ، وضَرب له فيها بأوفى سهم ؛ وإذا عُدَّتْ حسناتُ الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدُها ، بل أكبرها .

ولِي أمرَ إشبيلية بعد أبيه ، وله سبع وثلاثون سنة[1] ؛ واتفقت له المحنة الكبرى بخلعه وإخراجه عن ملكه في شهر رجب الكائن في سنة ٤٨٤ ؛ فكانت مدة ولايته إلى أن خُلع وأُسر : عشرين سنة ؛ كانت له في أضعافها مآثر أعْيا على غيره جمعها في مائة سنة أو أكثر منها : كانت له رحمه الله همة في تخليد الثناء وإبقاء الحمد .

(١) لعل صوابها : سبع وعشرون سنة .

[عبد الجليل بن وهبون الشاعر]

كان من جملة شعرائه رجل من أهل مدينة مُرْسِية اسمه عبد الجليل بن وهبون ، كان حسن الشعر لطيف المأخذ حسن التوصُّل إلى دقيق المعانى ؛ أنشد يوماً بين يدى المعتمد رحمه الله بعضُ الحاضرين ببيتين لعبد الجليل ابن وهبون هذا قالهما قديماً قبل وصوله إلى المعتمد ، وهما . :

قلَّ الوفاءُ فما تلقاه فى أحد ولا يمرُّ لمخلوق على بالِ

وصار عندهم عنقاءَ مُغْرِبةً أومثلَ ما حدَّثوا عن ألفِ مثقال

فأُعجب المعتمد بهما وقال : لمن هذان البيتان؟ فقالوا : هما لعبد الجليل ابن وهبون أحد خدم مولانا ! فقال المعتمد عند ذلك : هذا والله اللؤْم البحت ؛ رجلٌ من خدامنا والمنقطعين إلينا يقول : «أو مثلَ ما حدَّثوا عن ألف مثقال » ! وهل يتحدث أحدٌ عنا بأَسوأَ من هذه الأُحدوثة ؟ ؟ وأمر له بألْف مثقال ؛ فلما دخل عليه يتشكر له قال له : يا أبا محمد ، هل عاد الخبرُ عِياناً ؟ قال : إى والله يامولاى . ودعا له بطول البقاء ؛ فلما هم بالانصراف قال له : يا عبد الجليل ، الآن حدِّث بها لاعنها ، يعنى ألف مثقال[1] .

---

(١) كان ابن وهبون صديقا لابن عمار ، فلعله هو الذى انشد المعتمد من شعره ووصل به حبله حتى صار من جلسائه . وقد حكي المقرى ان ابن وهبون كان يوما فى مجلس المعتمد وهو ينشد قول المتنبى فى سيف الدولة مستحسنا :

إذا ظفرتْ منك العيون بنظرة أثاب بها مُعيِي المطىِّ ورازمه

فقال ابن وهبون مرتجلا :

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنما تُجيد العطايا ، واللُّها تفتح اللَّها

تنبأ عُجْباً بالقريض ، ولو درى بأنك تروى شعرَه لتألَّهَا !

[رجع الحديث عن المعتمد بن عباد]

وله رحمه الله[1] شعر كثير برّز فى أكثره وأجادما أراد ، وسيمر منه فى أضعاف أخباره ما يشهد له بالتبريز عند ذوى التمييز ؛ فمما اختاره من شعره قوله :

عَلِّل فؤادَك قد أَبَلَّ عليلُ ... واغنَمْ حياتَك فالبقاءُ قليلُ

لو أنَّ عمرَك ألفُ عامٍ كاملٍ ... ما كان حقًّا أن يقالَ طويلُ

أكذا يقودُ بك الأسى نحو الرّدَى ... والعُودُ عودٌ والشَّمول شَمول

لا يَسْتَبيكَ الهمُّ نفسَك عَنْوَةً ... والكأسُ سيفٌ فى يديك صقيل

بالعقل تزدحمُ الهموم على الحشا ... فالعقل عندى أن تزولَ عُقولُ!

ومن شعره السيار ، لا بل الطيار ، قولُه فى مملوكٍ له صغيرٍ كان يتصرف بين يديه ، أهداه له صاحب طليطلة ؛ اسم المملوك سيف :

سَمّوه سيفاً وفى عينيه سيفانِ ... هذا لقتلى مسلولٌ وهذانِ

أما كفَتْ قَتلةٌ بالسيف واحدةٌ ... حتى أُتيحَ من الأجفان ثنتانِ

أَسَرْتُهُ وَثَنَانى غُنْجُ مُقلته ... أسيرَه ، فكلانا آسرٌ عانى

ياسيفُ أمْسِكْ بمعروف أسيرَ هَوىً

لا يبتغى منك تسريحاً بإحسان!

ومن شعره الرشيق المليح الخفيف الروح ، الذى حكى الماء سلاسة والصخر ملاسة ، قوله فى هذا المملوك وقد عذّر :

---

(١) يعنى المعتمد .

تَمَّ له الحسنُ بالعِذارِ واقترن الليلُ بالنهارِ

أَخْضرُ فى أبيضٍ تَبَدَّى ذلك آسِى وذا بَهَارِى

فقد حوى مجلسى تماماً إنْ كان من ريقه عُقَارى

وبينا هو يوماً فى قُبة له يكتب شيئاً ، أو يطالع ، وعنده بعض كرائمه ، فدخلت عليه الشمس من بعض الكُوَى الكائنةِ فيها ، فقامت دونه تستره من الشمس ، فقال رحمه الله بديهاً :

قامت لتحجبَ ضوءَ الشمس قامتُها

عن ناظرِى ، حُجِبتْ عن ناظرِ الغيَرِ

علماً لعمرك منها أنها قمرٌ

هل تَكسفُ الشمس إلا صورةُ القمر !

وبينا جارية من كرائمه قائمة على رأسه تسقيه والكأس فى يدها ، إذ لمع البرق فارتاعت ؛ فقال رحمه الله بديهاً :

رِيعَتْ من البرقِ وفى كفِّها برْقٌ من القهوةِ لَمَّاعُ

عجبتُ منها وهى شمسُ الضُّحا كيف من الأَنوارِ ترتاعُ !

وله مع هذا مَقَاطع حسان كان يرتجلها فى مجالس أُنسه ولاستدعاء خاصة جلسائه ، منعنى من استيفائِها قلةُ ما على خاطرى منها[1] .

---

(١) كتب الى الطبيب ابى محمد المصرى يستدعيه :

أيها الصاحبُ الذى فارقتْ عينِى ونفسى منه السنا والسناء=

وسيمر من شعره الذى قاله فى أيام محنته ما يفَجر الصم ، ويزعزع الشُم ؛ وكان لايستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً حَسَنَ الأَدوات ، فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأَحدقبله.

[أَبو الوليد بن زيدون]

فمن جملة وزرائه الوزير الأَجلُّ ذو الرياستين أَبو الوليد أَحمد ابن عبد الله بن أَحمد بن زيدون(١) ، ذو الأَدب البارع والشعر الرائع ، أَحد شعراء الأَندلس المجيدين وفحولها المبرِّزين ، كان إذا نسب أَنساك كُثيِّراً ، وإذا مدح أَزرى بزُهير ، وإذا فخر أَناف على امرئ القيس ؛ فمن جملة مقاطعه التى تشهد له بجودة الطبع وإتقان الصنعة قوله :

=نحن فى المجلس الذى يَهَبُ الرا حة والسمعَ والغنى والغناءَ

نتعاطى التى تُسَمَّى من اللذَّ ةِ والرقةِ الهوى والهواءَ

فأْتِه تُلْفِ راحةً ومُحَيًّا قد أَعَدَّا لك الحيا والحياءَ

وعلم أن طائفة من كتابه ووزرائه مجتمعون بالزهراء فى مجلس أنس ومسرة ، فكتب اليهم:

حسَدَ القصرُ فيكمو الزهراءَ ولعمرى وعمْركم ما أَساءَ

قد طلعتُم بها شموساً صباحاً فاطلعوا عندنا بدوراً مساءَ !

(١) كان ابن زيدون من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة ، وزر لابن جهور ، ثم فسد ما بينهما فحبسه ابن جهور ، واحتال ابن زيدون فى طلب صفحه فلم يظفر بطائل ، ففر من محبسه الى اشبيلية ، فاستخلصه ابن عباد لنفسه ، وله تاريخ مع ولادة بنت المستكفى تزخر به كتب الأدب. وقد توفى سنة ٤٦٣ باشبيلية ، وكان له ولد يكنى أبا بكر ، ولى الوزارة للمعتمد بن عباد بعد أبيه ، وقتل يوم سقوط قرطبة فى يد المرابطين .

بينى وبينكَ مالو شئتَ لم يضِع ... سِر إذا ذاعت الأسرارُ لم يَذِع

يابائعاً حظَّه منى ولو بُذلتْ ... لِىَ الحياةُ بحظِّى منه لم أبِع

يكفيكَ أنك إنْ حَمَّلتَ قلبىَ ما ... لا تستطيعُ قلوبُ الناسِ يَستَطِع

تِهْ أحتمِلْ ، واستَطِلْ أصْبِرْ ، وعِزَّ أَهُنْ

وَولِّ أُقبِل ، وقُل أسمع ، ومُر أُطِعِ !

وهو القائل – رحمه الله – يخاطب بنى جهور ، وكان قد وَزَرَ لهم قبل وزارته للمعتمد ؛ لأن أصله من مدينة قُرطبة ، فنالته منهم محنة ، فخرج عن قرطبة إلى إشبيلية وافداً على المعتمد ، فعلتْ رُتبته عنده ؛ فكان يبلغه عن بنى جهور ما يسوءُه فى نفسه وقرابته بقرطبة ، فقال يخاطبهم :

بنى جَهوَرٍ أحْرقتُمُو بجفائكم ... فؤادى ، فما بالُ المدائح تَعْبَقُ

تَعُدُّونَنى كالعنبرِ الوردِ ، إنما ... تَفوحُ لكم أنفاسُه حين يُحرَقُ

ومن نسيبه الذى يختلط بالروح رقة ويمتزج بأجزاءِ الهواءِ لطافة قصيدته التى قالها يتشوق ابنة المهدى «ولأّدة»[1] ، وهى بقرطبة وهو بإشبيلية[2] :

[أضحى التنائى بَديلاً من تَدَانينا

وناب عن طِيبِ لُقْيانا تَجافينا]

(١) كذا بالأصل ، وانما هى ولادة بنت المستكفى محمد بن عبد الرحمن الأموى . انظر ص ١٠٧ – ١٠٨

(٢) أثبت المؤلف من القصيدة مختارات ، فآثرنا اثبات ما أغفله بين علامتى الزيادة [ ]

بنتم وبِنَّا فما ابْتَلَّتْ جَوانحُنا شوقاً إليكم ولا جَفَّتْ مآقِينا

نَكَادُ حينَ تُناجيكُم ضمائرُنا يَقْضِي علينا الأَسى لولا تأَسِّينا

حَالتْ لفقدكِمُ أَيَّامُنا فغَدَتْ سُوداً ، وكانت بِكم بيضاً ليالينا

إذ جانبُ العيشِ طَلْقٌ من تألُّفِنا ومَوْرِدُ اللَّهْوِ صافٍ من تَصافينا

وإذ هَصرْنا غُصونَ الأُنس دانيةً قُطوفها فَجَنَيْنا منه ما شِينا

لِيُسْقَ عهدُكُم عهدُ السرور فما كُنتم لأَرواحنا إلا رياحينا

مَنْ مُبلغٌ مُلبِسينا بانتزاحِهِمُ حُزناً مع الدهرِ لا يَبْلى ويُبْلينا

إنَّ الزمانَ الذى مازال يُضحكُنا أُنْساً بِقربهمُ قد عاد يُبكينا !

غيظَ العدَى من تساقينا الهَوى فَدَعَوْا
بأَنْ نَغَصَّ فقال الدهرُ آمينا

فانحلَّ ما كان معقودًا بأَنفُسنا وانبَتَّ ما كان مَوصُولا بأَيدينا

وقد نكونُ وما يُخشَى تفرُّقُنا فاليومَ نحن وما يُرْجى تلاقينا

[ما حقُّنا أن تُقرُّوا عينَ ذى حسدٍ
بنا ، ولا أَن تَسُرّوا كاشحاً فينا

ياليت شعرى ولم نُعتبْ أَعادِيَكم هل نال حظًّا من العُتْبَى أَعَادينا

لم نعتقد بَعدكم إلا الوفاءَ لكم رأياً ولم نَتَقلدْ غيره دينَا

كنَّا نَرى اليأْسَ تُسْلينا عوارِضُه
وقد يئسنا فما لليأْسِ يغرينا]

ياساريَ البرقِ غاد القَصْرَ فاسقِ بِهِ
من كان صِرْفَ الهوَى والوُدِّ يَسقِينا
[واسأل هنالك هل عَينى تُذكِّرُنى
إلفاً تَذَكُّرهُ أمسَى يُعنِّينا]
ويا نَسيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تحيتَنا مَنْ لوْ على البُعدِ حيًّا كان يُحْيينا
[مَن لا يرى الدهر يقضينا مساعفة
فيه وإن لم يكن عنا يقاضينا]

* * *

[وبَيت مُلْكٍ كأن الله أنشأه مِسْكًا وقد أنشأ الله الورى طينا
أو صاغه ورِقاً مَحضاً وتَوَجَّه من ناصع التِّبر إبداعاً وتحسينا
إذا تأَوَّدَ آدَتهُ رفاهيةٌ تُدمِي العقولَ وأَدمَتْهُ البُرى لينا
كأنما نبتت فى صَحْن وجنته زُهرُ الكواكب تَعويذاً وتزيينا
ماضرٌ أن لم نكن أكفاءه شرفاً وفى المودة كافٍ من تكافينا]

* * *

لا تَحْسَبوا نأْيَكُم عنا يُغَيِّرُنا إذ طالَ ما غَيَّرَ النأْىُ المُحِبِّينا
واللهِ ما طَلَبتْ أهواؤُنا بدلاً منكم ولا انصَرفَتْ عنكُمُ أمانينا
[ولا استفدنا خليلاً عنك يَشغَلُنا ولا اتخذنا بديلا منك يُسلينا]
يارَوْضَةً طالَ ما أجْنَتْ اواحِظَنَا
وَرْداً جَنَاه الصِّبا غضًّا ونَسرينا

ويا حياةً تَمَلَّأْنا بزهرتِها مُنىً ضُروباً وَلَذّاتٍ أفانينا
[ويا نعيما خَطَرْنا من غَضَارَته
في وَشْيِ نُعمَى سحَبْنا ذَيلَها حينا]
لسْنا نُسمِّيكِ إجلالاً وتَكرِمَةً فقدرُكِ المعتلِي عن ذاكِ يُغنينا
إذِ انفردْتِ فما شُورِكْتِ في صِفةٍ
فحسبكِ الوصفُ إيضاحاً وتبيينا
ياجنةَ الخُلدِ أُبْدِلْنا بسَلسَلِها
والكوثرِ العذبِ زُقُّوماً وغِسْلِينا[1]
كأَننا لم نبت والوصل ثالثنا
والسَّعدُ قد غَضَّ من أجفانِ واشينا
سِرَّانِ في خاطرِ الظَّلماءِ يَكْتُمُنا حتى يكادَ لسانُ الصُّبحِ يُفشينا
[لاغَرْوَ في أنْ ذكَرْنا الحزنَ حين نهتْ
عنه النهى ، وتركنا الصبرناسينا]
إنَّا قرأنا الأسَى يوم النَّوى سُوَراً مَكتوبةً وأخذْنا الصبرَ تلقينا
[إن كان قد عزَّ في الدنيا اللقاءُ ففي
مواقفِ الحشر نلقاكم ، ويكفينا
أما هواكِ فلم نَعدِل بمَنْهَلِه شرْباً وإن كان يُروِينا فيُظْمينا
لم يَخْفَ أُفقُ جَمالٍ أنتِ كوكَبُه سالينَ عنهُ ، ولم نهجرْهُ قالينا

(١) موضع هذا البيت من الأصل بعد البيتين التاليين .

ولا اختياراً تجنَّبناكِ عن كَثَبٍ   لكن عَدَتْنا على كُرْهٍ عَوَادينا
نأسى عليك إذا حثت مشعشعة   فيها الشَّمول وغنَّانا مغنِّينا
لا أكْؤُس الراحِ تُبْدِى من شمائلنا
سِيما أرتياح ولا الأوتارُ تُلهينا
دُومى على العهدِ ، ما دُمْنا ، مُحَافِظَةً
فالحُرُّ من دانَ إنصافاً كما دِينا
فما ابْتَغَيْنا خليلاً مِنكِ يَحْبِسُنا   ولا اسْتَفَدْنا حبيباً عنكِ يُغْنينا
ولو صبَا نحونا من عُلْوِ مَطلعهِ   بدرُ الدُّجا لم يكن حاشاكِ يُصْبينا
أوْلِى وفاءً وإن لم تبذلى صِلةً   فالذِّكرُ يُقنِعُنا والطيفُ يكفينا
وفى الجوابِ قناعٌ لو شَفعْتِ بهِ   بيضَ الأيادى التى ما زلتِ تُولينا
عليكِ منى سلامُ اللهِ ما بقيَتْ   صبابة منك تخفيها فتخفينا]

أوردتها على الاختيار لا على النسق ، ولعل فى كثير مما تركتُ منها أحسن مما أوردْت ، وإنما منعنى من استيفائها الوفاءُ بشرطه التلخيص(١) .

ومن شعره رحمه الله ، مما قاله فى مدة صباه :

أخذتُ ثُلثَ الهوى غَصْباً ولى ثُلُثُ
وللمحبِّين فيما بينهم ثُلُثُ
تالله لو حلف العشاقُ أنهمو
مَوتَى من الوجد يوم البين ما حَنِثُوا

---

(١) انظر التعليق رقم ٢ ص ١٦٣

قوم إذا هجروا من بعد ما وُصلوا

ماتوا ، فإن عاد من يَهْوَوْنَه بُعثوا

ترى المحبِّين صَرْعَى فى عِراصِهِمُ

كفِتْيةِ الكهفِ ما يَدْرُونَ ما لَبِثوا

وبما قال رحمه الله يتشوق ابنةَ المهدى المذكورة[1] ومعاهدَه بقرطبة وضمَّنها بيتَ أبى الطيب فى أوَّل قصيدته الكافورية :

«بِمَ التعللُ لا أهلٌ ولا وطنُ ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكنُ» !

قصيدة أوّلها :

هل تذكرون غريباً عادَه شجنُ

من ذِكركم وجفا أجفانَه الوَسَنُ

يُخفى لواعجَه والشوقُ يفضُحهُ فقد تساوى لديه السرُّ والعَلَنُ

يا ويلتاهُ ! أيبقَى فى جوانحهِ فؤادُهُ وهو بالأطلالِ مرتهَنُ

وأرَّقَ العينَ والظلماءُ عاكفةٌ

ورقاءُ قد شفَّها ، أو شفَّنى ، حَزَنُ

فَبِتُّ أشكو وتشكو فوق أَيْكتها وبات يهفو ارتياحاً بيننا الغُصن

يا هَلْ أجالسُ أقواماً أُحبهمُ

كُنَّا وكانوا على عهدٍ فقد ضَغِنُوا

أو تَحْفَظون عُهودًا لا أُضَيِّعُها

إن الكرامَ بِحفظِ العهدِ تُمْتَحَنُ

---

(١) انظر التعليق رقم ١ ص ١٦٣ .

ومنها :

إن كان عادَكُم عيدٌ فَرُبَّ فتىً
بالشوق قد عادَه من ذِكركم حَزَنُ

وأفردَتْهُ الليالى من أحبَّتِه
فبات يُنشِدُها مما جَنَى الزمَنُ :

«بمَ التعللُ لا أهلٌ ولا وطنُ
ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكنُ» ؟

[أبو بكر بن عمار]

ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن عمار ، ذو النفْس العصامية ، والآداب الأهتمية ؛ كان أحد الشعراءِ المجيدين على طريقة أبى القاسم محمد بن هانئ الأندلسى[1] ، وربما كان أحلى منزعاً منه فى كثير من شعره .

ولشعره ديوان يدور بين أيدى أهل الأندلس ، ولم أُلف أحدًا ممن أدركتُه سنّى من أهل الآداب الذين أخذتُ عنهم إلا رأيته مقدِّماً له مؤثرًا لشعره ، وربما تغالى بعضهم فَشَبَّهَهُ بأبى الطيب ، وهيهات !

---

(١) هو ابو الحسن محمد بن هانىء الأزدى ، من ولد المهلب بن أبى صفرة ، كان ابوه يقيم فى المهدية بالمغرب ، ثم نزح الى الأندلس فى ايام الحكم المستنصر والمنصور بن أبى عامر ، فولد له محمد هذا فى اشبيلية ، وحصل له حظ وافر من الادب ، ومهر فى الشعر ، وكانوا يعدونه فى المغرب كالمتنبى فى المشرق ، وكانا متعاصرين ...

وكان ابن هانىء مغاليا فى مدائحه ، فاتهم بالكفر وساء فيه رأى الناس ، حتى اضطر الى الهجرة ، واتصل بالمعز لدين الله العبيدى ، ومات فى ظروف غامضة سنة ٣٦٢ وهو شاب فى عنفوانه !

فمن قصائده المشهورة التى أجاد فيها ما أراد ، قصيدته التى كتب بها من سَرَقُسْطة حين فرّق المعتضد بالله بينه وبين المعتمد – لأنه شغله عن كثير من أمره فنفاه[1] – وهى :

عَلَىَّ ، وإلا ما بكاءُ الغمائمِ وفىَّ ، وإلا ما نِياحُ الحمائمِ
وعنِّى أثار الرعدُ صرخةَ طالبٍ لثأرٍ وهزَّ البرقُ صفحةَ صارمِ
وما لبستْ زُهر النجوم حدادَها لغيرى ولا قامت له فى مآتمِ

وفى هذه القصيدة يقول يمدح المعتضد بالله[2] :

[إذا ركبوا فانظُره أوّلَ طاعنٍ وإن نزلوا فارصدْه آخرَ طاعمِ]
أبَى أن يراه اللهُ إلا مُقَلَّدًا حميلةَ سَيف أو حِمالةَ غارمِ

(1) انظر ايماءة الى بعض اسباب ذلك ص ١٧٦ .
(2) ومنها فى مدح بنى عباد :

ملوكٌ أناخ العزُّ فى عَرَصاتِهم ومَثْوَى المعالى بين تلك المعالم
هُمُ البيتُ ما غيرُ الظُّبا لبناتُهُ بـأُسٌ ، ولا غيرُ القنا بدعائم
إذا قَصَّر الرَّوعُ الخُطا نَهَضتْ بهم
طِوالُ العوالى فى طوال المعاصم
وأيدٍ أبت من أن تثوب ولم تَفُزْ
بجَزِّ النواصى أو بحزِّ الغلاصم
ندامى الوغَى ، يُجْرون بالموتِ كأسَها
إذا رجعت أسيافُهم بالجماجم
هناك القَنَا مجرورة من حفائظٍ وثَمَّ الظُّبَا مهزوزة من عزائم

ومن جيد نسيبه قوله في قصيدة يمدح بها المعتضد بالله :

جاهُ الهوى فاستشعِروه عارُهُ ونعيمُه فاستعذِبوه أُوارُه!

لا تَطلبُوا فى الحُبِّ عِزًّا إنَّما عُبدَانُه فى حُكمه أَحرارُه

قالوا أَضرَّ بك الهوى فأَجبتُهم يا حَبَّذَاه وحَبَّذا إضرارُه

قلبى هو اختار السَّقام لجسمه زيا ، فخلوه وما يختاره

عيَّرْتمونى بالنُّحول ِ وإنما شرفُ المهنَّدِ أن تَرِقَّ شفارُه

وشَمِتُّمُ لفراقِ من آلَفْتُهُ ولربما حَجَبَ الهلالَ سِرارُه

أَحسِبتمُ السُّلوانَ هبَّ نسيمُهُ أو أن ذاك النومَ عادَ غِرارُهُ

إن كان أَعْيا القلبُ من حربِ الجوى

خذلتْهُ مِن دمعى إذنْ أنصارُه

مَنْ قَدَّ قلبى إذ تثنَّى قدُّه وأَقام عُذْرى إذ أَطلَّ عِذارُه

أَم مَن طوى الصبحَ المنيرَ نِقابُه وأَحاط بالليل البهيم خِمارُه

غُصنٌ ولكن النفوس رياضُهُ رَشَأٌ ولكن القلوبَ عَرارُهُ

سَخِرتْ ببدرِ التِّمِّ غُرَّتُهُ كما أَزْرَتْ على آفاقِه أَزرارُه

مازال ليلُ الوصلِ من فَتَكاته تَسرِى إلىَّ بِعَرْفِهِ أَسحارُه

ويجودُ رَوْضَ الحسن من وجناته دمعى فَينْدَى رَنْدُه وبَهَارُه

حتى سقانى الدهرُ كأْس فراقه فسكِرتُ سُكرًا لا يُفيق خُماره

ووقفت فى مثلِ المحصَّبِ موقفاً للبين من حَبِّ القلوب جِمارُه

حيرانَ أَعمى الطرفَ وهوسماؤُه وأَذاب فيه القلبَ وهوقَرارُه

ولئن يُذِبْهُ وهو مثواه فكم قد احرقتْ عُودَ العفارة نارُه

إنْ يَهْنِهِ أنِّى أضعْتُ لِحُبِّه قلبى وذاعت عِنده أسراره

....فلْيهْنِ قلبى أنْ شكاه وشاحُه

لسوارِه فاقتصَّ منه سوارُه !

فوَحُسنهِ لقد انتَدَبتُ لوصفه بالبُخلِ لولا أنَّ حِمْصاً دارُه[1]

بَلد رمتْنى بالمُنَى أغصانُه وتفجرتْ لى بالندى أنهارُه

ولابن عمار هذا مع المعتمد أخبار عجيبة عُنى بجمعها أهلُ الأندلس ، وأنا إن شاء الله مُوردٌ منها مالا يُخلّ بالشرط الذى التزمته، ولا يخرج عن الحد الذى رسمته ، حسبما بقى على خاطرى من ذلك ؛ لأنى كنت فى حداثة سنى قد صرفتُ عنايتى إلى أخبار ابن عمار هذا مع المعتمد ، لما تضمنتْه من الآداب ؛وقد فتشتُ خِزانة حفظى فلم أُلفِ فيها إلا نبذة يسيرة ، وأنا مُوردُها إن شاء الله عز وجل .

فابن عمار هذا هو محمد بن عمار ، يكنى أبا بكر ، أصله من شِلْب ، من قرية من أعمالها يقال لها شنبوس، مولده ومولد آبائه بها . كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه فى الرياسة فى قديم الدهر ولاحديثه حظٌّ ولا ذُكِر منهم بها أحد : ورَد مدينة شِلب طفلا فنشأ بها ، وتعلم علم

(١) يعنى اشبيلية ، وكانوا يسمونها حمص، تشبيها لها بحمص الشـــام • وقد اتفقت لى زيارتها مع بعض اصحابى فى صيف سنة ١٩٦١ ، وجلسنا فى مطعم على شاطىء الوادى الكبير وطلبنـا طعـاما ، فجىء لنا ففراريج مشوية علىطريقة أهل حمص، فوالله ماكان شعورى وشعور صحبى الا أننا جالسون على شاطىء نهر العاص فى حمص ، نأكل من طعامها ونشرب من مائهـا ونرى ملامح أهلها فى وجوه أهل اشبيلية •

الأَدب على جماعة ، منهم أَبو الحجاج يوسف بن عيسى الأَعلم ؛ ثم رحل إلى قرطبة فتأَدب بها ، ومهر فى صناعة الشعر ، فكان قُصارَاه التكسب به ، فلم يزل يجول فى الأَندلس مسترفِداً لا يخصُّ بمدحه الملوكَ دون غيرهم ، بل لا يبالى ممن أخذ ولا من استعطف من مَلكٍ أَو سُوقة ، وله فى ذلك خبر ظريف :

وذلك أنه ورد فى بعض سَفَراته شِلب ، لا يملك إلا دابة لا يجد علفها فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أَهل السوق ، فكان قَدره عند ذلك الرجل أن ملأَ له المخلاة شعيراً ووجَّه بها إليه : فرآها ابن عمار من أَجلِّ الصِّلات وأسنى الجوائز ؛ ثم اتفق أَن عَلَتْ حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به البخت ، وانتهى أَمره أَن ولاه المعتمد على الله مدينة شِلب وأَعمالها أول ما أفضَى الأَمر إليه ، فدخلها ابن عمار فى موكب ضخم وجملةِ عبيد وحشم ، وأَظهر نخوة لم يُظهرها المعتمد على الله حين وليها أيام أَبيه المعتضد بالله ؛ فكان أولَ شىءٍ سأَل عنه ، الرجلُ صاحبهُ صاحبُ الشعير ، فقال : ما صنع فلان ، أهو حىّ ؟ قالوا : نعم ؛ فأَرسل إليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأَها دراهم ، وقال لرسوله : قل له : لو ملأْتَها بُرًّا لملأْناها تبراً .

ولم يزل ابن عمار على الحال التى ذكرناها من التقلُّب فى بلاد الأَندلس للاستجداء والاستعطاف ، إلى أن ورد على المعتضد بالله أَبى عمرو ، فامتدحه بقصيدته المشهورة التى أولها :

أدرِ الزجاجة فالنسيمُ قد انبرى والنجمُ قد صرف العنانَ عن السرى

والصبحُ قد أهدى لنا كافورَه لما استردَّ الليلُ منا العنبرا[1]

وفيها يقول يمدح المعتضد :

عبَّادٌ ﷺ المخْضَرُّ نائلُ كَفِّهِ والجوُّ قد لبس الرداءَ الأغبرا

قَدَّاحُ زَنْدِ المجدِ لا ينفكُّ من نارِ الوغى إلا إلى نار القِرَى

يَختارُ أن يهَبَ الخريدةَ كاعبا

والطِّرْفَ أَجْرَدَ والحُسامَ مُجَوْهَرا[2]

---

(1) بعـــده :

والرَّوْضُ كالحسْنَا كساهُ زَهرُه وَشْياً ، وقلده نداه جوهرا

أو كالغلام زَهَا بوردِ رياضه خجِلا ، وتاه بـآسهنَّ مُعَذَّرا

رَوْضٌ كأن النهر فيه معصمٌ صافٍ أطل على رداءٍ أخضرا

وتَهزُّه ريحُ الصبا فتخاله سيفَ ابنَ عباد يبدِّدُ عسكرا

(2) بعده :

ملكٌ إذا ازدحم الملوك بموردٍ ونحاه لا يَرِدُون حتى يصدرا

أَنْدَى على الأكبادِ من قَطرِ الندى

وألذّ فى الأَجفان من سِنة الكرى

لا خَلقَ أَقْرَى من شفارِ حسامه إن كنت شبَّهتَ المواكبَ أسطرا

أيقنتُ أنى من ذُراه بجنةٍ لما سقانى من نداه الكوثرا

وعلمت حقاً أنَّ ربعى مُخْصِبٌ لما سأَلتُ به الْغَمَامَ المطرا

من لا تُوازنه الجبالُ إذا احتبى

من لا تسابقه الرياح إذا جرى

وفى هذه القصيدة يقول فى وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر :

شقيتْ بسيفِك أُمَّةٌ لم تعتقدْ ... إلا اليهودَ وإن تَسَمَّوْا بَرْبَرا
أثمرتَ رُمْحَك من رؤوس كُماتِهم ... لما رأيتَ الغصنَ يُعشَقُ مُثمرا
وخَضبْتَ سيفَك من دماء نُحورِهم ... لما عَهِدْتَ الحسنَ يُلبَس أحمرا (١)

ماضٍ وصدر الرمح يُكْهِمُ والظُّبا ... تنْبو وأيدى الخيل تعثرُ فى البَرَى
قاد الكتائب كالكواكب فوقهم ... مِن لأمِهِم مثلُ السحاب كَنَهْوَرا
من كلِّ أبيضَ قد تقلد أبيضا ... عَضْباً وأسمرَ قد تأبط أسمرا
ملكٌ يروقُك خَلْقُه أو خُلقه ... كالروض يَحْسُنُ منظرًا أو مخبرا
أقسمت باسم الفضل حتى شمتُه ... فرأيتُه فى بردتَيْه مصوّرا
وجهلت معنى الجود حتى زُرتُه ... فقرأته فى راحتيه مفسَّرا
فاح الثرى متعطرًا بثنائه ... حتى حسبنا كل تُرْبٍ عنبرا
وتتوجتْ بالزهر صُلعُ هِضابه ... حتى ظننا كل هضْبٍ قيْصَرا
هصرتْ يدى غصنَ الندى من كفه ... وجنت به روضَ السرورِ منوِّرا
حسبى على الصُّنع الذى أولاه أن ... أسعى بجد أو أموتَ فأُعذرا
السيف أفصح من زيادٍ خطبةً ... فى الحرب إن كانت يمينك منبرا
مازلت تُغنى مَن عَنَا لك راجيا ... نَيْلاً ، وتُفْنى من عَتَا وتجبَّرا
حتى حللتَ من الرياسة محجرا ... رَحْباً وضمتْ منك طرفاً أحورا
نمَّقْتُها وشْياً بذِكرِك مُذْهَبا ... وفَتَقْتُها مِسكاً بحمدِك أذْفَرا

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لمتقدّم ولا متأخر بمثله ، وهو قوله :

السيفُ أفصحُ من زِيادٍ[1] خُطبةً في الحرب إن كانتْ يمينكَ منبرا

ولما أنشد المعتضدَ هذه القصيدة استحسنها وأمر له بمال وثياب ومَركَب وأمر أن يُكتب في ديوان الشعراء : فكان كذلك .

ثم تعلق بالمعتمد على الله وهو إذ ذاك شاب ، فلم تزل حالُه معه تتزيَّد ، ومَوَاتٌ خدمته له تقوى وتتأكد ، إلى أن صار ابنُ عمار ألْزَقَ بالمعتمد من شعرات قَصِّه ، وأدنى إليه من حبل وريده ؛ كان المعتمد لا يستغنى عنه ساعةً من ليل ولا نهار .

ثم اتفق أن وَلِيَ المعتمدُ على الله شِلْبَ من قِبل أبيه ، فاستوزر ابنَ عمارٍ هذا في تلك الولاية ، وسلم إليه جميع أُموره ، فغَلَب عليه ابنُ عمار غلبة شديدة ، وساءت السمعة عنهما .... فاقتضى نظر المعتضد التفريق بينهما ، ونفى ابن عمار عن بلاده حسبما تقدم الإيماءُ إليه[2].

فلم يزل ابن عمار مغترباً في أقاصي بلاد الأندلس ، إلى أن تُوفى المعتضد بالله ، فاستدعاه المعتمد ، وقرَّبه أشد تقريب ، حتى كان يشاركه فيما لايشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه .

مَن ذَا ينافِحُني وذِكرُك صندلٌ أوردْتُه من نارِ فكرى مَجْمرا

فلئن وجدتَ نسيمَ حمدى عاطرا فلقد وجدتُ نسيم بِرِّكَ أعطرا

وإليْكَهَا كالرَّوْضِ زارتْه الصَّبا وَحنا عليه الطلُّ حتى نوَّرا .

(١) يعنى زياد ابن أبيه .

(٢) انظر ص ١٧٠ .

وله معه أيام كونهما بشِلْب خبر عجيب ؛ وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أُنسه ، على ما كانت العادة جارية به ، إلا أنه في تلك الليلة زاد في التحفِّي به والبِّر له على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه : لتضعَنَّ رأسك معي على وسادٍ واحد ! فكان ذلك . قال ابن عمار : فهتف بي هاتف في النوم يقول : «لا تغترَّ أيها المسكين ؛ إنه سيقتلك ولو بعد حين ! » قال : فانتبهت من نومي فزِعاً ، وتعوَّذت ، ثم عدت ، فهتف بي الهاتف على حالته الأُولى ؛ فانتبهت ، ثم عدت ، فسمعته ثالثة ؛ فانتبهت فتجردت من أثوابي والتففت في بعض الحصر . وقصدت دهليز القصر مستخفياً به ، وقد أزمعت على أني إذا أصبحت خرجت مستخفياً حتى آتي البحر فأركبه وأقصد بلاد العُدوة فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت ؛ فانتبه المعتمد فافتقدني فلم يجدني ، فأمر بطلبي ، فطُلِبت له في نواحي القصر ، وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تُحمل بين يديه ؛ فكان هو الذي وقع عليَّ ؛ وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فُتح ؛ فوقف بإزاء الحصير الذي كنت فيه ، فكانت مني حركةٌ فأحسَّ بي ، وقال : ما هذا يتحرك في هذا الحصير ؟ ثم أمر به فنُفِض ، فخرجت عرياناً ليس عليَّ إلا السراويل ! فلما رآني فاضت عيناه دموعاً وقال : يا أبا بكر ، ما الذي حملك على هذا ؟ فلم أر بُدًّا من أن صدقتُه . فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها ، فضحك وقال : يا أبا بكر ، أضغاث أحلام ، هذه آثار الخُمار . ثم قال لي : وكيف أقتلك ؟ أرأيت أحدًا يقتل نفسه ؟ وهل أنت عندي إلا كنفسي ؟ فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول

البقاء ، وتناسى الأمر فنسيه ، ومرت على ذلك الأيام والليالى ، إلى أن كان من أمره ما سيأتى الإيماءُ إليه ، فصدقت رؤيا ابن عمار ، وقتل المعتمد نفسه كما قال !

ولما أفضى الأمر إلى المعتمد ـ كما ذكرنا ـ سأله ابن عمار ولاية شِلب ، وهى كانت بلده ومنشأه كما تقدم ؛ فأجابه المعتمد إلى ذلك وولاه إياها أنْبَهَ ولاية ، جعل إليه جميع أُمورها ، خارجها وداخلها ؛ فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد إليه ، وضعُف عن احتمال الصبر عنه ؛ فاستدعاه وعزله عنها واستوزره ؛ فكانت حاله معه شبيهةً بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد .

ولم يزل المعتمد يُعدُّه لكل أمر جليل ، ويؤهله لكل رتبة عالية ؛ وكان ابن عمار مع هذا لا يُناط به أمرٌ إلا اضطلع به وكان فيه كالسكة المحماة .

واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الروم الأدفنش إذا ذُكر عنده ابن عمار قال : هو رجل الجزيرة ! وكان ابن عمار هو الذى ردّه عن قصد إشبيلية وقرطبة وأعمالها ؛ وذلك أنه خرج فى جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعاً فيها ، فخافه الناس ، وامتلأ صدور أهل تلك الجهات رعباً منه ، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه ؛ فتولى ابن عمار ردّه بألطف حيلة وأيسر تدبير ؛ وذلك أنه أقام سُفرة شطرنج فى غاية الإتقان والإبداع ، لم يكن عند ملك مثلُها ، جعل صورها من الآبنوس والعود الرطب والصندل وحلاها بالذهب ، وجعل أرضها فى غاية الإتقان ؛ فخرج من عند المعتمد

رسولا إلى الأذفنش ، فلقيه فى أول بلاد المسلمين ، فأعظم الأذفنش قدومه وبالغ فى إكرامه ، وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسارعة فى حوائجه فأظهر ابن عمار تلك السفرة ، فرآها بعض خواصّ الأذفنش ، فنقل خبرها إليه ؛ وكان العلج — أعنى الأذفنش — مولعاً بالشطرنج ، فلما لقى ابن عمار سأله : كيف أنت فى الشطرنج ؟ وكان ابن عمار فيه طبقةً عاليةً فأخبره بمكانه منه ؛ فقال له : بلغنى أن عندك سفرة فى غاية الإتقان ! قال ابن عمار : نعم ؛ فقال : كيف السبيل إلى رؤيتها ؟ فقال ابن عمار لترجمانه : قل له أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها ، فإن غلبتنى فهى لك ، وإن غلبتك فلى حُكمى ! فقال له الأذفنش : هلمها لننظر إليها ؛ فأمر ابن عمار من جاء بها ، فلما وُضعت بين يدى العلج صلّب وقال : ما ظننت أن إتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد ! ثم قال لابن عمار : كيف قلت ؟ فأعاد عليه الكلام الأول ، فقال له الأذفنش : لا ألعب معك على حكمٍ مجهولٍ لا أدرى ما هو ، ولعله شىء لا يمكننى ! فقال ابن عمار : لا ألعب إلا على هذا الوجه ! وأمر بالسفرة فطويت ؛ وكشف ابن عمار سرَّ ما أراده لرجالٍ وثق بهم من وجوه دولة الأذفنش ، وجعل لهم أموالا عظيمة على أن يوازروه على أمره . ففعلوا ؛ فتعلقت نفس العلج بالسفرة ، وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار ، فهوّنوا عليه وقالوا له : إن غلبتَه كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلُها ، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم ؟ وقبّحوا عنده إظهار الملك العجز عن شىء يُطلب منه ، وقالوا له : إنْ طلب ابنُ عمار مالا يمكن فنحن لك بردّه عن ذلك ؛ ولم يزالوا به حتى أجاب ،

وأرسل إلى ابن عمار فجاء ومعه السفرة ، فقال له : قد قبلتُ ما رسمتَه ! فقال له ابن عمار : فاجعل بيني وبينك شهودًا أساهم له ؛ فأمر الأدفنش بهم فحضروا ، وافتتحا يلعبان ؛ وكان ابن عمار - كما ذكرنا - طبقةً بالأندلس ؛ لا يقوم له أحد فيها ؛ فغَلب الأدفنش غلبةً ظاهرة لِجميع الحاضرين ، لم يكن للعلج فيها مطعن ؛ فلما حقَّت الغلبة قال له ابن عمار : هل صحَّ أن لى حكمى ؟ قال : نعم ، فما هو ؟ قال : أن ترجع من ههنا إلى بلادك ! فاسودّ وجه العلج وقام وقعد ، وقال لخواصه: قد كنت أخاف من هذا حتى هوّنتموه علىّ ! فى أمثال لهذا القول ؛ وهمّ بالنَّكث والتمادى لوجهه ، فقبَّحوا ذلك عليه ، وقالوا له : كيف يَجْمُلُ بك الغدر وأنت ملكُ ملوكِ النصارى فى وقتك ! فلم يزالوا به حتى سكن ، وقال لا أرجع حتى آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة ! فقال ابن عمار : هذا كله لك ! وجاءه بما أراد ، فرجع وكفَّ الله بأسه ، ودفعَه بحوله وحُسن دفاعه عن المسلمين ؛ ورجع ابن عمار إلى إشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سرورًا به .

ثم إن المعتمد حدث له أمل فى التغلب على مُرْسِيةَ وأعمالها ، وهى التى تُعرف بِتُدْمِير[1] ؛ وكانت بيد أبى عبد الرحمن محمد بن طاهر ، كان هو

---

(1) تدمير : كورة فى شرق الأندلس قاعدنها مرسية ، وكان يحكمها قبل الفتح العربى أمير قوطى من قرابة لذريق اسمه تبودمير Thodmir وكان له مع العرب ابان الفتح قصة من أطرف قصص المقاومة ، وباسم هذا الأمير سمى العرب هذه الكورة ، وقيل بل سموها تدمير تشبيها لها بتدمر من بلاد الشام ٠ أما مرسية فمدينة مستحدثة بعد الفتح العربى ، بناها العرب فى زمن عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢٠٩ للهجرة ، ثم ازدادت عمرانا واصبحت من حواضر الأندلس فى زمن عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر (سنة ٣٠٠ الى ٣٦٦) ٠

المتغلِّبَ عليها والمدبِّر لأمرها ؛ فجهز المعتمد جيوشاً عظيمة ، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها ؛ فولاه ما تولى من ذلك ؛ وخرج ابن عمار حتى نزل على مرسية ، فأخذها وأخرج ابن طاهر عنها[1] ؛ فلحق ابن طاهر حين خرج من مُرسية ببنى عبد العزيز ببلنسية[2] ؛ فكان بها إلى أن مات رحمه الله .

ولما تغلب ابن عمار على مرسية دار ملك بنى طاهر كما ذكرنا ، حدثته نفسه وسوّل له سوءُ رأيه أن يستبد بأمره ، وأن يضبط تلك البلاد لنفسه ؛ فلم يزل يصرِّف الحيلة فى ذلك إلى أن تم له بعضه ودانت له مرسية وأعمالها

= ولما نشبت الفتنة وتمزقت وحدة الاندلس ، ، استقل بمرسية فتى من موالى المنصور بن ابى عامر اسمه خيران الصقلبى ، وخلفه عليها بعد موته زهير الصقلبى العامرى أيضا ، فظل يحكمها بضع سنين ، ثم نشبت معركة بينه وبين باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، حقت فيها الهزيمة على زهير ، ففر من وجه خصمه الى حيث لا يعلم احد ! وقام فى الأمر من بعده فى مرسية جماعة من ابناء البيوتات بها ، منهم الشيخ ابو بكر احمد بن اسحاق ، وابو بكر احمد بن طاهر ، وغيرهما ، ثم صارت امرتها لاحمد بن طاهر ، ثم من بعده لولده ابى عبد الرحمن محمد بن طاهر ، وفى عهده بدا للمعتمد بن عباد صاحب اشبيلية أن يستولى عليها ويضمها الى ملكه ، وكان شاعره ابن عمار على راس الحملة ، ويقود جنده الأمير عبد الله بن رشيق ، فتغلب ابن عمار على المدينة ، وخلع اميرها ابن طاهر ، ثم بدا له ان يستولى عليها لنفسه .

وكان ابن عمار على ولاء مع الأدفونش السادس ملك قشتالة ، ولعله كان ينتظر منه معونة على ذلك ، ولكن الأمور سارت على غير ما اراد ...

(1) يذكر بعض المؤرخين ان ابن عمار اعتقله فى قلعة مونت قوط ، ثم عاد فقتله ، ولكن الفتح بن خاقان يذكر فى القلائد انه شهد وفاته سنة ٥٠٧ فى بلنسيه وقد جاوز التسعين ، ويذكر الى ذلك ما يفيد انه كان فى وقت ما معتقلا فى مونت قوط .

(2) بلنسية : حاضرة من حواضر الأندلس الكبرى ، متصلة بالبحر والجبل ، وكانت قاعدة الحكم فى شرق الأندلس أيام بنى امية ، فلما كانت الفتنة استقل بها صقلبيان من موالى المنصور ابن ابى عامر ، هما : مبارك ومظفر ، فتقاسما سلطنتها ، مات اولهما ، وثار الاهالى بالآخر فطردوه ، وبايعوا صقلبيا آخر من العامريين اسمه لبيب ، ثم آل أمر بلنسية الى عبد العزيز بن عبد الرحمن ، من احفاد المنصور بن أبى عامر ، فطالت مدته بها ، انظر ص ١٢٥ . ثم خلفه المظفر ابن عبد العزيز ، وهو الذى لجا اليه ابن طاهر حين اخرجه ابن عمار عن بلنسية .

وطمع فى ملك بلنسية ، إلى أن قام عليه رجل من أهل مرسية يقال له ابن رشيق ، كان أبوه من عُرَفاء الجند بها[1] ؛ وكان ابن عمار قد خرج لبعض أمره ، فدعا ابن رشيق هذا إلى نفسه ، وقامت معه العامة وبعض الجند ، فسمع ابن عمار بذلك ، فجاء يركض حتى أتى المدينةَ وقد غلِّقت أبوابها دونه ؛ فحاصرها بمن معه أياماً ، فامتنعت عليه ولم يقدر على دخولها ؛ فبقى حائرا لا يدرى ما يصنع ولا أين يتوجه ؛ وقد كان بلغ المعتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته ، فلم ير إلا الهروب ملجأً ، فهرب حتى لحق ببنى هود بسرَقُسطة[2] ، فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته : وبغَّضه فى عيونهم ما فعل مع صاحبه وولىٍّ نعمته ، فأخرجوه عن بلادهم .

ولم تزل البلاد تتقاذفه ، وملوكها تَشْنَؤُه ، إلى أن وقع فى حصن من حصون الأندلس فى غاية المنعة يدعى شَقورة[3] ، كان المتغلبَ عليه رجلٌ يقال له ابن مبارك ، فأكرم وفادته وأحسن نزله[4] ، ثم بدا له بعد أيام فقَبض عليه وقيَّده وجعله فى سجنه ؛ فلما رأى ابنُ عمار ذلك منه قال له :

---

(1) هو ـ فيما نظن ـ عبد الله بن رشيق الذى ذكرنا فى التعليق رقم ١ ص ١٨٠ أنه كان قائد الجند مع ابن عمار فى حملته على مرسية .

(٢) كان اميرها وقتئذ هو المؤتمن ابن هـود .

(٣) شقورة : حصن كالمدينة ، عامر بأهله ، شمالى مرسية ، وهو راس جبل عظيم متصـل منيع الجهة ، ويخرج من أسفله نهران ، أحـدهما النهر الكبير الذى يمر بقرطبة ، والثانى هو النهر الأبيض الذى يمر ببلنسية . قال ياقوت : وكان بها دار امارة همشك .

(٤) رواية ابن خاقان فى القلائد ، أن ابن عمار لما لجأ الى المؤتمن ابن هود ، زودوه بمال ، وأرسله على راس طائفة من الجند الى شـقورة ليفتحها ، فقصد اليها وهو يظن أن سـيملكها ، فلما بلغها احتال عليه صاحبها واظهر له المـودة ودعاه الى النزول عنده ، فلما صار فى يده وقد تفرق عنه أصحابه أثقله بالحديد !

لا عليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكونى عندك وتَعرضنى عليهم ، فما منهم إلا من يرغب فىَّ ؛ فمن كان أشدَّهم رغبة جعل لك مالا ووجهتَ بى إليه ! ففعل ابن مبارك ذلك ، فما عرضه على أحد من ملوك الأندلس إلا رغب فيه ؛ وكتب فيمن كتب إلى المعتمد ...

وفى ذلك يقول ابن عمار :

أَصبحت فى السوقِ يُنادَى على رأسى بأَنواعٍ من المالِ
والله ما جارَ على مالِهِ من ضَمَّنى بالثمن الغالى !

وفى هذا السجن يقول ابن عمار وقد استدعى نورة يستنظف بها فتعذرتْ عليه ، فاستدعى مُوسى فأُتى بها ؛ فقال فى ذلك :

بُؤْسَى شَقُّورةَ عِندى أَرْبَى علىْ كل بُوسَى
فقدتُ «هارون»[1] فيها فظَلْت أَطلبُ «مُوسى»

وبعث المعتمدُ على الله من رجاله من تسلَّم ابن عمار من يد ابن مبارك ، بعد أن بعث إليه بمال وخيل ، وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن يزيدوا فى الاحتياط عليه وتقييده ، فخرجوا به حتى وافوا قرطبة ، ووافق ذلك كون المعتمد بها ، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه ، على بغل بين عدْلَى تِبْن ، وقيودُه ظاهرة للناس ؛ وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصةً وعامةً حتى ينظروا إليه على تلك الحال ؛ وقد كان قبل هذا إذا دخل قُرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم ، فالسعيد

(1) يعنى بهارون : اخا يؤازره !

منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يردُّ عليه ابنُ عمار السلام ، وغيرُهم لايصل إلا إلى تقبيل رِكابه أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر إليه على بعدلايستطيع الوصول إليه ؛ فسبحان مُحيل الأحوال ومُديل الدول !

فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا ، بعد العزة القعساء والملك الشامخ والرياسة الفارعة ، ذليلا خائفاً فقيراً لا يملك إلا ثوبه الذى عليه ؛ فسبحان من سلبه ما وهبه ، ومنعه ما كان به أمتَعَه .

وأخبر بعض الموكلين به ما اتفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال : لما قرُبنا من قرطبة بحيث يرانا الناس ، خرج فارسٌ من البلد يركض يقصدنا ، فلما رآه ابن عمار — وكان معتمًّا — أزال العمامة عن رأسه ، فجاء الفارس حتى وصل إلينا ، فنظر إلى ابن عمار ودخل معنا فى الصف فمشى ، فسألناه فيم جاء ؟ فقال : الذى جئتُ فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه ! فعلمنا أنه أُرسل ليزيل عمامته .

فأُدخل على المعتمد على الله على الحالة التى ذكرت ، يرسف فى قيوده ؛ فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه ، وابن عمار فى ذلك كله مطرقٌ لاينبس ، إلى أن انقضى كلام المعتمد ؛ فكان من جواب ابن عمار أن قال : ما أُنكر شيئاً مما يذكره مولانا أبقاه الله ، ولو أنكرته لشهدت علىَّ به الجمادات فضلا عمن ينطق ؛ ولكنى عثرتُ فأَقِلْ ، وزللتُ فاصفح !

فقال المعتمد : هيهات ؛ إنها عثرة لا تقال !

وأمر به فأُحدر فى النهر إلى إشبيلية ، فدُخل به إشبيلية على الحال التى

دخل عليها قرطبة ، وجُعل فى غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك - وهو باق إلى وقتنا هذا - فطال سجنه هناك .

كُتبتْ عنه فى هذا السجن قصائد لو توسَّل بها إلى الدهر لنزع عن جوره ، أو إلى الفَلك لكفَّ عن دوْره ؛ فكانت رُقًى لم تنجع ، ودَعواتٍ لم تُسمع ، وتمائم لم تنفع ؛ فمنها قوله :

سجاياك إن عافيت أندَى وأسجح وعذرك إن عاقبتَ أجلى وأوضح

وإن كان بين الخطتين مزيةٌ فأنت إلى الأدنى من الله تجنح

حنانيك فى أخذى برأيك ، لا تُطع عِداى ولو أثنوْا عليك وأفصحوا

فإن رجائِى أنّ عندكَ غير مَا يخوض عدوِّى اليوم فيه ويمرح

ولِمْ لا وقد أسلفتُ ودا وخدمة يكرّان فى ليل الخطايا فيصبح

وهبْنى وقد أعقبْتُ أعمال مُفسدٍ أمَا تفسُدُ الأعمال ثُمَّتَ تصلح

أقِلْنى بما بينى وبينك من رضًى له نحو روح الله بابٌ مفتَّح

وعفٍّ على آثار جُرمٍ سلكتُها بهبَّة رحْمَى منك تمحو وتمصِح

ولا تلتفتْ قول الوشاة ورأيَهم فكلٌّ إناءٍ بالذى فيه يَرْشَحُ

سيأتيك فى أمرى حديثٌ وقد أتى بِزُور بنى عبد العزيز موشَّح[1]

وما ذاك إلا ما علمتَ فإننى إذا ثُبت لا أنفكّ آسو وأجرح

(١) يعنى اصحاب بلنسية . انظر التعليق رقم ٢ ص ١٨١

كأنى بهم لا درّ لله درهم أشاروا تجاهى بالشمات وصرحوا

وقالوا سيجزيه فلانٌ بفعله فقلت وقد يعفو فلانٌ ويصفح

ألا إن بطشاً للمؤيَّد يرتمى ولكن حلماً للمؤيد يرجح

وما عسى الواشون أن يَتَزَيَّدُوا سوى أن ذنبى واضحٌ متصحح

نعم لىَ ذنبٌ غير أن لحلمه صفاةٌ يزلُّ الذنب عنها فيسفح

عليه سلامٌ كيف دار به الهوى إلىّ فيدنو أو علىّ فيَنزَح

ويهنيه إن مُتُّ السُّلوُّ فإننى أموت ولى شوقٌ إليه مُبرِّح

وبين ضُلوعى من هواه تميمةٌ ستنفع لو أن الحمامَ يجلِّح

ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه ، كان بحضرته رجل من البغداديين ، فجعل يُزْرى على هذا البيت «وبين ضلوعى... »ويقول ما أراد بهذا المعنى ؟ فكان من جواب المعتمد ـ رحمه الله ـ أن قال : أما لئن سَلبه الله المروءةَ والوفاء ، لَما أعدمه الفطنة والذكاء ، إنما نظر إلى بيت الهُذَلىِّ من طرف خفى ، وهو :

وإذا المنيَّة أنشبتْ أظفارَها ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تَنفع !

[قتل ابن عمار]

ولم يزل ابن عمار هذا بسجن المعتمد إلى أن قتله صَبراً فى شهور سنة ٤٧٩ .

وتلخيص خبر قتله ، أنه لما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التى تقدم

إنشادها ، فأدركت المعتمدَبعضُ الرقة ، فوجَّه إليه ليلا وهو فى بعض مجالس أنسه ، فأُتى به يرسف فى قيوده ، فجعل المعتمد يعدد مننه عليه وأياديه قبله ، فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر ، غير أنه أخذ فى البكاء ، وجعل يترقّق للمعتمد ويمسح عِطفيه ويستجلب من الألفاظ كلَّ ما يقدِّر إنه يزرع له الرأفة فى قلب المعتمد ؛ فتم له بعض ما أراد من ذلك ، وعطفت المعتمدَ عليه سابقته وقد يم حرمته ؛ فقال له قولا يتضمن العفو عنه تعريضاً لا صريحاً : وأمر بردِّه إلى محبسه ...

فكتب ابن عمار من فوره بما دار له مع المعتمد إلى ابنه الراضى بالله ، فوافاه الكتاب وبحضرته قومٌ كانت بينهم وبين ابن عمار إحنٌ قديمة ؛ فلما قرأ الراضى الكتاب قال لهم : ما أرى ابن عمار إلا سيتخلص ؛ فقالوا له : ومن أين علم مولانا ذلك ؟ فقال : هذا كتاب ابن عمار يُخبرنى فيه أن مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص ؛ فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غيره . . .

فلما قاموا من مجلس الراضى نشروا حديث ابن عمار أقبحَ نَشر ، وزادوا فيه زيادات قبيحةً صُنْت هذا الكتاب عن ذكرها .

فبلغ المعتمد ذلك ، فأرسل إلى ابن عمار وقال له : هل أخبرتَ أحدًا بما كان بينى وبينك البارحة ؟ فأنكر ابن عمار كل الإنكار ، فقال المعتمد للرسول قل له : الورقتان اللتان استدعيتَهما ، كتبتَ فى إحداهما القصيدة ،

فما فعلتَ بالأُخرى[1] ؟ فادعى أنه بَيَّض فيها القصيدة ؛ فقال المعتمد : هلمَّ المسودَّة ! فلم يجد جواباً .

فخرج المعتمد حنقاًوبيده الطَّبرزينُ حتّى صعد الغرفة التى فيها ابن عمار ، فلما رآه علم أنه قاتله ، فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تُثقله ، حتى

(١) يلاحظ ان السجناء فى ذلك الوقت كان يؤذن لهم فى الكتابة وتهيا لهم اسبابها ، فهل يحدث مثل هذا اليوم فى بلاد كثيرة !

وقد ذكر ابن خاقان فى القلائد ، أن صـاحب شقورة لما كان ابن عمار معتقلا عنده ، كان يأذن له فى الكتابة الى أصحابه ويأذن لهم فى زيارته ومسامرته ، وأثبت لنا من هذا البـــاب قصيدة ممتعة كتب بها ابن عمار الى صديقه أبى الفضل بن حسداى الشاعر ، يستزيره فى معتقله من حصن شقورة ويصف له بعض ما هو فيــه !

وفيها يقول :

أَدرِك أَخاك ولو بقافيةٍ كالطَّلِّ يوقظ نائم الزهر

فلقد تقاذفت الركاب به فى غير مَوْماة ولا بحر!

ومنها فى وصف الحصن :

عالٍ كأَن الجن إذ مردتْ جعلته مرقاةً إلى النَّسرِ

وَحْشٌ تناكرت الوجوهُ به حتى استربْتُ بصفحة البدر

قصر تمهَّدَ بين خافقَتَيْ نَسْرَيْن من فلك ومن وَكر

متجبر سال الوقار على عِطفيه من كِبَرٍ ومن كَبْر

ملكت عنانَ الريح راحتُه فجيادها من تحته تجرى

ثم يقول له داعيا الى مواصـــلته ، أو مراسلته :

دع ذا وصِلنا غير مؤتمرٍ مستأثرًا بالحمد والشكر

واكتبْ إلينا إنها لَيَدٌ تمحو الذى كتبتْ يدُ الدهر

انكبَّ على قدمَى المعتمد يقبلهما ، والمعتمد لا يثنيه شيء ؛ فعلاه بالطبرزين الذى فى يده ، ولم يزل يضربه به حتى بَرَد .

ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه ، وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك ؛ فهذا ما انتهى إلينا من خبر ابن عمار ملخصاً حسبما بَقى على خاطرى .

[رجع الحديث إلى بنى عباد]

ولم يزل المعتمد هذا فى جميع مدة ولايته والأيام تساعده ، والدهر على ما يريده يوازره ويعاضده ، إلى أن انتظم له فى ملكه من بلاد الأندلس ما لم ينتظم للملك قبله ، أعنى من المتغلِّبين ، ودخلت فى طاعته مدنٌ من مدائنها أعيتْ الملوكَ وأعجزتهم ، وامتدت مملكته إلى أن بلغت مدينة مرسية وهى التى تُعرف بِتُدْمير ، بينها وبين إشبيلية نحو من اثنتى عشرة مرحلة وفى خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة .

وكان تغلُّبه على قرطبة وإخراجه ابن عكاشة منها يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة ٤٧١[1] ، ثم رجع إلى إشبيلية واستخلف

---

(١) كانت قرطبة بعد زوال الخلافة عنها لبنى جهور ، فطمع المامون بن ذى النون صاحب طليطلة فى استخلاصها لنفسه ، فسير جيشه ، ولم يكن ذلك بعيدا من تدبير ابن عباد ، فلما راى عبد الملك بن جهور تهديد ملكه ، طلب الى المعتمد بن عباد أن يعينه ، فوافى جيشه قرطبة ، ونزل بربضها الشرقى . ولم يتم للمامون ما اراد ، فنزح عن قرطبة ، وخلا الجو بذلك لابن عباد ، فاحدق جيشه بقصر ابن جهور ، وقبض عليه وعلى اخوته ، واخرجوا عن قرطبة ، ودخلت حاضرة الأندلس منذ ذلك اليوم فى ملك ابن عباد ، وصارت تابعة لاشبيلية ، وتولى أمرها الظافر بن المعتمد ، ولكن امارتها لم تخلص له طويلا ، فقد كان أهلها مستمسكين بدعوة الخلفاء ،=

عليها[1] ولده عبَّادًا ولقَّبه بالمأمون، وهو أكبر ولده، وُلدله فى حياة أبيه المعتضد ، وسماه عبَّادًا ، فكان المعتضد يضمه إليه ويقول : يا عباد ، ياليت شعرى مَن المقتولُ بقرطبة ، أنا أو أنت ؟ فكان المقتولَ بها عبادٌ هذا فى حياة أبيه المعتمد وفى السنة التى زال عنهم الملك فيها .

[المرابطون بالأندلس]

ولما كانت سنة ٤٧٩ جاز المعتمد على الله البحر قاصدًا مدينة مراكش إلى يوسف بن تاشفين ، مستنصرًا به على الروم[2] ؛ فلقيه يوسف المذكور أحسن لقاءٍ ، وأنزله أكرم نُزُل ، وسأله عن حاجته ، فذكر أنه يريد غزو الروم ، وأنه يريد إمداد أمير المسلمين إياه بخيلٍ ورَجُل ليستعين

= يأملون ان تعود مدينتهم حاضرة لخليفة من بنى مروان ، فلم تلبث أن ثارت على الظافر ، وكان ابن عكاشة على رأس الثائرين ، فبرز له الظافر ليلا ، منفردا عن جنده ، فلم يزل يدافع الثائرين ويدافعونه حتى سقط صريعا ، وظل جسده ملقى على الأرض حيث سقط حتى مر بجثته قبيل الصبح أحد الأئمة المفلسين ، فخلع رداءه عن منكبيه وستره به وأذاع نبأ مصرعه ...

وبلغ النبأ المعتمد فى اشبيلية فأوجعه ؛ ولكن فجيعته فى ولده لم تلهه عن التدبير لملكه ، فلم يزل يسعى حتى استأصل دعاة الفتنة ، وأخرج ابن عائشة عن قرطبة ، وجعل ولايتها الى ولده المأمون خلفا للظافر ، فلم يزل واليا عليها حتى قتله المرابطون يوم دخولهم قرطبة !

(١) يعنى على قرطبة .

(٢) كان سبب ذلك أنه لما استولى الأذفونس سنة ٤٧٨ على طليطلة من يد القادر بن ذى النون، قوى سلطانه وعظم أمله فى الاستيلاء على أشبيلية وقرطبة وغيرهما من قواعد الأندلس ، فأجمع ملوك الطوائف — وكبيرهم ابن عباد — على أن يستعينوا بيوسف بن تاشفين ملك المغرب ، فدعوه لنصرتهم ، على ما يراود نفوسهم من خوفه وما يتوقعونه من طمعه فى الاستئثار بملك الأندلس دونهم ، وقد كان ما توقعوا وتوقع ابن عباد معهم ، وكانت نكبة المعتمد على يدى نصيره الذى استجار به .

وكما فعل ابن عباد ببنى جهور حين استعانوه لدفع المأمون بن ذى النون عن قرطبة فنكبهم واستخلصها لنفسه ، فعل يوسف بن تاشفين ببنى عباد .

بهم فى حربه ؛ فأسرع أمير المسلمين المذكور إجابته إلى ما دعاه إليه ؛ وقال له : أنا أوّل منتدِب لنصرة هذا الدين ، ولا يتولى هذا الأمر أحدٌ إلا أنا بنفسى !

فرجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً بإسعاف أمير المسلمين إياه فى طَلبته، ولم يدر أنَّ تدميره فى تدبيره ؛ وسلَّ سيفاً يحسبه له ولم يدرِ أنه عليه ؛ فكان كما قال أبو فراس :

إذا كان غيرُ الله للمرء عُدّةً أتته الرزايا من وجوه الفوائد
كما جَرَّتْ الحنفاءُ حتفَ حُذَيفةٍ وكان يراها عُدَّةً للشدائد[1]

فأخذ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى أُهبة العبور إلى جزيرة الأندلس ؛ وذلك فى شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة ، فاستنفر مَن قدر على استنفاره من القُوّاد وأعيان الجند ووجوه قبائل البربر ؛ فاجتمع له نحو من سبعة آلاف فارس فى عدد كثير من الرَّجل ؛ فعبر البحر بعسكر ضخم ، وكان عبوره من مدينة سَبْتة ؛ فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وتلقاه المعتمد فى وجوه أهل دولته ، وأظهر من بره وإكرامه فوق ما كان يظنه أميرُ المسلمين ، وقدَّم إليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية مالم يظنه يوسف عند ملك ؛ فكان هذا أول ما أوقع فى نفس يوسف التشوُّفَ إلى مملكة جزيرة الأندلس .

---

(١) الحنفاء : فرس حذيفة بن بدر الفزارى، وكانت مباراته بها سببا الى شر كثير بين عبس وذبيان ، وحروب استمرت سنين ، وكان فيها مقتل حذيفة يوم الهباءة . انظر التعليق رقم ٤ ص ١٣١ .

ثم إنه فصل عن الخضراء بجيوشه قاصداً شرق الأندلس ، وسأله المعتمد خولَ إشبيلية دارَ ملكه ليستريح فيها أياماً حتى تزول عنه وعثاءُ السفر ثم يقصد قصده ، فأبى عليه وقال : إنما جئت ناوياً جهاد العدوّ ، فحيثما كان العدوُّ توجهت وَجهه .

وكان الأدفنش[1] ـ لعنه الله ـ محاصراً لحصن من حصون المسلمين يعرف بحصن الليط ؛ فلما بلغه عبور البربر أقلع عن الحصن راجعاً إلى بلاده مستنفراً عساكره ليلقى بهم البربر .

وتوجه يوسف المذكور إلى شرق الأندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر ، والإصلاحَ بين المعتمد على الله وبين رجل كان تغلّب على مُرسية يقال له ابن رشيق قد تقدَّم ذكره فى أخبار ابن عمار[2] ؛ فأصلح بينهما يوسف أمير المسلمين على أن يخرج له ابنُ رشيق عن مُرسية ، ويعوِّضه المعتمد عن ذلك مالاً جعله له ، ويوليه فى جهة إشبيلية ولاية ؛ فأجابه ابن رشيق إلى ذلك ؛ وتسلم المعتمد مرسية وأعمالها .

ولّى يوسف أمير المسلمين ملوكَ الأندلس الذين كان عليهم طريقه ، كصاحب غرناطة (٣) ، والمعتصم بن صمادح صاحب المَرِيَّة ، وابن عبد العزيز أبو بكر صاحب بلنسية .

---

(١) هو الفونس السادس ملك قشتالة .

(٢) لم تخلص امرة مرسية لواحد بعد خروج ابن عمار عنها ، بل كانت دولة بين امراء عدة . وانظر ص ١٨١

(٣) هو ابن باديس عبد الله بن بلكين الصنهاجي .

[وقعة الزَّلاَّقة]

ثم إنَّ يوسف المذكور استعرض جنده على حصن الرقة ؛ فرأى منهم ما يسرُّه ، فقال للمعتمد على الله : هلمَّ ما جئنا له من الجهاد وقصدِ العدوّ ؛ وجعل يُظهر التأفف من الإقامة بجزيرة الأندلس ، ويتشوَّق إلى مراكش ، ويُصغِّر قدر الأندلس ، ويقول فى أكثر أوقاته : «كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيماً قبل أن نراها ، فلما رأيناها وقعتْ دون الوصف! » وهو فى ذلك كله «يُسِرُّ حَسْواً فى ارتغاء![1] » فخرج المعتمد بين يديه قاصداً مدينة طليطلة.....

واجتمع للمعتمد أيضاً جيش ضخم من أقطار الأندلس ؛ وانتَدَب الناسُ للجهاد من سائر الجهات ، وأمدَّ ملوكُ الجزيرة يوسفَ والمعتمد بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح ، فتكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرتزقة زُهاء عشرين ألفاً ؛ والتقَوا هم والعدوُّ بأول بلاد الروم .

وكان الأدفنش ــ لعنه الله ــ قد استنفر الصغير والكبير ، ولم يَدعْ فى أقاصى مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه ، وجاء يجرُّ الشوك والشجر ؛ وإنما كان مقصوده الأعظم قطع تشوُّفِ البرابرة عن جزيرة الأندلس والتهيُّب عليهم ؛ فأما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحدٌ إلا يؤدى إليه الإتاوة ، وهم كانوا أحقرَ فى عينه وأقلَّ من أن يحتفل لهم !

---

(1) « يسر حسوا فى ارتغاء » : مثل يضرب لمن يريك انه يعينك وهو انما يقصد النفع لنفسه ، كشان من يؤتى بوعاء من اللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خالصة لا يريد غيرها ، وهو فى أثناء ارتغائه يحسو اللبن جرعة جرعة !

ولما تراءى الجمعان من المسلمين والنصارى ، رأى يوسف وأصحابه أمراً عظيماً هالهم ؛ من كثرة عدَدٍ ، وجَودة سلاحٍ وخيل ، وظهورِ قوة ؛ فقال للمعتمد : ما كنت أظن هذا الخنزير – لعنه الله – يبلغ هذا الحد !

وجمع يوسف أصحابه وندَب لهم من يَعظهم ويُذكرهم ؛ فظهر منهم من صدق النية والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة ما سُرَّ به يوسف والمسلمون .

وكان ترائيهم يوم الخميس ، وهو الثانى عشر من شهر رمضان ؛فاختلفت الرسلُ بينهم فى تقرير يوم الزحف ليستعدَّ الفريقان ؛ فكان من قول الأدفنش لعنه الله : الجمعة لكم ، والسبت لليهود وهم وزراؤنا وكُتابنا وأكثرُ خدم العسكر منهم فلا غِنى بنا عنهم ، والأحد لنا ؛ فإذا كان يوم الاثنين كان ما نريده من الزحف .

وقصد – لعنه الله – مخادعة المسلمين واغتيالهم ، فلم يتم له ما قصد...

فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ولا أمارة عندهم للقتال ، وبَنَى يوسفُ بن تاشفين الأمرِ على أن الملوكَ لا تغدر ؛ فخرج هو وأصحابه فى ثياب الزينة للصلاة ؛ فأما المعتمد فإنه أخذ بالحزم . فركب هو وأصحابه شاكى السلاح ، وقال لأمير المسلمين : صَلِّ فى أصحابك فهذا يومٌ ما تطيب نفسى فيه ، وها أنا من ورائكم ؛ وما أظن هذا الخنزير إلا قد أضمر الفتك بالمسلمين .

فأخذ يوسف وأصحابه فى الصلاة ، فلما عقدوا الركعة الأولى ثارت فى وجوههم الخيل من جهة النصارى ، وحمل الأدفنش – لعنه الله – فى أصحابه

يظن أنه قد انتهز الفرصة ؛ وإذا المعتمد وأصحابه من وراء الناس ، فأغنى ذلك اليوم غَناءً لم يُشْهَد لأحد من قبله ؛ وأخذ المرابطون سلاحهم فاستوَوْا على متون الخيل ، واختلط الفريقان ؛ فأظهر يوسف بن تاشفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء والثبات مالم يكن يحسبه المعتمد ؛ وهزم الله العدوّ ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم في كل وجه ، ونجا الأدفنش — لعنه الله — فى تسعة من أصحابه[1] ؛ فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالأندلس ، أعزّ الله فيه دينه وأعلى كلمته وقطَع طمعَ الأدفنش لعنه الله — عن الجزيرة ، بعد أن كان يقدِّر أنها فى ملكه وأن رءوسها خدم له ؛ وذلك كله بحسن نية أمير المسلمين .

وتسمى هذه الوقعة عندهم وقعة الزّلاقة : وكان لقاء المسلمين عدوهم كما ذكرنا فى يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن فى سنة ٤٨٠[2] ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين مفتوحاً لهم وبهم [3] ؛ فسُرّ بهم أهل الأندلس ، وأظهروا التيمن بأمير المسلمين والتبرك به ، وكثر الدعاء له فى المساجد وعلى المنابر ، وانتشر له من الثناء بجزيرة الأندلس ما زاده طمعاً فيها ؛ وذلك أن الأندلس كانت قبله بصدد التّلاف من استيلاء النصارى عليها وأخْذهم الإتاوة من ملوكها

---

(١) لم يتفق مؤرخو هذه الواقعة فى تحديدعدد الناجين مع الأدفنش من عسكره ، وان كانوا مجمعين على أن جيشه قد باد كله ، قادة وجنودا ، الا قلة لا يكاد يخطئها الاحصاء ، وأصيب الادفونش نفسه فى احدى ركبتيه اصابة لزمه أثرها ما بقى من حياته !

(٢) كذا بالأصل ، واكثر المؤرخين على ان وقعة الزلاقة كانت سنة ٤٧٩ فى منتصف رجب ، او فى اوائل رمضان .

(٣) قالوا : وقد عف يوسف بن تاشفين عن الغنائم فلم يأخذ شيئا منها يومئذ وآثر بها ملوك الأندلس !

قاطبة ؛ فلما بهر الله القعدوّ وهزمه على يد أمير المسلمين ، أظهر الناسُ إعظامه ونشأ له الود فى الصدور .

ثم إنه أحب أن يجول فى الأندلس على طريق التفرج والتنزه ، وهو يريد غير ذلك ؛ فجال فيها ونال من ذلك ما أحب ، وفى خلال ذلك كله يُظهر إعظام المعتمد وإجلاله ، ويقول مصرِّحاً : إنما نحن فى ضيافة هذا الرجل وتحت أمره وواقفون عند ما يَحدّه .

[بين المعتصم بن صمادح والمعتمد بن عباد]

وكان ممن اختص بأمير المسلمين من ملوك الجزيرة وحَظِي عنده واشتدّ تقريبُ أمير المسلمين له : أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح المعتصم صاحب المَرِيَّة[1] .

وكان المعتصم هذا قديمَ الحسد للمعتمد كثير النفاسة عليه ؛لم يكن فى ملوك الجزيرة من يناويه غيره ، وربما كانت بينهما فى بعض الأوقات مراسلات قبيحة ، وكان المعتصم يَعيبه فى مجالسه وينال منه ؛ ويمنع المعتمدَ من فعل مثل ذلك مروءتُه ونزاهة نفسه وطهارة سريرته وشدة ملوكيته . وقد كان المعتمد قبل عبور أمير المسلمين بيسير توجَّه إلى شرق الأندلس

---

(1) المرية : مدينة على ساحل البحر الرومى ، كانت قاعدة الأسطول الاسلامى ، وكان بها خيران العامرى من ملوك الطوائف ، ثم زهير من بعده ، فلما هلك زهير آلت الى عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ، وغلبه عليها غدرا صهره ووزيره معن بن صمادح والد المعتصم المذكور ، فاستتب له الأمر بها وأورثها خلفه المعتصم ...

يتطوّف على مملكته ويطالع أحوال عماله ورعيته ؛ فلما دانى أولَ بلاد المعتصم خرج إليه فى وجوه أصحابه ، وتلقاه لقاءً نبيلا ، وعزم عليه ليدخُلَنَّ بلاده ؛ فأبى المعتمد ذلك ، ثم اتفقا بعد طول مُراودة على أن يجتمعا فى أول حدود بلاد المعتصم وآخرِ حدودِ بلاد المعتمد ، فكان ذلك واصطلحا فى الظاهر ؛ واحتفل المعتصم فى إكرامه ، وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر الملوكية المعَدّة لمجالس الأُنس ما ظَنَّه مُكْمِدًا للمعتمد مُثيرًا لغمِّه ؛ وقد أعاذ الله المعتمد من ذلك وصان خُلقه الكريم عنه وعَصَمه بفضله منه ؛ ثم افترقا بعد أن أقام المعتمد عنده فى ضيافته ثلاثة أسابيع ، ورجع المعتمد إلى بلاده ؛ وبأثر ذلك عبر إلى مراكش ولم يزل ما بينه وبين المعتصم معمورًا ، إلى أن عبر أمير المسلمين كما ذكرنا ، فلقيه المعتصم بهدايا فاخرة وتُحف جليلة ، وتلطَّف فى خدمته حتى قرّبه أمير المسلمين أشدَّ تقريب ، وكان يقول لأصحابه : هذان رَجُلا هذه الجزيرة ! يعنى المعتصم والمعتمد ؛ وكان أكبرَ أسباب تقريبِ أمير المسلمين إياه ، ثناءُ المعتمد عليه عند أمير المسلمين ، ووصْفُه إياه عنده بكل فضل ؛ ولم يكن المعتصم بعيدًا من أكثر ما وَصَفه به .

ولما اشتدّ تمكُّنُ المعتصم من أمير المسلمين ، بدا له أن يسعى فى تغيير قلبه على المعتمد وإفساد ما بينهما ؛ حَسّن له ذلك سوءُ رأيه ودَنَسُ سريرته وضعفُ بصره بعواقب الأمور ، وليقضى الله أمرًا كان مفعولا ، وليبلغ القَدَر ميقاته ؛ وإذا أراد الله تمامَ أمر هَيّأ له أسباباً ،فشرع المعتصم فيما أراده

من ذلك ؛ ولم يدر أنه ساقط فى البئر التى حَفَر ، وقتيل بالسلاح الذى شَهَر [1] ...

فكان من جملة ما أُلقى إلى أمير المسلمين ، أنْ جعل يُقرر عنده عُجب المعتمد بنفسه ، وفَرْط كبره ، وأنه لا يرى أحدًا كفؤًا له ؛ وزعم أنه قال له فى بعض الأيام وقد قال له المعتصم : طالت إقامة هذا الرجل بالجزيرة - يعنى أمير المسلمين - : «لو عَوَجْتُ له إصبعى ما أقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابُه ...... وكأنك تخافُ غائلته ...وأىُّ شىءٍ هذا المسكينُ وأصحابه؟ إنما هم قوم كانوا فى بلادهم فى جهد من العيش ، وغلاءٍ من السِّعر ، جئنا بهم إلى هذه البلاد نُطعمهم حِسبَةً وائتجارا ، فإذا شبعوا أخرجناهم عنها إلى بلادهم ...! » إلى أمثال هذا القول من تحقير أمرهم ؛ وأعانه على ذلك قومٌ من وجوه الأندلس ، إلى أن بلغوا ما أرادوه من تغيُّر قلب يوسف أمير المسلمين على المعتمد .

---

(1) آل أمر المعتصم هذا مع يوسف بن تاشفين الى مثل ما آل اليه أمر ملوك الطوائف جميعا ، فقد اقتحمت عساكر المرابطين بلاده سنة ٤٨٤ ، وكان فى الاحتضار ، فتنغصت عليه ساعاته الأخيرة ، اذ كان أكثر القتال تحت الذى كان به مضجعه ، قالت أروى حظيته :

« انى لعنده وهو يوصى ، وقد غلب على أكثر يده وسلطانه ، ومعسكر امير المسلمين يومئذ بحيث نعد خيامهم ونسمع اختلاط أصواتهم ، اذ سمع وجبة من وجبانهم ، فقال : لا اله الا الله! نغص علينا كل شىء حتى الموت !... قالت أروى : فلا أنسى طرفا الى يرفعه ، وانشاده لى بصوت لا أكاد أسمعه :

تَرَفَّقْ بدمعِكَ لا تُفْنه فبين يديكَ بكاءٌ طويل !

وكان ذلك فى ربيع الأول سنة ٤٨٤ قبل انزال المعتمد عن عرش اشبيلية ببضعة اشهر !

وكذلك كانت آخرة غيره من ملوك الطوائف : بنى هود بسرقسطة، وبنى طاهر بمرسية، وبنى الأفطس ببطليوس... ثم كانت آخرة بنى عباد كما سيأتى !

وقد كان أمير المسلمين ضرَب لنفسه ولأصحابه أجلا وحَدَّ له ولهم مدةً يقيمونها فى الجزيرة لا يزيدون عليها ؛ وإنما فعل ذلك تطييباً لقلب المعتمد وتسكيناً لخاطره ؛ فلما انقضت تلك المدة أو قاربت ، عَبَر أمير المسلمين إلى العدوة وقد وَغِرَ صدرُه وتغيرت نفسه .

وما النفس إلا نطفةٌ فى قرارة   إذا لم تُكَدَّر كان صفواً غديرُها

هذا مع ما ذكرنا من طمعه فى الجزيرة وتشوُّفِه إلى مملكتها . وظهرت للمعتمد قبل عبوره أشياءُ عَرف بها أنه غُيِّر عليه !

[نكبة بنى عباد]

ورجع أمير المسلمين إلى مراكش وفى نفسه من أمر الجزيرة المقيمُ المُقْعِد؛ فبلغنى أنه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : كنت أظن أنى قد ملكت شيئاً . فلما رأيت تلك البلاد صَغُرت فى عينى مملكتى ؛ فكيف الحيلة فى تحصيلها ؟

فاتفق رأيه ورأى أصحابه على أن يراسلوا المعتمد يستأذنونه فى رجالٍ من صلحاء أصحابهم رغبوا فى الرِّباط بالأندلس ومُجاهدة العدوّ والكَوْنِ ببعض الحصون المصاقبة للروم إلى أن يموتوا ؛ ففعلوا ، وكتبوا إلى المعتمد بذلك . فأذن لهم . بعد أن وافقه على ذلك ابنُ الأفطس المتوكل صاحبُ الثغور ؛ وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قومٌ من شيعتهم مبثوثين

بالجزيرة فى بلادها ، فإذا كان أمرٌ من قيام بدعوتهم أو إظهارٍ لملكتهم وجدوا فى كل بلد لهم أعواناً[1] .

[استيلاء المرابطين على الأندلس]

وقد كانت قلوب أهل الأندلس – كما ذكرنا – قد أُشْرِبَتْ حبَّ يوسف وأصحابه ، فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالا انتخبهم ، وأمَّر عليهم رجلا من قرابته يسمى بُلُجِّين ، وأَسَرَّ إليه ما أراده ، فجاز بُلُجِّينُ المذكور وقصد المعتمدَ من ملوك الجزيرة فقال له : أين تأمرنى بالكَوْن ؟ فوجَّه معه المعتمد من أصحابه من يُنزله ببعض الحصون التى اختارها لهم ، فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه . وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد . وكان مبدؤها فى شوال من سنة ٤٨٣ بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة من العدوة ، دون مقدِّمةٍ ظاهرة توجب ذلك ، فتشعَّبت جموعُه وأهواؤُها ملتئمة ، وانتشرت بلادُه وقلوبُ أهلها على محبته منتظمة .

ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المسلمين ، انتشر ذلك فى الأندلس ، وزحف القوم الذين قدمنا ذكرهم ، الكائنون فى الحصون ، إلى قرطبة ؛ فحاصروها وفيها عبَّادٌ بن المعتمد الملقب بالمأمون ، وقد تقدَّم ذكره[2] وهو من أكبرِ ولده ؛ فدخلوا البلد ، وقُتل عبادٌ هذا بعد أن أبلى عذرًا ، وأظهر فى الدفاع عن نفسه جلَدًا وصبرًا ؛ وذلك فى مستهل

(١) « الطابور الخامس » فى اسبانيا منذ تسعة قرون !

(٢) انظر ص ١٩٠ .

صفر الكائن فى سنة ٤٨٤ ؛ فزادت الإحنة والمحنة ، واستمرت فى غُلَوائها الفتنة .

[ثورة إشبيلية]

وأجمعت على الثورة بحضرة إشبيلية طائفة ، فأُعلم المعتمد بما اعتقدته الطائفة المذكورة ، وكُشف له عن مرادها ، وأُثبت عنده سوءُ اعتقادها ، وأُغْرى بتمزيق أديمها وسفك دمها ، وحُضَّ على هتك حريمها وكشف حُرمها ؛ فأَبى له ذلك مجدُه الأثيل ، ورأيه الأَصيل ، ومذهبه الجميل ، وما حباه الله به من حسن اليقين ، وصحةِ العقل والدين ؛ إلى أن أمكنتهم الغرَّة يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة ، فقاموا بجيش غير مستنصَر ، واستنسروا بُغاثاً غير مستنسَر ؛ فبرز هو من قصره ، سيفه بيده[1] ، وغلالته ترفّ على جسده ، لا دَرَقة له ولا دِرع عليه ؛ فلقى على باب من أبواب المدينة يسمى بابَ الفرج ، فارساً من الداخلين مشهورَ النجدة شاكى السلاح ، فرماه الفارس برمح قصيرِ أنابيب القناة ،طويلِ شفرة السنان ؛ فالتوى الرمح بغلالته وخرج تحت إبطه ، وعَصَمه الله منه ، ودَفَعه بفضله عنه ؛ وصبَّ هو سيفه على عاتق الفارس فشقَّه إلى أضلاعه فخرّ صريعاً ، وانهزمت تلك الجموع ، ونزل المتسنّمون للأَسوار عنها .

وظنَّ أهل إشبيلية أنَّ الخناق قد تنفَّس ، فلما كان عصر ذلك اليوم ، عاودهم القوم ، فظُهر على البلد من واديه ، ويُئس من سُكنى ناديه ، وبلغ

(١) قالوا : كان فى الحمام حين بلغه النبأ ، فخرج للغارة فى قميصه !...

فيه الأملَ حاسده وشانيه ، وشَبَّت النار فى شوانيه ، فانقطع عندها الأمل والقول . وذهبت القوة من أيدى أهلها والحَوْل .

[الاستيلاء على إشبيلية]

وكان الذى ظهر عليها من جهة البر ، رجلٌ من أصحاب يوسف أمير المسلمين يُعرف بحُدَيْر بن واسْنُو ؛ ومن الوادى رجلٌ يعرف بالقائد أبى حمامة مولى بنى سُجُّوت ؛ والتوَت الحال أياماً يسيرة ، إلى أن ورد الأمير سِيرُ ابن أبى بكر بن تاشفين – وهو ابن أخى أمير المسلمين – بعساكر متظاهرة ، وحشود من الرعية وافرة ؛ والناسُ فى خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع ، وخالط قلوبَهم الهلع ، يقطعون السبَل سباحة ، ويعبرون النهر سباحة ، ويتولَّجون مجارىَ الأقذار . ويترامَون من شرفات الأسوار ، حرصاً على الحياة ؛ والموفون بالعهد المقيمون على صريح الودّ ، ثابتون ؛ إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السنة المذكورة ، وهذا يوم الكائنة العظمى ، والطَّامة الكبرى ، فيه حُمَّ الأمر الواقع ، واتسع الخُرق على الراقع ، ودُخل البلد من واديه ، وأُصيب حاضره وباديه ؛ بعد أن جَدَّ الفريقان فى القتال ، واجتهدت الفئتان فى النزال ، وظهر من دفاع المعتمد رحمه الله وبأسه ، وترامية على الموت بنفسه ، ما لا مزيد عليه . ولاتناهٍ لخلق إليه ؛ وفى ذلك يقول المعتمد بعد ما نزل بالعدوة أسيرًا حسيرًا :

لما تماسكت الدُّموعْ وتَنَهْنَهَ القلبُ الصَّدِيعْ
قالوا الخضوعُ سياسةٌ فلْيَبْدُ منك لهم خُضوع

وألذُّ من طعم الخضوع　　على فمى السُّم النَّقيع

إن تَستَلِبْ عنى الدُّنَا　　مُلكى وتُسْلِمْنى الجموع[1]

فالقلبُ بين ضلوعه　　لم تُسلمِ القلبَ الضلوع

لم أُسْتَلَبْ شَرفَ الطبا　　ع أَيُسْلَبُ الشرفُ الرفيع

قد رُمْتُ يوم نزالهم　　ألا تُحصِّننى الدُّروع

وبرزتُ ليس سوى القميصِ　　عن الحشا شَئٌ دفوع

وبذلتُ نفسى كى تَسيلَ　　إذا يسيلُ بها النَّجيع

أجَلى تأخَّر ، لم يكن　　بِهواىَ ذُلى والخشوع

ماسِرتُ قطُّ إلى القتا　　ل وكان من أملى الرجوع

شِيَمُ الأُلى أنا منهمو　　والأَصلُ تتبعهُ الفروع!

فشُنَّت الغارة فى البلد ، ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبدًا ولا لبدًا ، وانتهبت قصور المعتمد نهباً قبيحاً ، وأُخذ هو قبْضاً باليد[2] وجُبر على

---

(١) رواية اخرى لهذا البيت :

إن يسلب القوم العدا　　ملكى وتسلمنى الجموع

(٢) لما صار المعتمد فى ايدى البربر من أصحاب ابن تاشفين ، وضعوا القيود فى يديه ورجليه . قال الفتح بن خاقان فى القلائد : « ثم جمع هو وأهله ، وحملتهم الجوارى المنشآت، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات ، بعد ما ضاق عنهم القصر ، وراق منهم العصر ، والناس قد حشروا بضفتى الوادى ، وبكوا بدموع كالغوادى، فساروا والنواح يحدوهم ، والبوح باللوعة لا يعدوهم ... »

وفى ذلك نظم شاعرهم ابو بكر الدانى قصيدته التى اولها :

تبكى السماءُ بمزنٍ رائحٍ غادِ　　على البهاليل من أبناء عبَّاد

مخاطبة ابنيه : المعتدّ بالله ، والرّاضى بالله ، وكانا بمعْقلين من معاقل الأندلس المشهورة ، لو شاءا أن يمتنعا بهما لم يصل أحدٌ إليهما ، أحد الحصنين يسمى رُندَة ، والآخر مارْتُله ،فكتب [إليهما] رحمه الله ، وكتبت السيدةُ الكبرى أمهما ، مستعطفَين مسترحِمَين ، مُعْلمَين أن دم الكل منهم مُسترهَنٌ بثبوتهما ؛ فأنفا من الذل ، وأبيا وضع أيديهما فى يد أحد من الناس بعد أبيهما ؛ ثم عطفتهما عواطف الرحمة ، ونظرا فى حقوق أبويهما المقترنة بحق الله عز وجل ، فتمسك كل منهما بدينه ونبذ دنياه ، ونزلا عن الحصنين بعد عهود مبرمة ، ومواثيق محكمة ؛ فأما المعتدّ بالله فإن القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه ، وأما الراضى بالله فعند خروجه من قصره قُتل غِيلةً وأُخفى جسده(١) .

---

(١) كان المعتد بمارتلة ، والراضى برندة ، وقد كان ثباتهما فى المقاومة سببا للتضييق على ابيهما فى محبسه واثقاله بالحديد واعناته بالوان من المشقات لاطاقة له باحتمالها ، حتى اضطره سوء ما يلقى الى الكتابة لهما يدعوهما الى الاستسلام برا به وعطفا عليه ، ويروى الفتح ابن خاقان فى القلائد أن ولدا ثالثا للمعتمد ـ واسمه عبد الجبار ـ ثار بأركش : معقل كان مجاورا لاشبيلية ، فسار نحوه الأمير سير بن أبى بكر بن تاشفين ، فما زال يقاومه أشهرا وهو ممتنع بحصنه لا يبلغ منه مبلغا . ثم قال صاحب القلائد يصف حال المعتمد حين بلغه ذلك النبأ : انه « جزع جزعا مفرطا ، وعلم أنه قد صار فى أنشوطة الشر متورطا ، وجعل يتشكى من فعله ـ يعنى ولده ـ ويتظلم ، ويتوجع منه ويتألم ، ويقول : عرض بى للمحن ، ورضى لى ان امتحن ، ووالله ما أبكى الا انكشاف من أتخلفه بعدى ، ويتحيفه بعدى ... الخ »

وقد لقى هذا الثائر مصرعه ، كما لقيه أخواه المأمون والراضى بمارتلة ورندة ، ولقيه من قبلهم الظافر فى فتنة ابن عكاشة بقرطبة .

وللمعتمد شعر كثير فى رثاء ولديه المأمون والراضى ، منه :

يقولون صَبرٌ ، لا سبيل إلى الصبْر ... سأبكى وأبكى ما تطاول من عمرى
هَوَى الكوكبان الفتح ثم شقيقُه ... يزيدُ ، فهل بعد الكواكب من صبر
أفتحُ لقد فتّحْت لى باب رحمة ... كما بيزيدَ اللهُ قد زاد فى أجرى

ورُحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال جميع أحواله ، ولم يصحب من ذلك كلِّه بُلْغةَ زاد ؛ فركب السفين ، وحلَّ بالعدوة محلَّ الدفين ؛ فكان نزوله من العُدوة بطنجة ؛ فأقام بها أياماً ، ولقيه بها الحصرى الشاعر[1] ، فجرى معه على سوء عادته من قُبح الكُدْية وإفراط الإلحاف ، فرفع إليه أشعاراً قديمة قد كان مدَحه بها ، وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدّها عند وصوله إليه[2] ؛ ولم يكن عند المعتمد فى ذلك اليوم مما زُوِّدَ به فيما بلغنى أكثرُ من ستة وثلاثين مثقالا ، فطَبع عليها وكتب معها بقطعة شعر يعتذر

هوى بكما المقدارُ عنى ولم أمُتْ — وأُدْعى وفيًّا ! قد نكصتُ إلى الغدر
ـ توليتما والسنُّ بعدُ صغيرةٌ — ولم تلبث الأيامُ أن صغَّرت قدرى
فلو عُدتما لاخترتما العَوْدَ فى الثرى — إذا أنتما أبصرتمانىَ فى الأسر
يُعيد على سمعى الحديدُ نشيدَه — ثقيلا ، فتبكى العين بالحسِّ والنَّقْر
معى الأخوات الهالكاتُ عليكما — وأمُّكما الثكلى المضرَّمةَ الصدر
فتبكى بدمع ليس للقطر مثله — وتزجُرُها التقوى فتُصغى إلى الزَّجْر
أبا خالدٍ ، أورثتنى البثَّ خالدًا — أبا النصر مُذ وَدَّعتَ ودَّعَنى نصرى
وقبلكما ما أودعَ القلبَ حسرةً
تَجَدَّدُ طولَ الدهر ، ثُكلُ أبى عمرو!

وابو خالد هو يزيد الراضى ، وأبو النصرهو المامون ، أما ابوعمرو فهو الظافرالقتيل بقرطبة فى فتنة ابن عكاشة !

(١) هو أبو الحسن على بن عبد الغنى الضرير ، وهو غير أبى اسحاق الحصرى صاحب زهر الآداب ، ولكنه ابن خالته .

(٢) يتعمد المؤلف ـ فيما يبدو ـ الغض منقدر أبى الحسن الحصرى ويسرف فى معابتـه ، فينسبه الى الكدية وافـراط الالحاف ، ويصف شعره الذى رفعه الى المعتمد فى طنجة بالقدم ، لتدليل على جفاء طبعه وفساد ذوقه ، على ان صاحب نفح الطيب يروى هذا الخبر على وجه آخر،

من قلّتها ـ سقطتْ من حفظى ـ ووجّهبها إليه[1] ؛ فلم يجاوبه عن القطعة ، على سهولة الشعر على خاطره وخفّته عليه .

كان هذا الرجل ـ أعنى الحصرى الأعمى ـ أسرع الناس فى الشعر خاطرًا ، إلا أنه كان قليل الجيد منه ؛ فحرّكه المعتمد على الله على الجواب بقطعة أولها :

قُل لمن قد جَمَع العلـــم وما أحصى صَوابَهْ
كان فى الصُّرَّةِ شعرٌ فَتنظَّرْنا جوابَه
قد أثبْناك فهلاَّ جَلَبَ الشعرُ ثوابَهْ ؟

ولما اتصل بزعانفة الشعراء ومُلْحِفِى أهلِ الكدية ما صنع المعتمد رحمه الله مع الحصرى ، تعرَّضوا له بكل طريق ، وقصدوه من كل فج عميق ؛ فقال فى ذلك رحمه الله :

شُعراءُ طنجةَ كلُّهم والمغربِ ذهبوا من الإغراب أبعدَمذهب
سألوا العسيرَ من الأسيرِ وإنه بسؤالهم لأحقُّ فاعجبْ واعجبِ
لولا الحياءُ وعزَّةٌ لَخْمِيَّةٌ طىَّ الحَشَا ساواهمُ فى المطلبِ .

فيقول ان الحصرى كان قد ألف للمعتمد كتاب «المستحسن من الاشعار » فلم يقض بوصوله اليه الا وهو على تلك الحالة .

وقد كان مقام الحصرى فى طنجة ، فهو لم يفد على المعتمد ـ وهو فى طريقه الى منفـــاه ـ مستجديا كما توسم عبـــارة المراكشى ، بل كان مستقبلا له ، وانتهز فرصة وصوله الى طنجـــة ليقدم اليه كتابا ، يضم مدائحه ، مضيفا الى ذلك قصيدة استجدها فى مدحه .

(١) رواية المقرى : (فلما اخذ المعتمد الكتاب قال للحصرى : ارفع ذلك البساط فخذ ماتحته ، فوالله ماأ ملك غيـره ! فوجد تحته جملـة مال فأخذه .)

قد كان إن سُئل الندى يُجزِلْ وإن
نادى الصريخُ ببابهِ اركبْ يرْكبِ

وله فى هذا المعنى رحمه الله :

قُبِّحَ الدهرُ فماذا صنعا | كلَّما أعطى نفيساً نَزَعا
قد هَوى ظلما بمن عادُته | أن ينادِى كلٌّ من يهوى لَعَا!
مَن إذا الغيثُ هَمَى منهمِرًا | أخجلتْه كفُّه فانقطَعا
مَن غمامُ الجودِ من راحتِه | عصفتْ ريحٌ به فانتشعا
من إذا قيل الخَنَا صُمٌّ وإن | نطَق العافُون همساً سَمِعا
قل لمن يطمعُ فى نائله | قد أزال اليـأْسُ ذاك الطمَعا
راح لا يملك إلا دعوةً | جَبَر اللهُ العُفاةَ الضُّيَّعا .

وأقام المعتمد بطنجة ــ رحمه الله ــ أياماً على الحال التى تقدم ذكرها ، ثم انتقل إلى مدينة مكناسة[1] ، فأقام بها أشهرا ، إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة اغمات ،فأقاموا بها إلى أن توفى المعتمد رحمه الله ، ودفن بها فقبره معروف هناك[2] وكانت وفاته فى شهور سنة ٨٧ وقيل سنة ٨٨ .

---

(١) مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى ، تقع الى الغرب من فاس ، وبينهما نحو ٣٥ ميلا .

(٢) اغمات : بليدة وراء مراكش ، بينهمـا مسير ساعات . ولم يزل قبر المعتمد معروفا بها حتى اليوم ، وقد زاره المقرى صاحب نفح الطيب سنه ١٠١٠ من الهجرة ، قال : فرأيته فى ربوة حسبما وصفه ابن الخطيب . يعنى لسان الدين، وقد كان زاره قبـل ذلك بعرنين وبلف قرن ، ووصفه فقال : وهو بمقبـرة اغمات ، فى نشزمن الارض ، قد حفت به سدرة ، والى جنبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك ، وعليها هيئة التغرب ، ومعاناة الخمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهـا . قال ابن الخطيب :فانشدت فى الحال :

قد زرت قبرك عن طوع بـأغمات | رأيت ذلك من أولى المهمات

فالله أعلم ، وسنّه يوم تُوفى إحدى وخمسون سنة[1] .

فمن أحسن ما مر بى مما رُثى به المعتمد على الله مقطوعةٌ من شعر ابن اللبانة[2] أولها :

لِمْ لا أزورك يا أندى الملوك يدًا ويا سراجَ الليالى المدلهمّات
وأنت من لو تخطّى الدهرُ مصرعَه إلى حياتى لجادت فيه أبياتى !

الخ ... قال محقق هذا الكتاب :

وقد كنت بالمغرب فى ربيع سنة ١٩٦١ لبعض العمل ، فزرت مدينة مراكش ، وكان معى فى هذه الزيارة الأديب المؤرخ القاص الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، فبدا لنا ـ وقد عرفنا ان اغمات على بعد قريب ـ أن نزور قبر المعتمد بن عباد ، فركبنا اليه سيارة ، فى صحبة الأخ الأديب المغربى عبد الهادى التازى ، ولكننا اضطررنا الى الترجل قبل أن نبلغ القبر ، لأن الطريق اليه موحل وغير مستو ، ولم تكن نظن ان بيننا وبينه ـ حين هبطنا من السيارة ـ غير خطا معدودة ، ولم تكن كذلك ، فظللنا نمشى بين آكام وأغوار وتراب ووحل وشوك وماء راكد حتى بلغنا قريبا من القبر فى ظاهر البلدة ،ودلنا عليه بعض الصبيه من أهلها ، وكانوا يستذكرون دروسهم فى ظل بستان قريب منه ،فرأينا قبرا على ربوة غير مرتفعة قد تهدمت حيطانه ومار ترابه وفى جوفه مثل جحور الثعالب .. فوقفنا عليه ساعة نستحضر الذكرى والعبرة ونقرأ ما تيسر من القرآن . ثم دلنا الصبية على طريق اقصر وأقل مشقة نصل به الى المكان الذى تنتظرنا فيه السيارة ، وصلنا اليها وعلينا غلاف من تراب مراكش الأحمر وفى نعالنا وحل كثير.

وقد تحدثت أو تحدث بعض من معى عن بعض ما لقينا من المشقة فى هذه الزيارة لقبر الشاعر الملك ، فبلغ حديثنا بعض الآذان ، فلما كانت زيارتى التالية للمغرب فى شتاء سنة ١٩٦٢ علمت أن الملك الحسن الثانى ، ملك المغرب وفقه الله قد أمر بتجديد القبر وتمهيد الطريق اليه ، تعويضا للملك الشاعر عن بعض ما ناله حيا وميتا ، بعد تسعة قرون من محنته الخالدة !

(١) كذا يروى المراكشى ، واهل التاريخ مختلفون فى تحديد سنه يوم وفاته بين الحادية والخمسين والخامسة والخمسين . وقد ذكر المؤلف (ص ١٥٨) أن المعتمد تولى العرش وعمره ٣٧ سنة ، وأنه بقى على العرش عشرين سنة ، وكانت وفاته بعد خلعه بأربع سنوات ، فعلى هذا يبلغ عمره عند وفاته احدى وستين سنة !

(٢) هو أبو بكر الدانى محمد بن عيسى بن محمد اللخمى ، من مشاهير شعراء الأندلس فى المائة الخامسة ، وكان منقطعا الى بنى عباد . وفيهم أجود مدائحه ومراثيه ، ولهم ابدع ما نظم من شعره فى مختلف الفنون ، وقد الف كتابين فى أخبار بنى عباد ، أحدهما « السلوك فى وعظ الملوك » وقد ضمنه عدة مقطعات وقصائد فى البكاء على أيامهم وما انتثر من نظامهم ، والآخر

لكلِّ شيءٍ من الأشياء ميقاتُ ... وللمُنى من مَنَاياهُنَّ غاياتُ

والدهرُ فى صِبغة الحرباءِ منغمسٌ ... ألوانُ حالاته فيها استحالات

ونحن من لُعَب الشِّطْرنج فى يده ... ورُبما قُمِرَتْ بالبَيدقِ الشاةُ

فانفض يديكَ من الدنيا وساكنِها ... فالأرض قد أقفرتْ والناس قد ماتوا

وقُل لعالَمِها الأرضىِّ قد كتمتْ ... سريرةَ العالمِ العُلوىِّ أغماتُ

طَوتْ مظَلَّتُها ، لابل مَذَلَّتها ... مَن لم تَزَلْ فوقَه للعزِّ راياتُ

من كان بين النَّدَى والبأسِ ، أنصُله ... هِنديةٌ وعَطَاياه هُنيدَاتُ

انكرْتُ إلا التواءً للقيودِ بهِ ... وكيف تُنْكر فى الروضات حيَّاتُ

وقلتُ هنَّ ذؤَاباتٌ فَلِمْ عُكستْ ... من رأسِهِ نحو رجليه الذؤابات

رأوه ليثاً فخافوا منه عاديةً ... عذَرْتهم فلِعَدْوَى الليثِ عاداتُ [1]

وله قصيدة يرثيهم[2] بها ، وهى كثيرة الجيد ، أولها :

تبكى السَّماءُ بدمعٍ رائحٍ غادى ... على البَهَاليلِ من أبناءِ عَبَّاد

على الجبالِ التى هُدَّتْ قواعدُها ... وكانت الأرضُ منهم ذاتَ أوتاد

« الاعتماد فى أخبار بنى عباد » فصل فيه تاريخهم منذ كانوا حتى مضوا ... وله غير هذين كتاب « سقيط الدرر ولقيط الزهر » . توفى بميورقة سنة ٥٠٧ .

قال عنه ابن الأبار فى التكملة : « وابن اللبانة ، هذا هو الذى قال احسن قصائده فى المعتمد ابن عباد صاحب اشبيلية ، وكتب عن آل عباد من النثر ما حفظه الناس لنفاسته » .

(١) انظر سائر هذه القصيدة فى قلائد العقيان .

(٢) انظر التعليق رقم ٢ ص ٢٠٣

والرابياتُ عليها اليانعاتُ ذَوَتْ   أنوارُها فغدت فى خَفْضٍ وْهاد

عريسةٌ دخلتها النائباتُ على   أساودٍ لهمُ فيها وآساد

وكعبةٌ كانت الآمالُ تَعْمُرُها   فاليومَ لا عاكفٌ فيها ولا باد

تلك الرماحُ رِماحُ الخطِّ ثَقَّفَها   خَطْبُ الزمانِ ثقافاً غيرمُعتاد

والبيضُ بيض الظُّبا فَلَّت مضاربها

أَيدى الرَّدى وثنتْها دونَ إغماد

لما دَنا الوقتَ لم تُخْلَفْ له عِدَةٌ   وكلُّ شىءٍ لميقاتٍ وميعاد

كم من دراريٍّ سعد قد هَوتْ ووهت

هُناكَ من دُرَرٍ للمجدِ أفراد

نُورٌ ونَوْرٌ فهذا بعد نعمته   ذَوَى وذاك خبَا من بعد إيقاد

يا ضَيفُ أَقفرَ بيتُ المكرماتِ فَخُذْ

فى ضَمِّ رَحْلكَ واجمع فَضْلَةَ الزاد

ويا مُؤَمِّلَ واديهم ليسكنهُ   خفَّ القطينُ وجَفَّ الزرعبالوادى

ضلتْ سبيلُ الندى بابنِالسبيل فسرْ   لغيرِ قصدٍ فما يهديكَ منهادى

وفيها يقول :

نسِيتُ إلا غَدَاةَ النهر كونَهمُ   فى المنْشآت كأَموات بألحاد

والناسُ قد ملأوا العبْرين واعتبروا   من لؤلؤٍ طافياتٍ فوق أزباد

حُطَّ القناعُ فلم تُسْترْمُخَدَّرَةٌ   ومُزِّقَتْ أوْجهٌ تمزيقَ أبراد

تفرّقوا جيرةً من بعدِما نشئوا   أَهْلاً بأَهلٍ وأولادًا بأولادِ

حانَ الوَداعُ فضجَّتْ كلُّ صارخةٍ   وصارخٍ من مُفَدَّاةٍ ومِن فاد
سارت سفائنُهم والنَّوحُ يتبعُها   كأنّها إبلٌ يحدو بها الحادى
كم سالَ فى الماءِ مِن دمعٍ وكم حَمَلت
تلك القطائعُ من قِطعاتِ أكبادِ
مَنْ لى بِكم يا بَنى ماء السماء إذا   ماءُ السماءِ أبى سُقْيا حشا الصادى[1]

وهى طويلة جدًّا[2] ، هذا ما اخترت له منها .

[أبو بكر الدانى]

وابن اللبانة هذا هو أبو بكر محمد بن عيسى ، من أهل مدينة دانية ؛ وهى على ساحل البحر الرومى ، كان يملكها مجاهد العامرى وابنه علىٌّ الموفق على ما تقدم[3] .

ولابن اللبانة هذا أخ اسمه عبد العزيز ، وكانا شاعرين ، إلا أن عبد العزيز منهما لم يرْضَ الشعر صناعةً ولا اتخذه مكسبا ، وإنما كان من جملة التجار ؛ وأما أبو بكر فَرَضِيَه بضاعةً وتخيَّره مَكْسَباً وأكثرَ منه وقَصد به الملوك فأخذ جوائزهم ونال أسنى الرتب عندهم ؛ وشعره نبيل المأخذ ، وهو فيه حسن المَهْيَع ، جمع بين سهولة الألفاظ ورشاقتها ،

---

(1) تشير الى اتصال نسبهم فى لخم الى النعمان بن المنذر بن ماء السماء، آخر ملوك الحيرة
(2) انظر قلائد العقيان ، ونفح الطيب .
(3) انظر ص ١٢٧

وجودة المعانى ولطافتها ؛ كان منقطعاً إلى المعتمد ، معدوداً فى جملة شعرائه ؛ لم يَفِدْ عليه إلا آخرَ مدته : فلهذا قل شعره الذى يمدحه به .

وكان – رحمه الله – مع سهولة الشعرعليه وإكثاره منه ، قليل المعرفة بعلله ، لم يُجِد الخوض فى علومه ، وإنما كان يعتمد فى أكثره على جودة طبعه وقوة قريحته ؛ يدل على ذلك قوله فى قصيدة له سيرد ما أختاره منها فى موضعه[1] :

مَن كان يُنفقُ من سوادِ كتابهِ　　　فأنا الذى من نُور قلبى أُنفق

ولما خُلع المعتمد على الله وأُخرج من إشبيلية ، لم يزل أبو بكر هذا يتقلب فى البلاد ، إلى أن لحق بجزيرة مُيُرْقَة[2] ، وبها مُبشِّر العامرى المتلقب بالناصر ؛ فحظى عنده وعَلَت حالُه معه ، وله فيه قصائد أجاد فيها ما شاء ؛ فمنها قصيدة ركب فيها طريقةً لم أسمع بها لمتقدم ولا متأخر ، وذلك أنه جعلها من أولها إلى آخرها ، صدْرُ البيت غزلٌ وعَجزُه مدح ،وهذا لم أَسمع به لأَحدٍ ؛ وأول القصيدة :

وضَحَتْ وقد فضحتْضِياءالنَيِّرِ　　　فكأنما التحفتْ ببِشْرِ مُبشِّرِ

وتبسمتْ عنجوهرٍ فحسبْتُه　　　ما قَلَّدْتهُ محامدى من جَوهرِ

---

(١) ص ٢١٥

(٢) ميورقة ، ومنورقة ، ويابسة : هى أكبرجزائرالأندلسفى بحرالروم على ساحلها الشرقى، مصاقبة لقطلونيا وبلنسية ، ويسميها الجغرافيون المحدثون : جزائر البليار .

وكان مقدم ابن اللبانة الى ميورقه فى آخرشعبان سنة ٤٨٩ – بعد بضعة أشهر ، أو بضعة عشر شهرا من موت المعتمد بن عباد باغمات – وكان عليها مبشر بن سليمان العامرى ، من موالى المنصور بن أبى عامر ، فمدحه ابن اللبانة بقصيدته التى مطلعها :

مَلكٌ يَرُوعك فى حلى ريعانِه　　　راقت برَوْنَقهِ صفاتُ زمانه!

وتكلمتْ فكأَن طيبَ حَديثها مُتِّعتُ منه بطيب مسك أذفرِ

هزّتْ بنغمةِ لفْظها نفسى كما هُزَّت بذِكراه أعالى المنبر

أذنبتُ واستغفرتُها فجرَتْ على عاداته فى المذنبِ المستغفر

جادتْ علىَّ بوصلها فكأَنه جدْوَى يديه على المُقِلِّ المُقْترِ

ولثمتُ فاها فاعتقدتُ بأَننى من كفِّه سُوِّغْتُ لَثْمَ الخِنْصَرِ

سمحتْ بتعنيقى فقلتُ صنيعةٌ سمحت علاه بها فَلم تتعذَّرِ

نَهْدٌ كقسوةِ قلبه فى معرَكٍ وَحَشاً كلين طباعهِ فى مَحضَرِ

ومعاطفٌ تحت الذوائبِ خِلتُها تحت الخوافقِ ما لَه من سَمْهرِى

حسُنَتْ أمامى فى خِمارٍ مثلَ ما حسُنَ الكَمىُّ أمامَه فى مِغفَرِ

وتَوشَّحتْ فكأَنه فى جوْشَنٍ قد قام عنبرُه مقام العِثْيَرِ

غمزتْ ببعضِ قِسيِّه من حاجبٍ ورنَتْ ببعض سهامه من مَحْجَرِ

أَوْمَتْ بمصقولِ اللِّحاظ فخلتُه يُومى بمصقول الصفيحة مُشْهَرِ

وضعتْ حَشَايَاهَا فُوَيْقَ أرائكٍ وضْعَ السُّروجِ على الجيادِ الضُّمَّرِ

من رامةٍ أو رُومةٍ ، لا علِمَ لى أأَتتْ عن النُّعمان أم عن قَيْصَرِ

بنتُ الملوك فقلْ لكِسرى فارسٍ تُعْزَى وإلا قُلْ لِتُبَّعِ حِمْيرِ

عاديتُ فيها غُرَّ قومى فاغتَدَوْا لا أَرضُهم أرْضِى وَلاَهُمْ مَعْشَرى

وكذلك الدنيا عهِدْنا أهلَها يتعافرون على الثريد الأَعفر

طافتْ علىَّ بجمرَةٍ من خَمرة فرأيت مرِّيخاً براحةِ مُشترِى

فكأنَّ أنمُلَهَا سيوفُ مُبشِّرٍ   وقد اكتستْ عَلَقَ النَّجيعِ الأحمر

ملكٌ أَزِرَّةُ بُرْدِهِ ضُمَّتْ على   بأسِ الوصِيِّ وعَزْمةِ الإسكندَرِ

هذا ما اخترت له منها .

ومن نسيبه المليح الخفيف الروح قوله يتغزل ويمدح مبشراً هذا :

هَلاَّ ثَنَاكَ علىَّ قلبٌ مُشفقُ   فترى فَراشاً فى فِراشٍ يُحرَقُ

قد صِرتُ كالرَّمقِ الذى لا يُرْتَجَى   ورَجعتُ كالنفَسِ الذى لا يُلْحَقُ

وغَرِقْتُ فى دمعى عليك وغَمَّنى   طرْفى فهل سببٌ به أتعلق

هل خدعةٌ بتحيةٍ مَخْفيَّةٍ   فى جنْب موعدِك الذى لا يَصدُقُ

أنت المنيَّةُ والمُنى ، فيكَ اسْتوَى   ظِلُّ الغمامةِ والهَجيرُ المُحرق

لكَ قَدُّ ذابلةِ الوشيجِ ولونُها   لكنْ سِنَانُكَ أكحلٌ لا أزرق

ويقالُ إنك أيْكةٌ حتى إذا   غنَّيْتَ قيل هو الحَمامُ الأَوْرَقُ

يا من رشَقتُ إلى السُّلُوِّ فردَّنى   سَبقتْ جفونُك كلَّ سهمٍ يُرْشَقُ

لو فى يَدِى سحرٌ وعندى أَخْذةٌ   لجعلت قلبك بعضَ حينٍ يَعشَقُ

لِتذوق ما قد ذقتُ من ألم الجوى   وترِقَّ لى مما تراه وتُشْفِق

جسدى من الأعداءِ فيك لأنه   لا يستبين لِطَرْفِ طَيْفٍ يرمُق

لم يدرِ طيفُك موضعى من مضجعى   فعذرْتُه فى أنه لا يَطْرُقُ

جفَّتْ عليك مَنابتى ومَنابعى   فالدمعُ يَنشَغُ والصَّبابةُ تُورِقُ

وكأنَّ أعلام الأميرِ مُبشِّرٍ نُشِرَتْ على قلبي فأصبحَ يَخْفق[1]

وفيها يقول ، يصف لعب الأسطول فى يوم المهرجان :

بُشْرَى بيومِ المِهْرَجَانِ فإنه يومٌ عليه من احتفائك رَوْنَقُ

طارت بناتُ الماء فيه وريشها

ريشُ الغرابِ وغيرُ ذلكَ شَوْذَقُ[2]

وعلى الخليج كَتيبةٌ جَرَّارةٌ مثلُ الخليجِ كلاهما يَتَدفَّق

وبنُو الحرُوبِ على الجَوارِىِّ التى تَجرى كما تجرى الجيادُ السُّبَّقُ

ملأ الكُماةُ ظهورهَا وبُطونَها فأتت كما يأتى السَّحاب المُغْدقُ

خاضتْ غديرَ الماء سابحةً به فكأنَّما هى فى سَرابٍ أَيْنُقُ

عَجَباً لها ! ما خِلْتُ قبل عِيانِها

أن يَحْمِلَ الأُسْدَ الضَّوارِىَ زَوْرَقُ

---

(١) بعده :

الخَيْزُرانةُ تَلْتَظِى فى كفِّه والتاج فوق جبينه يتألَّقُ

وكأنَّ صَوْب حياً وصعْقَةَ بارقٍ ماضَمَّ منهُ نَدِيُّهُ والمأزِق

متباعدُ الطرفين : جُودٌ غافلٌ عما يحلُّ به ، وعزمٌ مطرِق

بأسٌ كما جَمَدَ الحديدُ وراءه كَرَمٌ يسيلُ كما يسيل الزِّئبقُ

لاتُعْجِبِ الأملاكَ كثرةُ مالِهم النَّبْعُ أصلبُ والأراكةُ أَوْرَق

ضدَّان فيه لمعتدٍ ولمُعتَفٍ السيف يَجْمع والعطاءُ يُفرِّق

(٢) الشوذق : الصقر ، أو الشاهين .

هزّتْ مَجاديفاً إليك كأنها أهدابُ عَينٍ للرقيبِ تُحدِّق
وكأنها أقلامُ كاتبِ دولةٍ فى عَرضِ قِرطاس تَخُطُّ وتمشق
وله فيها إحسان كثير . وله من قصيدة يتغزل :
فؤَادى مُعنَّى بالحِسان مُعَنَّتُ وكلٌّ مُوَقًّى فى التَّصابى مُوقَّتُ
ولى نَفَسٌ يَخْفَى ويَخْفُتُ رِقَّةً ولكن جسمى منه أخفى وأخْفَتُ
وبى ميِّتُ الأَعضاء حَىٌّ دلالُه غرامى به حَىٌّ وصبرِىَ مَيِّتُ
جعلتُ فؤَادى جَفْنَ صارِمِ جَفنِه فياحَرَّ ما يَصْلَى بهِ حين يُصلَتُ
أَذِلُّ له فى هجْرِهِ وهو ينتمى وأسكُنُ بالشَّكوى له وهو يَسكتُ
وما ٱنبَتَّ حبلٌ منه إذ كان فى يدِى
لريحانِ ريْعانِ الشبيبة مَنْبت
ومن جيِّد ماله من قصيدة يمدح بها مبشرًا ناصر الدولة أولها :
راق الرَّبيعُ ورَقَّ طبعُ هوائه فانظر نضارةَ أرضِه وسمائه
واجعل قَرينَ الوَرْدِ فيه سلافةً يَحكى مُشَعْشَعُها مُصعَّدَ مائه
لولا ذُبولُ الوردِ قلتُ بأَنه خدُّ الحبيب عليه صِبْغُ حيائه
هَيهات أين الوردُ من خَدِّ الذى لا يستحيلُ عليك عَهْدُ وفائه
الوردُ ليس صِفاتُه كصفاته والطيرُ ليس غناؤُها كغنائه
يتنفس الإصباحُ والرَّيحانُ من حركاتِ معطَفِه وحُسنِ رُوَائه
ويَجولُ فى الأَرواح روْحٌ ماسَرتْ ريَّاهُ من تِلقائه بلِقائه
صَرفَ الهوى جسمى شَبيهَ خيالِه من فرطِ خِفَّته وفرط خَفَائه

ومن أحسن ما على خاطرى له بيتان يصف بهما خالاً ، وهما :

بدا على خَدِّهِ خالٌ يُزَيِّنُهُ فزادنى شَغَفاً فيه إلى شَغفِ

كأَنَّ حَبَّةَ قلبى عند رؤْيته طارتْ فقال لها : فى الخدِّ منه قِفِى!

ولا بن اللبانة هذا إحسان كثير ، منعنى من استقصائه خوفُ الإطالة ، وأيضاً فلأَن هذا الكتاب ليس موضوعاً لهذا الباب ؛ وإنما يأْتى منه فيه ما تدعو إليه ضرورةُ سياق الحديث .

[رجع الحديث إلى أخبار المعتمد]

ثم رجع بنا القول إلى أخبار المعتمد على الله .

وبلغنى أن رجلا رأى فى منامه قبل الكائنة العظمى على بنى عباد بأشهر يسيرة وهو بمدينة قرطبة ، كأن رجلا أتى حتى صعد المنبر واستقبل الناس بوجهه يُنشدهم رافعاً صوته :

رُبَّ ركبٍ قد أناخوا عيشَهُم فى ذُرَى مجدهمُ حين بَسَقْ

سكت الدهرُ زماناً عنهُم ثم أبكاهم دماً حين نطَقْ !

فما كان إلا أشهرٌ يسيرة حتى وقع بهم وأبكاهم الدهر كما قال .

وبلغ من حال المعتمد على الله بأَغمات ، أنَّ آثَرَ حظياته وأَكرم بناته أُلْجئت إلى أن تستدعى غَزْلاً من الناس تسدُّ بأُجرته بعض حالها وتُصلح به ما ظهر من اختلالها ؛ فأُدخل عليها فيما أُدخل غزْلٌ لابنت عَريفِ شُرطة أبيها ؛ كان بين يديه يزَعُ الناس يوم بُروزه ، لم يكن يراه إلا ذلك اليوم ؛

واتفق أن السيدة الكبرى أمَّ بنيه اعتلَّت[1] ، وكان الوزير أبو العلاء زهر ابن عبد الملك بن زهر بمراكش ؛ قد استدعاه أمير المسلمين لعلاجه[2] ؛ فكتب إليه المعتمد راغباً فى علاج السيدة ومطالعةِ أحوالها بنفسه ؛ فكتب إليه الوزير مؤدياً حقه ومجيباً له عن رسالته ومُسعفاً له فى طلبته ؛ واتفق أن دعا له فى أثناءِ الرسالة بطول البقاء ؛ فقال المعتمد فى ذلك :

دَعا لى بالبقاء وكيف يَهْوَى ... أسيرٌ أن يطول به البقاءُ
أليس الموتُ أرْوَحَ من حياةٍ ... يطول على الشقىِّ بها الشقاءُ
فمن يكُ مِن هواه لقاءُ حِبٍ ... فإن هوایَ من حتْفى اللقاءُ
أأرغب أن أعيش أرى بناتى ... عَوَارِىَ قد أضرَّ بها الحَفَاءُ
خوادمَ بنت مَن قد كان أعلى ... مراتبه إذا أبْدُو النِّداءُ
وطَرْدُ الناسِ بين يَدَىْ مَمرِّى ... وكفُّهمو إذا غَصَّ الفِناءُ
وركْضٌ عن يمينٍ أو شمال ... لنَظْمِ الجيش إن رُفع اللواءُ
يُعنِّيه أمامٌ أو وراءٌ ... إذا اختلَّ الأمام أو الوراءُ
ولكنَّ الدعاءَ إذا دعاه ... ضميرٌ خالصٌ نَفَع الدعاءُ
جُزيتَ أبا العلاءِ جزاءَ برٍّ ... نوَى برًّا وصاحبَك العلاءُ
سيُسلِى النفسَ عما فات عِلْمى ... بأنَّ الكُلَّ يُدرِكه الفناءُ

---

(1) هى السيدة اعتماد الرميكية ، مولاة رميك .

(2) هو جد أبى بكر بن زهر السابق ذكره وذكر أبيه فى ص ١٤١ وما بعدها من هذا الكتاب ، وقد كان أبو العلاء هذا كما يقول ابن دحية فى كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب » وزير ذلك الدهر وعظيمه ، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه . وقد توفى بقرطبة سنة ٥٢٥ .

وورد عليه أغماتَ أبو بكر بن اللبانة المتقدمُ الذكر ، ملتزماً عهد الوفاء ، قاضياً ما يجب عليه من شكر النُّعْمى ؛ فسُرَّ المعتمدُ بوروده ، فلما أزمع ابن اللبانة على السفر ، استنفد المعتمد وُسْعه ووجَّه إليه بعشرين مثقالا وثوبين ؛ وكتب إليه معها[1] .

إليك النَّزْر من كفٍّ الأَسيرِ	فإن تقبل تكنْ عين الشَّكُور
تقبَّلْ ما يذوبُ له حياءً	وإن عذرتْه حالاتُ الفقيرِ !
ولا تعْجبْ لخطْبٍ غَضَّ منه	أليس الخسفُ مُلتزِمَ البدُور
ورجٍّ لجبْره عُقْبَى نداه	فكم جبرتْ يداه مِن كسير
وكم أعلتْ عُلاه منحَضيض	وكم حطَّت ظُباه مِن أمير
وكم من مِنبر حَنَّتْ إليه	أعالى مُرْتَقاه ، ومِن سرير
زَمانَ تزاحفتْ عن جانبيْهِ	جِيادُ الخيلِ بالموت المُبير
فقد نظرتْ إليه عيونُ نحْسٍ	مضت منه بمعدوم النظير
نحوسٌ كُنّ فى عُقْبىسُعودٍ	كذاك تدور أقدارُ القدير
وكم أَحْظَى رضاه من حَظِيٍّ	وكم شَهَرتْ عُلاه من شَهِير
زمانَ تنافَستْ فى الحظِّ منه	مُلوكٌ قد تجُور على الدُّهور!
بحيثُ يطير بالأَبطالِ ذُعْرٌ	ويُلفَى ثَمَّ أَرْجَحَ من ثَبير

---

(1) ارسل المعتمد عطيته هذه الى ابن اللبانة مع ولده شرف الدولة ، وهو ـ على ما يصفه ابن اللبانة ـ احسن الناس سمتا ، واكثرهم صمتا ، تخجله اللفظة ، وتجرحه اللحظة ، حريص على طلب الأدب ، مسارع فى اقتناء الكتب ، مثابر على نسخ الدواوين ، مفتح فيها من خطه زهر الرياحين ...

فامتنع ابن اللبانة من قبول ذلك عليه ، وصرفه بجملته إليه :وكتب مجيباً له عن شعره :

سقطتَ من الوفاءِ على خبيرِ   فذرْنى والذى لك فى ضَميرى

تركتُ هَواكَ وهو شقيقُ دِينى   لئن شُقَّتْ بُرُودى عن غَدُور

ولا كنتُ الطليقَ من الرَّزايا   لئن أصبحتُ أُجحِفُ بالأَسير

أَسيرُ ولا أَصيرُ إلى اغتنامٍ   معاذَ الله مِن سوءِ المصير

إذا ما الشُّكرُ كان وإن تناهَى   على نُعْمَى فما فضْلُ الشَّكور؟

جذيمةُ أنتَ والأيامُ خَانَتْ

وما أنا مَن يقصِّر عن قَصير(١)

أنا أَدْرى بفضلِك مِنك إنى   لبستُ الظِّلَّ منه فى الحَرُور

غنِيُّ النفسِ أنت وإن أَلحَّتْ   على كَفَّيْكَ حالاتُ الفقيرِ

تُصَرِّفُ فى النَدى حِيلَ المعالى   فتسْمُحُ من قليل بالكثير

أُحدِّثُ منك عن نبْعٍ غريب   تفتَّحَ عن جَنى زهر نضير

---

(١) ويروى هذا البيت :

* جذيمة أنت والزباءُ خانت *

وجذيمة : هو جذيمة بن الأبرش ملك العراق ، وهو لخمى موصول النسب بالمعتمد ، وقصير : هو قصير بن سعد اللخمى الذى يضرب به المثل فيقال : « لأمر ما جدع قصير أنفه ! » .

ولجذيمة وقصير قصة مفصلة فى كتب الأمثال ، خلاصتها أن الزباء ملكة الجزيرة قتلت جذيمة هذا ثأرا لأبيها ، فجدع قصير أنفه وذهب اليها فى دار ملكها يوهمها أن قومه جدعوا أنفه لأن اليها ولاءه ، فصدقته الزباء ومنحته ثقتها ، فاحتال حتى أمكن قومه منها فقتلوها ثأرا لجذيمة ، فكان عمله هذا مثلا من أمثلة الوفاءللمليكه المنكوب، والى هذه الصورة من صور الوفاء يشير ابن اللبانة فى هذا البيت . وابن اللبانة ينتسب الى لخم كذلك !

وأعْجبُ منك أنك فى ظلامٍ وترْفعُ للعفاة مَنارَ نُور
رُويْدَك سوف توسِعُنى سرورًا إذا عاد ارتقاؤُك للسَّرير
وسوف تُحلُّنى رُتَبَ المعالى غَداةَ تحِلُّ فى تلك القصور
تزيد على ابنِ مَرْوَانٍ عطاءً بها وأُنيفُ ثمَّ على جرير[1]
تأهَّبْ أن تعودَ إلى طُلوع فليس الخسفُ مُلتزِمَ البُدورِ

فراجعه المعتمد بهذه الأبيات :

رَدَّ بِرِّى بغْياً علىَّ وبِرًّا وجَفا فاستحقَّ لوْماً وشكرا!
حَاط نزْرِى إذْ خَافَ تأكيدَ ضُرِّى
فاستحقَّ الجفاءَ إذْ حاط نزرا
فإذا ما طويتُ فى البعضِ حَمْدًا عاد لومى فى البعض سرًّا وجهرًا
يا أبا بكرٍ الغَريبَ وفاءً لا عَدِمْناكَ فى المغاربِ ذُخْرًا
أىَّ نفعٍ يُجدِى احتياطُ شفيقٍ مُتُّ ضُرًّا فكيف أرهبُ ضُرًّا؟

فأجابه ابن اللبانة رحمه الله :

أيُّها الماجدُ السَّمَيْدَعُ عُذْرًا صَرْفِىَ البرَّ إنما كان برا
حاشَ لله أن أُجِيحَ كريماً يَتَشَكى فقرا وكم سَدَّ فقرا
لا أزيدُ الجفاءَ فيه شُقوقاً غَدَرَ الدَّهرُ بى لئن رمتُ غدرا
ليت لى قُوَّةً أَوَ آوى لركن فترى للوفاء منى سِرا
أنتَ علَّمْتَنى السيادةَ حتَّى ناهَضتْ همَّتى الكواكبَ قَدرًا

---

(١) يعنى عبد الملك بن مروان ، وجريرا الشاعر .

ربحتْ صفقةُ أُزيلُ بُرودا عن أديمى بها وألبسُ فخرًا

وكفانى كلامُكَ الرَّطْبُ نَيْلاً كيف أُلْفى دُرًّا وأطلب تبرًا !

لم تمُتْ إنما المكارمُ ماتت لاسَقَى اللهُ بعدَكَ الأَرضَ قَطرًا

ومما قاله المعتمد من الشعر عند موته وأمر أن يُكتب على قبره :

قَبْرَ الغريبِ سقاكَ الرائحالغادى حقًّا ظفِرْتَ بأَشلاء ابنِ عبَّادِ

بالحلم بالعلم بالنُّعمى إذا اتصلت

بالخِصب إن أجدبوا بالرِّىّ للصَّادى

بالطاعنِ الضارب الرامى إذا اقتتَلوا

بالموتِ أحمرَ بالضِّرغامةِ العادى

بالدهرِ فى نِقَمٍ بالبحر فى نِعَمٍ بالبدر فى ظُلَمٍ بالصدر فى النادى

نعمْ هو الحقُّ حابانى به قدَرٌ من السماء فوافانى لميعاد

ولم أكن قبل ذاك النَّعْش أعلمُهُ أن الجبالَ تهادَى فوقَ أعواد

كفاك فارفُقْ بما استُودعت من كَرم

رَوّاك كلُّ قَطُوبِ البرْقِ رَعَّاد

يَبكى أخاه الذى غيَّبْتَ وابِلَه تحت الصفيح بدمعٍ رائحٍ غادى

حتى يجودَك دمع الطَّلِّ منهمرًا

من أعْين الزَّهر لم تبخل بإسعادِ

ولا تَزَلْ صلوات اللهِ دائمةً على دفينِك لا تُحصَى بتَعداد!

وكان للمعتمد على الله هذا ولد يلقب بفخر الدولة ، رشَّحه للملك من بعده .

وجعله وليَّ عهده ، ولقبه بالمؤيد بنصر الله ؛ فعاقته الفتنةُ عن مراده ، وحالت الأقدار بينه وبين إصداره وإيراده ؛ فما برح بفخر الدولة هذا تغيُّر الأيام بعد الفتنة ، إلى أن أسلم نفسه فى السوق ، وتعلم من الصنائع صنْعة الصُّوَّاغ ، فمر به محمد بن اللبانة المتقدم الذكر شاعرُ أبيه ، فقال فى ذلك :

أَذْكى القلوبَ أسىً ، أبكى العيون دماً
خطبٌ وجدناك فيه يُشبه العَدَما

أفرادُ عقْدِ المنى منَّا قد انتثرتْ
وعقْدُ عُرْوتنا الوثقَى قد انفصما

شَكاتُنا فيك يافخرَ الهدى عَظُمَتْ
والرُّزءُ يعظُم فيمن قدْرُهُ عظُما

طُوِّقتَ من نائبات الدهرِ مخْنقةً
ضاقتْ عليك ، وكم طوَّقْتَنا نعَما !

وعاد كونُكَ فى دُكَّانِ قارعة
من بعدما كنت فى قصرٍ حكى إرَما

صرِّفتَ فى آلة الصُّواغ أنملةً
لم تدرِ إلا الندى والسيفَ والقلما

يدٌ عهدتُك للتَّقْبيل تبسُطها
فتستقلُّ الثُّريا أن تكون فما

ياصائغاً كانت الْعَليَا تُصاغُ له
حلْياً وكان عليه الحلى منتظما

للنَّفخ فى الصور هولٌ ما حكاه سوى
هولٍ رأيناك فيه تنفُخ الفحما

وددْت إذ نظرتْ عينى إليك به
لو أن عينىَ تشكو قبل ذاك عَمَى

ماحطَّك الدهرُ لمَّا حطَّ من شرف
ولا تحيَّف من أخلاقك الكرما

لُحْ فى العُلا كوكبا إن لم تلُح قمرا

وقُم بها ربوةً إن لم تقُم عَلَما

واصبر فربَّتَّمَا أحْمدتَ عاقبةً من يلزمِ الصبر يَحمَدْ غِبَّ مالزما

والله لو أنصفتك الشُّهْبُ لانكسفت

ولو وفَى لك دمع المُزْنِ لانسجما

بكى حديثكَ حتى الدرُّحين غَدا يحكيك رَهْطاً وألفاظاً ومبتسما

وروضة الحُسْنِ من أزهارِها عريت

حُزْناً عليك لأنْ أشبهتها شِيما

بعد النعيمِ ذَوَى الريحانُ حين رأى

ريحانك الغَضَّ يذْوِى بعد ما نعِما

لم يرحمِ الدَّهرُ فضلا أنت حاملهُ من ليس يرحمُ ذاك الفضل لارُحما

شقيقُكَ الصُّبحُ إن أضحَى بشارقة

وأنت فى ظُلمة فالصبحُ قد ظلما

فصــــــل

رجع الحــديث عن دولة المرابطين بالاندلس

وإنما أوردنا هذه النبذة اليسيرة من أخبار المعتمد على الله ، مع ما تعلق بها[1] ، وإن كانت مُخرِجة عن الغرض ؛ لندلَّ بها على ما قدَّمنا من ذكر

---

(١) أفاض المراكشي في الفصــل السابق ماوسعته الافاضة في الحديث عن ابن عباد منذكان الى أن طواه ريب الزمان ، وفاء بحق الشــاعر الملك الذي لم يدفع عنه عز الملك نحس أهل الأدب، فكانت آخرته ما كانت لأنه شاعر لا لأنه ملك !

وأورد المؤلف فيما أورد من أخبار الشاعر الذي لبس التاج فلم يرتفع به على الشعراء بقدر ما ارتفع بشعره على الملوك ــ أخبار شــعراء دولته وسمار ندوته ، فــذكر ابن وهبون ، وابن زيدون ، وابن عمار ، وابن اللبانة والحصري ، ولكنه اغفل شاعرا من شعراء دولته يصــفه ابن خاقان بأنه « شاعره المتصل به ، المتوصل الى المنى بسببه » وهو أبو بكر بن عبد الصمد ، وقد ظل أبو بكر هذا وفيا للمعتمد الى آخر لحظةمن حياته ، حفيا بذكراه بعد ممــاته ، فلما كان أول عيد بعد وفاة المعتمد ، وفد أبو بحــر بن‌عبد الصمد الى أغمات يحج الى قبره ، كعهده به منذ كان في قصره ، وفي أسره . قال ابن خاقان: فطاف بقبره والتزمه ، وخر على ترابه ولثمه، ثم أنشد :

مَلِكَ المـلوكِ أسامعٌ فأُنادى ... أم قد عَدَتْكَ عن السماع عوادى

لـما خَلَتْ منك القصور ولم تكن ... فيها كما قد كنتَ فى الأعياد ...

... أقبلتُ فى هذا الثَّرى لك خاضعًا ... وتَخِذْتُ قبرَك موضعَ الانشَادِ !

قال صاحب القلائد :

« وهي قصيدة أطال انشادها ، وبنى بها اللواعج وشادها ، فانحشر الناس اليه وأحفلوا، وبكوا لبكائه وأعولوا ، وأقاموا أكثر نهــارهم مطيفيــن به طواف الحجيج ، مديميــن البكاء والعجيج ، ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم ، وأقرحوا مآقيهم بفيض شجونهم ، وهذه نهاية كل عيش ، وغاية كل ملك وجيش ... »

قلت : وقد حفلت كتب الأدب والتاريخ بأخبار المعتمد ودولته وشعره ومأساته ، نابضــة نبض القلب الواجف ، متتابعة تتابع الدمع الواكف ، فما هي ــ فيما يصفها لواصــف ويروي الراوي ــ مأساة ملك ، ولكنها مأساة أمة !

فضله وغزارة أدبه وإيثاره لذلك ؛وأيضاً فليتصل نسقُ الأخبار عن المملكة : أعني مملكة الأندلس إلى المرابطين أصحاب يوسف بن تاشفين ؛ ولوجه ثالث : وهو أن ما آلت إليه حال المعتمد هذا من الخمول بعد النباهة ، والضَّعة بعد الرفعة ، والقبض بعد البسط ، من جملة العبر التى أرَتْناها الأيام، والمواعظ التى تصغِّر الدنيا فى عيون أولى الأفهام .

ثم إن يوسف بن تاشفين استوسق له أمر الأندلس بعد القبض على المعتمد ؛ إذ كان هو كبشَ كتيبتها ، وعينَ أعيانها ، وواسطةَ نظمها ؛ فلم يزل أصحاب يوسف بن تاشفين يطوون تلك الممالك مملكة مملكة ، إلى أن دانت لهم الجزيرة بأجمعها ، فأظهروا فى أول إمرتهم من النكاية فى العدو ، والدفاع عن المسلمين ، وحماية الثغور ، ما صدَّق بهم الظنون ، وأثلج الصدور وأقر العيون ؛ فزاد حب أهل الأندلس لهم ، واشتد خوف ملوك الروم منهم ؛ ويوسُف بن تاشفين فى ذلك كله يمدّهم فى كل ساعة بالجيوش بعد الجيوش، والخيل إثر الخيل . ويقول فى كل مجلس من مجالسه : « إنما كان غرضنا فى ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدى الروم ، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ، وغفلةَ ملوكهم وإهمالَهم للغزو وتواكُلَهم وتخاذُلهم وإيثارَهم الراحة ؛ وإنما همة أحدهم كأْس يشربها ، وقَينةٌ تُسمِعه ، ولهو يقطع به أيامه ؛ ولئن عشت لأُعيدنّ جميع البلاد التى ملكها الروم فى طول هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنَّها عليهم - يعنى الروم - خيلا ورجالا لاعهد لهم بالدَّعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش ؛ إنما هَمُّ أحدهم فرس يرُوضه ويسْتَفرِهه ، أو سلاحٌ يستجيده ، أو صريخٌ يُلبِّى دعوته ... » فى

أمثال لهذا القول ؛ فيبلغ ذلك ملوكَ النصارى ، فيزداد فَرقهم ، ويقوى مما بأيدى المسلمين – بل مما بأيديهم – بأسُهم .

وحين ملك يوسف أمير المسلمين جزيرةَ الأندلس وأطاعته بأسرها ولم يختلف عليه شىءٌ منها ، عُدَّ من يومئذ فى جملة الملوك ، واستحق اسم السلطنة ، وتسَمَّى هو وأصحابه بالمرابطين ؛ وصار هو وابنُه معدودين فى أكابر الملوك ؛ لأن جزيرة الأندلس هى حاضرة المغرب الأقصى ، وأم قُراه ، ومعدن الفضائل منه ؛ فعامة الفضلاء من أهل كلِّ شأن منسوبون إليها ، ومعدودون منها ؛ فهى مطلع شموس العلوم وأقمارها ، ومركز الفضائل وقُطب مدارها ؛ أعدل الأقاليم هواءً ، وأصفاها جوًّا ، وأعذبها ماءً ، وأعطرها نبتاً ، وأنداها ظلالا ، وأطيبها بُكَرًا مستعذبة وآصالا .

أرضٌ يطير فؤادى من قَرارته ... شوقاً لها ولمن فيها من الناس
قومٌ جنيت جَنَى وَرْدٍ بذِكرهمُ ... فهل بِلُقْياهمُ أجنِى جَنى آسٍ ؟[1]

فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحولُه ، حتى أشبهت حضرتُه حضرةَ بنى العباس فى صدر دولتهم[1] .

[أعيان الكتاب فى دولة المرابطين]

واجتمع له ولابنه من أعيان الكُتاب وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار ؛ فمِمَّن كتب لأمير المسلمين يوسف : كاتبُ المعتمد على الله أبو بكر المعروف بابن القصيرة ، أحد رجال الفصاحة ، والحائز

(1) انظر التقديم .

قصب السبق فى البلاغة ؛ كان على طريقة قدماء الكتاب ، من إيثار جزْل الأَلْفاظ وصحيح المعانى من غير التفات إلى الأَسْجاع التى أَحدثها متأَخرو الكتاب ، اللهم إلا ما جاء فى رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء ؛ رأَيت له عن المعتمد رسائل تدل على ما وصفتُه به ، ليس على خاطرى منها شىءٌ[1].

[وزارة ابن عبدون]

ثم كتب له ، أَو لابنه ، بعد أَبى بكر هذا ــ الوزيرُ الأَجل أَبومحمد عبد المجيد بن عبدون . قد تقدم من نعْته ما أَغنانا عن تكراره ههنا[2] ؛ وكان يكتب قبْلَ مَن كتب له منهما ، للأَمير سيرِ بن أَبى بكر بن تاشفين وهو الذى دخل على المعتمد على الله إشبيلية[3] ؛ فلم يزل يكتب له إلى أَن اتصل بأَمير المسلمين ، باستدعاءٍ منه له .

* * *

فمن رَسَائِله عنه إلى أَمير المسلمين ، رسالة يخبر فيها بفتح مدينة شَنْتَرَين[4] أَعادها الله ؛ وكان سِيرُ هذا هو الذى تولى فتحها ؛ فكتب عنه أَبو محمد كتاباً[5] .

---

(١) ذكره الفتح بن خاقان فى القلائد وأورد طائفة من رسائله .

(٢) انظر ص ١٢٨ وما بعدها .

(٣) انظر ص ٢٠٢ .

(٤) مدينة بالأندلس فى الشمال الشرقى من أشبونة ، على الشاطىء الأيمن من نهر تاجه .

(٥) نقتصر فيما يلى من الرسائل على تحقيق عباراتها وضبط كلمها ، دون شرح أو تفسير ، اذ كان فى معاجم اللغه ما يغنى عن ذلك .

«أدام الله أمر أمير المسلمين ، وناصرِ الدين ، أبي الحسن على بن يوسف ابن تاشفين ، خافقةً بنُصرة الدين أعلامُه ، نافذة فى السبعة الأقاليم أقلامُه ، مِن داخل مدينة شَنْتَرين ، وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك ، ويُمنِ نَقيبتك على المسلمين .

«والحمد لله رب العالمين ، حمدًا يستغرق الألفاظَ الشارحةَ معناه ، ويسبق الألحاظَ الطامحةَ أدناه ، لا يردُّ وجهَه نُكوص ، ولا يحُدُّ كُنهَه تخصيص ، ولا يحزرهُ بقبضٍ ولا ببسطِ مثالٌ ولا تخمين ، ولا تحصُره بخطٍّ ولا بَعقدٍ شِمالٌ ولا يمين ، ولا يسعُه أمدٌ يحويه ، ولا يقطعه أبدٌ يستوفيه ، ولا يجمعه عددٌ يُحصيه ، إذا سبقتْ هواديه ، لحقتْ تواليه .

«وعَلى محمدٍ عبده وأمين وحيه ، الصادع بأمره ونهيه : نظام الأُمة ، وإمام الأئمة ، سِر آدم من بنيه ، وفخر العالم ومن فيه ــ صلاةٌ تامة نقضيها وتحية عامة نؤدِيها ، ترفضُّ ارفضاض الزهر من كمامه ، وتنفضُّ انفضاض المسك من ختامه ؛ فلقد صدع بتوحيده . وجمع على وعده ووعيدِه ، وأوضح الحقَّ وجلاه ، ونصح الخَلق وهداه ؛ إلا من حقت عليه كلمة العذاب ، وسبقت له الشقوةُ فى أم الكتاب .

«وأظهر العزيزُ عزَّت أسماؤُه ، وجلَّت كبرياؤُه ــ دينَه على جميع الأديان ، على رَغْم من الصلبان ، ووَقمٍ من الأوثان ؛ وأنجز لنا تعالى وعده، ونصرنا معه صلى الله عليه وسلم وبعْده ، وجمع فى هذه الجزيرة شملَ الإسلام بعد انصرامه وانبتاته ، وقطع غِيلَ الإشراك بعد انتصابه وثباته ،

وأنزل الذين كفروا من أهل الكتاب بأيدينا من صَيَاصِيهم ، نأخذ بأقدامهم ونواصيهم .

«وكانت قلعةُ شَنترين ـ أدام الله أمرَ أمير المسلمين ـ من أحصن المعاقل للمشركين ، وأثبت المعاقل على المسلمين ؛ فلم نزل بسعيك الذى اقتفيناه ، وهديك الذى اكتفيناه ، نخْضد شوكتها ، وننحتُ أثَلَتها ، ونتناولها علَى الأبعد نهَل ، ونُطاولها عجَلا فى مَهَل ؛ نَتخَرَّفُ الحين بعد الحينِ سَراةَ رجالها ، ونتَطرَّفُ المرةَ بعدَ المرةِ حُماة أبطالها ، ونخوض غِمار كِفاحهم ، وبحارَ صِفاحهم . إلى بسْط أشباحهم ، وقبْض أرواحهم ، ونُهدى للقنا وصدورِها رءوسهم ، وإلى لظَى وسعيرها نفوسهم ، وننقلهم من الشِّفار اليمانية ، إلى النار الحامية ، ونرفع بالجِد والتشمير حجابَ كيدهم الغامض ، ونُضعضع باستخارة القديم القديرِ هضاب أيدِهم الهائض . ولما رأينا هذه القلعة الشريفةَ المناسب فى القلاع ، المنيفةَ المناصبِ على القاع ، قد استشرى داؤُها ، وأعيا دواؤُها ، استخرْنا الله تعالى على صمْدِها ، وضرَعْنا إليه فى تسهيل قصْدها ؛ وسألناه ألا يكلنا إلى نفوسنا ، وإن كانت فى فى صيانة ديانته مبذولة ، وعلى المكروه والمحبوب فى ذاته محمولة ؛ فقصدْنا إليها ، وهجمنا هجومَ الرَّدَى عليها ، فى وقت انسدَّت فيه أبوابُ السُّبل ، وأعيت أهلَها بحول الله وجوهُ الحِيل ، والدَّهرُ قد كشَّر عن أنيابه العُصْل ، وقام من الوُحول والسُّيول على أثبت رِجل : فنزلنا بساحة القوم ، فساءَ صباحُهم ذلك اليوم ؛ فلم نزل نُصاولهم مصاولةَ المحتسب المؤتجر ، ونُطاولهم مطاولة المرتقب لأمر الله المنتظر ؛ ونشنُّ الغارات ، على

جميع الجهات ؛ فتردُ جيوشُنا عليهم خفافاً وتصدر إلينا ثِقالا ، فتملأ صدور الأعداء أوجالا ، وأيدى الأولياء أموالا ؛ وأمرْنا باقامة سوق سَبيهم وأموالهم ، على مرأى ومَسمع من نسائهم ورجالهم ؛ فازدادت ريحُهم بذلك رُكودًا ؛ ونارُهم خمودًا .

«ولما ضمَّهم لِضيقِ ولا جِه الحصار ، وغشيهم بتفريق أمواجه البوار ، وأحاط بهم البلاءُ ، واستشاط عليهم بغضبِ الجبارِ القضاءُ ، ولم يكن للَيْلِ بأسائهم سَحَرٌ يُتأمَّل ، ولا لوَرْدِ ضرّائهم صَدَرٌ يؤمَّل ، اختاروا الدَّنيةَ على المنيَّة ، ورضُوا بالاستسلام للعبودية ، وإسلام الأهل والذُّرية ،والسلامة من مدارج الكفَن ، وموالج الجنَن ، ولو بجُريْعةِ الذَّقَن ؛ وكان القتل كما قدَّمنا قد أتى على صِيدِ أعيانهم ، وصَناديدِ فُرسانهم ، فلم تبْقَ إلاشِرذمةٌ قليلة ، وعُصبةٌ ذَليلة ، لا تضُرُّ حياتهم موحِّدا ، ولا تسر نجاتهم مُلحدًا ؛ نقلناهم من يمين المنون ، إلى شِمال الهُون ؛ ومن أليم الحصار ، إلى لئيم الإسار ؛ وكانوا سألونا الإبقاء عليهم فأجَبْناهم ، بعد أن قدَّموا من الخضوع صدقةً بين يدَى نجواهم ، ووهبنا أُولاهم لأُخراهم ، وجعلنا العفوَ عنهم تطريقاً لسواهم ، ممن يتقيَّلُ صنيعَهم إذا نحن غدًا بإذن الله حاصرناهم .

«وهذه القلعة التى انتهينا إلى قَرارها ، واستولينا على أقطارها ،أرحَبُ المدن أمدًا للعيون ، وأخصبُها بلدًا فى السنين ، لا يَريمُها الخِصبُ ولا يتخطاها ولا يرُومها الجدبُ ولا يتعاطاها ؛ فروعُها فوق الثريا شامخة ، وعُروقها تحت الثَّرى راسخة ، تُباهى بأزهارها نجومَ السَّما ، وتُناجى بأسرارها أُذُنَ الجوزَا ؛ مواقع القطار فى سواها مُغبرَّةٌ مُربدَّة ، وهى زاهرةٌ تَرِفُّ

أنداؤُها ؛ ومطالع الأنْوار فى حَشَاها مقشعِرَّةٌ مسودَّة ، وهى ناضرة تَنْ
أَضواؤُها ؛ وكانت فى الزمنِ الغابر ، أَعْيتْ على عظيمِ القَياصر ، فنا
بأَكثر من القَطْر عددًا ، وحاولَها بأَوفر من البحر مددًا ؛ فأَبتْ على طا
كل الإبا ، واستعصتْ على استطاعته أَشدَّ الاستعصا ، ومردتْ مُرودَ
على الزَّبَّا . فأَمكنَنا اللهُ تعالى من ذِرْوتها وأَنزل رُكابَها لنا عن صهْوتها

* * *

ومن رسائله الإخوانياتِ رسالةٌ كتب بها إلى أَبى عبد الله محمد
أَبى الخصال يخطب مودّته ، ويستدعى من إخائه جدَتَه :

«أَنا مع عمادى الأَعظم — أَدام الله علوه — كغريبٍ طواه الجَهْ
وآواه من تهامةَ وهْد ، ومالَه بريحها العقيم ولا بحَرِّها المُقْعد المقيمِ عَهْ
فرفضت به من سرابها المغرِق وشَرَابها المُحرِق فى حمَّام[1] ، فأَشْ
من ذلك الجحيم وضَرمِه ، لولا تنفيسُ الرحيم عنه بكرمِه ؛ فوأَل
ربوة من رُباها ، وسأَل جبالَ فاران عن مهَبِّ صَباها : ليلتقط من أَنف
بوساطة نجْد ، برْدًا يُهديه إلى حرِّ الوجد ، فحيَّتْه ببليل ، من نسيمها العا
فأَحيتْه بعد التعليل .

«وأَنا ما قصدتُ فيما خطبت به إليك لآخذ عليك بفضل الابتدا ،
سلكتُ سبيل الاقتدا ، واتَّبعت دليل الاهتدا ؛ وأَردت أَن أَستنير بأَض
وأَستثير من سمائك ، نجوماً تَهدينى فى غَسق الظلام ، أَو رُجوماً تُعدينى

(١) فرفضت به من سرابها ... الخ : كذا بالأصل ، ويرى دوزى أن صوابها « فرة
كما فى ريحان الألباب .

مُسترِقِ سمْعِ الكلام ؛ فإن سَمح عمادى بالجواب ورجْعِه ، غالبتُ ــ بما حصل منه لدىَّ ووصل الىَّ ــ الحمام فى سجْعه ، والانصارفى حَسّانها ، والإعصار فى نَيسانها ، وطَيِّئاً فى وليدها وحبيبها ، وسعدًا فى خالدها وشبيبها ؛ وخَرقتُ ــ بما أعار من مِراحٍ وأثار من ارتياح ــ جيْب مُخارقٍ طَربا ، ولم أدَع لأبى العتاهية فى المغرب وخفيفه المطرب أربا ، وطويت كشحاً عن أغاريد عبيد ، وأضربت صفحاً عن أناشيد لبيد ، وطالبت بُلغاء العصر ، بالمثل المضروب فى جَمل مِصر ، وقلت هذه القارَةُفرامُوها وأنصفوا ، وهذه الغاية فرُوموها أو نَصِّفوا ، وإن كانت تُؤمَه البواهرُ ما أُنْجِلتْ فى درْجِى ، ونجومُه الزواهرُ ما حلَّتْ فى بُرجى ؛ وإن كفَى من جنَى ثماره لصِفْر ، وإن طَرْفى من سنَا أقمارها لقَفْر ، وإنى بضَنِّه علىَّ بدُرَّةٍ من بَحره ، أو نفْثة من سِحره ، لَبين ظَنَّيْن ، لم أحصل من تحقيقهما على أثرٍ ولا عَين : أحدُهما قلت إنه أجْرَى اسمى على خَلَدِه ، فلم يجدنى فى أندادِه ولا بلده ، فقال : وما أنا وفلان ، وهل هو إلا من الغرْب ، وإن كان بزعْمه فى الصميم من العُرْب ، وهل الغربُ فى الأقطار ، إلاكاللَّحق بين الأسطار ؛ والآخر ربما يقول ، مالا تقبله العقول : إنى لأنظر من فلان بأحدَّ من نظر الزَّرقا ، إلى أجلَّ من خطر العَنْقا ؛ وينشد قول أبى العلاء ابن سليمان ، شاعر معرة النعمان :

* أرى العنقاء تكبر أن تُصادا *

«وأنا أُقسم بالربيع المُمطر وائتلاف أوانه ، والبقيع المُزهر واختلاف ألوانه ، والشَّبَابِ ودولته ، والمضراب وصولته ، والمثانى إذا نُسقت ،

والقَنانى وما وَسَقتْ ، وإن أقسمت من بعضها بيمين ، لا أتلقّى رايتها بشمال ولا يمين – أن اسمى فى البلغا والفُهَما ، كاسم العنقاء فى الأسْما : اسمٌ ما وقع على مُسمًّى ، ولفظٌ ما دلَّ على معنًى ؛ فأين أقع مما تريد ، وكتابى بين يدى حمدى أو عتابى بريد ، ينفُضُ تمائم ظنونى ، أو ينقُض تمائم جنونى ؛ وله الرأى العالى فى الجواب ، على خطإٍ كنت من ظنى أو صواب ، إن شاء الله عز وجل .

«ومن سلامى ، على عمادى الأعظم وإمامى ، أحفَلُه وأحفَده ، وأجْزلُه وأوْفَدُه ؛ والسلام الأتم الأعم عليه ورحمةُ الله وبركاته » .

* * *

فراجعه الوزير أبو عبد الله برسالة لم يُكتب مثلُهافى بابها ، أبدع فيها غاية الإبداع ، وإن كان فيها بعض تكلف ، تسمى هذه الرسالة «الحَولية» منعنى من إيرادها فى هذا المرسوم ما فيها من الطول .

ولأبى محمد عبد المجيد المذكور إحسانٌ قد اشتهر عندنا بتلك الأقطار شهرة الأمثال ، وسار ذِكره فيها سير الجنوب والشّمال .

واتصلت حال أمير المسلمين يوسف – كما ذكرنا – فى إيثار الغزو ، وقمع ملوك الروم ، والحرص على ما يعود بالمصلحة على جزيرة الأندلس ، إلى أن توفى فى شهور سنة ٤٩٣[1] .

---

(١) كذا فى الأصل ، وأكثر المؤرخين على ان وفاته كانت سنة ٥٠٠ .

ولاية أبى الحسن على بن يوسف بن تاشفين

وقام بأمره من بعده ابنه على بن يوسف بن تاشفين ، وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين ، وسمى أصحابه «المرابطين» فجرى على سنن أبيه فى إيثار الجهاد ، وإخافة العدو ، وحماية البلاد ؛ وكان حَسَن السيرة ، جيد الطويّة ، نزيه النفس ، بعيدًا عن الظلم ؛ كان إلى أنْ يُعَدَّ فى الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يُعَدَّ فى الملوك والمتغلِّبين ؛ واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لايقطع أمرًا فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ؛ فكان إذا ولّى أحدًا من قُضاته كان فيما يَعْهَدُ إليه ألا يقطع امرًا ولا يبتّ حكومةً فى صغيرٍ من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ؛ فبلغ الفقهاءُ فى أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس .

ولم يزل الفقهاءُ على ذالك ، وأمورُ المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامُهم صغيرُها وكبيرُها موقوفةٌ عليهم ، طول مدته ؛ فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا ، وانصرفت وجوهُ الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم ، واتسعت مكاسبهم ؛ وفى ذلك يقول أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البنّىّ ، من أهل مدينة جَيَّان من جزيرة الأندلس[1] :

أهلَ الرياء لبستُمو ناموسَكُم ... كالذئب أدلج فى الظلام العاتم

(١) ذكره الفتح بن خاقان فى القلائد والمطمح .

فملكتُمو الدنيا بمذهبِ مالكٍ   وقسمتمو الأَموال بابن القاسم[1]

وركبتمو شُهْبَ الدوابِ بأَشهبٍ   وبأَصْبغٍ صبغتْ لكم فى العالم

وإنما عرَّض أبو جعفر هذا فى هذه الأَبيات بالقاضى أَبى عبدالله محمد بن حمدين قاضى قرطبة ، وهو كان المقصود بهذه الأَبيات ؛ ثم هجاه بعد هذا صريحاً بأَبيات أولها :

أَدَجَّالُ هذا أَوانُ الخروج   ويا شمسُ لُوحِى من المغربِ

يريدُ ابنُ حَمْدينَ أن يَعْتفى   وجَدْوَاه أَنأَى من الكوكب

إذا سُئِلَ العُرْفَ حَكَّ ٱسْتَهُ   ليُثبتَ دعْوَاهُ فى تَغْلبِ[2]

فى أَمثال لهذه الأَبيات ، وكان القاضى أَبو عبد الله بن حمدين ينتسب إلى تغلب ابنة وائل .

* * *

ولم يكن يَقْرب من أَمير المسلمين ويَحْظَى عنده إلا من عَلِم علم الفروع ، أَعنى فروع مذهب مالك ، فنَفقتْ فى ذلك الزمان كُتب المذهب وعُمل بمقتضاها ونُبذ ما سواها ، وكثرَ ذلك حتى نُسى النظر فى كتاب الله وحديثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يكن أَحدٌ من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء ، ودان أَهل ذلك الزمان بتكفير كلِّ من ظهر منه الخوض فى شىء من علوم الكلام ؛ وقرَّر الفقهاءُ عند أَمير المسلمين تقبيحَ

(1) من مشاهير علماء المالكية .

(2) يشير الى قول الشاعر :

والتَّغْلبِىُّ إذا تَنَحْنَح للقِرى   حَكَّ ٱستَهُ وتَمثَّلَ الأَمثَالا !

علم الكلام وكراهةَ السَلف له وهجْرَهم من ظَهر عليه شيءٌ منه ، وأنه بدعة فى الدين وربما أَدَّى أكثره إلى اختلال فى العقائد ، فى أشباهٍ لهذه الأقوال ، حتى استحكم فى نفسه بُغْض علم الكلام وأهله ، فكان يُكتب عنه فى كل وقت إلى البلاد بالتشديد فى نبْذ الخوض فى شى منه ، وتوعَّد من وُجد عنده شيءٌ من كتُبه ؛ ولما دخلت كتب أبى حامد الغزالى ــ رحمه الله ــ المغرب ، أمر أمير المسلمين بإحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد ، من سفْك الدم واستئصال المال ، إلى من وجد عنده شيءٌ منها ؛ واشتدَّ الأمر فى ذلك .

[أعيان الكتاب فى عهد أبى الحسن]

ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصَرَف عنايته إلى ذلك ؛ حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك كأبى القاسم ابن الجد المعروف بالأحدب ، أحد رجال البلاغة ، وأبى بكر محمد بن محمد المعروف بابن القَبْطُرْنَة ، وأبى عبد الله بن أبى الخصال ، وأخيه أبى مروان ، وأبى محمد عبد المجيد بن عبدون المذكور آنفاً ؛ فى جماعة يكثر ذكرهم .

* * *

وكان من أنبههم عنده ، وأكبرهم مكانة لديه : أبو عبد الله محمد بن أبى الخصال ، وحُقَّ له ذلك ؛ إذ هو آخر الكُتَّاب ، وأحد من انتهى إليه علم الآداب ، وله مع ذلك فى علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباعُ الأرحب واليد الطولى .

فمما اختار له رحمه الله فصولٌ من رسالة كتب بها مُراجعاً لبعض إخوانه ، عن رسالة وردتْ عليه منه يستدعى فيها منه شيئاً من كلامه ؛ وهذا الرجل صاحب الرسالة هو أبو الحسن علىّ بن بسام صاحب كتاب الذخيرة :

«وصل من السيد المسترِقّ ؛ والمالك المستحقّ – وَصَل الله إنعامه لديه ، كما قَصَر الفضل عليه – كتابه البليغ ، واستدراجه المُريغ ؛ فلولا أن يصّلد زَنْدُ اقتداحِه ، ويرْقُد طرفُ افتتاحه ، وتنقبضَ يدُ انبساطه ، وتَغْبَنَ صفقةُ اغتباطه – لَلَزِمْتُ معه مركزَ قدرى ، وصُنتُ سريرةَ صدْرى ؛ لكنه بنفثات سحره يُسمع الصُّمَّ ، ويستنزل العُصم ، ويقتاد الصعبَ فَيُصْحَب ، وَيَسْتَدِرُّ الصخور فتُحْلَب .

«ولما فجأنى ابتداؤه ، وقرع سمعى نداؤه ، فرغت إلى الفِكر ، وخَفَق القلبُ بين الأَمن والحذر ، فطاردتُ من الفقَر أوابد قفر ، وشوا ردعفر ، تُغبِّر فى وجه سائقها ، ولا يتوجه اللحاق لوجيهها ولاحقِها ؛ فعلمت أنها الإهابة والمهابة ، والإصابة والاستْرابة ، حتى أيأَستنى الخواطر ، وأَخْلَفَتْنى المواطر ، إلا زِبْرِجاً يُعْقب جوادًا ، وبَهْرَجاً لا يحتمل انتقاداً ؛ وأَنَّى لمثلى والقريحة مُزْجاة والبضاعةُ مُزْجاة – ببراعة الخطاب ، وبزاعة الكتاب ؛ ولولا دروس معالم البيان ، واستيلاءُ العفاء على هذا الشان ، لما فاز لمثلى فيه قِدْح ، ولا تَحصَّل لى فى سوقه ربح : لكنه جوٌّ خال ، ومضمارُ جُهَّال ؛ وهى حكمة الله فى الخلق ، وقسمته للرزق ؛ وأنا – أعزك الله – أربأُ بقدر الذخيرة ، عن هذه النُّتَفِ الأَخيرة ، وأرى أنها قد بلغت مداها ، واستوفت حلاها ؛ وأنا أخشى القَدْح فى اختيارك ، والإخلال بمختارِك ؛ وعلى ذلك

فوالله ما من عادتى أن أُثبت ما أكتب فى رسم يُنقل ، ولا فى وضع المراتب عندنا مخاطب يُتَحفَّزُ له ويُحتفَل ؛ وإنما هو عفوُ فِكر ، ويسيرُ ذكر .

«وعذرًا — أعزك الله — فإنى خططت ما خططته والنومُ مُغازل ، والقرُّ مُنازل ، والريح تلعب بالسِّراج ، وتصول عليه صولةَ الحجَّاج ، فَطورًا تُسدِّده سِناناً ، وتارة تُحرِّكه لساناً ؛ وآونة تَطْويهِ حُبابة ، وأخرى تنشره ذُؤابة ؛ وتُقيمه إبْرة لهَب ، وتعطفه بُرَّة ذَهب ، أو حُمةَ عقْرَب ،وتُقوِّسهُ حاجبَ فتاة ، ذاتَ غَمزات ، وتُسلطه على سليطه ، وتُزيله عن خليطه ؛ وتخلُعه نجْما ، وتمدّه رَجماً : وتسل روحَه من ذباله ، وتُعيده إلىحاله ؛ وربما نصبتْه اذُنَ جَواد ، ومسَخته حَدَقَ جَراد : ومشَقتْه حُروفاً برَقّ ؛ بِكفٍّ ودقّ ، ولثمتْ بِسنَاهُ قنديله ، وألقتْ على أعْطافه منديله ؛ فلاحظَّ منه للعين ، ولا هداية فى الطِّرس لليدين ؛ والليلُ زَنجىٌّ الأَديم ، تِبرىٌّ النجوم ، قد جَلَّلنا ساجُه ، وأغْرقَتْنا أمواجُه ؛ فلا مَجالَ للْحظ ، ولا تعارُف إلا بلفْظ ؛ لو نظرتْ فيه الزرقاءُ لاكتحلتْ ، أوخُضِبت به الشَّيبةُ لما نصَلتْ ؛ والكَلبُ قد صافح خيْشومهُ ذَنَبه ، وأنكر البيتَ وطُنُبه : والتَوى التواء الحُباب ، واستدار استدارة الحَباب ، وجلده الجليد ، وصعَّد أنفاسَهُ الصَّعيد ؛ فحِماه مُباح ، ولا هرير ولا نُباح ؛ والنار كالرَّحيق ، أو كالصديق ؛ كلاهما عنقاءُ مُغرِب ، أو نجم مغرب ، استوى الفضْل ، ولك فى الإغضاء الفضْل ؛ والسلام» .

* * *

ولأبى عبد الله هذا ديوان رسائل يدور بأيدى أدباء أهل الأندلس ، قد جعلوه مثالا يحتذونه ، ونصبوه إماماً يقتفونه ؛ منعنى من إيراد ما أختار له من ذلك خوفُ الخروج إلى التطويل المملّ والإكثار المخلّ .

فلم يزل أبو عبد الله هذا وأخوه كاتبين لأمير المسلمين ، إلى أن أخّر أميرُ المسلمين أبا مروان عن الكتابة ، لموجدة كانت منه عليه ؛ سببها أنه أمره وأخاه أبا عبدالله أن يكتبا عنه إلى جند بَلَنْسيَة حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن رذمير – لعنه الله – هزيمة قبيحة ، وقتَل منهم مَقْتلةً عظيمة ؛ فكتب أبو عبد الله رسالته المشهورة فى ذلك ؛ وهى رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها ، أحسنَ فيها ما شاء ، منعنى من إيرادها ما فيها من الطول ؛ وكتب أبو مروان رسالة فى ذلك الغرض ، أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم فى القول أكثر من الحاجة ؛ فمن فصولها قوله .

«أىْ بنى اللئيمة ، وأعيار الهزيمة ، إلام يزيّفكم الناقد ، ويردُّكم الفارس الواحد ؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضأناً لها حالب قاعد ؛ لقد آن أن نُوسعكم عقاباً ، وألا تَلُوثوا على وجه نقاباً[1] ؛ وأن نُعيدكم إلى صحرائكم ، ونُطهر الجزيرة من رحضائكم.... » .

فى أمثال لهذا القول : فأحنق ذلك أميرَ المسلمين وأخّره عن كتابته ، وقال لأبى عبد الله أخيه : كنا فى شك من بُغض أبى مروان المرابطين ، والآن

(١) يعنى ألا يضعوا لثاما على وجوههم ، واللثام شعار لمتونة ، وبه يسمون « الملثمين » ، كما يسمون « المرابطين » .

قد صح عندنا : فلما رأى ذلك أبو عبد الله استعفاه فأعفاه ، ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش ؛ وأقام هو بقرطبة إلى أن استُشهد فى داره — رحمه الله — أولَ الفتنة الكائنة على المرابطين .

[اختلال أحوال المرابطين]

واختلت حالُ أميرِ المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة[1] اختلالا شديدًا ، فظهرت فى بلاده مناكر كثيرة ؛ وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد ؛ وانتهوا فى ذلك إلى التصريح ؛ فصار كلٌّ منهم يصرح بأنّه خير من علىٍّ أميرِ المسلمين وأحقُّ بالأمر منه !

واستولى النِّساءُ على الأَحوال وأُسندت إليهن الأُمور وصارت كلُّ امرأة من أكابر لمتونة ومسّوفة مشتملةً على كل مفسدٍ وشرِّير وقاطع سبيل وصاحب خمرٍ وماخور ؛ وأميرُ المسلمين فى ذلك كله يتزيّد تغافله ، ويقوى ضعفُه ؛ وقنع باسم إمرة المسلمين ، وبما يرفع إليه من الخراج ؛ وعكف على العبادة والتبتُّل ؛ فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهرًا عنه ذلك ؛ وأهمل أُمور الرعية غاية الإهمال ؛ فاختل لذلك عليه كثيرٌ من بلاد الأَندلس ، وكادت تعود إلى حالها الأَول ، لاسيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسُّوس .

---

(1) ذكرنا من قبل (انظر التعليق رقم ١ ص ٢٣٤) أن وفاة يوسف بن تاشفين وولاية ابنه أبى الحسن ، كانت سنة ٥٠٠ خلافا لما يذكره المراكشى ، وعلى هذا فلا بد من تحقيق هذا التاريخ كذلك .

القسم الثاني
دولة الموحدين في المغرب والأندلس

ذكر قيام محمد بن تومرت المتسمى بالمهدى

[وبدء أمر الموحدين بالمغرب والأندلس]

ولما كانت سنة ٥١٥ [١] قام بسوس محمد بن عبدالله بن تُومَرْت فى صورةِ آمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر .

ومحمد هذا رجلٌ من أهلِ سُوس [٢] ، مَولده بها بضَيعة منها تُعرف بإيجلِى أَنْ وارْغن ، وهو من قبيلة تسمى هَرْغَة ، من قوم يعرفون بإيسرغينَنْ ؛ وهم الشُّرفاءُ بلسان المصامدة ؛ ولمحمد بن تومرت نسبةٌ متصلة بالحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب وُجدت بخطِّه [٣] ؛ وكان قد رحل إلى المشرق فى شهور سنة ٥٠١ [٤] فى طلب العلم ، وانتهى إلى بغداد ،ولقى أبا بكر الشاشى فأَخذ عليه شيئاً من أُصول الفقه وأُصول الدين ، وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من المحدِّثين ، وقيل إنه لقى أَباحامد الغزالى بالشام أَيَّام تزهُّده ؛ فالله أعلم [٥] .

وحُكى أنه ذُكر للغزالى ما فَعلَ أَميرُ المسلمين بكتبه التى وصلتْ إلى

(١) ذكر ابن خلكان أن أول ظهوره وقيامه بالدعوة سنة ٥١٤ .

(٢) جبل السوس : فى أقصى المغرب .

(٣) هو – كما نقله ابن خلكان – محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس ابن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب ...

(٤) كان عمره فى ذلك التاريخ ست عشرة سنة .

(٥) روى ابن خلكان أنه لقى الغزالى، والكيا الهراسى ، والطرطوشى ، وغيرهم .

المغرب ، من إحراقها وإفسادها[١] ، وابنُ تومرتَ حاضرٌ ذلك المجلس ؛ فقال الغزالى حين بلغه ذلك : «ليذهبنَّ عن قليل مُلكه ، وليُقتلنَّ ولدُه ، وما أحسب المتولى لذلك إلا حاضراً مجلسَنا ! » .

وكان ابنُ تومرت يحدّث نفسه بالقيام عليهم ؛ فقوى طمعُه .

وكرَّ راجعاً إلى الإسكندرية ، فأقام بها يختلف إلى مجلس أبى بكر الطُّرْطُوشىِّ الفقيه ؛ وجرت له بها وقائعُ فى معنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أفضتْ إلى أن نفاه مُتولى الإسكندرية عن البلاد[٢] ؛ فركب البحر ، فبلغنى أنه استمر على عادته فى السفينة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إلى أن ألقاه أهلُ السفينة فى البحر ؛ فأقام أكثر من نصف يوم يجرى فى ماء السفينة لم يُصِبه شىءٌ : فلما رأوا ذلك من أمره أنزلوا إليه من أخذه من البحر ، وعَظُم فى صدورهم ؛ ولم يزالوا مُكرِمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب بجاية[٣] . فأظهر بها تدريس العلم والوعظ ؛ واجتمع

---

(١) أنظر ص ٢٣٧ من هذا الكتاب .

(٢) كان مروره بالاسكندرية فى عهد الآمر بن المستعلى من خلفاء العبيديين . وقد حكى ابن خلكان أنه قبل مقدمه الى الاسكندريه ، كان قد ناله بمكة شىء من المكروه ، لشدته فى الانكار على الناس لما يخالف الشرع ، فكان ذلك سبب خروجه من مكة الى مصر ، ثم كان ابعاده عن الاسكندرية ...

(٣) رواية ابن خلكان انه نزل أولا « المهدية » . وكان وصوله اليها أيام ولاية الامير يحيى بن المعز بن باديس الحميرى الصنهاجى صاحب افريقية لذلك العهد ، فنزل من المهدية مسجد من مساجدها ، فاجتمع اليه جماعه من أهل المدينة ، واقرأهم كتابا فى علم اصول الدين ، وشرع فى تغيير المنكر ، فرفع أمره الى الأمير يحيى بن تميم ، فأحضره وجماعة من الفقهاء ، فرأى ما هو عليه من الخشوع والتقشف والعلم ، فسأله الدعاء ، فقال له ابن تومرت : « أصلحك الله لرعيتك ونفع بها ذريتك ! »

وأقام بعد ذلك بالمهدية أياما ، ثم ارتحل عنها الى المنستير ، (على وزن عصيفير) فاقام بها مدة ، ثم انتقل الى بجاية ...

عليه الناس ، ومالت إليه القلوب ؛ فأمره صاحب بجاية بالخروج عنها حين خاف عاديته ؛ فخرج منها متوجهاً إلى المغرب ؛ فنزل بضيعة يقال لها ملالة ، على فرسخ من بجاية ؛ وبها لقيه عبد المؤمن بن على ، وهو إذ ذاك متوجه إلى المشرق فى طلب العلم ؛ فلما رآه محمد بن تومرت ، عرفه بالعلامات التى كانت عنده ؛ وكان ابن تومرت هذا أوْحَد عصره فى عِلم خطِّ الرَّمْل ، مع أنه وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجِّمين وجُفورٍ من بعض خزائن خلفاء بنى العباس ؛ أوصله إلى ذلك كلِّه فرطُ اعتنائه بهذا الشأن وما كان يحدِّث به نفسه[1] .

وبلغنى من طرقٍ صِحاح أنه لما نزل ملالة ـ الضيعةَ التى تقدم ذكرها ـ

وروى ابن خلكان فى موضع آخر : أنه لما وصل المهدية ، نزل فى مسجد مغلق ، وجلس منه فى طاق مشرف على الطريق العام ، ينظر الى المارة ، فلا يرى منكرا من آلة الملاهى أو أوانى الخمر الا نزل اليها وكسرها ، فتسامع الناس به فى البلد ، فجاءوا اليه ...

واقام فى بجاية مدة وهو على حاله فى الانكار ، فاخرج منها ...

(١) روى ابن خلكان أن محمد بن تومرت كان قد اطلع على كتاب يسمى الجفـــر من علوم أهل البيت ، وأنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى ، بمكان يسمى السوس ، وهو من ذرية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو الى الله ، ويكون مقامه ومدفنه بموضع من الغرب هجاء اسمه ت ى ن م ل ل ، ورأى فيه أيضا أن استقامة ذلك الأمر واستيلاءه وتمكنه ، يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م و م ن ، ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة ، فاوقع الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى نفسه أنه القائم بأول الآمر ، وان أوانه قد أزف ، فما كان ابن تومرت يمر بموضع الا ويسال عنه ، ولا يرى أحدا الا أخذ اسمه وتفقد حليته ـ وكانت حلية عبدالمؤمن معه ـ فبينما هو فى الطريق رأى شابا قد بلغ أشده ، على الصفة التى معه ، فقـــال له وقد تجاوزه : ما اسمك يا شاب ؟ فقال : عبد المؤمن، فرجع اليـه وقال له : الله أكبر ! انت بغيتى . ونظر فى حليته فوافقت ما عنده ...

والجفر فى اللغة : جلد يتخذ من الماعز ، وكانوا يكتبون عليـه ، تزعم الشـــيعة أن الامام جعفرا الصادق قد كتب لهم فى جفر من جلد الماعز كل ما يحتاجون اليه وكل ما هو كائـــن أو سيكون الى يوم القيامة ...

وحديث الجفور طويل فى بعض كتب الشيعة ومن يعارضهم من أهل الجماعة .

سمع وهو يقول : ملالة ! ملالة ! يكررها على لسانه يتأمل أحرفها ، وذلك لما كان يراه أن أمره من موضع فى اسمه ميم ولامان[1] ، فكان – كما ذكرنا – إذا كررها يقول : ليست هى!

وأقام بهذه الضيعة أشهراً ، وبها مسجد يعرف به ، وهو باق إلى اليوم ، لا أدرى أبنى على عهده أو بعده .

... فاستدعى عبدَ المؤمن وخلا به ، وسأله عن اسمه واسم أبيه ونسبه ، فتسمّى له وانتسب [2] ؛ وسأله عن مقصده فأخبره أنه راحل فى طلب العلم إلى المشرق ؛ فقال له ابن تومرت : أو خَيْرٌ من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : شرف الدنيا والآخرة ؛ تصحبنى وتُعيننى على ما أنا بصدده ، من إماتة المنكر وإحياء العلم وإخماد البدع . فأجابه عبد المؤمن إلى ما أراده .

وأقام ابن تومرت بملالة أشهراً ، ثم رحل عنها ، وصحبه من أهلها رجل اسمه عبد الواحد ، يعرفه المصامدةُ بعبد الواحد الشرقى [3] وهو أول من صحبه بعد عبد المؤمن ؛ وخرج متوجهاً إلى المغرب .

---

(١) هو تينمل (بلام مشددة) كما سيأتى ، وأنظر التعليق السابق ص ٢٤٧ .

(٢) رواية ابن الأثير أن ابن تومرت سأله عن اسمه وقبيلته ، فأخبره أنه من قيس عيلان ، ثم من بنى سليم ، فقال ابن تومرت : هذا الذى بشر به النبى صلى الله عليه وسلم حين قال: « ان الله ينصر هذا الدين فى آخر الزمان برجل من قيس . فقيل : من أى قيس ؟ فقال : من بنى سليم » .

(٣) نظنه يعنى أبا عبد الله الونشريسى ، كما ذكر ابن الأثير ، أو أبا عبد الله التومرتى، كما يسميه ابن كثير ، ويذكره ابن خلكان باسم عبد الله الونشريسى بلا كنية ، وأولئك جميعا فيما نرى – شخص واحد ، اسمه عبد الواحد ، وكنيته أبو عبد الله ، وينتسب الى « ونشريس»: بليدة بافريقية من أعمال بجاية بين باجة وقسطنطينية المغرب ، الى الشرق من جبل المصامدة ، فهو الشرقى ، والونشريسى ، والتومرتى ، من أجل ذلك جميعا .

وقيل إنه [١] إنما لقى عبد المؤمن بموضع يعرف بفَنزارةَ من بلاد متّيجة ، وعبدُ المؤمن يعلّم صبيان القرية المذكورة ؛ فسأله ابنُ تومرت صُحبتَه والقراءةَ عليه وإعانته ، بعد أن عرفه بالعلامات كما قد تقدم .

وبهذه القرية له حكايةٌ طريفة ؛ وذلك أنه [٢] رأى وهو بها فى المنام كأنه يأكل مع أمير المسلمين على بن يوسف فى صحْفة واحدة ؛ قال : ثم زادَ أكْلى على أكله وأحسَسْتُ من نفسى شرها إلى الطعام ، ولم يزل ذلك بى إلى أن اختطفت الصحْفة من بين يديه وانفردت بها ! فلما انتبه قصَّ الرؤْيا على رجل كان يقرأ عليه ، اسمه عبد المنعم بن عشير ، يكنى أبا محمد ، كان يقرأ عليه ؛ فلما أتى على آخرها ، قال[٣] : يابنى ، يا عبد المؤْمن ، هذه الرؤْيا لا ينبغى أن تكون لك ؛ إنما هى لرجل ثائر ، يثور على أمير المسلمين فيشاركه فى بعض بلاده ثم يغلبه بعد ذلك عليها كلها وينفرد بمملكتها !

واتفق له فيها أيضاً من العجائب التى تَثْبُتُ فى باب الكلِم الموافِقة للقدَر ، أنَّ رجلا من وجوه أصحاب الملك العزيز بن المنصور الصِّنهاجى صاحب بِجاية والقلعة ، وجد عليه الملكُ العزيز ، فاشتد خوفه ، فهرب منه إلى هذه الضيعة التى كان فيها عبد المؤمن ، فكان معه بها يعلِّم الصبيان وانتهت حال ذلك الرجل إلى غاية الإقلال ؛ ثم اتفق أن صاحبه رضى عنه ،

---

(١) يعنى ابن تومرت .

(٢) يعنى عبد المؤمن .

(٣) يعنى ابن عشير .

فبلغه ذلك ، فسار إلى بِجاية ، فدخل عليه ، فسأله : أين كنت فى هذه الأيام ؟ فأخبره بقصته وكيف كان الصبيان يحيُّونه بالكِسَر ! فضحك وقال : الضيعةُ لك وما والاها ! وأمر له بمال ومركب وثياب ، فخرج الرجل إلى الضَّيْعةِ فى خيل ورجال معه ، وخرج إليه أهلها يتلقَّونه ؛ فأتى الصبيان عبد المؤْمن وهو قاعد بفناء المسجد ، فقالوا له : أتعرف من هذا الذى اهتزّت له هذه الأرض ؟ قال : لا ! قالوا : هو فلان صاحبك الذى كان يعلِّمنا معك ! فقال : إن كانت حالة فلان انتهت إلى هذا فلا بد أن أكون أنا غدا أمير المؤْمنين ! فكان الأمر كما قال ، ووافقت كلمتُه القدر .

وخرج ابن تومرت كما ذكرنا متوجهاً إلى المغرب ، حتى أتى مدينة تِلِمْسان ، فأقام بمسجد بظاهرها يعرف بالعُبَّاد ، جارياً على عادته ؛ وكان قد وضع له فى النفوس هيبة وفى الصدور عظمة ، فلا يراه أحدٌ إلا هابه ؛ وعظُم أمره ؛ وكان شديد الصمت كثير الانقباض ؛ إذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة .

أخبرنى بعض أشياخ تِلمسان عن رجل من الصالحين كان معتكفاً معه بمسجد العبَّاد ، أنه خرج عليهم ذات ليلة بعد ما صلى العتمة ، فنظر إليهم وقال : أين فلان ؟ لرجل كان يصحبهم ؛ فأخبروه أنه مسجون . فقام من وقته ودعا برجل منهم يمشى بين يديه ، حتى أتى باب المدينة ، فدق على البواب دقاً عنيفاً واستفتح ؛ فأجابه البواب إلى الفتح بسرعة من غير تلكؤ ولا إبطاء ، ولو استفتح أمير البلد لتعذر ذلك عليه ؛ ودخل حتى أتى

مجن ، فابتدر إليه السّجانون والحرس يتمسحون به ، ونادى : يا فلان!
سم صاحبهم ؛ فأجابه ؛ فقال : اخرج ! فخرج والسجانون ينظرون إليه
أنما أفرِغَ عليهم المَاءُ الحارّ ، وخرج بصاحبه حتى أتى المسجد ؛ وكانت
ه عادتَه فى كل ما يريد ، لايتعذر عليه مُراد ، ولا يمتنع عليه مطلوب ،
. سُخِّرتْ له الرعية ، وذُلِّلت له الجبابرة .

ولم يزل مقيماً بتلمسان وكلٌّ من بها يعظمه من أمير ومأمور ، إلى أن
سل عنها بعد أن استمال وجوه أهلها وملك قلوبها ؛ فخرج قاصداً مدينة
س ؛ فلما وصل إليها أظهر ما كان يظهره ، وتحدّث فيما كان يتحدث
ه من العلم ؛ وكان جلُّ ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريق الأشْعريَّة ؛
كان أهل المغرب – على ما ذكرنا [1] – ينافرون هذه العلوم ، ويُعادون
ن ظهرتْ عليه ، شديداً أمرُهم فى ذلك ؛ فجمع والى المدينة الفقهاء
أحضره معهم ، فجرتْ له مناظرة كان له الشُّفوف فيها والظهور ، لأنه
جد جوًّا خالياً ، وألفى قوماً صِياماً عن جميع العلوم النظرية خلا علم
فروع ؛ فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على والى البلد بإخراجه لِئَلا يفسد
قول العوام ؛ فأمره والى البلد بالخروج ؛ فخرج متوجِّهاً إلى مراكش .

[ابن تومرت فى حضرة ابن تاشفين]

كُتب بخبره إلى أمير المسلمين على بن يوسف ؛ فلما دخلها أُحضر بين

(١) أنظر ص ٢٣٦ – ٢٣٧

يديه ، وجمع له الفقهاء للمناظرة [1] ؛ فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول، حاشا رجل من أهل الأندلس اسمه مالك بن وُهيب كان قد شارك فى جميع العلوم ، إلا أنه كان لايظهر إلا ما ينْفُقُ فى ذلك الزمان ؛ وكانت لديه فنون من العلم ، رأيت له كتاباً سَمّاه «قُراضة الذهب ، فى ذكر لئام العرب» ضمّنه لئام العرب فى الجاهلية والإسلام ، وضمّ إلى ذلك ما يتعلق به من الآداب ؛ فجاء الكتاب لانظير له فى فنه ؛ رأيته فى خزانة بنى عبد المؤمن .

ولمالك بن وُهيب هذا تَحَقُّقٌ بكثيرٍ من أجزاء الفلسفة ؛ رأيت بخطه كتاب الثمرة لبطليموس فى الأحكام ، وكتاب المجسْطِى فى علم الهيئة ، وعليه حواش بتقييده أيام قراءته إياه على رجل من أهل قرطبة اسمه حمد الذهبى .

ولما سمع مالكٌ هذا كلام محمد بن تومرت ، استشعر حدَّةَ نفسه وذكاء

---

(١) روايه ابن خلكان أن ابن تومرت لما دخل مراكش ـ وملكها يومئذ أبو الحسن على ابن يوسف بن تاشفين ـ شرع فى الانكار على جارى عادته ، حتى انكر على ابنة الملك ... قال : وله فى ذلك قصة يطول شرحها، فبلغ خبره الملك ، وأنه يتحدث فى تغيير الدولة ، فتحدث ابن تاشفين مع مالك بن وهيب فى أمره ـ وكان عالما صالحا ـ فقال ابن وهيب : نخاف من فتح باب يعسر علينا سده ، والرأى أن تحضر هذا الشخص وأصحابه ، لنسمع كلامهم بحضور جماعة من علماء البلد ، فأجابه الملك الى ذلك ...

ويذكر ابن الأثير ابنة الملك التى نقلنا الاشارة اليها عن ابن خلكان فيما سبق ، فيقول انها ابنة الملك يوسف بن تاشفين ، أخت أبى الحسن ، وتفصيل أمرها كما رواه ابن الأثير ، أن ابن تومرت كان فى طريقه بمراكش يوما ، اذ رآها فى موكبها ومعها من الجوارى الحسان عدة كثيرة ، وهن مسفرات ، وكانت هذه عادة الملثمين : يسفر نساؤهم وجوههن ويلتثم الرجال ! فحين رأى ابن تومرت النساء كذلك أنكر عليهن وأمرهن بستر وجوههن ، وضرب هو وأصحابه دوابهن ، فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها ...

خاطره واتساعَ عبارته ؛ فأشار على أمير المسلمين بقتله ، وقال : هذا رجلٌ مُفسِد لا تؤْمَنُ غائلتُه ولا يسمع كلامَه أحدٌ إلا مال إليه ، وإن وقع هذا فى بلاد المصامدة ثار علينا منه شرٌ كثير[1] ! فتوقف أمير المسلمين فى قتله ، وأبى ذلك عليه دينُه [2] ؛ وكان رجلا صالحاً مجاب الدعوة ، يُعَدُّ فى قُوَّام الليل وصُوَّام النهار . إلا أنه كان ضعيفاً مستضعفاً ، ظهرت فى آخر زمانه مناكر كثيرة وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمور ؛ وكان كل شِرِّير من لص أو قاطع طريق ينتسب إلى امرأة جعلها ملجأً له وَوَزَرًا على ما تقدم ...

... فلما يئس مالكٌ مما أراده من قتل ابن تومرت ، أشار عليه بسَجْنه حتى يموت ؛ فقال أمير المسلمين : علام نأخذ رجلا من المسلمين نسجنه ولم

---

(١) روى ابن خلكان طرفا من الحوار الذى جرى بين ابن تومرت وفقهاء الحضرة ، نرى من الفائدة أن نثبته بايجاز :

قال الملك لعلماء بلده : سلوا هذا الرجل ما يبغي منا ؟

فانتدب له قاضى المرية ـ واسمه محمد بن اسود ـ فقال : ما هذا الذى ينقل عنك من الاقوال فى حق الملك العادل الرحيم ، المنقاد الى الحق ، المؤثر طاعة الله تعالى على هواه ؟

قال ابن تومرت : أما ما نقل عنى فقد قلته ، ولى من ورائه اقوال ، وأما قولك انه يؤثر طاعة الله تعالى على هواه وينقاد الى الحق ... فهل بلغك يا قاضى أن الخمرة تباع جهارا ، وتمشى الخنازير بين المسلمين ، وتؤخذ أموال اليتامى ...؟ وعدد من ذلك شيئا كثيرا .

فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه وأطرق حياء ، ففهم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع فى المملكة لنفسه ، ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لكلامه لم يتكلم احد منهم ، فقال مالك بن وهيب ـ وكان كثير الاجتراء على الملك ـ : أيها الملك ، ان عندى لنصيحة ، ان قبلتها حمدت عاقبتها ، وان تركتها لم تامن غائلتها .

فقال الملك : ما هى ؟

قال : انى خائف عليك من هذا الرجل ، وأرى أنك تعتقله وأصحابه وتنفق عليهم كل يوم دينارا لتكفى شره ، وان لم تفعل ذلك لتنفقن عليه خزائنك كلها ثم لا ينفعك ذلك ...

(٢) ويروى ابن الأثير ان الذى منع أمير المسلمين من الأخذ برأى مالك بن وهيب ، رجل من أكابر الملثمين يسمى بيان بن عثمان .

يتعيّن لنا عليه حق ؟ وهل السجنُ إلا أخو القتل ؟ ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء !

فخرج هو وأصحابه متوجهاً إلى سُوس [1] ؛ فنزل بموضع منها يُعْرَفُ بتينمَلّ [2] ..

[بدء دعوة الموحدين]

من هذا الموضع قامت دعوته ، وبه قبرُه ؛ ولما نزله اجتمع إليه وجوه المصامدة ، فشرع فى تدريس العلم والدعاء إلى الخير ، من غير أن يُظهر إمرة ولا طِلْبَةَ مُلْك . وألّف لهم عقيدةً بلسانهم ؛ وكان أفصحَ أهل زمانه فى ذلك اللسان ؛ فلما فهموا معانىَ تلك العقيدة زاد تعظيمهم له ، وأُشرِبت قُلوبُهم محبتَه وأجسامهم طاعته .

فلما استوثق منهم دعاهم إلى القيام معه أولا على صورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لاغير ، ونهاهم عن سفك الدماء ولم يأذن لهم فيها ؛ وأقاموا على ذلك مدة ؛ وأمر رجالا منهم ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل . وجعل يذكر المهدى ويشوّق إليه ، وجمع الأحاديث التى جاءت فيه من المصنّفات .

فلما قرر فى نفوسهم فضيلةَ المهدىِّ ونسبه ونعْته ، ادعى ذلك لنفسه ،

(١) يروى ابن خلكان وابن الاثير أنه خرج من مراكش الى اغمات ، وهناك لقى رجلا من أعوانه اسمه عبد الحق بن ابراهيم ، من فقهاء المصامدة ، فاشار عبد الحق ابن تومرت أن يلجا الى تينمل ، لانها اكثر حصانة ومنعة .

(٢) أنظر ص ٢٤٨ .

وقال أنا محمد بن عبد الله ... ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم[1] ؛ وصرح بدعوى العصمة لنفسه ، وأنه المهدىُّ المعصوم ، وروى فى ذلك أحاديث كثيرة ، حتى استقر عندهم أنه المهدى ، وبسط يده فبايعوه على ذلك ، وقال : أُبايعكم على ما بايع عليه أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولَ الله .

ثم صنف لهم تصانيف فى العلم ، منها كتاب سماه « أعزّ ما يطلب » ، وعقائد فى أُصول الدين ؛ وكان على مذهب أبى الحسن الأَشعرى فى أكثر المسائل ، إلا فى إثبات الصفات ، فانه وافق المعتزلة فى نفيها وفى مسائل قليلة غيرها : وكان يُبطن شيئاً من التشيُّع ، غير أنه لم يَظهر منه إلى العامة شىء .

[طبقات الموحدين]

وصنَّف أَصحابه طبقات ؛ فجعل منهم العشرة ، وهم المهاجرون الأَولون الذين أَسرعوا إلى إجابته ، وهم المسمَّون بالجماعة ؛ وجعل منهم الخمسين ، وهم الطبقة الثانية ؛ وهذه الطبقات لا تجمعها قبيلة واحدة ، بل هم من قبائل شتى ؛ وكان يسميهم المؤمنين[2] ، ويقول لهم : ما على وجه الأَرض من يؤْمن إيمانكم ، وأَنتم العصابة المعْنيُّون بقوله عليه الصلاة

---

(١) أنطر النعلىق رقم ٣ ص ٢٤٥

(٢) من هذه التسمية اتخذ اميرهم لقب « أمير المؤمنين » ، ويسمون الموحدين أيضا ، لأنهم اول من تحدث فى التوحيد وعلم الكلام بالمغرب ، وكان ذلك محرما على المغاربة فى عهد المرابطين كما سبق ذكره .

والسلام : «لاتزال طائفةٌ بالمغرب ظاهرين على الحق لايضرُّهم من خَذَلهم حتى يأْتى أمر الله » . ؛ وأنتم الذين يفتح الله بكم فارسَ والروم ، ويقتل الدَّجال ؛ ومنكم الأَمير الذى يُصَلِّى بعيسى بن مريم ، ولا يزال الأَمر فيكم إلى قيام الساعة ؛ هذا مع جزئيات كان يخبرهم بها وَقَع أكثرها[1] وكان يقول : لو شئت أن أعدَّ خلفاءكم خليفة خليفة ...

فزادت فتنة القوم به ، وأظهروا له شدةَ الطاعة .

وقد نظم هذا الذى وصفناه من قول ابن تومرت فى تخليد هذا الأَمر ، رَجُلٌ من أهل الجزائر ، مدينةٍ من أعمال بجاية[2] ، وفَد على أمير

---

(١) اختلف مؤرخو المشارقة فى الحكم على بعض ما جاء به ابن تومرت أو عزى اليه مما يسمونه بالخوارق ، ونسبه كثير منهم الى الدجل والشعبذة، وتعقبوا دعاوى أنصاره وماينسبون اليه من ذلك بالتفنيد والابطال ، محاولين رد كل شيء منه الى أسباب طبيعية زعموها تهوينا لشانه وشأن خوارقه ، ولزم قليل منهم جانب الصمت مكتفيا بسرد ما انتهى اليه من أنبائه ، ما له منها وما عليه ، من غير تعليق ولا رأى ، ولم يحاول أحد منهم — فيما نعلم — انصافه أو الدفاع عنه أو الاشادة بعمله .

ذلك — فيما نظن — لأن المغرب الاسلامى — ونعنى به الأندلس وما يدانيها من بلاد العدوة — لم يكن يعترف بشيء من الولاء للخليفة العباسى فى بغداد ، ولم يدع له يوما على منبر من منابر المغرب ، لا فى الأندلس ولا فى الشاطئ الأفريقى ، عدا فترات قليلة متقطعة، وأول دعاء دعى للخلافة العباسية على منابره — كما يقول صاحب المعجب — كان فى أيام بنى تاشفين ، ثم انقطع على يد الموحدين — أصحاب ابن تومرت — الذين لقبوا أميرهم بـ « أمير المؤمنين » ، وهو لقب الخليفة فى بغداد ، فما أحرى هذا أن يحمل مؤرخى المشارقة على النظر بارتياب الى ابن تومرت وأصحابه ، وأن يعتبروهم طلاب ملك يخلعون فى سبيله طاعة الخليفة ويخرجون عن الولاء له ، ومن ثمة كان رأى مؤرخيهم فى شيخ الموحدين !...

على أن الرأى مهما يختلف فى شأن محمد بن تومرت ، فما لا شك فيه أنه رجل من أهل الايمان والفطنة ، كان له رأى فى سياسة الدولة الاسلامية يستند الى أساس من الدين ، فاتخذ أسبابه لتنفيذ رايه والوصول الى هدفه ، وقد بلغ بايمانه ، وفطنته ، وقوة عزمه ، كثيرا مما اراد .

(٢) كذلك كانت فى ذلك التاريخ ، وهى الآن عاصمة الاقليم .

المؤمنين أبي يعقوب[1] وهو بتينملّ ، فقام على قبر ابن تومرتَ بمحضر من الموحّدين وأنشد قصيدة أولها :

سلامٌ على قبرِ الإمام الممجَّدِ ... سلالةِ خيرِ العالمين محمدِ
ومشبهِهِ في خلْقه ثم في اسمه ... وفي اسم أبيه والقضاء المسدَّدِ
ومحيي علومِ الدين بعد مَماتها ... ومظهرِ أسرارِ الكتابِ المسدَّد
أتتنا به البشرى بأن يملأ الدُّنا ... بقسطٍ وعدلٍ في الأنام مخلدِ
ويفتتح الأمصارَ شرقاً ومغرباً ... ويملك عربا من مغيرٍ ومنجدِ
فمن وصفِه : أقنَى واجْلَى وأنه ... علاماتُه خَمسٌ تبين لمهتدى :
زمانٌ ، وإسمٌ ، والمكانُ ،ونسبةٌ ... وفعلٌ له في عصمةٍ وتأيُّدِ
ويلبثُ سَبعاً أو فتسعاً يعيشها ... كذا جاءَفي نص من النقل مُسندِ
فقد عاش تسعاً مثل قول نبيِّنا ... فذلكمُ المهديُّ بالله يهتدى
وتتبعه للنصرِ طائفةُ الهدى ... فأَكرم بهم إخوانَ ذى الصدق أحمد
هى الثُّلَّةُ المذكور فى الذكر أمرها ... وطائفةُ المهدىِّ بالحق تَهتدى
ويقْدمُها المنصُورُ والناصرُ الذى ... له النصرُ حزبٌ إذ يروح ويغتدى
هو المنتَقَى من قيسِ عيلان مفخراً ... ومن مُرَّة أهلِ الجلالِ الموطَّد[2]

(١) هو ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

(٢) انظر نسب عبد المؤمن فى التعليق رقم ٢ ص ٢٤٨ .

خليفة مهديٍّ الإله وسيفُه | ومن قد غدا بالعلم والحلم مُرتدى
بهم يقمع الله الجبابرةَ الأُولى | يصدّون عن حُكم من الحق مرشد
ويقطع أيام الجبابرةِ التى | أبادت من الإسلام كلَّ مشيَّدِ
فيغْزون أعرابَ الجزيرة عنْوةً | ويغْزُون منها فارساً وكأن قَدِ
ويفتتحون الروم فتْح غنيمةٍ | ويقتسمون المال بالتُّرس عن يد
ويغْدون للدّجال يغزونه ضُحاً | يُذيقونه حدَّ الحسام المهنَّد
ويقتله فى باب لُدٍّ وتنجلى | شكوكٌ أمالتْ قلبَ من لم يوحِّدِ
وينزلُ عيسى فيهم وأميرُهم | إمام فيدعوهم لمحرابِ مسجِدِ
يصلِّى بهم ذاك الأمير صلاتَهم | بتقديم عيسى المصطفى عن تعمُّدِ
فيمسح بالكفين منه وجوهَهم | ويخبرهم حقاً بعزٍّ مجدَّد
وما إن يزال الأمر فيه وفيهمُ | إلى آخر الدهر الطويل المسَرْمَدِ
فأَبلغ أمير المؤمنين تحية | على النأى منى والوداد المؤكَّد
عليه سلام الله ماذَرَّ شارقٌ | وما صدَر الوُرَّاد عن ورْدِ مورد

وقد قيل إن منشىء هذه القصيدة لم يحضر ذلك المشهد ولم ينشدها بنفسه لمنعته عن ذلك الكُبرة وبعدُ الشُّقّة : وإنما أرسل بها فأُنشدت على قبر الإمام ؛ وكان عمله إياها وعبد المؤمن حىّ ؛ فالله أعلم ؛ وهى طويلة ،

هذا ما اخترت له منها ؛ ولم أُوردها فى هذا الموضع لأنَّها من مختار الشعر ، ولكن لموافقتها الفصل الذى قبلها .

ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر ، وفتنتهم به تشتَّد ، وتعظيمهم له يتأكَّد : إلى أن بلغوا فى ذلك إلى حدٍّ لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء : وأعانهم على ذلك وهوَّنه عليهم ما فى طباعهم من خفة سفك الدماء عليهم ، وهذا أمرٌ جُبلت عليه فطَرهم واقتضاه ميل إقليمهم .

حكى أبو عبيد البكرى الأندلسى ثم القرطبى فى كتابه الموسوم بـ «المسالك والممالك» عن رجال ، قال : أُهديت إلى الإسكندر فرسٌ ببعض بلاد الغرب لم تلد الخيل أسبق منها ، لم يكن فيها عيبٌ إلا أنها لم يسمع لها صهيل قَط ؛ فلما حل الإسكندر فى تطوافه بجبال دَرَن ، وهى بلاد المصامدة ، وشربت تلك الفرس من مياهها ، صهلت صَهلةً اصطكت منها الجبال ؛ فكتب الإسكندر إلى الحكيم يخبره بذلك ؛ فكتب إليه : إنها بلادُ شرٍ وقسوةٍ ، فعجِّل الخروج منها !

فهذه حال بلاد القوم ؛ وأما خفة سفك الدماء عليهم فقد شهدت أنا منه أيام كَونى بسوس ما قَضيت منه العجب .

[الحرب بين المرابطين والموحِّدين]

ولما كانت سنة ٥١٧ جهز جيشاً عظيماً من المصامدة جلُّهم من أهل تينملّ ، مع من انضاف إليهم من أهل سوس ، وقال لهم : اقصدوا

هؤلاء المارقين المبدِّلين الذين تَسمَّوا بالمرابطين ، فادعوهم إلى إماتة المنكر ، وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدى المعصوم ؛ فإن أجابوكم فهم إخوانكم لكم ما لهم وعليهم ما عليكم ، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السُّنة قتالهم .

وأمَّر على الجيش عبدَ المؤمن بن على ، وقال : أنتم المؤمنون ، وهذا أميركم . فاستحق عبد المؤمن من يومئذ اسم إمرة المؤمنين .

وخرجوا قاصدين مدينة مراكش [1] ، فلقيهم المرابطون قريباً منها بموضع يدعى البحيرة ، بجيش ضخم من سراة لمتونة ، أميرهم الزبير بن على بن يوسف بن تاشفين ، فلما تراءى الجمعان أرسل إليهم المصامدة يدعونهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت ، فردوا عليهم أسوأ ردّ ، وكتب عبد المؤمن إلى أمير المسلمين علىّ بن يوسف بما عهد إليه محمد بن تومرت ؛ فرد عليه أمير المسلمين يحذِّره عاقبةَ مفارقة الجماعة ، ويذكِّره الله فى سفك الدماء وإثارة الفتنة ؛ فلم يردع ذلك عبد المؤمن ، بل راده طمعاً فى المرابطين وحقَّق عنده ضَعْفَهم ؛ فالتقت الفئتان ، فانهزم المصامدة وقُتل منهم خلق كثير [2] ، ونجا عبد المؤمن فى نفرٍ من أصحابه ؛ فلما جاء الخبر لابن تومرت قال : أليس قد نجا عبدُ المؤمن ؟ قالوا : نعم . قال : لم يُفقد أحد ! .

ولما رجع القوم إلى ابن تومرت ، جعل يُهوِّن عليهم أمر الهزيمة ، ويُقرر

---

(١) كانت هذه المعركة ــ على ماذكره اهل التاريخ ــ سنة ٥٢٤ وقد سبقتها معـــــارك اخرى لم يذكرها المراكشى .

(٢) فقد فى هذه المعركة أبو عبد الله الونشريسى .

عندهم أن قتْلاهم شهداء ، لأنهم ذابُّون عن دين الله ، مُظهرون للسُّنة ؛ فزادهم ذلك بصيرةً فى أمرهم ، وحرصاً على لقاء عدوِّهم .

ومن حينئذ جعل المصامدة يشنُّون الغارات على نواحى مراكش ، ويقطعون عنها موادَّ المعايش وموصول المرافق ، ويقتلون ويسْبُون ، ولا يُبْقُون على أحد ممن قَدروا عليه ؛ وكثر الداخلون فى طاعتهم والمُنْحاشون إليهم ؛ وابن تومرت فى ذلك كلِّه يكثر التزهُّد والتقلُّل ، ويظهر التشبُّه بالصالحين والتشدُّد فى إقامة الحدود ، جارياً فى ذلك على السُّنة الأُولى .

أخبرنى من رآه — ممن أثق إليه — يضرب النَّاس على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النَّخل ، متشبها فى ذلك بالصحابة .

ولقد أخبرنى بعض من شهده وقد أتى برجل سكران ، فأمر بحدِّه ، فقال رجلٌ من وجوه أصحابه يسمى يوسف بن سليمان : لو شدَّدنا عليه حتى يخبرنا من أين شربها لنَحْسم هذه العلةَ من أصلها ...! فأعرض عنه ؛ ثم أعاد عليه الحديث ، فأعرض عنه ، فلما كان فى الثالثة قال له : أرأيت لوقال لنا : شربتُها فى دار يوسف بن سليمان ، ما نحن صانعون ؟ فاستحيا الرجل وسكت ، ثم كُشف عن الأمر ، فإذا عبيدُ ذلك الرجل سقَوه ، فكان هذا من جملة ما زادهم به فتنةً وتعظيما ، إلى أشياء كان يُخبر بها فتقع كما يُخبِر .

ولم يزل كذلك وأحوالُه صالحة ، وأصحابه ظاهرون ، وأحوال المرابطين المذكورين تختلّ ، وانتقاض دولتهم يتزيد ، إلى أن توفى ابن تومرت

المذكور فى شهور سنة ٥٢٤ بعد أن أسس الأمور وأحكم التدبير ورسَم لهم ما هم فاعلوه .

[ذكر ولاية عبد المؤمن]

ثم قام بالأمر من بعده عبدُ المؤمن بن على ، وبايعه المصامدة ، واتفقت على تقديمه الجماعة ؛ وكان الذين سعوا فى تقديمه وهيئوا ذلك له ثلاثة ، وهم من أهل الجماعة [1] : عمر بن عبد الله الصنهاجى المعروف عندهم بعمر أزناج ، وعمر بن وَمزال — الذى كان اسمه قبل هذا فَصْكَةَ فسماه ابن تومرت عمر ، يعْرفونه بعمر إينْتى — وعبد الله بن سليمان من أهل تينمل ، من قبيلة يقال لها مسكّالة ؛ ووافقهم على ذلك سائر أهل الجماعة وأهل خمسين وباقى الموحدين .

[وصية ابن تومرت]

وذلك أن ابن تومرت قبل موته بأيام يسيرة استدعى هؤلاء المسمَّين بالجماعة ، وأهل خمسين ؛ وهم — كما ذكرنا — من قبائل مفترقة لايجمعهم إلا اسم المصامدة ؛ فلما حضروا بين يديه قام — وكان متكئا — فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين رضوانُ الله عليهم ، ويذكر ما كانوا عليه من الثبات فى دينهم ، والعزيمة فى أمرهم ، وأن أحدهم كان لاتأخذه

---

(١) انظر طبقات الموحدين ، ص ٢٥٥ من هذا الكتاب .

فى الله لومة لائم ، وذَكر مِن حَدِّعمر رضى الله عنه ابنَه فى الخمر ، وتصميمه على الحق ، فى أشباه لهذه الفصول ، ثم قال :

« ...فانقرضت هذه العصابة – نضَّر الله وجوهها ، وشكر لها سعيها ، وجزاها خيرًا عن أمة نبيِّها – وخبطت الناس فتنةٌ تركت الحليم حيران ، والعالم متجاهلا مُداهنا ؛ فلم ينتفع العلماءُ بعلمهم ، بل قصدوا به الملوك ، واجتلبوا به الدنيا ، وأمالوا وجوهَ الناس إليهم ... »

فى أشباه لهذا القول ، إلى هلم جرًّا :

«ثم إن الله – سبحانه وله الحمد – منّ عليكم أيتها الطائفة بأُبيتده ، وخصّكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده ، وقيَّض لكم من ألْغَاكُم ضُلاَّلا لاتهتدون ، وَعُمْياً لا تبصرون ، لا تعرفون معروفاً ، ولا تُنكرون منكرًا ، قد فَشَتْ فيكم البدع ، واستهوتكم الأَباطيل ، وزيَّنَ لكم الشيطان أضاليلَ وتُرَّهاتٍ أنزِّهُ لسانى عن النطق بها وأربأُ بلفظى عن ذكرها ؛ فهداكم الله به بعد الضلالة ، وبَصَّركم بعد العمَى ، وجمعكم بعد الفُرقة ، وأعزَّكم بعد الذِّلة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين ؛ وسيُورثكم أرضَهم وديارهم ؛ ذلك بما كسبته أيديهم وأضمرته قلوبهم ، وما ربك بظلام للعبيد ؛ فجدِّدوا لله سبحانه خالصَ نيَّاتكم ، وأروه من الشكر قولا وفعلا ما يُزكِّى به سعيكم ويتقَّبلُ أعمالكم وينشر أمركم ؛ واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتاتَ الآراء ، وكونوا يدًا واحدة على عدوِّكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم وكثر أتباعكم وأظهر الله الحقَّ على أيديكم ، وإلا تفعلوا شَمِلكم الذل وعَمَّكم الصَّغارُ واحتقرتكم العامةُ

فتخطّفتْكم الخاصة ؛ وعليكم فى جميع أموركم بمزج الرافة بالغلظة ، واللين بالعنف ؛ واعلموا مع هذا أنه لا يَصلح أمرُ آخرِ هذه الأُمة إلا على الذى صلح عليه أمرُ أوّلها ، وقد اخترنا لكم رجلا منكم ، وجعلناه أميرًا عليكم ؛ هذا بعد أن بَلَوناه فى جميع أحواله ، من ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه ؛ واختبرنا سريرته وعلانيته ، فرأيناهُ فى ذلك كله ثَبْتاً فى دينه ، متبصِّرًا فى أمره ، وإنى لأرجو ألا يُخلف الظنَّ فيه ؛ وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن ؛ فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه ، فإن بدَّل أو نكص على عقبه أو ارتاب فى أمْرِهِ ففى الموحدين — أعزهم الله — بركةٌ وخير كثير ، والأمرُ أمرُ الله يقلِّده من شاء من عباده » .

فبايع القوم عبد المؤمن ، ودعا لهم ابن تومرت ، ومسح وجوههم وصدورهم واحدًا واحدا ؛ فهذا سبب إمرة عبد المؤمن رحمه الله .

ثم توفى ابن تومرت بعد عهده بيسير ، واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن .

فصــــــل

حياة عبد المؤمن وأعماله وعماله

وعبد المؤمن هذا ، هو عبد المؤمن بن على بن علَوىّ الكومىّ [1] ، أُمُّه حرة كومية أيضاً ، من قوم يقال لهم بنو مُجْبَر ، مولده بضيعة من أعمال تلمسان تُعرف بتاجرا [2] ؛ وقيل إنَه كان يقول إذا ذَكر كومية [3] : لستُ منهم ، وإنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان [4] ، ولكومية علينا حقٌ الولادة بينهم والمنشأُ فيهم ، وهم الأخوال. وهكذا أدركت من أدركتُ من أولاده وأولاد أولاده ينتسبون لقيس عيلان بن مضر ، وبهذا استجاز الخطباءُ أن يقولوا إذا ذكروه بعد ابن تومرت : « قسيمُه رضى الله عنه فى النسب الكريم ».

كان مولده فى آخر سنة ٤٨٧ فى أيام يوسف بن تاشفين ؛ وكانت وفاته فى شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ ، ومدة ولايته من حينَ استوسق له الأمر بموت على بن يوسف أمير المسلمين – فى سنة ٣٧ على التحقيق – إحدى وعشرين سنة ، إلى أن تُوفى فى التاريخ المذكور .

---

(١) الكومى : نسبة الى كومية ، اوكومة : قبيلة صغيرة نازلة بساحل البحر من أعمال تلمسان .

(٢) فى ابن خلكان وغيره : تاجرة .

(٣) فى الأصل : كمية ، وسماها ابن خلكان : كومة .

(٤) انظر التعليق رقم ٢ ص ٢٤٨ .

وكان أبيض ذا جسم عمم تعلوه حمرة ، شديدَ سواد الشعر ، معتدل القامة ، وضيء الوجه ، جهْورِيَّ الصوت ، فصيح الألفاظ ، جَزْل المنطق ؛ وكان محبَّباً إلى النفوس ؛ لا يراه أحدٌ إلا أحبه بديهة ؛ وبلغني أن ابن تومرت كان يُنشد كلما رآه :

تكاملتْ فيك أخلاقٌ خُصصتَ بها   فكلُّنا بك مسرورٌ ومغتبطُ
فالسنُّ ضاحكةٌ ، والكفُّ مانحةٌ   والصَّدْرُ مُنشرحٌ ، والوجهُ مُنبسطُ

اولاده :

كان له من الولد ستة عشر ذكراً ، وهم : محمد ، وهو أكبر ولده وولىُّ عهده ؛ وهو الذى خُلع ؛ وعلى ، وعمر ، ويوسف ، وعثمان وسليمان ، ويحيى ، واسماعيل ، والحسن ، والحسين ، وعبد الله ، وعبد الرحمن ، وعيسى . وموسى ، وإبراهيم ، ويعقوب .

وزراؤه :

وزَر له فى أول الأمر أبو حفص عمر أزناج ، إلى أن استقر الأمرواستقلّ عبد المؤمن ؛ فأجلى أبا حفص هذا عن الوزارة وربأ بقدْره عنها ، إذ كان عندهم فوق ذلك ؛ واستوزر أبا جعفر أحمد بن عطية ، فجمع بين الوزارة والكتابة ، فهو معدود فى الكتاب والوزراء ، فلم يزل عبد المؤمن بجمعهما له إلى أن افتتحوا بجاية ، فاستكتب عبد المؤمن من أهلها رجلا من نُبهاء الكتاب يقال له أبو القاسم القالمى — وسيأتى ذكره فى كُتَّابه — واستمرت

وزارة أبى جعفر إلى أن قتله عبد المؤمن فى شهور سنة ٥٣ واستصفى أمواله ، ثم وزر له عبد السلام الكومى ، وكان يدعى المُقَرَّب ، لشدة تقريب عبد المؤمن إياه ، فاستمرت وزارة عبد السلام هذا إلى أن أرسل إليه عبد المؤمن من قَتله خنقاً فى شهور سنة ٥٥٧ ، ثم وزر له ابنه عمر إلى أن توفى عبد المؤمن .

كتابه :

أبو جعفر أحمد بن عطية المذكور فى الوزراء ، كان قبل اتصاله بعبدالمؤمن ، وفى الدولة اللَّمتونية [1] يكتب لعلى بن يوسف فى آخر أيامه ، وكتب عن تاشفين بن على بن يوسف .

فلما انقرض أمرهم هرب وغيَّر هيئته وتَشَبَّه بالجند ، وكان محسناً للرَّمى ، وكان فى الجند الذين خرجوا إلى سُوس لقتال ثائر قام هناك ؛ كان الأمير على هذا الجند أبو حفص عمر إينْتى المتقدم الذكر فى أهل الجماعة [2] فلما انهزم أصحاب ذلك الثائر وقُتل هو وانفضَّت تلك الجموع ، طلَب أبو حفص مَن يكتب عنه صورةَ هذه الكائنة إلى الموحدين الذين بمراكش ، فدُلَّ على أبى جعفر هذا ونُبِّهَ على مكانه ، فاستدعاه ، وكتب عنه إلى الموحدين رسالة فى شرح الحال ، أجاد فى أكثرها ما شاء ، منعنى من رسْمها فى هذا الموضع ما فيها من الطول .

---

(١) يعنى دولة المرابطين .

(٢) انظر ص ٢٦٢ .

فلما بلغَت الرسالةُ عبد المؤْمن استحسنها واستدعى أبا جعفرٍ هذا واستكتبه ، وزاده إلى الكتابة الوزارة ؛ لما رآه من شجاعة قلبه وحصافة عقله ؛ فلم يزل وزيرَه كما ذكرنا إلى أن قتله فى التاريخ الذى ذكر .

وكان سبب قتله - فيما بلغنى - أنه كانت عنده بنت أبى بكر بن يوسف ابن تاشفين ، التى تُعرف ببنت الصحراوية : وأخوها يحيى فارسُ المرابطين المشهورُ عندهم ، يُعرفُ أيضاً بيحيى ابن الصحراوية[1] ؛ فحظى يحيى هذا عند الموحِّدين ، وقَوَّدُوه على من وَحَّد من لمتونة ، ولم يَزَل وجيهاً عندهم مُكْرماً لديهم - وكان خليقاً بذلك - إلى أن نُقلت عنه إلى عبد المؤْمن أشياءُ كان يفعلها وأقوالٌ كان يقولها أَحْنَقَتْه عليه ، فتحدث عبد المؤْمن ببعض ذلك فى مجلسه ، وربُما هَمَّ بالقبض على يحيى هذا ؛ فرأى الوزير أبو جعفر أن يجمع بين المصلحتين : من نصح أميره ، وتحذيرِ صهره ؛ فقال لامرأته أخت يحيى المذكور : قولى لأخيك يَتَحَفَّظ ، وإذا دعوناه غدًا فلْيَعْتَلَّ ويُظْهر المرض ، وإن قَدر على الهروب واللَّحاق بجزيرة مُيُورْقَةَ فلْيفعل ! فأخبرته أُخته بذلك ، فتمارض وأظهر أنَّ ألماً به ، فزاره أصحابه وسألوه عن علَّته ، فأَسَرَّ إلى بعضهم - ممن كان يثق به - ما بلغه عن الوزير فخرج ذلك الرجلُ الذى أَسَرَّ إليه فنقل ذلك كله بجملته إلى رجل من ولد عبد المؤْمن ، فكان هذا هو السبَبَ الأكبر فى قتل أبى جعفر المذكور ؛ وأمر أميرُ المؤْمنين عبدالمؤْمن بتقييد يحيى المذكور وسَجْنه ، فكان فى سجْنِهِ إلى أن مات !

---

(١) هو يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين ، وكان له بلاء شديد فى مقاومة الموحدين دفاعا عن دولة بنى تاشفين ، حارب فى تلمسان، وفى فاس، ثم انقاد حين لم يجد بدا من الانقياد كما انقاد كثير من لمتونة وانضووا تحت لواء الموحدين ، فقوده عبد المؤمن على من وحد من قومه .

ثم كتب له بعد أبي جعفر هذا : أبو القاسم عبد الرحمن القالمي ، من أهل مدينة بجاية ، من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكتب له معه أبو محمد عَيَّاش بن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة قُرطبة .

قضاته :

أبو محمد عبدالله بن جبل ، من أهل مدينة وهْرَان من أعمال تلمسان ؛ ثم عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بالمالقى ، لم يزل قاضياً له إلى أن توفى عبد المؤمن ، وصَدْرًا من خلافة أبي يعقوب .

[رجْع الحديث إلى أخبار عبد المؤمن]

وكان عبد المؤمن مُؤْثرًا لأهل العلم ، مُحباً لهم ، محسناً إليهم ، يستدعيهم من البلاد إلى الكَوْن عنده والجِوار بحضرته ، ويُجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، ويُظهر التنويه بهم والاعظام لهم ؛ وقسَّم الطلبةَ طائفتين طلبة الموحِّدين ، وطلبة الحضَر ؛ هذا بعد أن تسمَّى المصامدةُ بالموحِّدين ، لتسمية ابن تومرت لهم بذلك لأجل خوْضهم فى علم الاعتقاد الذى لم يكن أحدٌ من أهل ذلك الزمان فى تلك الجهة يخوض فى شىء منه [1] .

وكان عبد المؤمن فى نفسه سَرىَّ الهمة ، نزيهَ النفس ، شديد الملوكية كأنه كان ورثها كابرًا عن كابر [2] ، لا يرضى إلا بمعالى الأُمور .

---

(١) انظر ص ٢٣٦ ــ ١٣٧ ، والتعليق رقم ٢ ص ٢٥٥ .

(٢) كان والد عبد المؤمن صانعا فى عمل الطين، يعمل منه الأوانى والجرار فيبيعها ، وذلك كل مرتزقه ، ثم كان من أمر ابنه عبد المؤمن ما كان !

أخبرنى [1] الفقيه المتفنن أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبى جعفر الوزير ، عن أبيه عن جده الوزير أبى جعفر ، قال : دخلتُ على عبد المؤمن وهو فى بستانٍ له قد أينعت ثماره ، وتفتحت أزهاره ، وتجاوبت على أغصانها أطيارُه ، وتكامل من كل جهةٍ حسنُه ؛ وهو قاعد فى قُبةٍ مشرفة على البستان ، فسلمت وجلست ، وجعلت أنظر يَمْنة وشَأْمة ، متعجباً مما أرى من حسن ذلك البستان ، فقال لى : يا أبا جعفر ، أراك كثير النظر إلى هذا البستان ! قلت : يُطيل الله بقاء أمير المؤمنين ، والله إن هذا لمنظرٌ حَسَن ! فقال : يا أبا جعفر ، المنظرُ الحسنُ هذا ؟ قلت : نعم ؛ فسكت عنى ، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة ، أمر بعرْض العسكر آخذى أسلحتهم ، وجلس فى مكان مُطلّ ، وجعلت العسكر تمرُّ عليه قبيلةً بعد قبيلة وكتيبةً إثر كتيبة ، لا تمرُّ كتيبة إلا والتى بعدها أحسنُ منها ، جَوْدَةَ سلاح ، وفراهةَ خيل ، وظهورَ قُوة ؛ فلما رأى ذلك التفت إلىَّ وقال ؛ يا أبا جعفر ، هذا هو المنظر الحسن ، لا ثمارُك وأشجارك !

ولم يزل عبد المؤمن ـ بعد وفاة ابن تومرت ـ يطوى الممالك مملكةً مملكةً ، ويُدوّخ البلاد ، إلى أن ذلّت له البلاد ، وأطاعته العباد .

[نهاية المرابطين وآخر من ولى الأمر منهم]

وكان آخر ما استولى عليه من البلاد التى يملكها المرابطون ، مدينة مرّاكش ، دار ملك أمير المسلمين وناصر الدين على بن يوسف بن تاشفين ؛

---

(1) من هنا يبدأ عبد الواحد رواية التـاريخ عن محدثيه روايه مباشرة، وكان من قبل ناقل آثار وناسخ كتب . انظر ما أثبتناه فى التقديم عن مصادر عبد الواحد فى كتاب المعجب .

وهدا بعد وفاة أمير المسلمين المذكور حَتْفَ أنفهِ فى شهور سنة ٥٣٧ [١] ؛ وكان قد عهد فى حياته إلى ابنه تاشفين ، فعاقته الفتنة عن تمام أمره ، ولم يتفق له ما أمله من استقلال ابنه تاشفين المذكور بشىء من الأُمور .

وخرج تاشفين بعد وفاة أبيه قاصداً تلمسان ، فلم يتفق له من أهلها ما يريد ، فقصد مدينة وهْران — وهى على ثلاث مراحل من تِلمسان — فحاصره الموحدون بها ؛ فلما اشتد عليه الحصار خرج راكباً فرساً شهباء ، عليه سلاحه ، فاقتحم البحر حتى هلك [٢] ؛ ويقال إنهم أخرجوه من البحر وصلبوه ثم أحرقوه ، فالله أعلم بصحة ذلك .

فكانت ولاية تاشفين هذا من يوم وفاة أبيه إلى أن قتل — كما ذكرنا — بمدينة وهران ، ثلاثة أعوام إلا شهرين ؛ وكان قتله سنة ٥٤٠ [٣] ؛ وكان طولَ هذه الولاية لا يستقر به قرار ولا تستقيم له حال ، تَنبُو به البلاد ،

---

(١) كان فتح الموحدين لمدينة مراكش فى سنة ٥٤٢ ، وكان أميرها يومئذ ، اسحاق بن على ابن يوسف بن تاشفين ، وهو صبى ، وأول ما دان من البلاد لعبد المؤمن قبل مراكش : وهران ، ثم تلمسان ، ثم فاس ، ثم طنجة ، ثم مكناسة ،ثم سلا ، ثم سبتة .

(٢) يروى فى وصف مهلك تاشفين بن على، أنه لما تيقن أن دولتهم الى زوال ، أتى مدينة وهران — وهى على البحر — يريد أن يتخذها مقرا ، فان غلبه الموحدون على الأمر ركب البحر منها الى الأندلس حيث يأمل أن تكون له ثمة دولة ، كما قامت دولة بنى أمية بالأندلس بعد انقراض دولتهم بالشام ، وكان بظاهر وهران ربوة على البحر ، بأعلاها رباط يأوى اليه المتعبدون فلما كانت ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ٥٣٩ — وهى ليلة يعظمها أهل المغرب — صعد تاشفين الى ذلك الرباط ليشارك أولئك المتعبدين فى الاحتفال بتلك الليلة المعظمة ، وعلم الموحدون — وكانوا غير بعيد — بانفراد تاشفين فى ذلك الرباط ، فقصدوه وأحاطوا به واحرقوا بابه ، فأيقن الذين فيه بالهلاك ، وأراد تاشفين أن يخلص من تلك الحبالة ، فكأنما خيل اليه أنه مستطيع — حين يستمكن من ظهر فرسه — أن يثب وثبة فارس فوق النار فيتجاوزها وينجو ، فاعتلى صهوة فرسه وشد لجامه ووثب ... ولكن الفرس ترامى نازيا من الذعر ولم يمسكه اللجام ، فتردى من جرف هنالك الى جهة البحر على حجارة فى وعر ، فتهشم الفرس وهلك فارسه :

(٣) انظر التعليق السابق ، وفيه أن مهلك تاشفين بن على كان فى رمضان سنة ٥٣٩ .

وتتنكر له الرعية ؛ فلم تزل هذه حاله إلى أن كان من أمره ما ذكر[1] .

وبعد دخول عبد المؤمن - رحمه الله - مراكش ، طلب قبر أمير المسلمين ، وبحث عنه عبد المؤمن أشدَّ البحث ؛ فأخفاه الله وستره بعد وفاته كما ستره في أيام حياته ؛ وتلك عادة الله الحُسنى مع الصالحين المصلحين .

وانقطعت الدعوة بالمغرب لبني العباس بموت أمير المسلمين وابنه ، فلم يُذكروا على منبر من منابرها إلى الآن ، خلا أعوام يسيرة بأفريقية ، كان قد ملكها يحيى بن غانية الثائر من جزيرة مُيُرْقة على ما سيأتي بيانه .

وكانت مدة المرابطين - من حين نزولهم رحبة مراكش إلى أن انقرض ملكهم جملةً واحدة بموت أمير المسلمين وابنه - نحوًا من ست وسبعين سنة .

[تغلب عبد المؤمن على بجاية وقلعة بني حماد]

ولما دان لعبد المؤمن جميعُ أقطار المغرب الأقصى مما كان يملكه المرابطون - على ما قدّمنا - وأطاعه أهلها ، جمع جموعاً عظيمة وخرج من مرّاكش يقصد مملكة يحيى بن عبد العزيزبن المنصور بن المنتصر الصِّنهاجي[2] وكان

---

(١) لما توفى تاشفين بن على ، جعل المرابطون امرهم من بعده لاخيه اسحاق بن على ، وكان صبيا ، وعليه دخل الموحدون مراكش فى سنة ٥٤٢ بعد حصار استمر أحد عشر شهرا ، فقتلوه صبرا ، فهو آخر ملوك المرابطين وبه انقرضت دولتهم .

(٢) يعنى مملكة بنى حماد ، واول ملوكهم حماد بن بلكين بن زيرى بن مناد الحميرى الصنهاجى ، أخو المنصور صاحب افريقية ، وكان لبنى مناد هؤلاء جاه قديم فى افريقية من قبل أن تكون دولة العبيديين « الفاطميين » فى المهدية ، واستعان بهم بنو عبيد حين استوسق لهم الأمر فى تلك البلاد ، فلما هم المعز لدين اللهالعبيدى « الفاطمى » أن يتوجه الى مصر حين اتخذها قاعدة لملكه بعد انهيار الدولة الاخشيديةبها ، استخلف على افريقية بلكين بن زيرى ، فكان له الحكم فى تلك البلاد الى أن مات فىسنة٣٧٣ ، ولم تكن تبعيته للعبيديين فى القاهرة الا تبعية اسمية .

يملك بجايةَ وأعمالها إلى موضع يعرف بسيوسيرات ، وهذا الموضع هو الحدُّ فيما بينه وبين لمتونة ؛ فقصده عبد المؤمن ــ كما ذكرنا ــ فى شهور سنة ٥٤٠ ، فحاصر عبد المؤمن بجاية وضيَّق عليها أشد التضييق ، فلما رأى يحيى بن العزيز أن لاطاقة له بدفاع القوم ولا يدَان بمنعهم ، هرب فى البحر حتى أتى مدينة بُونة ، وهى أولُ حدٍّ بلاد أفريقية ، ثم خرج منها حتى أتى قسنطينة المغرب ، فأرسل إليه عبد المؤمن ــ رحمه الله ــ بالجيوش ، فاستُنزِل وأُتى به عبدُ المؤمن ، هذا بعد أن عاهد عبدُ المؤمن أن يؤمِّن يحيى فى نفسه وأهله .

ثم ولى من بعده امر البلاد المنصور بن بلكين ، فقام بالأمر مقام أبيه وزاد عليه ، الى أن توفى سنة ٣٨٦ .
١

وخلفه على عرش أفريقية ولده باديس ، وكان له ــ كما كان لأبيه وجده من قبل ــ تعيين الولاة والعمال فى البلاد التى تخضع لحكمه ، فاقطع عمه حماد بن بلكين « اشير » ، فأنشأ بها حماد قلعته سنة ٣٨٦ وأقام بها ملكا يتمتع بكثير من مظاهر الاستقلال ، ولكنه يقر بالولاء لابن أخيه بالقيروان والمهدية وتونس .

ومنذ الوقت الذى أنشئت فيه تلك القلعةصار بنو مناد فرقتين : بنو حماد بقلعتهم ، وبنو باديس بالقيروان والمهدية . وتوفى باديس سنة ٤٠٦ .

ثم خلف باديس على عرش أفريقية ولده المعز بن باديس ، وهو مؤسس دولتهم الحقيقى ، فقد أعلن انفصاله صريحا عن العبيديين فى القاهرة ، وخلع طاعتهم، وقطع خطبة الخليفة العبيدى المستنصر بالله فى القاهرة ، وخطب للامام القائم بأمر الله العباسى صاحب عرش الخلافة فى بغداد سنة ٤٣٥ ولما بعث اليه المستنصر يتهدده لم يعبأ به ، وقال لرسوله : قل له ان لنا ملك أفريقية قبل أن يكون للعبيديين ذكر !

ولما استقل المعز بن باديس بملك أفريقية، بدأ استقلال بنى حماد كذلك بما تحت أيديهم من البلاد ، ووقف أبناء العم بعضهم بازاء بعض متنافسين ، يريد كل فريق أن يوسع سلطانه ، فنشأت بينهما سلسلة من الحروب أضعفت الفريقين جميعا وهيأت للفرنجة ان يستولوا على صقلية ــ وكانت حتى ذلك الوقت جزءا من مملكة أفريقية ــ ثم ولى الفرنجة وجههم بعد ذلك نحو أفريقية نفسها ، فاستولوا على طرابلس وكثير من الأطراف الشرقية لمملكة بنى باديس .

وتوالى على عرش أفريقية طائفة من ولد المعز بن باديس :
تميم بن المعز : من سنة ٤٥٤ الى سنة ٥٠١ .
=

ودخل عبد المؤمن بجاية وملكها ، وملك قلعة بني حماد ، وهي معقل صنهاجة الأعظم وحرزُهم الأمنع ، فيها نشأ ملكهم ، ومنها انبعث أمرُهم . وكان يحيي هذا وأبوه العزيزُ وجداه المنصور والمنتصر ، وجدهم الأكبر

ويحيى بن تميم : من ٥٠١ الى ٥٠٩ وفى عهده وصل ابن تومرت الى المهـــدية قادما من المشرق فى طريقه الى المغرب الأقصى كما ذكر · نظر التعليق رقم ٣ ص ٢٤٦ .

ثم على بن يحيى الى سنة ٥١٥ ·

ثم أبو يحيى الحسن بن على ، وهو آخر ملوكهم ، وفى عهده استولى الفرنجة عـلى طرابلس عنوة سنة ٥٤١ ، ثم على المهـدية حاضرة الدولة سنة ٥٤٣ ، وهى السنة التى انتهى فيها ملكهم· وفر أبو يحيى هذا الى قلعة محرز بن زياد ، فأقام عنده حينا ، ثم بدا له أن يفارقه الى مصر ملتجئا الى الحافظ العبيدى ، ولكن صاحب صقليه كان يتربص به فى البحـر ، فعدل عن السـفر الى القاهرة وقصد الى ابن عمه يحيى بن العزيز ــ المذكور ــ ملك بجاية ووارث ملك بنى حمـاد ، فسيره يحيى بأهله الى جزائر بنى مزغنة ، فأقام بها هو ومن معه من أهله ممنوعين من التصرف كالمحجور عليهم فى أسر ابن عمهم ، فلم يزالوا كذلك حتى ملك عبد المؤمن بجاية وقضى عـــلى مملكة بنى حماد ، كما انقضى من قبل ذلك ملك بنى عمهم خلفاء المعز بن باديس على يد صـــاحب صـــقلية ·

وانما ذكرنا هذا لنكشف عن أوليـة بنى حماد الصنهاجيين أصحاب بجايه وقلعة بنى حماد وما والى ذلك من البلاد ·

ثم نعود من حيث بدأنا الحديث عن حماد بن بلكين بن مناد ، فنقول ان رغبته فى الانفصال عن صاحب عرش القيروان بدت منذ سنة ٣٩٠، وتوالت الحروب بين بنى العم بسبب ذلك ، وأعان على اشتداد الخلاف وتواتر أسبابه بين الدولتين الشقيقتين ، ما دبره العبيـــديون فى القاهرة من كيد للأفارقة ، بسبب قطع المعز بن باديس خطبتهم وخلعه طاعتهم ــ كما قدمنا ــ فدعا العبيديون قبائل من العرب : بنى زغبة ، وبنى رباح ، وبنى الأثبج ، وبنى عـدى ، وبنى سليم : بنى هلال بن عامر ، الى النزوح الى المغرب ، ليناوئوا الصنهاجيين من بنى المعز وبنى حماد جميعا ، فعاثوا فى البلاد عيثا شديدا ، واعانوا بعضا من اهلها على بعض ، فهم حينا من انصار بنى المعز على بنى حماد ، وحينا من انصار بنى حماد على بنى المعز ، يتقاســـمون الجبهتين ، فبعضهم مع هؤلاء وبعضهم مع أولئـك ، وتنشب الحرب بين ابناء العم ومع كل فريق منهما فريق من العرب ، وكان الربح دائما للعرب ، سواء أكانوا مع الغالبين أم كانوا مع المغلوبين ، اذ كان موقفهم فى كثير من تلك المعارك موقف المرتزقة ، لهم الأجر والغنيمة فى حالتى النصر والهزيمة

وتوالى ملك بنى حماد بعد وفاة حماد فى سنة ٤١٧ ، فملك بعده ولده « القـائد » الى أن توفى سنة ٤٤٦ ، وملك بعد القائد ابنه « محسن » ثم ملك بعد محسن ابن عمه « بلكين » ، ثم الناصر بن علناد بن محمد بن حماد ، الى ان ملك يحيى بن العزيز المذكور ، فظل على عرش بجاية حتى استولى عليها وعلى قلعة بنى حماد وسائر تلك النواحى ، امير الموحدين عبد المؤمن بن على=

حماد - من شيعة بنى عُبيد[1] وأتباعهم والقائمين بدعوتهم ؛ ومن بلادهم - أعنى صنهاجة - قامت دعوةُ بنى عُبيد؛ وهم الذين أظهروها ونشروها ونصروها [2] ؛ فلم يزل مُلك بنى حماد هؤلاء مستمرا ، ودولتهم قائمةً ، وأمرهم نافذًا ، لاينازُعهم أحدٌ شيئاً مما فى أيديهم ؛ إلى أن أخرجهم من ذلك كله وملكه بأسره وضمّه إلى مملكته : أبو محمد عبد المؤمن بن على فى التاريخ الذى تقدم !

ولما ملَك عبد المؤمن بجاية والقلعة وأعمالها ، رتّب من الموحّدين من يقوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها ؛ واستعمل عليها ابنه عبد الله؛ وكرَّ راجعاً إلى مراكش ومعه وفى جُنده يحيى بن العزيز ملكُ صنهاجة وأعيان دولته ؛ فحين وصلوا إلى مراكش أمر لهم بالمنازل المتّسعة والمراكب النبيلة والكسَى الفاخرة والأموال الوافرة ؛ وخَصَّ يحيى من ذلك بأجزلِه ، وأسناه وأحفَلِه ؛ ونال يحيى هذا عنده رتبة عالية وجاهاً ضخماً ، وأظهر عبد المؤمن عنايةً به لامزيد عليها ...

بلغنى من طُرق عدة أن يحيى بن العزيز كان فى مجلس عبد المؤمن يوماً ، فذكروا تعَذُّر الصرف ؛ فقال يحيى : أما أنا فعلىَّ مِن هذا كُلْفةٌ شديدة ، وعبيدى فى كل يوم يشْكون إلىَّ ما يلقَون من ذلك ، ويذكرون أن أكثر

= ويذكر ابن الأثير وابن كثير ان مسير عبد المؤمن نحو بجاية ومملكة بنى حماد ، كان فى سنة ٥٤٦ ، وتمت له الغلبة عليها فى سنة ٥٤٧ خلافا لما يذكره المراكشى .

(١) يعنى الفاطميين .

(٢) كذلك كانوا قبل ان يقطع المعز بن باديس الصنهاجى خطبة المستنصر العبيدى « الفاطمى » سنة ٤٣٥ ويخلع طاعته . انظر التعليق رقم ٢ ص ٢٧٢ .

حوائجهم تتعذر لقة الصرف – وذلك أن عادتهم فى بلاد المغرب أنهم يضربون أنصاف الدراهم وأرْبَاعَهَا وأثمانها والخراريب ، فيستريح الناس فى هذا وتجرى هذه الصروف فى أيديهم فتتسع بياعاتُهم – فلما قام يحيى بن العزيز من ذلك المجلس ، أتْبعه عبدُ المؤْمن ثلاثةَ أكياسٍ صُروفٌ كلُّها ، وقال لرسوله : قل له لا يتعذرْ عليك مطلوبٌ ما دُمْتَ بحضرتنا إن شاء الله عز وجل !

وأقام عبد المؤْمن رحمه الله بمراكش ، مرتِّباً للأُمور المختصة بالمملكة ، من بناء دور ، واتخاذ قصور ، وإعداد سلاح ، واستنزال مُستعصٍ ، وتأمين سُبُل ، وإحسانٍ إلى رعية ، وما هذا سبيله .

فصل

أحوال الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين

فأما أحوال جزيرة الأندلس فانه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن على بن يوسف ، اختلَّت أحوالُها اختلالاً مُفرطاً ، أوجب ذلك تخاذُلُ المرابطين وتواكلهم ، وميلُهم إلى الدَّعة ، وإيثارهم الراحة ، وطاعتُهم النساء ؛ فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلُّوا فى أعينهم واجترأ عليهم العدو ، واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم ؛ وكان أيضاً من أسباب ما ذكرناه من اختلالها ، قيامُ ابن تومرت بسوس ، واشتغالُ على بن يوسف به عن مراعاة أحوال الجزيرة .

ولما رأى أعيان بلادتلك الجزيرة ما ذكرناه من ضعف أحوال المرابطين ، أخرجوا من كان عندهم من الولاة ، واستبدّ كلٌّ منهم بضبط بلده ؛ وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأُولى بعدانقطاع دولة بنى أُمية ؛ فأما بلاد أفراغَة فاستولى عليها ملك ارغن لعنه الله [1] ، وملَك مع ذلك سرَقُسْطة [2] — أعادها الله للمسلمين — وكثيراً من أعمال تلك الجهات .

---

(١) هوريموند بيرنجه الرابع ، استولى فى سنة ٥٤٣ على طرطوشة ، وملك معها جميع قلاعها ، وحصون لاردة وأفراغة .

(٢) كان استيلاء الأسبان على سرقسطة سنة ٥١٢ — قبل الاستيلاء على افراغه باحدى وثلاثين سنة — فى عهد الأذفونش الاول ملك ارغون .

واتفق أمر أهل بلنسية ومرسية وجميع شرق الأندلس على تقديم رجل من أعيان الجند اسمه عبد الرحمن بن عياض ؛ وكان عبد الرحمن هذا من صُلحاءِ أُمة محمد وخيارِهم ؛ بلغني عن غير واحد من أصحابه أنه كان مجابَ الدعوة ؛ ومن عجائب أمره أنه كان أرقَّ الناس قلباً وأسرعهم دمعة ، فإذا ركب وأخذ سلاحه لا يقوم له أحد ولا يستطيع لقاءه بطل ؛ كان النصارى يعُدّونه وحده بمئة فارس ، إذا رأوا رايته قالوا : هذا ابن عياض ! هذه مئة فارس! فحمى الله تلك الجهات ودفع عنها العدوَّ ببركة هذا الرجل الصالح ؛ وانتشر له من الهيبة في صدور النصارى ما ردَّهم عن البلاد . وأقام ابنُ عياض هذا بشرقي الأندلس يحفظ تلك البلاد ويذود عنها إلى أن توفي ، رحمه الله ونضر وجهه وشكر له سعيه ؛ لا أتحقق تاريخ وفاته [1] .

وقام بأمر تلك الجهات بعده رجل اسمه محمد بن سعد ، المعروف عندهم بابن مردنيش [2] .

كان محمد هذا خادماً لابن عياض ، يحمل له السلاح ويتصرف بين يديه في حوائجه ؛ فلما حضرته الوفاة اجتمع إليه الجند وأعيان البلاد

---

(١) مات من جراح اصابته في فتنة نشبت في مرسية ، سنة ٥٤١ .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن احمد بن مردنيش ، ينتسب الى جذام – من قبائل اليمن – ولكن أهل العلم ينكرون نسبه في العرب ، ويرجحون انه من أصل اسباني ، وان اسم جده الأعلى « مردنيش » محرف عن مرتينيس martinee أي ابن مارتين ، ويقولون ان والد جده « أحمد بن مردنيش » هو أول من أسلم من آبائه . وكان ينزع به عرق الى الأسبانية ، لأنه كان يتشبه بملوك النصارى في لباسه وسلاحه ، وكان اكثر جنده من مرتزقة الأسبان ، وكان لذلك متهما في دينه ، وكان على صلة بملوك النصارى ، يهاديهم بالتحف والألطاف ، وربما استعان بهم على المسلمين في حروبه !

وكان بين ابن مردنيش هذا والأمير ابن عياض صهر هيأ له السبيل الى الامارة من بعده في مرسية وشرق الأندلس .

فقالوا له : إلى من تُسند أمورَنا ومن تشير علينا ؟ وكان له ولد ، فأشاروا به عليه ؛ فقال : إنه لايصلح ، لأنى سمعت أنه يشرب الخمر ويغفُل عن الصلاة ، فإن كان ولابدّ فقدِّموا عليكم هذا – وأشار إلى محمد بن سعد – فانه ظاهر النجدة كثير الغناء ، ولعل الله أن ينفع به المسلمين !

فاستمَرت ولاية ابن سعد على البلاد إلى أن مات فى شهور سنة ٥٦٨ [(١)]

* * *

وأما أهل المرية فأخرجوا من كان عندهم أيضاً من المرابطين ؛ واختلفوا فيمن يقدمونه على أنفسهم؛ فندبوا إليها القائد أبا عبدالله بن ميمون ، ولم يكن منهم ، إنما هو من أهل مدينة دانية ؛ فأبى عليهم وقال : إنما أنا رجلٌ منكم ، ووظيفتى البحرُ وبه عُرفْت ؛ فكل عدوٍّ جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به ؛ فقدِّموا على أنفسكم من شئتم غيرى ! فقدَّموا على أنفسهم رجلا منهم اسمه عبدالله بن محمد ، يُعرف بابن الرميمى [(٢)] ؛ فلم يزل

---

(١) فى الاحاطة : انه مات وهو محصور بمرسية سنة ٥٦١ وفى نفح الطيب : ان وفاته كانت سنة ٥٦٦ .

(٢) يكنى أبا يحيى ، وكان أديبا ظريفا طيب النفس ، وبنو الرميمى سلالة من بنى أميــة ملوك الأندلس ، وينتسبون الى رميمة : قرية من أعمال قرطبة . وكان يتولى المرية قبله عامل من قبل الموحدين اسمه ابن مخلوف ، فخلع أهل المرية طاعة الموحدين وقتلوا عاملهـــم ذاك ، وولوا عليهم أبا يحيى ابن الرميمى ، فلما دخل النصارى المرية وفعلوا بها ما فعلوا ، فر ابن الرميمى الى فاس ، وعاش بها ضائعا خـاملا ، يسكن فى غرفة مفردة ويعيش من نسخ الكتب، وفى ذلك يقول:

أمسيتُ بعد المُلك فى غرفةٍ ضيِّقةِ الساحلِ والمدخلِ .
تَستوْحِشُ الأَرزاقُ من وجهها فما تزالُ الدهرَ فى معزلِ
النسخ بالقوتِ لديْها ولا تَقْرعُها كفُّ أَخ مُفضِلِ !

فبينما هو ذات ليلة فى غرفته تلك ينسخ فى ضوء السراج ، سمع قرعا بالباب ، ففتحه ، فاذا شخص متنكر لا يعرفه وقد مد يده اليه بصرة فيها دنانير ، ويقول : خـذها من كف أخ .. وانت المفضل ! يشير الى أبياته تلك . فأخذها أبو يحيى وحسنت بها حاله ، وله غير هذا شعر جيــد .

عليها إلى أن دخلها عليه النصارى من البر والبحر ؛ فقتلوا أهلها وسبوا نساءهم وبنيهم وانتهبوا أموالهم فى خبر يطول ذكره [1] .

* * *

وملك جَيَّان وأعمالها إلى حصن شَقورة وما والى تلك الثغور ، رجلٌ اسمه عبدالله ، لا أعرف اسم أبيه ، هو معروف عندهم بابن هَمُشْك ؛ وربما ملك عبد الله [2] هذا قرطبة أياماً يسيرة .

وأقامت على طاعة المرابطين أغرناطة وأشبيلية.

* * *

فهذه جملة أحوال الأندلس فى آخر دعوة المرابطين ؛ وفى ضمن هذه الجملة جُزئيات من أخبار الحصون والقلاع والمدن الصغار أضربتُ عن ذكرها خوفاً من الإطالة ، لأنها نكرةٌ والتعريف بها مُخرج إلى الطول .

وقام بمغرب الأندلس دُعاة فتن ورءُوس ضلالات ؛ فاستفزُّوا عقول الجهال ،

---

(١) روى المقرى أن عدد من سبى من أبكار المرية فى هذه الغارة بلغ ١٤ ألفا !

(٢) كذا يسميه المراكشى : عبد الله ابن همشك ، وفى غيره : ابراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك ، وهمشك جده نصرانى أسلم على يد بنى هود بسرقسطة ، وقد اتصل ابن همشك بالأمير ابن عياض امير شرق الأندلس ؛ فتهيأ له بهذه الصلة أن يتأمر على شقورة وقلاعها ، وغلظ أمره حتى ساوى ابن مردنيش ، وداخله حتى زوجه بنته ، ثم فسد ما بينهما بسبب هذا الصهر فتعاديا ، وكان جبارا عنيفا شديد النكال عظيم الجراة ، وقد صفا ما بينه وبين الموحدين فى آخرة أمره ، فأقطعوه بمكناسة أملاكا ذات خطر ، وأقام بها الى أن مات .

ويروى ابن الأبار فى « تحفة القادم » شعرا لأبى بكر اليعمرى ، من أهل بذة يهجو به ابراهيم ابن همشك :

هَمُشْكٌ ضُمَّ من حرفينِ : من همٍّ ، ومن شكٍّ

فعينُ الدين والدنيا لإمرته أسًى تبكى!

واستمالوا قلوب العامّة ؛ من جملتهم رجل اسمه أحمد بن قَسِيّ ؛ كان فى أوّل أمره يدّعى الولاية ، وكان صاحب حيل ورَبٌّ شَعبذة ، وكان مع هذا يتعاطى صنعة البيان وينتحل طريق البلاغة ؛ ثم ادعى الهداية ؛ بلغنى ذلك عنه من طرق صحاح ؛ ثم لم يستقم له شئ مما أراد ، واختلف عليه أصحابه ؛ وكان قيامه بحصن مارْتُلَة – وقد تقدّم اسم هذا الحصن فى أخبار الدولة العَبّادية [1] – فأسلمه – كما ذكرنا – أصحابه ، واختلفوا عليه ، ودسوا إليه من أخرجه من الحصن بحيلة حتى أخذه الموحدون قبضاً باليد ؛ فعبروا به إلى العدوة ، فأتوا به عبد المؤمن رحمه الله ، فقال له : بلغنى أنك ادعيت الهداية ! فكان من جوابه أن قال : أليس الفجر فجران [2] كاذب وصادق ؟ فأنا كنت الفجر الكاذب ! فضحك عبد المؤمن وعفا عنه ؛ ولم يزل بحضرته إلى أن قتله بعضُ أصحابه الذين كانوا معه بالأندلس ؛ ولابن قسى هذا أخبار قبيحة ، مضمونها الجراءة على الله سبحانه ، والتهاون بأمر الولاية ؛ منعنى من ذكرها صَرْفُ العناية إلى ما هو أهم منها .

[عبور الموحدين إلى الأندلس]

ولما انتشرت دعوة المصامدة – كما ذكرنا – بالمغرب الأقصى ، تشوّف إليهم أعيانُ مغرب الأندلس ؛ فجعلوا يفدون فى كل يوم عليهم ، ويتنافسون فى الهجرة إليهم ؛ فدخل فى ملْكهم كثيرٌ من جزيرة الأندلس ، كالجزيرة

---

(١) انظر ص ٢٠٤

(٢) كذا قال ، غلطا .

الخضراءُ ، ورندة ؛ ثم إشبيلية ، وقرطبة ، وأغرناطة ؛ وكان الذى فتح هذه البلاد الشيخُ أبو حفص عمر إينْتى المتقدم الذكر فى أهل الجماعة [1] ؛ واجتمع على طاعتهم أهل مغرب الأندلس .

فلما رأى عبد المؤمن ذلك ، جمع جموعاً عظيمة ، وخرج يقصد جزيرة الأندلس ؛ فسار حتى مدينةسَبتة ، فعبر البحر ، ونزل الجبل المعروف بجبل طارق ،وسماه هو جبلَ الفتح ؛ فأقام به أشهرًا ، وابتَنى به قصوراً عظيمة ، وبنى هناك مدينة هى باقية إلى اليوم ؛ ووفد عليه فى هذا الموضع وجوهُ الأندلس للبيعة ، كأهل مالَقة ، وأغرناطة ، ورُندة ، وقُرطبة ، وإشبيلية ، وما والى هذه البلاد وانضمّ إليها ؛ وكان له بهذا الجبل يوم عظيم اجتمع له وفى مجلسه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العُدوة والأندلس ما لم يجتمع لملك قبله ، واستدعى الشعراء فى هذا اليوم ابتداءً ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك ، إنما كانوا يستأذنون فيؤْذنُ لهم .

[محمد بن حبوس الفاسى الشاعر]

وكان على بابه منهم طائفة أكثرهم مجيدون ؛ فدخلوا ، فكان أول من أنشد : أبو عبدالله محمد بن حَبُّوس من أهل مدينة فاس ؛ وكانت طريقته فى الشعر على نحو طريقة محمد بن هانئ الأندلسى ، فى قصد الألفاظ الرائعة والقعاقع المهولة وإيثار التقعير ؛ إلا أنَّ محمد بن هانئ كان أجودَ

---

(٢) انظر ص ٢٦٢ .

منه طبعاً وأحلى مَهْيعاً ؛ فأنشد فى ذلك اليوم قصيدة أجاد فيها ما أراد ، [أولها] :

بلغ الزمانُ بهديكمُ ما أمّلا وتعلمتْ أيامُه أن تعدلا
وبحسْبهِ أن كان شيئاً قابلاً وجَد الهدايةَ صورةً فتشَكلا

لم يبق على خاطرى منها أكثر من هذين البيتين .

ولابن حبُّوس هذا قصائد كثيرة ؛ وكان حِظياً عنده[1] ، نال فى أيامه ثروة ، وكذلك فى أيام ابنه أبى يعقوب ؛ وكان فى دولة لمتونة [2] مقدَّماً فى الشعراء ، حتى نُقلت إليهم عنه حماقاتٌ ؛ فهرب إلى الأندلس ، ولم يزل بها مستخفياً ينتقل من بلد إلى بلد ، حتى انتقلت الدولة المرابطية .

قرأ علىَّ ابنُه عبد الله من خط أبيه هذه الحكاية ، قال :

دخلت مدينة شِلْب من بلاد الأندلس ، ولى يوم دخلتُها ثلاثة أيام لم أطْعَمْ فيها شيئاً ؛ فسألت عمن يُقصَدُ إليه فيها ، فدلَّنى بعض أهلها على رجلٍ يُعرف بابن الملح ؛ فعمدت إلى بعض الوراقين فسألته سِحاءةً ودواة ، فأعطانيهما ؛ فكتبت أبياتاً أمتدحه بها ، وقصدت داره ، فإذا هو فى الدّهاليز فسلَّمت عليه ، فرحب بى وردَّ علىَّ أحسنَ رد ، وتلقانى أحسنَ لقاء ، وقال : أحسَبُكَ غريباً ! قلت : نعم ؛ فقال لى : من أى طبقات الناس أنت ؟ فأخبرته أنى من أهل الأدب ، من الشعراء ؛ ثم أنشدته الأبيات التى قُلت ؛ فوقعت منه أحسن موقع ؛ فأدخلنى إلى منزله ، وقدم إلىَّ الطَّعام ، وجعل يحدثنى ؛

---

(1) يعنى عبد المؤمن .

(2) يعنى دولة المرابطين .

فما رأيتُ أحسنَ محاضرةً منه ؛ فلما آن الانصراف ، خرج ثم عاد ومعه عَبدان يحملان صندوقاً حتى وضعه بين يديّ ؛ ففتحه فأخرج منه سبعمائة دينار مُرابِطية ، فدفعها إلىّ وقال : هذه لك ! ثم دفع إلىّ صُرّةً فيها أربعون مثقالا ، وقال : هذه من عندى ! فتعجبت من كلامه وأشْكَلَ علىّ جداً ، وسألته : من أين كانت هذه لى ؟ فقال لى : سأُحدثك : إنى أوقفتُ أرضاً من جملة ما لى للشعراء ، غلّتُها فى كل سنة مئةُ دينار ؛ ومنذ سبع سنين لم يأْتنى أحد ، لتوالى الفتن التى دَهَمت البلاد ؛ فاجتمع هذا المال حتى سيقَ إليك ؛ وأما هذه فهى حرٌّ مالى ! يعنى الأربعين دينار ؛ فدخلتُ عليه جائعاً فقيراً وخرجت عنه شبعان غنياً [1] .

[الأصم المروانى الشاعر ، ابن الطليق]

وأنشده فى ذلك اليوم رجل من ولد الشّريف الطليق المرْوَانىّ [2] ، كان شريفاً من جهة أمه :

(١) انظر قصة ابن عمار فى « شلب » هذه .. ، والسوقى الذى ملأ مخلاته شعيرا ، ص١٧٢ — ١٧٣ .

(٢) لما انتثرت دولة بنى مروان بالأندلس وتغلب ملوك الطوائف على ما بأيديهم من البلاد ، تفرق من بقى من بنى مروان فى البلاد وانبثوا فى الشعب وعاشوا كما يعيش سائر الناس بلا جاه ولا سلطان ، ولكن أوليتهم ظلت تحفظ لهم الهيبة فى نفوس العامة والخاصة على السواء ، ولقبهم الناس بالشرفاء ، فكل من نسل من بنى مروان فهو عندهم « الشريف المروانى » ، وقد حفظت كتب الأدب والتاريخ أسماء طائفة من أعلام الشرفاء المروانيين ، منهم الشاعر ، والكاتب ، والفارس ، والزاهد ، والمشتغل بتحصيل العلم والتأليف فى أصوله وفروعه ، فمن هؤلاء هذا الشريف المروانى الذى يروى المراكشى مدحه لعبدالمؤمن .

ويسمى المقرى هذا الشاعر : الأصم المروانى ، ويقول انه أنشد هذه القصيدة فى مدح عبد المؤمن يعارض بها بائية أبى تمام .

* السيف أصدق أنباءً من الكتب *

وسيورد المراكشى فيما بعد ، حديثا عن الشريف المروانى الطليق جد الشاعر ، معللا

مالِلعَدا جُنَّةٌ أَوقَى من الهربِ ... ...

فقال عبد المؤمن رافعاً صوته : إلى أين ... إلى أين ؟ فقال الشاعر :

... ... أين المفرُّ وخيلُ الله فى الطلب !

وأين يذهب من فى رأس شاهقة وقد رَمَتْه سماءُ الله بالشهُبِ (1)

حدِّثْ عن الروم فى أقطار أندلس والبحرُ قد مَلأَ العِبْرين بالعرب

فلما أتم القصيدة قال عبد المؤمن : بمثل هذا تُمدح الخلفاءُ !

فسمَّى نفسه خليفةً كما ترى ...

وجدٌّ هذا الشاعر هو الشريف الطليق ، طليقُ النَّعامة ؛ وإنما سُمِّى بذلك لأنه كان محبوساً فى مُطْبِق أَبى عامر محمد بن أَبى عامر الملقب بالمنصور القائم

تسميته بالطليق ، طليق النعامة . وقد أورد المقرى حديثا يشبهه عن الشريف مروان بن عبد الرحمن ابن عبد الملك بن الناصر الأموى ، ويسميه « الطليق » أيضا ، ثم يعلل هذه التسمية قائلا : « انه لما قتل أباه ــ وقد وجده مع جارية له كان يهواها ــ سجنه المنصور بن ابى عامر مدة ، إلى أن راى فى منامه النبى صلى الله عليه وسلم يأمره باطلاقه ؛ فاطلقه ، فمن اجل ذلك عرف بالطليق ... »

ولسنا ندرى أهذا الطليق الذى يسميه المقرى هو الطليق الذى يعنيه المراكشى . اختلف الرواة فى سبب تسميته بالطليق ، أم هو طليق مروانى آخر من طلقاء المنصور بن ابى عامر ؟.

ثم أعجب لتصرف القدر ، فان المنصور بن أبى عامر الذى يستعبد ويعتق ، ويسجن ويطلق ، ويتصرف فى حريات بنى مروان ومعايشهم ــ لم يكن فى أوليته الا عاملا من عمالهم وصنيعة من صنائعهم ، والملك لله يورثه من يشاء من عباده !

وانظر خبر ابن عطاف اليفرنى مع شريف مروانى آخر ، هامش رقم ٢ ص ١٠٢ ــ ١٠٣ .

(1) أورد المقرى من هذه القصيدة قوله :

وطوْدُ طارقَ قدحَلَّ الإمامُ به كالطُّورِ كان لموسى أَيمنَ الرتب

لو يعرف الطَّودُ ما غشَّاه من كرمٍ لم يبسط النور فيه الكفَّ للسحب

ولو تيقَّنَ بأْساً حلَّ ذِرْوَتَه لغار كالعَين من خوفٍ ومن رَهَبَ

منه يُعَاوَدُ هذا الفتحُ ثانيةً أَضعافَ ما حدَّثوا فى سالك الحقب

ويلبس الدين غضاً ثوب عزَّته كأَن أَيام «بدرٍ» عنه لم تِغبِ .

بدعوة هشام المؤيد ، أقام فى ذلك المحبس سنين ، فكتب يوماً قصة يذكر فيها ما آلت إليه حاله من ضيق الحبس وضنك العيش ، فرُفعت إلى ابن أبى عامر ؛ فأخذها فى جملة رِقاع ودخل إلى داره ، فجاءت نعامةٌ كانت هناك ، فجعل يُلقى إليها الرقاع ، فتبتلع شيئاً وتُلقى شيئاً ؛ فألقى إليها رقعة هذا الشريف فى جملة الرقاع وهو لم يقرأها ، فأخذتها ثم دارت وألقتها فى حِجره ، فرمى بها إليها ثانية ، فدارت القصرَ كلَّه ثم جاءت وألقتها فى حجره ، فرمى بها إليها ثالثة ... وفعلت ذلك مراراً ؛ فتعجب من ذلك ، وقرأ الرقعة ، وأمر بإطلاقه ؛ فسُمى بذلك طليقَ النعامة !

* * *

وأنشد فى ذلك اليوم رجلٌ من أهل إشبيلية يُعرف بابن سيِّد ، ويلقب باللص :

غَمِّض عن الشمس واستقصِر مَدَى زُحَلِ
وانظر إلى الجبل الراسى على جَبل
أنَّى اْستَقرَّ به ،أنَّى استقلَّ به أنَّى رأى شخصَه العالى فلم يَزُل

فقال له عبد المؤمن : لقد ثقَّلْتَنا يا رجُل ! فأمر به فأُجلس .

وهذه القصيدة من خيار ما مُدَح به ؛ لولا أنه كَدَّر صفوَها بهذه الفاتحة.

[الرصافى الرفاءُ الشاعر]

وأنشده فى ذلك اليوم الوزير الكاتب أبوعبدالله محمد بن غالب البَلَنسى المعروف بالرُّصافى ؛ كان مستوطنا مدينة مالقة [1]

[1] منسوب الى رصافة بلنسية ، وكان شاعر عصره ، اقتصر على التعيش من صناعة احترفها

لو جئتَ نارَ الهدَى من جانبِ الطُّورِ ... قَبَست ما شئتَ من عِلم ومن نُور

من كلِّ زَهراءَ لم تَرْفعْ ذُؤابتَها ... ليلاً لِسارٍ ولم تُشبَبْ لمَقرُور

فَيضيَّة القدْح من نور النُّبوةِ أَو ... نورِ الهداية تجلو ظُلمةَ الزُّور

مازال يُقضِمُها التقوى بموْقِدِها ... صَوَّامُ هاجرةٍ قوّامُ دَيْجُورِ

حتى أضاءت من الإيمان عن قَبَسٍ ... قد كان تحت رَمادِ الكفر مكفورِ

نورٌ طَوَى اللهُ زَنْدَ الكونِ منه على ... سقْطٍ إلى زمنِ المهدىِّ مذخورِ

وآيةٌ كأَياتِ الشمس بين يدىْ ... غَزْوٍ على الملكِ القَيْسىِّ منذور

يادارُ دارَ أَميرِ المؤْمنين بسفح الطَّودِ طودِ الهُدى ، بُورِكتِ فى الدُّور

ذات العِماديْن من عِزٍ ومملكةٍ ... على الأَساسين من قُدس وتطهير

ما كان بانيك بالوانى الكرامة عن ... قَصرٍ على مجمع البحرين مقصورِ

مواطىءُ من نبىٍّ طالما وُصِلَتْ ... فيها الْخُطَا بين تسبيحٍ وتكبير

حيث استقلَّتْ به نَعلاه بُورِكتَا ... فطيِّبتْ كلَّ موطوءٍ ومعبور

وحيث قامت قناةُ الدين ترفُلُ فى ... لواءِ نصر على البَرَّين منشور

فى كفٍّ منشمِرِ البُردَينِ ذى وَرَعٍ ... على التُّقَى وصفاءِ النفس مفطور

وهى رفاء الثياب ، ترفعا عن التكسب بشعره ، فأمداحه لذلك قليلة ، وكانوا يسمونه « ابن رومى الأندلس » توفى سنة ٥٧٢ بمالقة .

ومن شعره فى الترفع عن امتداح الملوك :

على أننى لا أرتضى الشعرَ خطةً ... ولو صيَّرتْ خُضْرًا مسارحىَ الغَبْرا

يقول أُناس : لو رفعتَ قصيدةً ... لأَدركتَ حتما فى الزمان بها أمرا !

ومن دون هذا غَيرةٌ جاهليةٌ ... وإن هى لم تلزم فقد تلزم الحُرّا

أَلم يأْتهم أَنى وأَدتُ بحُكمها ... بُنَيَّاتِ صدرى قبل أن تبرح الصدرا

يلقاكَ فى حالِ غيبٍ من سريرته ... بعالَم القُدس مشهودٍ ومحضور

تَسنَّمَ الفُلْكَ من سخط المرار وقد ... نُودينَ يا خيرَ أفلاك العلا سيرى

فسرْنَ يحملْنَ أمرَ الله من ملِكٍ ... بالله مستنصرٍ فى الله منصور

يُومِى له بسُجودٍ كلُّ تَحركة ... منها ، ويُوليه حمدًا كلُّ تصويرِ

لما تسابَقن فى بَحْرِ الزُّقاقِ به ... تركْنَ شَطَّيْه فى شكٍ وتحيير

أهَزَّ مِن مَوجه أثناءَ مسرور ؟ ... أم خاضَ من لُجِّه أحشاءَ مذعور ؟

كأنه سالكٌ منه على وَشَلٍ ... فى الأَرض من مُهج الأَسياف مقطور

من السُّيوفِ التى ذابت لسطوته ... وقد رَمَى نارَ هَيْجاها بتسعير

ذو المُنشآتِ الجوارى فى أجِرَّتها ... شكْلُ الغدائرِ فى سَدْلٍ وتضفير

أعْدَى المياهَ وأنفاسَ الرياحِ لها ... ما فى سجاياه من لِينٍ وتعطير

من كلِّ عذراءَ حُبْلَى فى ترائبها ... رَدْعانِ من عَنْبَرٍ ورْدٍ وكافور

نجالُها بين أيدٍ من مَجَاذفها ... يغرَقْنَ فى مثل ماءِ الوردِ مِن جُورِ

وربما خاضت التَّيَّارَ طائرةً ... بمثلِ أجنحةِ الفُتْخِ الكواسير

كأنَّما عبَرَتْ تختالُ عائمةً ... فى زاخرٍ من يَدَىْ يُمْناهُ معْصور

حتى رَمَتْ جبل الفتْحيْنِ مِن كثَبٍ ... بساطعٍ من سَناه غيرِ مبهور

لله ما جَبَلُ الفتحين من جبلٍ ... معظَّمِ القدْرِ فى الأَجيالِ مذكور

من شامخِ الأَنف فى سَحْنائه طَلَسٌ ... له من الغَيْم جَيْبٌ غيرُ مَزْرور

مُعَبِّرًا بذُراه عن ذُرَى ملِكٍ ... مستمْطَر الكفِّ والأَكناف ممطور

تُمسِى النُّجوم على إكليل مَفرِقهِ ... فى الجوِّ حائمةً مثلَ الدنانير

وربما مَسَحَته من ذَوائبها ... بكلِّ فَضل على فَوْدَيه مجرور

وأَدْرَدٍ من ثَنَايَاهُ بما أَخَذَتْ	منه مَقَاحِمُ أَعوَادِ الدُّهَارِيرِ
مُحَنَّكٍ حَلَبَ الأَيامَ أَشْطُرَهَا	وساقها سَوْقَ حادِى العير للعير
مُقَيَّدِ الخَطْوِ جَوَّالِ الخَواطِرِ فى	عجيبِ أَمْرَيْهِ من ماضٍ ومنظور
قد واصل الصَّمتَ والإِطراقَ مُفْتَكِرًا	بادى السَّكِينةِ مُغْبَرَّ الأَسارير
كأَنه مُكْمَدٌ مما تَعَبَّدَهُ	خَوْفُ الوعيدَين من دَكٍّ وتسييرِ
أَخْلِقْ به وجبالُ الأَرضِ راجفةٌ	أن يطمئنَّ غدًا من كلِّ محذور
كفَاه فضلاً أنِ انتابتْ مَوَاطِئَهُ	نَعْلاَ مليكٍ كريمِ السَّعْىِ مشكور
مُسْتَنْشِياً بهمَا ريحَ الشفاعةِ مِن	ثَرَى إمامٍ بأَقصى الغربِ مَقْبُور
ما انفَكَّ آملَ أمرٍ منه بين يَدَىْ	يَوْمِ القيامة محتومٍ ومَقدور
حتى تصَدَّى من الدُّنيا على رَمَقٍ	يَسْتَنْجِزُ الوعدقبل النَّفخِ فى الصور
مُسْتقبِلَ الجانبَ الغربىَّ مرتَقِباً	كأَنه باهتٌ فى جو اسمير(1)
لبارقٍ من حُسامٍ سَلَّهُ قَدَرٌ	بالغَرْبِ من أُفُقِ البيضِ المشاهير
إذا تألَّقَ قيسيًّا أَهَابَ بِهِ	إلى شَفًى من مُضاعِ الدِّين موتورِ
مَلْكٌ أَتى عِظَماً فوق الزمان فما	يمر فيه بشىءٍ غير محقور
ماعَنَّ فى الدين والدُّنيا له أَرَبٌ	إلا تأَتَّى له من غيرِ تعذيرِ
ولا رَمَى مِن أَمانيه إلى غَرَضٍ	إلاَّ هَدَى سَهمَه نُجْحُ المقادير
حتى كأَن لهُ فى كل آوِنةٍ	سُلطانُ رِقٍّ على الدنيا وتسخير

---

(1) كذا بالأصل ، ولم نتبين وجهه ، أو صوابه .

مُمَيَّزُ الجيش ، مُلْتفا مواكبه ... مِن كلِّ مثلولِ عرشِ الملكِ مقهور

من الأُولى خَضَعُوا قسْرًا له وعنَوا ... لأَمرِه بين مَنْهىٍّ ومأْمور

من بعْد ما عاندُوا أمرا فما تركوا ... إذ أَمكنَ العفْوُ ميسورًا لمعسور

بقِيَّةُ الحرْبِ ، فاتوها وما بهمُ ... فى الضَّربِ والطعنِ سيماءٌ لتقصير

لا ينكر القوم مما فى أكفِّهِمُ ... بيضٌ مفاليلُ أو سُمْرٌ مكاسير

إذا صَدَعْتَ بأَمر الله مجتهدًا ... ضربتَ وحدَك أَعناقَ الجماهير

لايذْهبنَّ لتقليلٍ أخو سببٍ ... من الأُمورِ ، ولا يرْكنْ لتكثير

فالبحرُ قد عادَ من ضرْبِ العصَا يبَسًا ... والأَرض قد غرِقَت من فوْرِ تنُّور

وإنما هو سيفُ الله قلَّدَهُ ... أقوَى الهُداةِ يدًا فى دفع محذور

فإن يكنْ بيدِ المهدىِّ قائمُهُ ... فموضِعُ الحدِّ منه حدُّ مَشهورِ

والشمسُ إن ذكرَتْ موسى فما نسيتْ ... فتاهُ يوشَعَ قمَّاع الجبابير

وكان الرُّصافى يوم أنشد هذه القصيدة لم تكمل له عشرون سنة[1] ؛ وهو من مُجيدى شعراء عصره ، لاسيما فى المقاطيع ؛ كالخمسة الأَبيات فما دونها ؛ وقد رويتُ شعره عن جماعةٍ ممن لقيه ، وقد رأَيتُ أن أُورد منه هاهنا نبذة يسيرة تدلّ على ما وصفناه به ، فمن ذلك قوله يصف نهر إشبيلية الأَعظم ، وهو نهر لا نظير له فى الدنيا[2] :

(١) قلنا : وهذه القصيدة ء لما فى بعض أبياتها من ركاكة وسخف ولحن ، تدل على شاعرية مبكرة ، وخاصة الأبيات التى يصف فيها الجبل، جبل طارق ، فى وقفته ، وصمته ، وشموخ انفه .

(٢) هو نهر الوادى الكبير ، وانظر التعليق ص ١٧٢ .

ومُهدَّلِ الشَّطينِ تحسَبُ أنهُ مُتسايلٌ من دُرَّةٍ لصفائه

فاءتْ عليه مع الهجيرةِ سَرْحَةٌ صَدِئتْ لَفَيْئتِها صفيحةُ مائه

فتراه أزرقَ فى غُلالة سُمْرَة كالدَّارع استلقى بظلٍّ لوائه

وله وقد اجتمع مع إخوان له فى بعض العَشَايا فى بستان رجلٍ يقال له موسى بن رزق :

ما مِثْلُ مَوْضِعِك ابنَ رِزْقٍ موْضِعُ

رَوْضٌ يَرِقُّ وجدْوَلٌ يتدَفَّعُ

فكأنما هو من محاجِرِ غادة فالحُسْنُ يَنبُتُ فى ثرَاه وينبُعُ

وعشيَّةٍ لبستْ رداءَ شُحوبها والجوُّ بالغيم الدقيقِ مُقَنَّعُ

بلَغَتْ بنا أمدَ السُّرورِ تألُّفاً والليلُ نحو فراقنا يتطلَّعُ

فابلُل بها رمقَ الغَبُوقِ فقد أتى من دُونِ قُرْصِ الشمس ما يُتوقعُ

سَقطتْ فلم يملكْ نديمُك ردَّها فودِدْتُ يا موسى لو انك يُوشَعُ

وله يصف عشية أيضاً فى موضع هذا الرجل المتقدم الذكر :

مَحَلَّ ابنِ رزقٍ جَرَّ فيه ذُيولَه من المُزْنِ ساقٍ يُحسنُ الجرَّ والسُّقْيا

ذكرتُ عَشيًّا فيك لاذُمَّ عهدُهُ وإن نحن لم نمتع ببهجتِه لُقْيا

ولم يَعتلقْ بى منكَ عند افتراقنا سِوى عبَقٍ من مسك قَيْنتكَ اللَّمْيا

وكنتُ أرانى فى الكَرى وكأنّنى أُناوَلُ كالدِّينار من ذَهَب الدُّنيا

فلما انطوى ذاك الأَصيلُ وحُسنُه على ساعةٍ من أنسنا صَحَّتِ الرُّؤيا

وله يصف دولاباً :

وذِى حَنِينٍ يكاد شوْقاً   يَخْتلِسُ الأَنفسَ اختلاساً
لما غدَا للرياض جارًا   قال له المَحْلُ لا مِسَاساً
يبتسم الرَّوضُ حين يبكى   بـأَدمُعٍ ما رأَين باسا
من كل جفن يَسُلُّ سيفاً   صار له غمده رئاسا

وله وقد رأى صبياً يتباكى ويجعل من ريقه على عينيه ، يحكى بذلك الدموع :

عذيرىَ مِن جذلانَ يُبدى كآبةً   وأَضلُعُه مما يُحاوِلُه صِفْرُ
أُمَيْلِدُ مَيَّاسٌ إذا قاده الصِّبا   إلى مُلَح الإدلالِ أَيَّدَهُ السِّحرُ
يبُلُّ مآقى زَهْرَتَيه بريقه
ويَحكى البُكا عَمدًا كما ابتسم الزَّهرُ
ويُوهِمُ أَن الدمعَ بلَّ جُفونه
وهل عُصرتْ يوماً من النرجس الخمرُ ؟

وقال يصف نائماً قد تحبب العرق على خده :

ومُهفهَفٍ كالغُصن إلا أَنهُ   سلب التثنِّى النوم عن أثنائه
أَضْحَى ينامُ وقد تحبَّبَ خدُّه   عرقاً فقلت الوردُ رُشَّ بمائه

وللرصافى هذا افتنان فى الآداب ؛ وكان رحمه الله عفيف الطُّعْمة نزيهَ النفس ، لا يحب أن يشتهر بالشعر مع إجادته فى كثير منه .

[وصل الحديث عن عبد المؤمن بن على]

وأقام عبد المؤمن بجبل الفتح مرتِّباً للأمور ممهِّدًا للمملكة ؛ وأعيانُ البلاد يَفِدُون عليه فى كل يوم ، إلى أن تم له ما أراد من إصلاح ما استولى عليه من جزيرة الأندلس .

فولَّى مدينة إشبيلية وأعمالها ابنَه يوسف ، وهو الذى وَلِيَ الأمور بعده على ما سيأتى بيانه ؛ وترك معه بها أشياخ الموحِّدين وذوى الرأى والتحصيل منهم مَن يرجع إليه فى أموره ، ويعوِّل عليه فيما ينويه .

وولى قرطبةَ وأعمالها أبا حفص عمر إينْتى .

وولى أغرناطة وأعمالها ابنه عثمان بن عبد المؤمن ، يكنى أبا سعيد ، وكان من نبهاء أولاده ونجبائهم وذوى الصرامة منهم ؛ وكان محباً فى الآداب ، مؤثراً لأهلها ، يهتز للشعر ويُثيب عليه ، اجتمع له من وجوه الشعراء وأعيان الكتاب عصابةٌ ما علمتها اجتمعت لملك منهم بعده .

ثم كرّ عبد المؤمن راجعاً إلى مرّاكش ، بعد ما ملأ ما مَلَكَهُ من أقطار جزيرة الأندلس خيلا ورجالا من المصامدة والعرب وغيرهِم من أصناف الجند .

[منازل العرب الهلالية فى المغرب والأندلس]

وقد كان حين أراد العبور إلى جزيرة الأندلس ، استنفر أهل المغرب عامة ؛ فكان فيمن استنفره العربُ الذين كانوا ببلاد يحيى بن العزيز [1]

---

(1) يعنى مملكة بنى حماد بافريقية ، وانظر التعليق رقم ٢ ص ٢٧٢ — ٢٧٥ .

وهم قبائلُ من هلال بن عامر ، خرجوا إلى البلاد حين خلّى بنو عبيد[1] بينهم وبين الطريق إلى المغرب ؛ فعاثوا فى القيروان عيثاً شديداً أوجب خرابها إلى اليوم ؛ ودوخوا مملكة بنى زيرى بن مناد[2] ، وهذا بعد موت المعز بن باديس ؛ فانتقل تميم إلى المهدية [3] ، وسار هؤلاء العرب حتى نزلوا على المنصور بن المنتصر ؛ فصالحهم على أن يجعل لهم نصف غلّة البلاد ، من تَمْرها وبُرِّها وغير ذلك ؛ فأقاموا على ذلك باقىَ أيامه ، وأيامَ ابنه الملقب بالعزيز ، وأيامَ يحيى ؛ إلى أن ملك البلاد أبو محمد عبد المؤمن رحمه الله ، فأزال ذلك من أيديهم ، وصيّرهم جندًا له ، وأقطع روساءهم بعض تلك البلاد .[4]

فكتب إليهم رسالة يستنفرهم إلى الغزو بجزيرة الأندلس ، وأمر أن تُكتب فى آخرها أبياتٌ قالها — رحمه الله — فى ذلك المعنى ، وهى :

أقيمُوا إلى العلياءِ هُوجَ الرَّواحِلِ ... وقُودُوا إلى الهَيْجَاءِ جُرْدَ الصوَاهل

وقُوموا لنصرِ الدِّينِ قوْمَةَ ثائرٍ ... وشُدُّوا على الأعداءِ شَدَّةَ صائل

فما العِزُّ إلا ظهرُ أجْرَدَ سابحٍ ... يفوتُ الصَّبا فى شَدِّهِ المتواصل

---

(١) يعنى الفاطميين .

(٢) بنو حماد أصحاب بجاية ، وبنو باديس أصحاب القيروان والمهدية : ينتسبون جميعا الى زيرى ابن مناد الصنهاجى الحميرى ، وقد فصلنا حديثهم فى التعليق رقم ٢ ص ٢٧٢ — ٢٧٥

(٣) يعنى تميم بن المعز بن باديس ، وقد أزعجه هؤلاء العرب عن مقر ملكه حتى اضطر الى النزوح من القيروان — حاضرة ملكه — الى المهدية .

(٤) استمر هؤلاء العرب من بنى هلال بن عامر مصدر قلق فى شمال افريقية أكثر من قرن ، ولهم وقائع مذكورة تطفح بها كتب التاريخ ، ومن وقائعهم هذه استمد القصاص الشعبى الهامه فى « سيرة أبى زيد الهلالى سلامة » التى ما تزال تلاوتها حتى اليوم مادة من مواد السمر المحبوب فى المجامع الشعبية . وانظر التعليق رقم ٢ ص ٢٧٢ — ٢٧٥ .

وأبيضَ مأثورٍ كأنَّ فِرِنْدهُ — على الماء منسوجٌ وليس بسائِلِ

بنى العمِّ من عُلْيا هلالِ بن عامرٍ — وماجَمَعَتْ من باسلٍ وابنِ باسلٍ

تعالوْا فقد شُدَّتْ إلى الغزْوِ نيَّةٌ — عواقبُها منصورة بالأَوائل

هى الغَزْوةُ الغرَّاءُ والموْعد الذى — تَنَجَّزَ مِنْ بعْدِ المدَى المتَطاوِلِ

بها تُفتحُ الدُّنيا ، بها تُبلَغُ المُنَى — بها يُنصفُ التحقيقُ من كلِّ باطل

أهبْنا بِكم للخيرِ والله حسْبنا — وحَسْبُكمو والله أعدلُ عادل

فما همُّنا إلا صلاحُ جميعِكم — وتسريحُكم فى ظلِّ أخضرَ هاطِلِ

وتسويغُكم نُعمَى ترِفُّ ظِلالُها — عليكُم بخيرٍ عاجلٍ غير آجل

فلا تتوانوْا فالبِدَارُ غنيمة — ولِلْمُدْلِجِ السارى صفاءُ المناهل

فاستجاب له منهم جمع ضخم . فلما أراد الانفصال عن الجزيرة رتَّبهم فيها ؛ فجعل بعضهم فى نواحى قُرطبة ، وبعضهم فى نواحى إشبيلية ممايلى مدينة شَريش وأعمالها ؛ فهم بها باقون إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة ٦٢١ ـ وقد انتشر من نَسْلِهم بتلك المواضع خلقٌ كثير ؛ وزاد فيهم أبو يعقوب وأبويوسف حتى كثرواهنالك ؛ فبالجزيرة اليومَ من العرب من زُغبة ورياح وجُشم ابن بكر وغيرِهم نحوٌ من خمسة آلاف فارس سوى الرَّجَّالة [1] .

* * *

وكان عبورُ عبد المؤمن ـ رحمه الله ـ إلى الجزيرة ونزوله بجبل الفتح

(١) قلت : وبعض الأسبان اليوم من بنى هلال بن عامر ، يتصل نسبهم بأبى زيد الهلالى !

فى سنة ٥٣٨ ، ثم كرّ – كما ذكرنا – راجعاً إلى مراكش ؛ فأخبرنى غير واحد ممن أرضى نقْله ، أنه لما نزل مدينة سَلاَ – وهى مدينة على البحر الأعظم المحيط ، ينصبُّ إليها نهر عظيم[1] يصب فى البحر المذكور – عبر النهر . وضربت له خيمةٌ على الشاطىء . وجعلت العساكر تعبر قبيلةً بعد قبيلة ؛ فلما نظر إلى كثرة العدد وانتشار العالم خرَّ ساجدًا ، ثم رفع رأسه وقد بلَّ الدمع لحيته ؛ والتفت إلىمَن عنده وقال : «أعرف ثلاثة أشخاص وردوا هذه المدينة لاشىء لهم إلا رغيف واحد ، فراموا عُبور هذا النهر ، فأتوا صاحب القارب وبذَلوا له الرغيف على أن يعبروا ثلاثتهم فقال : لا آخذه إلا على اثنين خاصة ؛ فقال لهم أحدهم – وكان شاباً جلدًا – : خذا ثيابى معكما وأعبر أنا سباحةً ! فأخذا ثيابه معهما ،وصَعدَا فى القارب ؛ فجعل الشابُّ يسبح ، فكلما أعيا دنا من القارب ووضع يديه عليه ليستريح . فضَربه صاحبه بالمجداف الذى معه حتى يؤْلمه ؛ فما بلغ البرَّ إلا بعد جهد شديد ! » .

فما شك السامعون للحكاية أنه العابر سباحةً ، وأن الاثنين المذكورين هما ابن تومرت وعبد الواحد الشرقى .

ثم سار حتى أتى مراكش . فنزلها ، وأخذ فى البناء والغراسة وترتيب القصور ، غير مُخِلٍّ بشىء مما تحتاج إليه المملكة من السياسة وتدبير الأُمور وبسط العدل والتَّحَبُّب إلى الرعية وإخافة من تجب إخافتُه .

---

(1) هو نهر أبى الرقراق الذى يفصل بين سلا ومدينة الرباط ، فهى منها اليوم كالضاحية.

وأخبرنى السيد حقيقة والماجد خلقاً وخليقة ، أبو زكريا يحيى ابن الإمام أمير المؤمنين أبى يعقوب ابن الإمام أمير المؤمنين أبى محمد عبد المؤمن ابن على : أنه رأى على ظهر كتاب الحماسة بخط الخليفة عبد المؤمن هذين البيتين ، وقال لى رحمه الله : لا أدرى هُما له أو لغيره[1] :

وحَكِّم السَّيْفَ لا تعبأْ بعاقبة وخَلِّها سِيرةً تَبْقَى على الحِقَبِ
فما تُنالُ بغير السيف منزلةٌ ولا تُرَدُّ صُدورُ الخيلِ بالكُتُبِ

وقد كان عبد المؤمن حين فَصَل عن بجاية ووَلَّى عليها ابنه عبد الله — حسبما تقدم[2] — عَهِدَ إليه أن يشن الغارات على نواحى أفريقية ؛[3] وأن يُضيق على تونس ويمنع عنها المرافق التى تصل إليها على طريقة ؛ ففعل ذلك .

[غزو الموحدين لأفريقية]

ثم إن عبد الله تجهز فى جيش عظيم من المصامدة والعرب وغيرهم ، وسار حتى نزل على مدينة تونس . وهى حاضرة أفريقية بعد القيروان . وكرسى مملكتها ، ومَقَرُّ تدبيرها ، وإياها يستوطن والى أفريقية ، لم يزل هذا

(1) نحسبهما من شعر الأصم المروانى ، من قصيدته التى أولها :

* ما للعِدا جُنَّةٌ أوقى من الهرب *

انظر ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .

(2) انظر ص ٢٧٥ .

(3) كان ذلك بعد انتشار عقد دولة بنى باديس ، وفرار آخر ملوكها أبى يحيى الحسن بن على انظر التعليق ٢ ص ٢٧٢ — ٢٧٥ .

معروفاً من أمرها إلى وقتنا هذا — وهو سنة ٦٢١ — فحاصرها عبد الله المذكور ، وأخذ فى قطع أشجارها وتغوير مياهها ؛ وكان الذى يملكها فى ذلك الوقت لوجار بن لوجار المعروف بابن الدوقة الرومىّ صاحب صقليّة ، لعنه الله ! وكان عاملَه عليها رجلٌ من المسلمين اسمه عبد الله ؛ يعرف بابن خراسان [1] ؛ لم يزل عاملا عليها حتى أخرجه الموحدون فى التاريخ الذى سيذكر ؛ فلما طال على ابن خراسان الحصار ، أجمع رأيه ورأى أهل البلد من الجند على الخروج لقتال المصامدة ؛ ففعلوا ذلك ، وخرجوا بخيل ضخمة ؛ فالتقوا هم وأصحابُ عبدالله [2] ؛ فانهزم أصحاب عبد الله ، وقُتل منهم خلق كثير ؛ ورجع عبدالله ببقية أصحابه إلى بجاية ؛ فكتب إلى أبيه يخبره بذلك .

[فتح المهدية واسترجاعها من يدالصقليين]

فلما كان فى آخر سنة ٥٥٣ أخذ عبد المؤمن فى الحركة إلى أفريقية ؛ فجمع جموعاً عظيمة من المصامدة وغيرهم من جُند المغرب ؛ وسار حتى نزل على مدينة تونس ، فافتتحها عَنْوة : وفَصَل عنها إلى مهديّةِ بنى عُبيد [3] وفيها الروم أصحابُ ابن الدوقة ، وفيها معهم يحيى [4] بن حسن بن تميم

(١) فى ابن الأثير : أحمد بن خراسان .

(٢) يعنى عبد الله بن عبد المؤمن .

(٣) تسمى مهدية بنى عبيد ، لان بانيها هو المتسمى بالمهدى راس دولة العبيديين « القاطميين » ، وكانت حاضرتهم قبل أن ينتقلوا الى القاهرة .
الى القاهرة .

(٤) ذكرنا فى التعليق ص ٢٧٤ ان ابا يحيى حسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز ، آخر

بن المعز بن باديس بن المنصور بن بُلُجِّين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، ملوك القَيروان .

فنزل عبد المؤمن عليها فحاصرها أشد الحصار ، وهى من معاقل المغرب المنيعة ؛ لأن بنيانها فى غاية الإحكام والوَثَاقة ؛ بلغنى أن عَرْض حائط سورها مَمْشَى ستة أفراس فى صفٍّ واحد ، ولا طريق لها من البر إلا على باب واحد ، والبحر فى قبضة مَن فى البلد : يدخُل الشينى كما هو بمقاتلته إلى داخل دار الصناعة[1] ، لايقدر أحدٌ ممن فى البر على منعه ؛ فبهذا قَدر الرومُ على الصبر على الحصار ؛ لأن النجدة كانت تأْتيهم من صِقلِّية فى كل وقت .

وأقام عبد المؤمن وأصحابه عليها سبعة أشهر إلا اياماً ؛ وأصابتهم

ملوك بنى باديس ، لجأ الى ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب بجاية ، بعد انتهاء ملكه واستيلاء صاحب صقلية على المهدية ، فالآن نذكر ان ابا يحيى هذا فى أثناء مسيره الى ابن عمه ببجاية ، لقيه بالطريق امير من العرب اسمه حسن بن ثعلب ، فطلب أبا يحيى بمال كان له عنده ، فدفع اليه ابو يحيى ولده يحيى رهينة ، ثم سار فى طريقه ... فهل هو يحيى بن حسن الذى يعنيه المراكشى هنا ويقول انه كان بالمهدية مع الروم حين قصد اليها عبد المؤمن غازيا ؟ نعنى : هل دفعه حسن بن ثعلب أمير العرب الى خصوم ابيه فى المهدية فظل بها معهم حتى جاء عبد المؤمن لاستردادها من يد النصارى بعد اثنى عشر عاما من احتلالهم اياها ؟

ان صح هذا فهو اذن : يحيى بن حسن (بن على) بن تميم بن المعز ... ... ابن بلكين. ويلاحظ ان المراكشى يسميه ابن بلجين ، بالجيم لا بالكاف ، وانما هى الجاف الفارسية ، تكتب احيانا كافا واحيانا جيما .

ثم نقول : ان ابا يحيى حسن بن على آخر ملوك افريقية ، كان فى جيش عبد المؤمن هذا الذى سار لحصار المهدية واستردادها من يد الروم الصقليين ، فلما من الله عليهم بالفتح ، ظل ابو يحيى فى المهديه ، واقطعه بها عبد المؤمن رزقا جزيلا ، وامر نائبه عليها ان يتخذ أبا يحيى معينا ومشيرا ...

(1) هى التى نسميها الآن « الترسانة » بعد ان نقلها الفرنجة الى لغتهم ثم عادت الينا وعلى راسها قبعة !

عليها شدةٌ شديدةٌ من غلاء السعر ؛ بلغنى عن غير واحد أنهم اشتروا الباقِلاَّء فى العسكر ، سبع باقلات بدرهم مُؤْمِنى ، وهو نصف درهم النِّصاب ؛ ثم افتتحها عبد المؤمن — رحمه الله — بعد أن أمَّن النصارى الذين بها على أنفسهم على أن يخرجوا له عن البلد ويلحقوا بصقليةَ بلدهِم حيث مملكةُ صاحبِهم ؛ ففعلوا ذلك .

ودخل عبد المؤمن وأصحابُه المهديةَ فملكوها ؛ وبعث إلى قابس من افتتحها ، وفيها الروم ايضاً .

[امتداد مملكة الموحدين إلى الشرق]

ثم افتتح طرابلس المغرب ، وأرسل إلى بلاد الجريد ، وهى توْزر ، وقَفْصة ، ونفطة ، والحامّة ، وما والى هذه البلاد ؛ فافتُتِحت كلُّها ، وأخرج الإفرنج منها وألحقهم ببلادهم كما تقدم ؛ فمحا الله به الكفر من أفريقية ، وقطع عنها طمع العدو ؛ فانتبه بها الدينُ بعد خموله ، وأضاء كوكب الإيمان بعد انطماسه وأُفوله .

وتم لعبد المؤمن — رحمه الله — ملك أفريقية كلها منتظماً إلى مملكة المغرب فملك فى حياته من طرابلس المغرب إلى سوس الأقصى من بلاد المصامدة ، وأكثرَ جزيرةَ الأندلس ؛ وهذه مملكة لم أعلمها انتظمت لأحد قبله منذ اختلت دولةُ بنى أمية إلى وقته .

[ألوان من شكر النعمة]

ثم كرَّ عبدُ المؤمن راجعاً من أفريقية ، بعد ما استولى على بلادها ودان له أهلها ؛ فأخبرنى بعض أشياخ الموحدين من ذوى التحصيل منهم والثقة أن عبد المؤمن مرَّ فى طريقه راجعاً من أفريقية ببجاية ؛ فدخل البلد متنزهاً فيه ، فمرَّ بسوَيْقة بناحية باب من أبوابها يدعى باب تاطُنت ؛ فوقف ووقفتْ معه وجوهُ دولته ؛ فسأل عن بيَّاع بها سمَّاه باسمه ؛ فأخبره أهلُ السُّويقة بوفاته ، فقال : هل خلَّف عَقِباً ؟ فقالوا : نعم ؛ فأمر بشراء جميع الدكاكين التى بتلك السويقة وأوقفها عليهم ، وأمر لهم بمال كثير ؛ ثم التفت إلى بعض خواصّه وقال له : أتيتُ إلى هذا البيَّاع ولى وللإمام – يعنى ابن تومرت – ولجماعة من أصحابنا من الطلبة أيامٌ لم نَطعَم فيها ، وما معى إلا السكين الدَّواة ؛ فأخذتُ منه خُبزًا وإداماً ، ثم وضعت عنده السكن رهناً على ذلك ، فأبى قبولها وقال لى : إنى توسمتُ فيك الخير ؛ فمتى أعوزَكَ شىءٌ فهلمَّ الدكان فهو بين يديك وبحكمك ! فحقُّه علىَّ أكثرُ من هذا .

* * *

ونظر فى هذا اليوم الذى ركب فيه مخترقاً بجاية إلى يحيى بن العزيز[1] يمشى بين يديه راجلا وقد علاه الغبار ؛ فدمعت عيناه ، واستدعاه فقال له : أتذكر يوماً خرجتَ إلى بعض منتزهاتك ، فأذكر أنى جمعنى وإياك هذا

---

(1) صاحب عرش بجاية قبل عبد المؤمن ، وكان يصحبه فى أثناء مسيره الى بجاية ، كما كان حسن بن على صاحب عرش المهدية الأول يصحبه فى مسيره الى المهدية !

الباب ، فوطئتْ دابتُك عَقِبي ، فلما نظرتُ إليك أمرتَ بعض عبيدك فوكزنى وكزةً كدت أقع منها لِفِيَّ ! فاستحيا يحيى وتغيَّر لونُه وأطرق ، وجعل يقول : اللهَ اللهَ يا مولاى ! وظَنَّ أنه الشر ؛ فلما رأى ذلك منه قال له : إنما ذكرتُ لك ذلك على طريق الاعتبار : ولتَذكُر وتنظر كيف تَقَلُّبُ الأيام بأهلها ! وأمر له بما زال به روْعُه .

* * *

ومرَّ فى طريقه هذا ما بين البطحاء وتلمسان بموضع قد التفَّ فيه الدوْح ، فجاءت منه دَوْحةٌ عظيمة فى وسطها رحْبة نقية ؛ فأمر أن يُضرب خباؤُه هنالك ؛ وهو غيرُ منزل معروف ، فلما نزل ونزلت العساكر واستقر بهم النزول ، قال لبعض خواصه : أتدرون لِمَ آثرتُ النزول بهذا المكان ؟قالوا : لا ؛ قال : ذلك لأنى بِتُّ بهذا الموضع فى بعض الليالى جائعاً مقرورًا ،وكانت ليلةً ممطورة ؛ فما زال هذا الدوح وقائى حتى أصبحت ؛ فأردت النزول هناعلى هذه الحالة لأشكر الله سبحانه على الفرقِ ما بين المنزلتين والفصلِ ما بين المبيتين ! ثم قام فتوضأ وصلى ركعتين شكرًا لله عز وجل .

وجدتُ هذه الحكاية بخط رجل من ولدِ ولدِ عبد المؤمن اسمه موسى بن يوسف بن عبد المؤمن .

* * *

وبدا لهُ فى هذا الوجه أن يمر على القرية التى تُسَمَّى تاجرا — وبها كان

مولده كما تقدم [1] - لزيارة قبر أمه وصلة مَنْ هُناك من ذوى رحمه ؛ فلما أطلَّ عليها والجيوشُ قد انتشرت بين يديه وقد خفقَتْ على رأسه أكثرُ من ثلاثمئة راية ما بين بنود وألوية ، وهُزَّتْ أكثرُ من مئتى طبل - وطبولهم فى نهاية الكبر وغاية الضخامة يخيل لسامعها إذا ضربت أن الأرض من تحته تهتزُّ ويُحِسُّ قلبه يكاد يتصدع من شدة دويِّها - فخرج أهل القرية للقائه والتسليم عليه بالخلافة ؛ فقالت امرأةٌ عجوزٌ من عجائز القرية ، ممن كانت تصحب أمَّه : هكذا يعود الغريب إلى بلده ! تقول ذلك رافعةً صوتها ...

* * *

ونازع عبد المؤمن الأمر قومٌ من قرابة ابن تومرت يُعرفون بأيت ومَغار - معناه بالعربية : بنو ابن الشيخ - وانتهوا فى ذلك إلى أن أجمع رأيهم ورأى من وافقهم على سوء صنيعهم على أن يدخلوا على عبد المؤمن خباءه ليلا فيقتلوه ؛ وظنوا أن ذلك يخفَى من أمرهم ، وأن عبد المؤمن إذا فُقد ولم يُعلم من قتَله صار الأمر إليهم لأنهم أحق به ؛ إذ كانوا أهل الإمام وقرابته وأولى الناس به .

فأُعلم بما أرادوه من ذلك رجلٌ من أصحاب ابن تومرت ، من خيارهم ، اسمه اسماعيل بن يحيى الهزْرجى ؛ فأتى عبدَ المؤمن فقال له : يا أمير المؤمنين ، لى إليك حاجة ! قال : وما هى يا أبا إبراهيم فجميع حوائجك عندنا مقضية ! قال : أن تخرج عن هذا الخباء وتدَعَنى أبيتُ فيه ! ولم يُعلمه

(1) انظر ص ٢٦٥ .

بمراد القوم ؛ فظن عبد المؤمن أنه إنما يستوهبه الخباء لأنه أعجبه ، فخرج عنه وتركه له ؛ فبات فيه اسماعيل المذكور ؛ فدخل عليه أولئك القوم فتولوه بالحديد حتى برد .

فلما أصبحوا ورأوا أنهم لم يُصيبوا عبد المؤمن فرّوا بأنفسهم حتى أتوا مراكش وراموا القيام بها ؛ فأتوا البوابين الذين على القصور فطلبوا منهم المفاتيح ، فأبوا عليهم ؛ فضربوا عنقَ أحدهم وفرّ باقيهم ؛ وكادوا يغلبون على تلك القصور . . .

ثم إن الناس اجتمعوا عليهم ، من الجند وخاصة العبيد فقاتلوهم قتالا شديداً من لدُنْ طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ؛ ثم إن العبيد غلبوهم على أمرهم ؛ ولم يزل الناس يتكاثرون عليهم إلى أن أُخذوا قبضاً باليد ، فقُيِّدوا وجُعلوا فى السجن إلى أن وصل أبو محمد عبد المؤمن - رحمه الله - إلى مراكش ؛ فقتلهم صبراً ، وقتل معهم جماعةً من أعيان هرغة ، بلَغه أنهم قادحون فى مُلكه متربِّصون به .

ولما أصبح أبو إبراهيم إسماعيل المتقدم الذكر فى الخباء مقتولا على الحال التى ذكرنا ، أعظم ذلك عبدُ المؤمن ووجَد عليه وجداً مفرطاً أخرجه عن حد التماسك إلى حيز الجزع ، فأمر بغسله وتكفينه ، وصلى عليه بنفسه ، ودُفن .

ولم يترك إسماعيل هذا من الولد سوى ولد واحد ذكر ، اسمه يحيى .قال يحيى هذا فى أيام أبى [يوسف] يعقوب جاهاً متسعاً ورتبة عالية ، وكذلك فى أيام أبى عبد الله [محمد] ؛ كانت أكثر أمورهم ترجع إليه ؛ لم يزل

كذلك إلى أن مات فى شهور سنة ٦٠٢ وترك بنتاً واحدة تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن . اسمها فاطمة ، لاعقب له منها ؛ طال عمرها ، تركتها بالحياة حين فصلْتُ عن مراكش فى شهور سنة ٦١١[1] .

* * *

ولإسماعيل هذا مع ابن تومرت خبر يَقْرُبُ مما قدَّمنا فى النصح والتحذير تَلَطَّف فيه إسماعيل غاية التلطف ؛ وذلك أن ابن تومرت حين خرج من مراكش على الحال التى تقدمت من إخراج أمير المسلمين إياه عنها[2] ، سار حتى نزل الضَّيعة التى فيها أبو إبراهيم ؛ فدخل المسجد ، فاجتمع أهل الضيعة على باب المسجد ينظرون إلى ابن تومرت ويقول بعضهم لبعض همساً : هذا الذى نفاه أمير المسلمين عن بلاده لإفساده عقولَ الناس .ونحوَ هذا القول ؛ وهمُّوا بقتله تقرُّباً بذلك إلى أمير المسلمين ؛ فلما رأى ذلك أبو إبراهيم من أمرهم ، تقدم إلى ابن تومرت فسأله عن إعراب هذه الآية : « إن الملأ يأْتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين » ففهم ابن تومرت ما أراد ، وخرج عن تلك الضيعة ، وعَرَف لأَبى إبراهيم نصحه ؛ ثم لحق به أبو إبراهيم هذا بعد ما اشتهر أمره بتينملّ ؛ فهو معدود فى أهل الجماعة .

* * *

(١) انظر التقديم ص ٧ .
(٢) انظر ص ٢٥٤ .

ولما قَتل عبد المؤمن أولئك القوم الذين قدمنا ذكرهم صبرًا ، هابه المصامدة وسائر أهل دولته ، وعظم أمره فى صدورهم .

وأقام عبد المؤمن بمراكش بقية سنة ٥٥ وسنة ٦ وسنة ٧ وفى أول سنة ٥٨ خرج أمره إلى الناس كافة بالغزو إلى بلاد الروم من جزيرة الأندلس ؛ وكُتبت عنه الكتب إلى سائر الجهات يستنفر الناس ويحضهم على الجهاد ويرغّبهم فيه ؛ فاجتمعت له جموع عظيمة ؛ وخرج يقصد جزيرة الأندلس مُظهرا للغزو والاحتساب ، ويتمم أيضاً مع ذلك ما بقى عليه من مملكتها مما بيد محمد بن سعد المتقدم الذكر [1] ؛ فسار بالجيوش حتى نزل مدينة سَلاَ ؛ فأقام بها ينتظر تكامل العساكر ؛ فاعتلّ علته التى مات منها رحمه الله .

[وفاة عبد المؤمن وعهده لولده]

وكانت وفاته كما تقدم فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة أعنى سنة ٥٨ .

وكان قد عَهِد فى حياته إلى أكبر أولاده محمد ، وبايعه الناس ، وكتب ببيعته إلى البلاد ؛ فأبى تمامَ هذا الأمر لمحمدٍ هذا ما كان عليه من أمور لا تصلح معها الخلافة ، من إدمان شرب الخمر ، واختلال الرأى ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس ؛ ويقال إنه مع هذا كان به ضربٌ من الجُذام ، فالله أعلم .

(١) محمد بن سعد بن مردنيش ، ملك شرق الأندلس . انظر ص ٢٧٨ .

ولما مات عبد المؤمن ، اضطرب أمر محمد هذا واختُلف عليه اختلافاً كثيراً ؛ فكانت ولايته إلى أن خلع خمساً وأربعين يوماً ، واتفقوا على خلعه فى شعبان من هذه السنة ؛ وكان الذى سعى فى خلعه – مع ما قدمنا من استحقاقه لذلك – أخواه يوسف وعمر .

ذكر ولاية أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
وما يتعلق بها

ولما تم خلع محمد فى التاريخ المذكور ، بعد اتفاق من وجوه الدولة على ذلك ، دار الأمر بين اثنين من ولد عبد المؤمن : يوسف ، وعمر ؛ وهما من نبهاء أولاده ونجبائهم وذوى الرأى والغَناء منهم ، فأباها عمر منهما وتأخر عنها مختاراً ؛ وبايع لأخيه أبى يعقوب ، وسلَّم له الأمر ؛ حَمَله على ذلك فرطُ عقله وإيثارُ دينه وحُبٌّ المصلحة للمسلمين ، لأنه كان يعلم من نفسه أشياء لا يصلح معها لتدبير المملكة وضبط أمور الرعية ؛ فبايع الناسُ أبا يعقوب ، واتفقت عليه الكلمة ؛ فلم يختلف عليه أحد من الناسِ من اخوته ولا غيرِهم ؛ وذلك كله بحسن سعى أبى حفص عمر بن عبد المؤمن وشدّةِ تلطفه وجَودةِ رأيه ؛ فاستوثق لأبى يعقوب هذا أمرُه ، وتمَّت بيعتُه فى التاريخ المذكور ؛ وكان الساعى فيها والقائم بها ومديرها إلى أن تمت - كما ذكرنا - أخوه لأبيه وأُمه ، أبو حفص المتقدم الذكر .

وأبو يعقوب هذا هو يوسف بن عبد المؤمن بن على ؛ أُمُّه وأُمُّ أخيه أبى حفص ، أمرأةٌ حرة اسمها زينب ابنة موسى الضرير ؛ كان [موسى هذا] من [شيوخ] أهل تينملّ وأعيانهم ، [من ضَيعة يقال لها : أنسا] ؛ وكان عبد المؤمن يستخلفه على مراكش إذا خرج عنها ، وكانت مصاهرته إياه أيام كان عبد المؤمن بتينملّ ، برأى ابن تومرت ؛ وخلف موسى هذا من الولد

الذكور ثلاثة : إبراهيم ، وعليا ، ومحمدًا ؛ وبنات .

صفة أبي يعقوب

كان أبيض تعلوه حمرة ، شديدَ سوادِ الشعر ، مستدير الوجه ، أفوهَ ، أعْيَنَ ، إلى الطول ما هو ؛ فى صوته جهارة ، رقيق حواشى اللسان ، حلو الألفاظ ، حسن الحديث ، طيب المجالسة ، أعْرَف الناسِ كيف تكلمت العرب ، وأحفَظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها فى الجاهلية والإسلام ؛ صرف عنايته إلى ذلك أيام كونه بإشبيلية والياً عليها فى حياة أبيه ؛ ولقى بها رجالا من أهل علم اللغة والنحو والقرآن ؛ منهم الأُستاذ اللغوى المتقن أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك المعروف عندهم بابن مُلْكون ؛ فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع فى كثير منه .

أخبرنى من لقيته من ولده ، كأبى زكريا ، وأبى عبد الله ، وأبى إبراهيم إسحاق ، وغيرهم ممن لقيته وشافهتُه منهم ، أنه كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن ، وأسرعهم نفوذَ خاطر فى غامض مسائل النحو ، وأحفظَهم للغة العربية .

وكان شديد الملوكية ، بعيد الهمة ، سخياً جوادًا ، استغنى الناس فى أيامه وكثرت فى أيديهم الأموال ؛هذا مع إيثار للعلم شديد ، وتعطُّشٍ إليه مُفرط ؛ صح عندى أنه كان يحفظ أحد الصحيحين – الشك منى إما البخارى أو مسلم ، وأغلب ظنى أنه البخارى – حَفِظه فى حياة أبيه بعد تعلم القرآن ؛ هذا مع ذِكر جُمل من الفقه : وكان له مشاركة فى علم الأدب ،

واتساعٌ فى حفظ اللغة ، وتبحُّرٌ فى علم النحو حسبما تقدم ؛ ثم طمح به شرفُ نفسه وعلوُّ همته إلى تعلُّم الفلسفة ، فجمع كثيرًا من أجزائها ، وبدأ من ذلك بعلم الطب ، فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكى أكثره ، مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ؛ ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرفُ من أنواع الفلسفة، وأمر بجمع كتبها ؛ فاجتمع له منها قريبٌ مما اجتمع للحَكَم المستنصر بالله الأُموى .

أخبرنى أبو محمد عبد الملك الشَّذونىّ[1] ، أحد المتحققين بعلمَى الطب وأحكام النجوم ، قال : كنت فى شبيبتى أستعير كتب هذه الصناعة – يعنى صنعة الأَحكام – من رجل كان عندنا بمدينة إشبيلية ، اسمه يوسف ، يُكنى أبا الحجاج ، يعرف بالمرانى (بتخفيف الراء) ، كانت عنده منها جملة كبيرة وقعتْ إلى أبيه فى أيام الفتنة بالأَندلس ؛ فكان يُعيرنى إياها فى غرائر : أَحمل غرارة وأَجىءُ بغرارة ؛ من كثرتها عنده ؛ فأَخبرنى فى بعض الأَيام أنه عَدِمَ تلك الكتبَ بجملتها : فسأَلته عن السبب الموجب لذلك ، فأَسرَّ إلىَّ أن خبرها أُنهى إلى أمير المؤمنين ، فأَرسل إلى دارى وأنا فى الديوان لاعلم عندى بذلك ؛ وكان الذى أُرسل كافور الخصىّ مع جماعة من العبيد الخاصة ، وأمره ألا يرُوعَ أحدًا من أهل الدار ، وألا يأْخذ سوى الكتب ؛ وتوَعَّدَه والذين معه أَشدَّ الوعيد إن نقص أهلَ البيت إبرةٌ فما فوقها ؛ فأُخبرت بذلك وأنا فى الديوان ؛ فظننته يريد استصفاءَ أموالى ؛

(١) نسبة الى شذونة : بلد من اعمال اشبيلية .

فركبتُ وما معي عقلي ، حتى أتيتُ منزلي ؛ فاذا الخصيُّ كافور الحاجب واقفٌ على الباب والكتبُ تخرج إليه ؛ فلما رآني وتبيَّنَ ذُعري قال لي : لابأس عليك ! وأخبرني أن أمير المؤمنين يسلِّم عليّ ، وأنه ذكرَني بخير ! ولم يزل يبسطني حتى زال ما في نفسي ؛ ثم قال لي : سلْ أهل بيتك هل راعهم أحدٌ أو نقصهم شيءٌ من متاعهم ؟ فسألتهم ، فقالوا : لم يَرُعْنا أحدٌ ولم ينقصنا شيءٌ : جاء أبو المسك حتى استأذن علينا ثلاثَمرات ، فأخلينا له الطريق ، ودخل هو بنفسه إلى خزانة الكتب فأمر بإخراجها . فلماسمعتُ هذا القول منهم زال ما كان في نفسي من الرَّوع .

وولَّوه بعد أخْذهم لهذه الكتب منه ولايةً ضخمة ما كان يُحدِّث بها نفسه .

ولم يزل (١) يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء ، وخاصةً أهل علم النظر ، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن مَلَك المغرب

[أبو بكر بن طفيل]

وكان ممن صَحبه من العلماء المتفننين ، أبو بكر محمد بن طفيل ، أحد فلاسفة المسلمين ؛ كان متحققاً بجميع أجزاء الفلسفة ؛ قرأ على جماعة من المتحقِّقين بعلم الفلسفة ، منهم أبو بكر بن الصائغ المعروف عندنا بابن باجة

---

(١) يعني الأمير أبا يعقوب .

وغيره ؛ ورأيت لأبي بكر[1] هذا تصانيفَ فى أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلٰهيات وغير ذلك ؛

فمن رسائله الطبيعيات رسالة سماها رسالة «حيّ بن يقظان» غرضُه فيها بيانُ مبدإ النوع الإنسانى على مذهبهم ؛ وهى رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة فى ذلك الفن .

ومن تصانيفه الإلهيات رسالةٌ فى النفس رأيتها بخطه رحمه الله ؛ وكان قد صرف عنايته فى آخر عمره إلى العلم الإلهىّ ونبذ ما سواه ؛ وكان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشريعة ، معظِّماً لأمر النُّبُوّات ظاهرًا وباطناً ؛ هذا مع اتساع فى العلوم الإسلامية .

وبلغنى أنه كان يأخذ الجامكية مع عِدة أصناف من الخَدمة ، من الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرُّماة والأَجناد ، إلى غير هؤلاء من الطوائف وكان يقول : لو نَفَق عليهم علمُ الموسيقى لأنفقتُه عندهم !

وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديدَ الشغف به والحبِّ له ؛ بلغنى أنه كان يقيم فى القصر عنده أياماً ليلا ونهارًا لا يظهر .

وكان أبو بكر هذا أحدَ حسنات الدهر فى ذاته وأدواته ؛ أنشدنى ابنه يحيى بمدينة مراكش سنة ٦٠٣ من شعر أبيه رحمه الله :

أَلَمَّتْ وقد نام المُشيحُ وهوَّما ... وأسْرت إلى وادى العقيق من الحِمى
وجرَّتْ على تُرْبِ المحصَّبِ ذيلَها ... فما زال ذاك التُّربُ نَهْباً مقسَّماً

---

(١) يعنى ابن طفيل .

تناوَلَهُ أيدى التُّجار لطِيمَةً ويحملُه الدّارِىُّ أيّانَ يَمَّمَا

ولمَّا رأتْ أنْ لا ظَلاَمَ يُجِنُّها وأنَّ سُراها فيه لن يُتَكتَّما

نفَضتْ عذَباتِ الرِّيطِ عن حُرِّ وجهِها
فأبدتْ مُحَيًّا يُدْهِشُ المتوسِّما

فكان تجلِّيها حجابَ جمالها
كشمس الضحى يَغْشَى بها الطرفُ كلَّما...

ولما التقينا بعد طول تَهاجُر وقد كاد حبلُ الوُدِّ أن يتصرَّما

جلَتْ عن ثناياها وأومض بارقٌ فلم أدْرِ مَن شقَّ الدجنَّةَ منهما

وساعدنى جفنُ الغمام على البُكا فلم أدرِ دمعاً أيُّنا كان أسْجما

فقالت وقد رقَّ الحديثُ وأبصرتْ قرائنَ أحوالٍ أَذَعْنَ المُكتَّما :

نَشَدتُكَ لا يذهب بك الشوقُ مذهباً
يُهوِّنُ صَعباً أو يُرَخِّصُ مأثما

فأمسكتُ لا مُستغنياً عن نوالها ولكن رأيتُ الصبر أوفى وأكرما

ومن شعره فى الزهد ــ رحمه الله ــ ما قرأ علىَّ ابنُه من خطه فى التاريخ المذكور :

يا باكياً فُرقةَ الأحباب عن شَحَطٍ
هَلاَّ بكيتَ فِراقَ الروح للبدن

نورٌ ترَدَّدَ فى طينٍ إلى أجلٍ فانحاز عُلوًا وخَلَّى الطينَ للكفن

يا شَدَّ ما افترقا من بعدما اعتلقا أظُنها هُدنةً كانتْ على دَخَنٍ

إن لم يكن فى رضى الله اجتماعُهما   فيالَها صفقةً تمَّت على غَبَنِ

وأنشدنى بعض أصحابنا من الكُتاب له رحمه الله :

ماكلُّ مَن شمَّ نال رائحةً   للناس فى ذا تبايُنٌ عَجَبُ

قومٌ لهم فكرةٌ تجولُ بهم   بين المعانى ، أُولئك النُّجُبُ

وفرْقةٌ فى القُشور قد وقفوا   وليس يدْرُون لُبَّ ما طلبوا

لاغايةٌ تنـجلى لناظرهم   منه ولا ينقضى لهم أَرَبُ

لا يتعدَّى امْرُؤٌ جِبِلَّتَهُ   قد قُسمتْ فى الطبيعة الرُّتب

ولم يزل أبو بكر هذا يَجْلِبُ إليه (١) العلماء من جميع الأَقطار وينبِّهُهُ عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ؛ وهو الذى نبَّهه على أبى الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ؛ فمن حينئذ عرَفوه ونبُه قدْرُه عندهم .

[أبو الوليد بن رشد]

أخبرنى تلميذه الفقيه الأُستاذ أبو بكر بُنْدُود بن يحيى القرطبى قال : سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرة : لما دخلت على أمير المؤْمنين أبى يعقوب وجدتُه هو وأبو بكر بن طُفيل ليس معهما غيرهما ؛ فأَخذ أبو بكر يُثنى علىَّ ويذكر بيتى وسَلَفى ، ويضمُّ بفضله إلى ذلك أشياء لا يبلغُها قدْرى ؛ فكان أول ما فاتحنى به أميرُ المؤْمنين بعد أن سأَلنى عن اسمى واسم أبى ونسبى أن قال لى : ما رأْيُهم فى السماء — يعنى الفلاسفة —

---

(١) يعنى الى ابى يعقوب .

أقديمةٌ هى أم حادثة ؟ فأدركنى الحياءُ والخوف ؛ فأخذتُ أتعالُ وأُنكر اشتغالى بعلم الفلسفة ؛ ولم أكن أدرى ما قرَّر معه ابنُ طفيل ؛ ففهم أميرُ المؤمنين منى الرَّوْع والحياءَ ؛ فالتفت إلىَّ ابن طفيل وجعل يتكلَّم على المسألة التى سألنى عنها ، ويذكر ما قاله أرسطوطاليس وأفلاطون وجميعُ الفلاسفة ، ويُورد مع ذلك احتجاجَ أهل الإسلام عليهم ؛ فرأيتُ منه غزارةَ حفظ لم أظنَّها فى أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ؛ ولم يزل يبسُطُنى حتى تكلمت ، فعرف ما عندى من ذلك ؛ فلما انصرفتُ أمر لى بمال وخلعة سنيَّة ومَركب .

وأخبرنى تلميذه المتقدمُ الذكر عنه قال : «استدعانى أبو بكر بن طفيل يوما فقال لى : سمعتُ اليوم أميرَ المؤمنين يتشكَّى من قلقَ عبارة أرسطوطاليس — أو عبارة المترجمين عنه — ويذكر غُموضَ أغراضه ، ويقول : لو وقَعَ لهذه الكتب من يُلخِّصها ويُقرِّب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لقَرُبَ مأخذُها على الناس : فإن كان فيك فضلُ قوةٍ لذلك فافعل ، إنى لأرجو أن تفى به ؛ لما أعلمه من جَودة ذهنك وصفاءِ قريحتك وقوةِ نُزوعك إلى الصناعة ؛ وما يمنعنى من ذلك إلا ما تعْلَمُه من كُبرةِ سنّى واشتغالى بالخدمة وصَرْفِ عنايتى إلى ما هو أهمُّ عندى منه . قال أبو الوليد : فكان هذا الذى حملنى على تلخيص ما لخَّصْتُه من كتب أرسطوطاليس».

وقد رأيت أنا لأبى الوليد هذا تلخيصَ كُتب الحكيم فى جُزءٍ واحد فى نحو من مائة وخمسين ورقة ، ترجَمهُ «بكتاب الجوامع» لَخص فيه كتابَ الحكيم المعروف بسمع الكيان ، وكتا بَ السماء والعالم ، ورسالةَ الكَوْن

والفساد ، وكتابَ الآثارِ العُلوية ، وكتاب الحِس والمحسوس ؛ ثم لخَّصها بعد ذلك وشرح أغراضها في كتاب مبسوط في أربعة أجزاء .

[رجْع الحديث عن الأمير أبي يعقوب]

وفي الجملة ، لم يكن في بني عبد المؤمن فيمن تقدم منهم وتأخر مَلكٌ بالحقيقة غير أبي يعقوب هذا .

وزراؤه :

وزَرَ له أخوه عمرُ أياماً يسيرة ثم ارتفع قدرُه عن الوزارة إذ رآها دونه .

ثم وزَرَ له أبو العلاء إدريس بن ابراهيم بن جامع ، إلى أن قبَض عليه واسْتَصْفى أمواله في شهور سنة ٥٧٧ .

ووزر له بعده ابنُه أبو يوسف وليُّ عهدِه إلى أن مات سنة ٥٨٠ .

فكانت ولايته من حين بُويع له إلى أن استشهد – رحمة الله عليه – ببلاد الروم ، اثنتين وعشرين سنة إلا أشهرا [١] .

كتابه :

أبو محمد عيَّاش بن عبد الملك بن عياش كاتب أبيه ، وأبو القاسم

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك من ٣٣٣ – ٣٣٥ .

المعروف بالقالى[1] ، وأبو الفضل جعفر بن أحمد المعروفُ بابن محشوّة من أهل مدينة بجاية ، كان يخدم أبا القاسم القالىَّ إلى أن مات فكتب مكانه .

هؤلاء كتبة الإنشاء خاصة ، وكتّاب الجيش : أبو الحسين الهوزنى الإشبيلى ، وأبو عبد الرحمن الطوسى .

حاجبه :

كافور مولاه الخَصِىّ ، كان يُدْعى كافور بغُرَّة .

أولاده :

كان له من الولد ثمانية عشر ذكرًا ، وهم : عمر ، ويعقوب – وهو ولى عهده – ، وأبو بكر وعبدالله ، وأحمد ، ويحيى ...

كان يحيى هذا ، رحمه الله ، لى صديقاً ، ومن جِهته تلقَّيْتُ أكثر أخبارهم ؛ لم أرَ فى الملوك ولا فى السُّوقة مثله رحمة الله عليه ؛ وما اسْتَجَرْتُ لفظة الصداقة مع أن الواجب لفظُ الخدمة إلا لما كان ، رحمه الله ، يكتب إلىّ : أخى ، وصديقى ، فى بعض الأوقات ، ووليِّى فى بعضها ؛ اجتمعتْ عِندى بخطه رقاعٌ كثيرة ، خلَعَ علىَّ فيها فضلَه ، وحلانى بما لم أكن أستحقه [2] .

---

(١) انظر ص ٢٦٦ و ٢٦٩ .

(٢) انظر التقديم ص ١١ .

وموسى ، وإبراهيم ، وإدريس ، وعبد العزيز ، وطلحة ، وإسحاق ، ومحمد ، وعبد الواحد ، وعثمان ، وعبد الحق ، وعبد الرحمن ، وإسماعيل. وبنات .

قضاته :

أبو محمد المالقى المتقدم الذكر [1] : ثم عزله وولَّى بعده عيسى بن عمران التازى ، من أهل رِباط تازا من أعمال مدينة فاس ، من قبيلة يقال لها تَسُول من البربر يرجعون إلى زنانة .

كان عيسى هذا من فضلاء أهل المغرب ونبهائهم ، وكان خطيباً مِصقَعاً وبليغاً لَسِناً وشاعرًا مُفلِقاً مشاركاً فى كثير من العلوم ؛ ونال فى أيام أبي يعقوب حُظوةً ومكانة ؛ كان يتكلم عن الوفود ويخطب فى النوازل فيأتى بكل عجيبة ؛ وكان مع هذا ذا مروءةٍ تامة وتعصب لمن ينقطع إليه مفرِط ؛ أخبرنى ابنه أبو عمران – قاضى الجماعة فى وقتنا هذا – قال : سمعت أبى يقول وقد لامه بعضُ من يلوذ به فى التنويه بأقوام ليست لهم سوابقُ ولا أقدار ، رَفَعهم من الحضيض جاهُه ، ونبَّههم بعد الخمول اعتناؤُه : «ليس العجب ممن يأتى إليه رجلٌ نبيهُ القدر يرفعه ، إنما العجب ممن يُحيي الميت ويُنبِّه الخامل ويرفع الوضيع ؛ فأما النبيه القدرِ فنباهتُه تكفيه ».

وبلغ من إفراطه فى التعصب أن قال يوماً : « ليس بحمايةٍ أن تحمى صاحبك وهو مُحِقّ ؛ فإن الحق أظهرُ وأقوى من أن يُحمَى ؛ إنما الحماية أن تحميه وهو مُبْطل ! » فى أشباه لهذه الأخبار .

---

(1) هو عبد الله بن عبد الرحمن . انظر ص ٢٦٩ .

وكان له أولاد ما مِنهم إلا من ولى القضاء ؛ وهم علىّ ، وكان على هذا رجلا صالحاً ، ولى فى حياة أبيه قضاء مدينة بجاية ، ثم عُزل عنها وولى مدينة تِلمسان ؛ وهو عندنا من المشهورين بالتصميم والتبتُّل فى دينه ،وممن لاتـأخذه هوادة فى الحق .

ومن أولاده طلحة ، ولى قضاء تلمسان ؛ ويوسف ، تركته قاضياً بمدينة فاس ، بلغتْنى وفاته وأنا بمكة فى سنة ٦٢٠ ؛ وأبو عمران موسى ، قاضى الجماعة فى وقتنا هذا ، وسيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله عز وجل .

ثم ولى بعد أبى موسى هذا [(١)] رجلٌ اسمه حجاج بن ابراهيم التُّجِيبى ، من أهل مدينة أغمات من أعمال مدينة مراكش ؛ كان حجاجٌ هذا رجلا صالحاً يُعَدُّ فى الزُّهاد المتبتِّلين ، وكان له تبحُّرٌ فى الفقه ومعرفةٌ بأُصوله وبَصَرٌ بعلم الحديث ، هذا مع نزاهة نفس وطهارة عِرض وتصميم فِى الحق ؛ أفرط فى ذلك حتى ثَقُلَتْ على كثير من وجوه الدولة وطأتُه ونالوا منه عند أبى يعقوب ؛ فما زاده ذلك إلا حباً وتقريباً ، إلى أن مات ـ رحمه الله ـ فى حياة أبى يعقوب ؛ بلغ من رقة قلبه وسرعة دَمْعته أنه دخل يوماً على أمير المؤمنين أبى يعقوب وقد بَلَّ لحيته ورداءه بدموعه ؛ فلما مَثَل بين يديه زاد فى البكاء ، فسأله أمير المؤمنين عما أبكاه ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، سألتك بالله ، ألا أعفيتَنى ؟ قال : عزمتُ عليك لَتُخبرنِّى أولا بسبب بكائك ! قال : بينا أنا قاعد فى مجلس الحُكم إذ أُتيتُ بشيخ سكرانَ كنت

(١) يعنى عيسى بن عمران التازى .

قد حَدَدْتُه مرارًا ، فكان من كلامى أن قلتُ له : ياشيخ ، كيف تُحشَر ؟ ففتح يديه وقال : هكذا . . . [1] فوالله ما ملكتُ دمعى حين عرفتُ ماعَنَى بقوله ؛ إنما عَرَّضَ لى بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن القاضىَ يُحشَرُ مُطوَّقةً يداه إلى عُنقه ؛ فإما أن يَحلَّه عدلُه أو يهوى به جَورُه ! » هذا معنى الحديث ؛ فأسألك بالله ، ألا أعفيتَنى ؟ فوعده بذلك ؛ فقال : عسى أن يكون فى مقامى هذا ! فقال له : لا أفعل حتى أجد عوَضاً منك ! فخرج من عنده فما لبث إلا أياماً يسيرة حتى مات ، رحمة الله عليه !

ثم ولى بعده القضاء أبو جعفر أحمد بن مَضَاء ، من أهل مدينة قُرطبة ؛ فلم يزل أبو جعفر هذا قاضياً إلى أن مات أمير المؤمنين أبو يعقوب ، وصدرًا من خلافة أبى يوسف المنصور رحمه الله .

---

(١) يشير الى أنه جعل يديه مغلولتين الى عنقه .

فصـــــل

دخول بني مردنيش في طاعة الموحدين

ولما استوثق لأبي يعقوب هذا الأمرُ لم يزل مقيماً بمراكش إلى أن كانت سنة ٥٦٧ ، فبدا له أن يعبر إلى جزيرة الأندلس ، مُظهِراً قصد غزو الروم ، ومُبطِناً إتمام تملُّك الجزيرة والتغلُّبَ على ما في يد محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش منها ؛ وكان يملك منها ابنُ سعد المذكورُ من أول أعمال مُرسِية إلى آخر ما يملكه المسلمون اليوم من شرقيِّها – وقد تقدم تلخيص التعريف بمملكته إياها ومن أين اتصلت إليه[1] – فجمع أمير المؤمنين أبو يعقوب جموعاً عظيمة من قبائل الموحِّدين وغيرهم من أصناف الجند ، وسار حتى نزل مدينة سَبتة ، فبُني له بها منزل هو باق هناك إلى اليوم ؛ فأقام بها إلى أن تكاملت جموعه ، ولحق به من كان تأخَّر عنه من العساكر ثم عبر البحر وقصد مدينة إشبيلية ، فنزلها ، وجهَّز العساكر إلى محمد بن سعد .

---

(١) انظر ص ٢٧٧ – ٢٧٩ .

ولم تكن الوقعة المذكورة هنا هي أولى الوقائع بين ابن مردنيش والموحدين ، فقد سبقتها وقائع اخرى كان النصر فيها لابن مردنيش ملك شرق الاندلس ، وحليفه وصهره ابراهيم بن همشك ، وقد تم لهما في بعض تلك الوقائع الاستيلاء على غرناطة من يد واليها الموحدى أبى سعيد سنة ٥٥٦ .

ثم اتصلت المعارك بين الموحدين وابن مردنيش ولم يزل له النصر والغلبة حتى نشب الخلاف بينه وبين صهره ابراهيم بن همشك ، بسبب ابنته التى كانت زوجا لابن مردنيش ثم انفصلت عنه . فحل به البوار من يومئذ .

وكان أخو أبى يعقوب ، عثمانُ بن عبد المؤمن ، والياً على مدينة أغرناطة ؛ فكتب إليه أن يقصد بالعساكر إلى مدينة مُرسية ، دارِ مملكة محمد بن سعد ؛ فخرج عثمان بالعساكر حتى نزل قريباً منها بموضع يُدعَى الجَلاَّب ، وخرج إليه محمد بن سعد فى جموع عظيمة أكثرها من الإفرنج ؛ لأن ابن سعد كان مستعيناً بهم فى حروبه قد اتخذهم أجنادًا له وأنصارًا ؛ وذلك حين أحس باختلاف وجوه القوّاد عليه وتنكُّرِ أكثر الرعية له ، فقَتل من أولئك القواد الذين اتهمهم جماعةً بأنواع من القتل ؛ بلغنى أن منهم من بَنَى عليه فى حائط وتركه حتى مات جوعاً وعطشاً ، إلى غير هذا من ضروب القتل ؛ واستدعى النصارى ، كما ذكرنا ، فجعلهم أجنادًا له ، وأقطعهم ما كان أولئك القواد يملكونه ، وأخرج كثيرًا من أهل مرسية وأسكن النصارى دورهم ...

فزحف[1] كما ذكرنا بجيشه ، ومعظمهم من الإفرنج ؛ فالتقى هو والموحِّدون بالموضع المعروف بالجلاب ، على أربعة أميال من مُرسية ؛ فانهزم أصحاب محمد بن سعد انهزاماً قبيحاً ، وقُتل من أعيان الروم جملة ، ودخل محمد بن سعد مدينة مُرسية مستعدًّا للحصار ؛ فضايقه الموحدون ، وما زالوا محاصرين له إلى أن مات وهو فى الحصار حَتفَ أنفِه ؛ وسُترتْ وفاتُه إلى أن وَرَد أخوه يوسف بن سعد ، الملقَّب بالرئيس ، من بلنسية ؛ وكان والياً عليها من جهة أخيه محمد ؛ فاجتمع رأيُه ورأى أكابرِ ولد محمد بن سعد — بعد أن أتْهَمُوا وأنجَدوا وأخذوا فى كل وجه من وجوه

(1) يعنى ابن مردنيش .

الحِيل – على أن يُلقوا أيديَهم فى يد أمير المؤمنين أبى يعقوب ويُسلموا إليه البلاد ، ففعلوا ذلك ؛ وقيل إن أبا عبدالله محمد بن سعد حين حضرته الوفاة جمع بنيه ؛ وكان له من الولد على عِلمى ثمانية ذكور ، وهم : هلال – يكنى أبا القمر ، وهو أكبر ولده وإليه أوصى – وغانم ، والزبير ، وعزيز ، ونصير ، وبدر ، وأرقم ، وعسكر ، وأصاغرُ لاعِلم لى بأسمائهم وبناتٌ تزوج إحداهن أمير المؤمنين أبو يعقوب وتزوَّج الأُخرى أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب بن يوسف ؛ فكان فيما أوصاهم به أن قال : «يا بَنِىَّ ، إنى أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر ، وأتباعَهم قد كثروا ودخلت البلاد فى طاعتهم ؛ وإنى أظن أنه لاطاقة لكم بمقاومتهم : فسلِّموا إليهم الأمر اختياراً منكم ، تحظوا بذلك عندهم قبل أن ينزل بكم مانزل بغيركم ؛ وقد سمعتم ما فعلوا بالبلاد التى دخلوها عَنوَة !» ففعلوا ما أمرهم به ؛ فالله أعلم أىَّ الأمرين كان .

* * *

وخرج أمير المؤمنين أبو يعقوب من إشبيلية قاصداً بلاد الأدفنش – لعنه الله – فنزل على مدينة له عظيمة تسمى وَبْذَة ، وذلك أنه بلغه أن أعيان دولة الأدفنش ووجوهَ أجناده فى تلك المدينة ، فأقام محاصراً له أشهراً إلى أن اشتد عليهم الحصار وأرادوا تسليم البلد ؛ أخبرنى جماعة يكثر عددهم ممن أدركتُ من شيوخ أهل الأمر ، أن أهل هذه المدينة لمَّا بَرَّح بهم العطش أرسلوا إلى أمير المؤمنين يطلبون الأمان على أنفسهم ، على

أن يخرجوا له عن المدينة ؛ فأبى ذلك عليهم ، وأطمعه فيهم ما نُقل إليه من شدة عطشهم وكثرة من يموت منهم ؛ فلما يئسوا مما عنده سُمع لهم فى بعض الليالى لَغَطٌ عظيم وجلبةُ أصوات ؛ وذلك أنهم أخرجوا أناجيلهم ، واجتمع قِسّيسوهم ورُهبانهم يَدْعون ويؤمِّن باقيهم ، فجاء مطر عظيم كأفواه القِرَب ملأ ما كان عندهم من الصهاريج ، وشربوا وارتووا وتَقَوَّوا على المسلمين فانصرف عنهم أمير المؤمنين راجعاً إلى إشبيلية ، بعد أن هادَنَ الأدفنشَ - لعنه الله - مدة سبع سنين .

ولم يزل أمير المؤمنين مقيماً بالأندلس بقية سنة سبع ، وثمان ، وتسع إلى أن رجع إلى مراكش فى آخر سنة ٥٦٩ وقد مَلَكَ الجزيرة بأسرها ، ودانت له بجملتها ، ولم يخرج عن طاعته شىءٌ منها .

[الخارجون على طاعة الموحدين بالمغرب]

وفى سنة ٧١ خرج إلى سوس لحسم خلاف وقع هنالك بين بعض القبائل الذين بدَرَن ، فتمَّ له ما أراد من إخماد الفتنة وجَمْع الكلمة وإطفاء النائرة وحَسْم الخلاف .

* * *

وفى صدر سنة ٧٣ رام بعض القبيلة المسماة بغُمارة مفارقةَ الجماعةونَزْعَ اليد من الطاعة ؛ وكان رأسَهم فى ذلك الذى إليه يرجعون وعميدَهم الذى عليه يعوِّلون ، رجلٌ اسمه سَبُع بن حَيَّان ؛ ووافقه على ذلك أخ له يسمَّى

مَرَزْدَغ ؛ فَدَعوا إلى الفتنة ، واجتمع عليهما خلقٌ كثير .

والقبيلةُ المذكورة لايكاد يحصرها عددٌ ولايحدُّها حزْر لكثرتها ؛ مسافةُ بلادها طولا وعرضاً نحوٌ من اثنتَى عشرة مرحلة ؛ فخرج إليهم أمير المؤمنين أبو يعقوب بنفسه ؛ فأسْلمَتهما جموعُهما ، وتفرق عنهما من كان اجتمع عليهما ، وأُخذا قَبْضَ اليد ؛ فقُتلا صبرًا وصُلبا ؛ ثم رجع أمير المؤمنين أبو يعقوب إلى مراكش .

* * *

وفى أول سنة ٧٥ خرج أبو يعقوب من مراكش قاصداً بلاد أفريقية ؛ فقصد منها مدينة قَفْصَة ؛ وكان قد قام بها رجل اسمه علىّ ، يُعرف بابن الرَّنْد ، وتَلَقَّبَ بالناصر لدين النبي ؛ فحاصره أبو يعقوب والموحدون إلى أن استنزلوه ، وقطعوا دابر الخلاف وحسموا موادَّه ، ورجعوا إلى مراكش .

[صُلح ملك صِقلِّية]

وفى هذه السَّفرة صالحه ملكُ صِقلِّيةَ وأرسل إليه بالإتاوة ، بعدأن خافه خوفاً شديدًا ؛ فقبل منه ما وَجَّه به إليه ، وهادنه على أن يحمل إليه فى كل سنة مالاً اتَّفقَا عليه[1] ؛ وبلغنى أنه اتصلت إليه منه ذخائرُ لم يكن

(١) صقلية : جزيرة عظيمة ببحر الروم ، تتبع اليوم ايطاليا ، وقد فتحها العرب سنة ٢١٢ على يد أسد بن الفرات ، وملكها ابراهيم بن الاغلب ، وظلت تحت حكم الأغالبة زمانا ، ثم حكمها العبيديون ، ثم الكلبيون ، بنو الحسن بن على الكلبى ، ثم كان استيلاء الفرنجة النورمانديين عليها سنة ٤٦٤ .

ولما استولى عليها الفرنجة النورمانديون فى التاريخ المذكور جعلوها دار ملكهم واتخذوها

عندَمَلِكٍ مثلُها ؛ مما اشتهر منها حجرٌ ياقوت يسمى الحافر — جعلوه فيما كلَّلوا به المصحف ، لا قيمة له[1] ، على قدْر استدارة حافر الفرس ، هو فى المصحف إلى اليوم — مع أحجارٍ نفيسة .

[المصحف العثمانى فى المغرب]

وهذا المصحف الذى ذكرناه ، وقع إليهم من نسخ عثمان — رضى الله عنه — من خزائن بنى أُمية ، يحملونه بين أيديهم أنَّى توجَّهوا ، على ناقة حمراء عليها من الحلى النفيس وثياب الديباج الفاخرة ما يعدِل أموالاً طائلة ، وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج الأخضر يجعلونه عليها ، وعن يمينه ويساره عَصَيانِ[2] عليهما لواءان أخضران ، وموضع الأسنة منهما ذهبٌ شِبْهُ تُفَّاحتين ؛ وخلف الناقة بغلٌ محلًّى أيضاً ، عليه مصحف آخر يقال إنه بخط ابن تومرت دون مصحف عثمان فى الجِرم ، محلًّى بفضة مموَّهة بالذهب ؛ هذا كله بين يدى الخليفة منهم .

* * *

ورجع أمير المؤمنين أبو يعقوب إلى مراكش من أفريقية ، بعد أن لم يبق

قاعدة بحرية للاغارة على سواحل بلاد المسلمين فى افريقية ، فملكوا طرابلس المغرب والمهـدية وغيرهما من حواضر المسلمين ، وأغـاروا على الاسكندرية يؤازرون الصليبيين فى حملتهم عـلى مصر سنة ٥٧٠ لعهد صـلاح الدين الايوبى ، و لكنهم ارتدوا عنها مهزومين .

وقد نشبت عدة معارك بين الموحدين وجيوش صقلية ، كان النصر فيها للموحدين . وانظر فتح المهدية على يد الموحدين ص ٢٩٨ — ٣٠٠ .

(١) يعنى : فوق كل قيمة .

(٢) كذا بالأصل ، والصواب : عصوان .

بجميع المغرب مختلفٌ عليهم ولا معاندٌ لهم ، ودانت له جزيرة الأندلس بـأسرها ـ كما ذكرنا ـ وكثرت فى أيامه الأموالُ واتسع الخَراج .

[حسن معاملة الموحدين لمن يغلبونهم من الملوك]

وكان كما ذكرنا ـ سخياً جواداً : بلغنى أنه أعطى هلال بن محمد بن سعد المتقدم الذكر[1] ، صاحب شرقىِّ الأندلس ، اثنى عشر ألف دينار فى يوم واحد[2] ؛ ولهلال هذا معه أخبار عجيبة ، من تقريبه إياه وإحسانه إليه وحُبه له ؛ أخبرنى بعضُ ولدِ هلال هذا أنه سمع أباه يقول : رأيت فى المنام فى بعض الليالى كأن أمير المؤمنين أبا يعقوب ناولنى مفتاحاً ، فلما أصبحتُ إذا رسوله يستحثُّنى ، فركبت وأتيت القصر ، فدخلت عليه وسلمت ، فاستدنانى حتى مسَّت ثيابى ثيابه ، ثم أخرج إلى من تحت بُرْنُسِه مِفتاحاً على النحو الذى رأيتُ فى المنام ، وقال : خذ إليك هذا المفتاح ؛ فتهيبتُ أن أسأل عن شأن المفتاح ؛ فقال لى ابتداءً : يا أباالقمر إن عامل مُرْسية أرسل إلينا فى جملة ما أرسل صُندوقاً وجده ـ زَعَمَ ـ فى بعض خزائنكم ، لا يدرى مافيه ؛ وهذا مفتاحه ، ونحن لا ندرى ما فيه ! فقلت : هَلاَّ أمر أمير المؤمنين أن يُفتح بين يديه ! فقال : لو أردنا أن يُفتح بين أيدينا

(١) ابن مردنيش .

(٢) انظر ما كان من شان عبد المؤمن مع يحيى بن العزيز آخر ملوك بنى حماد (ص ٢٧٥) وما كان من شأنه كذلك مع حسن بن يحيى آخر ملوك أفريقية (التعليق رقم ٤ ص ٢٩٨) ، وذلك بعد أن آلت اليه بلادهما وصارا رعية من رعيته وتابعين من أتباعه !

ثم انظر ـ الى ذلك ـ ما فعل يوسف بن تاشفين بالمعتمد بن عباد وسائر من غلبهم على بلادهم من ملوك الطوائف بالأندلس !

لم نُسلِّم إليك المفتاح ! وأمر فحُمل الصندوق إلىَّ ففتحته ، فإذا فيه حلى وذخائر من ذخائر أبى ما يساوى أكثر من أربعين ألف دينار .

* * *

ولما تجهز أمير المؤمنين إلى غزو الروم ، أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث فى الجهاد تُملى على الموحِّدين ليدرسوها - وهكذا جرت عادتهم إلى اليوم - فجمع العلماءُ ذلك وجاءوا به إليه ؛ فكان يمليه على الناس بنفسه ؛ فكان كلٌّ واحد من الموحِّدين والسادة يجىءُ بلوح يكتب فيه الإملاء ؛ فجاء هلالٌ هذا المذكور يوماً ولا لوْحَ معه ؛ فأخرج القوم ألواحهم ؛ فقال له الوزير : أين لوحك يا أبا القمر ؟ فخجل وافتتح يعتذر ؛ فأخرج له أمير المؤمنين من تحت بُرْنُسِه لوحاً وناوله إياه ، وقال هذا لوْحُه ! فلما كان من الغد جاء ومعه لوحٌ غير الذى دفعه له أمير المؤمنين ؛ فلما نظر إليه قال له : أين لوحك بالأمس يا أبا القمر ؟ فقال : خَبَأْته وأوصيتُ إذا متُّ أن يُجعل بين جلدى وكفنى ! وأتبع ذلك بكاءً حتى أبكى بعضَ من كان فى المجلس ؛ فقال أمير المؤمنين : هذا المحبُّ الصادق ! وأمر له بخيل وأموال وخِلع ، ولبنيه بمثل ذلك .

[اتساع الدولة وزيادة الخراج]

وكان الذى يُسهِّل عليه بذلَ الأموال - مع ما جُبِل عليه من ذلك -سعَةُ الخراج وكثرةُ الوجوه التى يتحصَّل منها الأموال .

كان يرتفع إليه خراج أفريقية ، وجملته فى كل سنة وقرُ مئة وخمسين بغلا ، هذا من أفريقية وحدها ، خلا بجايةَ وأعمالها ، وتلمسانَ وأعمالها والمغرب – وحدُّ عَملِ المغرب عندهم الذى يطلقون عليه هذا الاسم ، من مدينة تُدعى رباط تازا إلى مدينة تُدعى مكناسة الزّيتون ؛ طول هذه المسافة وعرضها نحوٌ من سبعة مراحل ، وهى أخصبُ رقعةٍ على الأرض فيما علمْت، وأكثرُها أنهارًا مطردة وأشجارًا ملتفة وزروعاً وأعناباً – ومدينةِ سَلاَ وأعمالها ، وسَبْتَةَ وأعمالها – وأعمالُ سَبتة هذه فى غاية السعة والضخامة ؛ لأن بلاد غُمارة كلَّها ترجع إليها ، وهى كما ذكرنا طولا وعرضاً نحوٌ من اثنتى عشرة مرحلة – وجزيرةِ الأندلس قاطبة ؛ أولُ ذلك آخرُ بلادِ المسلمين مما يتاخم أرض الروم ، وآخره أيضاً مما يتاخم أرض الروم من أعمال شِلْب ؛ ومسافة ذلك طولا وعرضاً نحوٌ من أربع وعشرين مرحلة .

هذا كلُّه لا ينازعه إياه أحد ولا يمتنع عليه منه درهم ، مضافاً إلى مراكش وأعمالها ، وأعمالُ مراكش أيضاً فى نهاية من السّعة ؛ لأن بالقرب منها قبائلَ ضخمةً وبلادًا كثيرة ؛ فلم يرتفع لملك من الملوك – أعنى ملوك المغرب – قبل أبى يعقوب هذا وبعده ما ارتفع إليه من الأموال .

وقد بلغنى من جهة رجل من أصحابنا كان يتولى بيوت الأموال قال لى : « وجدت خرائط كثيرة مما كان يرتفع إلى أمير المؤمنين أبى يعقوب بختمها .. » قال لى هذا القول فى غُرة سنة ٦١١ .

وفى أيام أبى يعقوب ورد علينا المغربَ أولُ من وردَها من الغُزّ[1] ؛

(١) الغز : طائفة من مماليك الترك المصريين ، وسيرد ذكرهم ثانية فيما يلى من الكتاب .

وذلك فى آخر سنة ٧٤ ، وما زالوا يكثرون عندنا إلى آخر أيام أبى يوسف .

ولم تزل أيام أبى يعقوب هذا أعيادًا وأعراساً ومواسم ؛ كثرةَ خصبٍ وانتشارَ أمْنٍ ودُرُور أرزاقٍ واتساعَ معايش ؛ لم ير أهلُ المغرب أياماً قطُّ مثلها ؛ واستمر هذا صَدْراً من إمارة أبى يوسف.

[محاولة أبى يعقوب فتح شنترين ، ووفاته]

ولما كانت سنة ٧٩ تجهز أبو يعقوب للغزو ، واستنفر أهلَ السهول والجبال من المصامدة والعرب وغيرهم ، وخرج بجيوشه قاصداً جزيرة الأندلس ؛ فعبر البحر بعساكره كما ذكرنا ، وقصد مدينة إشبيلية على عادته ؛ إذ هى منزلُه ومنزل الأمراء من بنيه بالأندلس أيام كَونهم بها ؛ فأقام بها ريثما أصلح الناس شئونَهم وأخذوا أهبتهم ؛ ثم خرج يقصد مدينة شَنتَرين[1] ، أعادها الله للمسلمين .

وهذه المدينة — أعنى شنترين — بمغرب الأندلس ؛ وهى من أمنع المدائن — وقد تقدم ذكرُها[2] فى أخبار الدولة اللمتونية — يملكها وجهاتِها مع بلاد كثيرة هنالك ملكٌ من ملوك النصارى يُعرف بابن الريق ، لعنه الله .

فخرج أمير المؤمنين كما ذكرنا فى جيوشه حتى نزل عليها فضايقها

---

(١) شنترين : مدينة كبيرة بالأندلس ، على الشاطىء الأيمن من نهر تاجو ، وهى مفتاح واديه، موقعها الى الشمال الشرقى من اشبونة ، وبينهما ثمانون ميلا ، وقد ظلت شنترين فى يد العرب منذ الفتح الى ان ملكها ألفونس السادس ملك قشتالة سنة ٥٤٣ ثم كانت هذه المحاولة لاستردادها ، وقد قام بعبء الدفاع عنها فى هذه المحاولة ، الدون شانجو Don Sancho

(٢) انظر ص ٢٢٨ وما بعدها .

وأخذ فى قطع ثمارها وإفساد زُروعها وشنِّ الغارات على نواحيها.

وكان ابن الريق – لعنه الله – حين سمع بحركة أبى يعقوب إليه وصحَّ عنده أنه يقصده ، نظر فى أمره فلم ير له طاقةً بدفاعه ولا نهضةً لمقاومته ؛ فلم يكن له همٌّ إلا أنْ جمع وجوه دولته وأعيان جنده وذوى الغَناء من قُواده وسائر أتباعه ، ودخل بهم مدينةَ شَنترين واثقاً بحصانتها وشدةِ مَنَعَتها ؛ هذا بعد أن ملأَها أقواتاً وسلاحاً وجميعَ ما يحتاج إليه ،وجلَّل أسوارَها مُقاتِلةً معهم الدَّرَقُ والقِسِىُّ والحراب إلى غير ذلك مما يحتاج إليه .

فنزل عليها أبو يعقوب فألْفاها كما ذكرنا : قد استعدَّ أهلها بكل ما يظنونه نافعاً لهم ودافعاً عنهم ؛ وهذه المدينة على نهر عظيم من أنهار الأندلس المشهورة ، يسمى تاجُو ؛ فبالغ أبو يعقوب – كما ذكرنا – فى التضييق عليها وانتساف معايشها وقطْع الموادِّ والمدد عنها : فما زاد ذلك أهلَهاإلا صرامة وشدة وجلدًا ؛ فخاف المسلمون هجومَ البردِ – وكان فى آخر فصل الخريف – وخافوا أن يعظم النهر فلا يستطيعوا عبورَه وينقطع عنهم المدد ؛ فأشاروا على أمير المؤمنين بالرجوع إلى إشبيلية فاذا كان وجهُ الزمان عادوا إليها أو بَعَثَ من يتسلمها ؛ وصوَّروا له أنها فى يده لا يمنعه منها ما نع ؛ فقبل ذلك منهم ووافقهم عليه ، وقال : نحن راحلون غدًا إن شاء الله . ولم ينتشر هذا القول كل الانتشار ، لأنه كان قاله فى مجلس الخاصة .

فكان أولَ من قوَّض خباءه وأظهر الأخذ فى أُهبة الرحيل أبو الحسن على

ابن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف عندهم بالمالقى ـ وقد تقدم ذكر أبيه[1] فى قضاة عبد المؤمن ـ وكان أبو الحسن هذا خطيبَهم ومعتبرًا عندهم ، يُدعَى خطيبَ الخلافة ؛ وكان له حظٌّ جيد من الفقه ومعرفةِ الحديث وقسمٌ وافر من قرض الشعر وصناعة الكتابة ؛ فلما رآه الناس قوَّض خباءه قوَّضوا أخبيتهم ثقة به ، لمكانه من الدولة ومعرفته بأخبارها ؛ فعبر فى تلك العشية أكثرُ العسكرِ النهر يريدون التقدم خشيةَ الزحام وحرصاً على أخذ جيِّد المواضع واختيار المنازل ؛ ولم يبق إلا من كان بقرب خباء أمير المؤمنين .

وبات الناس يعبرون الليل كلَّه وأميرُ المؤمنين لاعلم له بذلك ؛ فلما رأى الرومُ عبور العساكر وبلَغهم من جهة عيونهم الذين بالعسكر ما عزم عليه أبو يعقوب والمسلمون من الرحيل ، ورأوا انفضاضَ الأجناد وافتراقَ أكثر الجموع ، خرجوا منتهزين للفرصة التى أمكنتْهم ، فى خيلٍ كثيفة ؛ فحملوا على من يليهم من الناس ، فانهزموا أمامهم ، حتى بلغوا الخباء الذى فيه أمير المؤمنين أبو يعقوب ؛ فقتل على باب الخباء من أعيان الجند خلقٌ كثير ، أكثرهم من أعيان الأندلس ؛ وخلص إلى أبى يعقوب فطُعن تحت سُرَّته طعنةً مات منها بعد أيام يسيرة ...

وتدارك الناسُ فانهزم الروم راجعين إلى بلدهم بعد أن قضوا ما قضوا ، وعُبر بأمير المؤمنين النهر جريحاً فجُعل فى محفة وسيرَ به .

---

(1) انظر ص ٣٦٩ .

[عاقبة أبي الحسن المالقى الخطيب]

وسأل أميرُ المؤمنين : مَن كان السببَ في حركة الناس على هذا الوجه المؤدى إلى هذا الاختلال ؟ فأُخبرَ بما فعله أبو الحسن المالقى ؛ فقال يتوعده : سيجنى ثمرتها إن شاء الله ! فلما بلغه ذلك هرب حتى دخل مدينة شنترين فارًا بنفسه على ملك الروم ابن الريق ؛ فأحسنَ نُزُلَه وأكرم مثواه وأجرى عليه رزقاً واسعاً ؛ ولم يزل عنده مُكرماً إلى أن بدا له من سوء رأيه أن يكتب كتاباً إلى الموحّدين يستعطفهم ويسأل مَن عَرَفه من أعيانهم الشفاعةَ له ؛ وأدرج في ضمن ذلك فصلا يذكر فيه ضعف المدينة وأنهم لو كانوا أقاموا عليها ليلة أُخرى أخذوها ، ويدلُّهم على بعض عَوراتها مما كان خفى عنهم ؛ وقال للملك الروم ابن الريق : إنى أحب أن أكتب كتاباً إلى عيالى وأولادى وأخبرَهم بسلامتى وأُعلمهم إكرَام الملك إياى وإحسانه إلىَّ وما أنا فيه من العافية ، حتى تطمئن نفوسُهم ؛ وأُريد أن توجِّه مع الذى يحمله مَن يخفره إلى أول بلاد المسلمين ؛ فأذن له فى ذلك وأجابه إليه: فكتب الكتاب .

وكان العِلج الموكَّل به — الذى يقوم عليه ويأتيه بكل ما يحتاج إليه — يعرف لسان العرب — إلا أنه لم يكن يتكلم به — ويقرأُ الخط العربى ؛ فقام أبو الحسن المذكور لبعض حوائجه وترك الكتاب منشورًا ، ولم يخطر له أن العلج يعرف شيئاً من لسان العرب ولا يقرأُ الخط العربى ؛ فلمح العلج الكتاب لمحةً ، ووقف على الفصل المذكور وفهم مقصوده ؛ فمضى حتى دخل على الملك وأخبره الخبر …

وختم أبو الحسن الكتاب ودفعه إلى بعض عبيده ؛ فلما خرج العبد

بالكتاب وفصل عن المدينة بنحوٍ من مرحلة ، أمر بالقبض عليه هناك وأخذ الكتابُ منه ؛ فلما أُتى بالكتاب فتحه وجَمَع المسلمين الذين بالمدينة وألقى إليهم الكتاب وأمرهم بقراءة ذلك الفصل المذكور ؛ واستحضر أبا الحسن ، وقال لترجمانه : قل له : ما حَمَلك على ما صنعت مع إكرامى لك وبِرِّى بك ؟ فكان من جوابه أن قال : إن برَّك بى وإكرامك إياى لايمنعانى من النُّصح لأهل دينى والدلالةِ لهم على ما فيه مصلحتهم ! فشاور ابنُ الريق - لعنه الله - قِسِّيسيه فى أمره ؛ فأشاروا عليه بإحراقه . فأحرقوه .

[وفاة الأمير أبى يعقوب]

وأما ما كان من أمر أمير المؤمنين أبى يعقوب فإنهم لما عبروا به النهر كما ذكرنا أثقله الجُرْحُ واشتد عليه ؛ فما ساروا به إلا ليلتين أو ثلاثاً حتى مات رحمه الله ؛ فأخبرنى من كان معهم فى تلك السَّفرة أنه سُمع النداءُ فيما بين العشاءين فى العسكر كله : الصلاةُ على الجنازة ، جنازةِ رجل ! فصلى الناس قاطبة على الجنازة لا يعرفون على من صَلُّوا ؛ ولم يعلم بذلك إلا خواص أهلِ الدولةِ ، وساروا به حتى بلغوا إشبيلية فنزلوها ، فصبَّروه وبعثوا به فى تابوتٍ مع كافور الحاجب مولاه المتقدم الذكر[1] إلى تينملّ ؛ فدُفن هناك مع أبيه عبد المؤمن وابن تومرت .

وكانت وفاته يوم السبت قبيل غروب الشمس لسبع خلون من رجب الفرد سنة ٥٨٠ .

---

(١) انظر ص ٣١٧ .

أخبرنى ابنه أبو زكريا يحيى – رحمة الله عليه – أنه كان قبل موته بأشهر يسيرة كثيرًا ما يردد هذا البيت :

طوى الجديدان ما قد كُنت أَنشرُهُ

وأنكرتْنى ذواتُ الأَعين النُّجُل !

ذكر ولاية ابى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن

هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على كما ذكرنا ، يكنى أبايوسف أمه أم ولد رومية اسمها ساحر ؛ بويع له فى حياة أبيه بأمره بذلك[1] ؛ وكانت سنه يوم صار إليه الأمر اثنتين وثلاثين سنة ؛ فكانت مدة ولايته منذ وفاه أبيه إلى أن توفى فى شهر صفر الكائن فى سنة ٥٩٥ ، ستّ عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً ، وتوفى وله من العمر ثمان وأربعون سنة وقد وخطه الشيب .

صفته

كان صافى السمرة جدًّا إلى الطول ما هو ، جميل الوجه ، أعْيَنَ أفْوَه أقنى ، شديدَ الكحَل ، مستدير اللحية ، ضخم الأعضاء ، جَهْورىَّ الصوت جَزْل الألفاظ ، أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثاً وأكثرهم إصابة بالظن ؛ كان لايكاد يظن شيئاً إلا وقع كما ظن ، مجرِّبا للأمور ، عارفاً بأصول الشر والخير وفروعهما ؛ ولى الوزارة أيام أبيه فبحث عن الأمور بحثاً شافياً ، وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع إليه الأمور

(١) روى ابن الأثير وغيره أن أباه مات من غير وصية بالملك لأحد من أولاده ، فاتفق رأى قواد الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تمليك يعقوب .

مطالعةً أفادته معرفةَجزئياتِ الأُمور فدبَّرها بحسب ذلك فجرتْ أموره على قريب من الاستقامة والسداد حسبما يقتضيه الزمان والإقليم .

أولاده :

كان له من الولد : محمد ــ ولىُّ عهده ، وسيأْتى ذكر مولده ووفاته ــ وإبراهيم ، وعبد الله ، وعبد العزيز ، وأبو بكر ، وزكريا ، وإدريس ، وعيسى ، وموسى ، وصالح ، وعثمان ، ويونس ، وسعد ، ومساعد ، والحسن ، والحسين ؛ هؤُلاء أولاده المخلَّفون بعده ؛ ومات له فى حياته عدةٌ من الولد ، وله بنات فيهنَّ كثرة .

وزراؤه

أبو حفص عمر بن أبى زيد الهنتاتى إلى أن مات .

ثم وزَر له بعده [أبو يحيى] أبو بكر بن عبد الله بن أبى حفص عمر إينْتّى المتقدم الذكر ، واستمرت وزارة أبى يحيى هذا إلى أن استشهد ــ رحمه الله ــ ببلاد الروم على ما سيأْتى بيانه إن شاء الله ؛ فاضطرب أمر الوزارة قليلا ...

ثم وقع اختيارهم على أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن الشيخ أبى حفص المتقدم الذكر ؛ وأبو عبد الله هذا هو الملقب عندهم بالفيل ، هو ابن عم الوزير الشهيد المذكور آنفاً ؛ فوزر أبو عبد الله هذا أياماً يسيرة ، ثم ترك الوزارة مختاراً وهرب إلى بعض نواحى إشبيلية فخلع ثيابه ولبس عباءة

وتزهّد ؛ فأرسلوا إليه من ردّه وأعْفَوه من الوزارة .

ثم وَزَر له أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يُوجّان الهنتاتى ؛ فلم يزل عبد الرحمن هذا وزيرًا إلى أن مات أبو يوسف ، وصدرًا من إمارة ابنه أبى عبدالله ، ثم عزل عن الوزارة .

حجابه :

عنبر الخصى مولاه ؛ ثم ريحان الخصى مولاه أيضاً ، إلى أن مات وحجب ابنه أبا عبد الله ، فلم يزل حاجباً إلى أن مات ريحان المذكور .

كتابه :

أبو الفضل جعفر المعروف بابن مَحْشُوَّة ؛ كان من كتاب أبيه – حسبما تقدم[1] ؛ جمع أبو الفضل هذا إلى براعة الكتابة سَعةَ الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس ؛ لم يزل كاتباً له إلى أن توفى ، أعنى أبا الفضل .

فكتب له بعده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عيَّاش من أهل بُرْشانة من أعمال المرِية من بلاد الأندلس ؛ لم يزل أبو عبد الله هذا كاتباً له ولابنه محمد ولابن ابنه يوسف ؛ تركته حياً حين ارتحلت عن البلاد سنة ٦١٤ ، ثم اتصلت بى وفاته فى شهور سنة ٦١٩ وأنا يومئذ بالبلاد المصرية .

هذان الكاتبان اللذان ذكرناهما ، كاتبا الإنشاء خاصة .

(١) انظر ص ٣١٧ .

وكتاب الجيش : رجلٌ يعرف بالكُباشي ، ذهب عنى اسمه ؛ وقدكان يكتب قبله أبو الحسن بن مُغْنٍ ؛ استمرت كتابة الكُباشي هذا ديوانَ الجيش إلى أن مات أمير المؤمنين أبو يوسف .

ولم يكتب لهم منذ قام أمرهم – أعنى من كتبة الإنشاء – مَن عرف طريقتهم وصبَّ فى قالبهم وجرى على مهْيَعِهم وأصاب ما فى أنفسهم كأبى عبد الله بن عياش هذا ؛ فإن القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب ؛ ثم جرى الكُتاب بعده على أسلوبه وسلكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة .

قضاته

أبو جعفر أحمد بن مضاء المتقدم الذكر[1] إلى أن مات ؛ وولى بعده أبو عبد الله محمد بن مروان من أهل مدينة وهران ؛ ثم عزله وولّى بعده أبا القاسم أحمد بن محمد ، رجلا من ولد بَقِيّ بن مخْلد الفقيه المحدث الذى يَروى عن أحمد بن حنبل ؛ وقد تقدم ذكرُ بَقِيٍّ هذا وطرفٌ من أخباره فى صدر الدولة الأموية فى أخبار الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الداخل بالأندلس[2] .

لم يزل أبو القاسم هذا قاضياً إلى أن توفى أمير المؤمنين أبو يوسف ، وشيئاً من أيام ابنه محمد .

---

(٢) انظر ص ٤٩ وما بعدها .

(١) انظر ص ٣٢٠ .

ولما مات أبو يعقوب – كما ذكرنا – على مراحل من مدينة شنترين ، سُترت وفاته إلى أن بلغوا إشبيلية ، وهم فى كل يوم يُصبحون يمشون بين يدى الدابة التى عليها المحفَّة مشاة على أرجلهم كما جرت العادة ؛ ثم يركبون والمحفَّة مسدول عليها ستر أخضر ؛ إلى أن بلغوا إشبيلية كما ذكرنا ؛ فخرج الإذن من أمير المؤْمنين أبى يعقوب – زعموا – بتجديد البيعة لابنه أبى يوسف[1] ؛ فبايعه المصامدة والناسُ عامة من جميع الأَصناف .

وكان الذى سعى فى بيعته وقام بها ورغَّب فيها وتولى كِبْرَ أمرها ، ابنُ عمه أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤْمن ؛ فتم له الأَمر وبايعه الناس ، يحسبون ذلك بإِذن أبيه ؛ فلما فرغ مما أراده من ذلك وتهيأَله أعلن وفاة أبيه عند خواصِّ الدولة ؛ ولم تجر عادتهم بإِعلان موت خلفائهم عند العامة إلى هَلُمَّ .

وكان له من إخوته وعمومته منافسون لايرونه أهلا للإمارة لما كانوا يعرفون من سوء صِباه ؛ فلقى منهم شدةً – على ما سيأْتى بيانه – وكانت هذه البيعة العامة – كما ذكرنا – فى سنة ٥٨٠ .

ولما استوسق أمره – على ما تقدم – عبر البحر بعساكره وسار حتى نزل مدينة سلا ، وبها تمَّتْ بيعته واستجاب له من كان تلكأً عليه من أعمامه

---

(١) انظر التعليق ٢ ص ٣٣٦ .

من ولد عبد المؤمن ، بعد ما ملأ أيديهم أموالا وأقطعهم الأقطاع الواسعة .

[بنيان مدينة الرِّباط]

ثم شرع فى بنيان المدينة العظمى[1] التى على ساحل البحر والنهر من العُدوة التى تلى مراكش : وكان أبو يعقوب – رحمه الله – هو الذى اختطَّها ورسم حدودَها وابتدأ فى بنيانها ، فعاقه الموت المحتوم عن إتمامها ؛ فشرع أبو يوسف – كما ذكرنا – فى بنيانها إلى أن أتم سورها ؛ وبنى فيها مسجداً عظيماً كبير المساحة واسع الفِناء جداً ، لا أعلم فى مساجد المغرب أكبرَ منه ؛ وعمل له مأذنة فى نهاية العُلُو ، على هيئة مَنَار الإسكندرية ، يُصْعَدُ فيه بغير دَرَج ، تَصْعد الدوابُّ بالطين والآجُرّ والجِصّ وجميع ما يُحتاج إليه إلى أعلاها ؛ ولم يتم هذا المسجد إلى اليوم ؛ لأن العمل ارتفع عنه بموت أبى يوسف ؛ ولم يعمل فيه محمدٌ ولا يوسف شيئاً ؛ وأما المدينة فتمَّت فى حياة أبى يوسف وكملت أسوارها وأبوابها وعَمر كثيرٌ منها ؛ وهى مدينة كبيرة جداً تجىءُ فى طولها نحواً من فرسخ ، وهى قليلة العرض .

ثم خرج بعد أن رتَّب أشغال هذه المدينة وجعل عليها من أُمناء المصامدة من ينظر فى أمر نفقاتها وما يُصلحها ؛ فلم يزل العمل فيها وفى مسجدها المذكور طول مدة ولايته إلى سنة ٥٩٤ ، وسار هو حتى نزل مراكش .

---

(١) هى مدينة رباط الفتح .

[طمع بنى غانية فى التغلب على إفريقية]

وفى هذه السنة – أعنى سنة ٨٠ – خرج المُيُرقيون بنو ابن غانية من جزيرة مُيُرقة قاصدين مدينة بجاية ، فملكوها وأخرجوا من بها من الموحدين ؛ وذلك لست خلون من شعبان من السنة المذكورة ؛ وهذا أول اختلال وقع فى دولة المصامدة ، لم يزل أثره باقياً إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ .

[التعريف ببنى غانية ودار مُلكهم]

وتلخيص خبر هؤلاء القوم – أعنى بنى غانية – أن أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، وجه إلى الأندلس برجلين ؛ اسم أحدهما يحيى ، والآخر محمد[1] ، ابنى علىّ ، من قبيلة مسوفة يعرفان بابنى غانية ، وهى أمهما .

[يحيى بن غانية]

فأما يحيى منهما ، وهو الأكبر ، فكان حسنة من حسنات الدهر ، اجتمع له من المناقب ما افترق فى كثير من الناس ؛ فمنها أنه كان رجلا صالحاً شديد الخوف لله – عز وجل – والتعظيم له والاحترام للصالحين ؛ هذا مع علوّ قدم فى الفقه واتساع رواية للحديث ؛ وكان مع هذا شجاعاً فارساً ، إذا ركب عُدَّ وحده بخمسمئة فارس ؛ وكان علىُّ بن يوسف يُعِدُّه للعظائم ويستدفع به المهمات ، وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس ودفع

(١) يسميه ابن خلكان : حمو « بفتح الحاء وبعدها ميم مشددة مضمومة » .

به عن المسلمين غير مرة مكارِهَ قد كانت نزلت بهم ؛ كان أمير المسلمين ولاه مدينة بلنسية ، ثم عزله عنها وولاه قرطبة ؛ فلم يزل بها والياً إلى أن مات – رحمة الله عليه – أول الفتنة الكائنة على المرابطين . لاأعلم له عقباً .

[محمد بن غانية]

وكان أخوه محمد والياً من قبله على بعض أعمال قرطبة ، فلما مات اضطرب أمر محمد هذا وبقى يجول فى بلاد الأندلس والفتنةُ تتزيّدودعوةُ المصامدة تنتشر ؛ فلما اشتد خوفُ محمد هذا أتى مدينة دانية فعبر منها إلى جزيرة مُيُرقة فى حشمه وأهل بيته ، فملكها والجزيرتين اللتين حولها : مُنُرقة ، ويابسة[1] ؛ ويقال إن أمير المسلمين على بن يوسف نفاه إليها على طريق السجن بها ؛ فالله أعلم .

وهذه الجزيرة – أعنى ميرقة – أخصب الجزر أرضاً ، وأعدلُها هواءً ، وأصفاها جوًّا ، طولها وعرضها نحو من ثلاثين فرسخاً ، اتفق أهلها على أنهم لم يروا فيها شيئاً من الهوام المؤذية قط منذ عمرت ، من ذئب أو سَبُع أو حية أو عقرب ، إلى غير ذلك مما يُخشى ضرره ؛ ويجاورها بالقرب منها جزيرتان تقربان منها فى الخصب ، تسمى إحداهما مُنُرقة ، والأُخرى يابسة ، وقد تقدم ذكرهما .

(١) انظر التعليق رقم ٢ ص ٢١٢ .

... فاستقل محمد بمملكة هذه الجزر ، وضَبَطها لنفسه ، وأقام فيها جارياً على أمر لمتونة الأول : يدعو لبنى العباس ؛ وكان له من الولد : عبدُ الله وإسحاق ، والزبير ، وطلحة ؛ وبنات .

فعهد فى حياته إلى أكبر ولده ، عبد الله ؛ فنفس ذلك عليه أخوه إسحاق ودخل عليه فى جماعة من الجند وعبيدٍ له فقتله ــ قيل فى حياة أبيه ، وقيل بعد وفاته .

[إسحاق بن محمد]

وتُوفى عبد الله المذكور واستقل أبو إبراهيم[1] بالملك استقلالا حسناً ، وحسنت حاله ، وكثر الداخلون عليه بجزيرة مُيرقة من فَلٍّ لمتونة وبقاياهم فكان يُحسن إليهم ويصلُهم حسب طاقته .

وأقبل على الغزو وصَرَف عنايته إليه فلم يكن له همٌّ غيره ؛ فكان له فى كل سنة سَفْرتان إلى بلاد الروم ، يغنم ويسبى وينكى فى العدو أشدّ نكاية إلى أن امتلأت أيدى أصحابه أموالا ؛ فقوى بذلك أمره ، وتشبّه بالملوك ؛ لم يزل وهذه حالُه إلى أن توفى فى سنة ٧٩ ، فى أولها وفى آخر أيام أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤْمن .

وكان يراسل الموحدين ويهاديهم ويهادنهم ويختصُّهم من كل ما يسْبى ويغنم بنفيسه وجيِّده ؛ يشغلهم بذلك عنه ، مع احتقارهم لأمر تلك الجزيرة وقلة التفاتهم إليها ؛ فلما كان فى شهور سنة ٥٧٨والوا إليه الكتب يدعونه

(١) يعنى اسحاق بن محمد بن غانية .

إلى الدخول فى طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ويتوعدونه على ترك ذلك ؛ فوعدهم ذلك واستشار وجوهَ أصحابه فاختلفوا عليه ؛ فمن مُشير عليه بالامتناع بمكانه ، وحاضٍ له على الدخول فيما دعوه إليه : فلما رأى اختلافهم أرجأ الأمر إلى أن ينظر ...

وخرج إلى بلاد الروم غازياً ، فاستشهد - رحمه الله - هناك ؛ وقيل إنه طُعن طعنة فى حلقه لم يمت منها مكانه وإنما جىء به حيًّا حتى أُدخل قصره فمات فيه ، والله أعلم[1] .

وكان له من الولد : علىّ - وهو أكبر ولده والقائمُ بأمره من بعده - [وعبدالله] ويحيى ، وأبو بكر ، وسير ، وتاشفين ، ومحمد ، والمنصور ، وإبراهيم ؛ توفى إبراهيم هذا بدمشق حين كان نازلا بها على السلطان الملك العادل .

[على بن اسحاق]

ولما توفى أبو إبراهيم إسحاق بن محمد المذكور ، قام بالأمر من بعده ابنه علىٌّ بعهد أبيه إليه ، وخرج بأُسطول مُيرقة إلى العُدوة ، وقصد مدينة بجاية حين راسله جماعةٌ من أعيانها - على ما يقال - يدعُونه إلى أن يملّكوه ولولا ذلك لم يجسر على الخروج ؛ ومما جرّأه أيضاً كوْنُ الموحدين بالأندلس ، وسماعُه خبر موت أبى يعقوب ، واشتغالُهم ببيعة أبى يوسف ؛ وظن أن الأمر سيضطرب وأن الخلاف سينشأ ؛ فكان هذا أيضاً مما أعانه على الخروج ؛ ولولا هذه الأسباب التى ذكرنا لم يجسر على الخروج ...

(1) ذكر ابن خلكان ان وفاته كانت فى سنة ٥٨٠ .

فقصد ساحل بجاية فنزل به ، فقاتله أهلها قتالا غير كثير ، ثم دخلها ؛ وكان دخوله إياها – كما ذكرنا – يوم الاثنين لست خلون من شعبان من السنة المذكورة .

[استطراد انتقاض العرب بأفريقية على الموحدين]

وكان فيها إذ دخلها ، أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ؛ لم يكن والياً عليها وإنما كان الوالى عليها أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن، وكان أبو موسى مارًّا بها حين رجع من أفريقية ، وكان والياً عليها هو وأخوه الحسن من قِبَل أخيهما أبى يعقوب ، فظهر من العرب إفساد ببعض نواحى أفريقية[1] ، فخرج أبو موسى هذا وأخوه أبو على بجيش من المصامدة ومن انضاف إليهم من العرب وسائر الجند ، فالتقوا هم وأولئك العرب المفسدون ؛ فانهزم جند أفريقية عنهما وأخذتهما العرب أسيرين ، فأقاما عندهم .

وانتهى الخبر إلى أبى يعقوب ، فأرسل إلى أولئك العرب ؛ فطلبوا مالاً اشتطُّوا فيه غاية الاشتطاط ؛ ثم إن الأمر تقَرر بينهم وبين الموحدين على ستة وثلاثين ألف مثقال ، فلما أُخبر بذلك أبو يعقوب استكثر المال وقال: هذه أيضاً مَضرّة أُخرى ؛ إن أعطيناهم مثل هذا المال تَقووْا به على ما يريدونه من الفساد ! ثم اتفق رأيهم على أن يضربوا لهم دنانير من

(١) انظر التعليق ص ٢٧٢ – ٢٧٥ والتعليق رقم ٤ ص ٢٩٤ عن شأن العرب فى أفريقية منذ خلع المعز بن باديس طاعة العبيدين .

من الصُّفر مموَّهة ، ففعلوا ذلك وأرسلوا بها إليهم ؛ فأَطلقوا أبا على وأبا موسى ومن كان معهما من خدمهما وحاشيتهما .

فهذا ما أَوجب كونَ أَبي موسى ببجاية ، فخرج من أَسر العرب إلى أَسر المُيُرقيين ! .

[رجع الحديث عن بنى غانية فى بجاية]

فدخل على بن اسحاق – كما ذكرنا – بجاية فى اليوم المؤَرخ ، وأَقام بها سبعة أَيام صلى فيها الجمعة فخطب ودعا لبنى العباس[1] ، ثم للإمام أَبي العباس أَحمد الناصر منهم ، وكان خطيبه الفقية الإمام المحدِّث المتقن أَبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأَزدى الإشبيلى – مؤلِّف كتاب الأَحكام وغيره من التآليف – فأَحنق ذلك عليه أَبا يوسف يعقوب أَمير المؤْمنين ، ورام سفك دمه ، فعصمه الله منه وتوفاه حتف أَنفه وفوق فراشه !

وخرج على بن إسحاق من بجاية بعد أَن أَسس أُموره فيها ، وسار حتى نزل على قلعة بنى حماد ، فملكها وملك جميع تلك النواحى ؛ فانتهى ذلك إلى أَمير المؤْمنين يعقوب ، فخرج بالموحدين قاصداً مدينة بجاية ، فلما سمع على بقدومه خرج له عنها وقصد بلاد الجريد[2] .

---

(١) انظر ص ٢٧٢ و ٣٤٤ .

(٢) يروى ابن الأثير نبأ استيلاء ابن غانية المـــرابطى على بجاية وما يليهـــا من البلاد ثم خروجها من يده ، فيقول : انه سار الى بجاية منجزيرة ميورقة فى اســـطول مكون من عشرين قطعة ، فارسى فى ساحل بجاية ، وآزره على ذلك جماعة من بقايا دولة بنى حماد ، فدخلها بلا =

[استرجاع بجاية من يد الميورقيين]

ونزل أمير المؤمنين بالقرب من بجاية ، فتلقاه أهلها ، فلقيهم منشرح الصدر ظاهر البشر ، وقال لهم من القول ما بسط به نفوسهم وردّ إليهم نافرَ أنسهم ، وقد كانوا يظنون غير ذلك ، فخرجوا من عنده متعجبين مما رأوا منه وسمعوا ...

واستعمل على بجاية من أعيان الموحدين رجلا اسمه محمد بن أبي سعيد الجنْفِيسيّ ؛ ثم سار حتى نزل مدينة تونس ، فجهز جيشاً عظيماً أمّر عليهم رجلا من ولد عمر بن عبد المؤمن اسمه يعقوب ، وذلك لِمَا كانوا يرونه فى ملحمة كانت عندهم من أنهم سيُهْزَمون مع رجل اسمه يعقوب ، بموضع يعرف بوطا عمره[1] ؛ فسار يعقوب هذا بالجيش المذكور وأقام هو فى تونس ؛ فكانت الهزيمة على يعقوب بن عمر كما ذُكر ؛ وذلك أن الموحدين التقوا هم وأصحاب على بن غانية ، فانهزم الموحدون انهزاماً

كبير عناء ، وكان والى بجاية الموحدى قد سار عنها قبل ذلك بأيام الى مراكش ، اذ لم يكن فى وهمه أن يجترىء أحد على قصد بلده ، فلمـــابلغه النبا عاد ومعه ثلاثمئة فارس من الموحدين ، وجمع من العرب والقبائل فى تلك البلاد نحـــو ألف فارس ، ولكنه لم يلبث أن انهزم لانحياز من معه من المقاتلة الى ابن غانية ، وقصد أمير بجاية الى مراكش وترك ابن غانية يزحف على ما يليه من البلاد ، فدانت له جميعها بالطاعة الا قسنطينة ، فحصرها ، ولم يزل محاصرا لهـــا حتى جاء جيش الموحدين فى صفر سنة ٥٨١ الى بجاية فى البر والبحر ، وكان بها ـ فيما يصـــف ابن الأثير ـ يحيى وعبد الله اخوا على بن اسحاق ، فخرجا منها هاربين ولحقا بأخيهما ، فرحل عن قسنطينة الى أفريقية ، شرقا .

(١) كذا يروى المراكشى ، والقصـــد غير واضح : هل ولوا يعقوب هذا لينهزموا تصديقا لما جاء فى الملحمة ، أو ولوه تحديا لما جاء فى الملحمة فلم ينفعهم التحدى ؟

قبيحاً ، واتبعتْهم العرب والبَربر يقتلونهم فى كل وجه[1] ؛ وهلك أكثرهم عطشاً ، ورجع بقيتهم إلى تونس حيث أمير المؤْمنين ؛ فلمَّ شَعَثهم ، وجبر ما وهَى من أحوالهم ، وخرج هو بنفسه حتى لقى على بن غانية بموضع يعرف بالحامة ، حامة دُقْيُوس ؛ فما وقف أصحابُ علىٍّ إلا يسيرًا حتى انكشفوا عنه ، وأبلَى هو عذرًا فأثْخن جراحا ، وخرج فارًا بنفسه فمات فى خيمة لعجوز أعرابية[2] .

وكان حين خرج من مُيرقة خرج معه من إخوته : عبد الله ، ويحيى ، وأبو بكر وسِير ؛ فبقى هؤُلاء المذكورون بعد موت أخيهم على من كان معهم من أصحابهم ؛ ثم رأوا أن يقدموا عليهم يحيى لما رأوا من شهامته وشجاعة نفسه ؛ فقدّموه ، ثم لحقوا بالصحراء فكانوا بها مع العرب الكائنين هناك إلى أن رجع أمير المؤْمنين من هذا الوجه .

[استرجاع قفصة]

وفى هذه السَّفرة انتقضت عليهم أيضاً مدينة قفْصَة ، ونزع أهلها أيديهم من طاعتهم ودعَوا للمُيرقيين[3] ؛ فنزل عليها أمير المؤْمنين أبو

(١) كان العرب يؤازرون بنى غانية فى هذه المعارك بينهم وبين الموحدين ، كما كان يؤازرهم الغز من المماليك المصريين ، وسيرد ذكر هؤلاء الغز فى بعض ما يلى من الكتاب .

(٢) رواية ابن خلكان : « فمات علـى ولا أعلم تاريخ وفاته ، ولكنه كان حيا فى سنة ٥٩١» وقد ذكر ابن الأثير أن على بن اسحق كان حيا الى ما بعد عودة أبى يعقوب من الأندلس فى رحلته التى يذكرها المراكشى بعد . انظر ص ٣٥٦ .

(٣) انتقضت قفصة على الموحدين مرتين : أولاهما فى سنة ٥٧٦ وكان واليها يومئذ من قبل الموحدين « على بن المعز بن المعتز » قد رأى غلبة الغز المصريين على طائفة من بلاد أفريقية وانقيـاد العرب لهم ، فحدث له طمع فى الاستقلال ببلده .. ولكنه لم يلبث أن غلب على أمره ، فرجع الى=

يوسف فحاصرها أشدَّ الحصار ؛ ثم دخلها عَنوة فقتل أهلها قتلا ذريعاً ؛ بلغنى أنه قتَل أكثرهم ذبحاً ؛ وأمر بأسوارها فهُدّت .

[إبراهيم الزويلى الكاتب]

وفى ذلك يقول رجل من أصحابنا من الكتّاب ، اسمه إبراهيم ، يُعرف عندنا بالزويلىّ ، [كنيته أبو إسحاق] ، فى قصيدة طويلة له يمدح بها أمير المؤمنين أبا يوسف ويذكر شأن قفصة ورمْيهم إياها بحجارة المنجنيق :

سائلْ بقفصةَ هل كانالشقىُّ لها(1) بَعْلاً وكانت له حَمّالة الحطبِ

تَبّتْ يدَا كافرٍ بالله أَلهبَها فكان كالكافر الأَشْقَى أَبى لهب

الموحدين معتذرا تائبا ، فقبل أبو يوسف ذلك منه وسيره الى بلاد المغرب مكرما عزيزا ، واقطعه ولاية كبيرة ، على عادة الموحدين فى بر اللاجئين اليهم من أصحاب العروش الهاوية !.

وأما الانتقاضه الأخرى ـ وهى التى يقصدها المؤلف ـ فكانت سنة ٥٨٢ ، وهى السنة التى ملك فيها على بن اسحاق مدينة بجاية ، وذلك أن عرب بنى هلال ومن انضاف اليهم من الغز المصريين وعلى رأسهم شرف الدين قراقوش ؛ وبوزابة مملوك تقى الدين الايوبى ـ اجتمعوا على خلع طاعة الموحدين والانضواء الى على بن اسحاق الميورقى ؛ ولقبوه أمير المسلمين ـ وهو لقب خلفاء المرابطين الذين ينتمى اليهم ـ فدخلها على بن اسحاق ، ودعا فيها للعباسيين ، فلما بلغ النبأ أبا يوسف أمير الموحدين سير اليهم جيشا فوافاهم بقفصة فى سنة ٥٨٣ ...

وكانت الدائرة على المرابطين، وأسرف الموحدون فى القتل حتى كادوا يبيدون أهل المدينة، بعد ان قطعوا أشجارها وخربوا ما حولها وأحالوها انقاضا ...

وقد استأمن الغز بعد هذه الوقعة الى أبى يوسف ، فاجابهم الى ما طلبوا وسيرهم الى الثغور لما رأى من شجاعتهم ونكايتهم فى العدو ...

(1) يعنى ابن غانية .

وفيها يقول :

لمَّا زَنَت وهى تحت الأَمر مُحْصَنةً
حصَبْتُمُوها اتِّباعَ الشرْعِ بالحصَبِ

أنشدنى - رحمه الله - هذه القصيدة بلفظه من أولها إلى آخرها : فلما انتهى إلى هذا البيت «لما زنت ... » غلبنى الضحك لِمَا سبق إلى خاطرى من سوءِ معناه(١) ؛ فسترتُ وجهى ، فقال لى : ما لك ؟ فلم أملك أن قهقهت ! فتغير لى ؛ فلما خِفْتُ غضبه أخبرته بما سبق إلى خاطرى ، فسبَّنى وقال لى : أنت واللهِ شيطانٌ سيءُ القريحة ، غالبٌ على طباعك اللهو!..

واستمر فى إنشاده حتى أتم القصيدة .

وأبو إسحاق الزويلىٌّ هذا من شيوخ الكتاب وظرفاءِ الشعراء ، جمعتنى وإياه مجالسُ عند السيد الأجلِّ أبى زكريا يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن ، شاهدت فيها من ظرفه وغزارة بديهته ما قضيتُ منه العجب .

[رجع الحديث عن بنى غانية]

ولما فرغ أبو يوسف من أمر أفريقية كرّ راجعاً إلى المغرب .

ولم يزل يحيى بن غانية قائماً بما كان يقوم به أخوه من تدبير الأمور ؛ ورجع منهم عبد الله خاصة إلى جزيرة مُيُرقة ، فألفاها قد انتقضت عليهم ودُعى فيها للموحدين ؛ فعل ذلك أخوهم أبو عبد الله محمد بن إسحاق ؛

(١) فى هامش المخطوط : الذى سبق الى خاطره : أن « الأمر » فى اصطلاحهم الخليفة .

فلما قدم عبد الله قام معه عِلْجٌ من عُلوج أبيه يُسمَّى نجاحا .

كان نجاحٌ هذا لم ينقض عهدًا ولا نزع يدًا من طاعة ؛ وكان متحصناً فى قلعة ومعه جماعة على رأيه من الموالى والجند .

فلما قدم عبد الله - كما ذكرنا - تلقَّوه ، وانضاف إليهم خلقٌ من بوادى الجزيرة من الفلاحين ورُعاه الغنم ؛ فنهد بهم عبد الله إلى المدينة ، فلم يدفعه عنها أحد ولا امتنع عليه من أهلها ممتنع ؛ ففتحوا له الأبواب ، ودخلها بمن معه ؛ وأخرج أخاه محمدًا ونفاه إلى الأندلس ؛فحظى محمد هذا عند المصامدة حُظوة عظيمة ، وولَّوه مدينة دانية فلم يزل والياً عليها حتى مات .

واستقر عبد الله بميرقة فضبط أمرها وجرى فى الغزو وإخافة العدوّ على سَنن أبيه ؛ فلم يزل كذلك إلى أن دخلها عليه المَوَحِّدون فى سنة ٥٩٩ على ما سيأتى بيانه إن شاء الله .

ولم يزل أمر يحيى بأفريقية يَنْبُه تارة ويَخْمُل أُخرى ؛ وله أَخبارٌ يطول شرحها ويخرج عن الغرض بسطها .

[اختلاف بنى عبد المؤمن]

وحين كان أمير المؤمنين أبو يوسف غائباً فى هذا الوجه الذى ذكرنا ، طمع فى الأمر أخوه أبو حفص عمرُ المتلقِّب بالرشيد ، وعمُّه [أبو الربيع] سليمان بن عبد المؤمن ، وكان أحدهما بشرقىّ الأندلس بمدينة مُرْسِية ، والآخر بتادلا من بلاد صُنهاجة .

فأما أبو الربيع سليمان فسوّلت له نفسه وزيّن له سوءُ رأيه أن يجمع على نفسه قبائل صنهاجة ليقوموا بدعوته ، وصرح بذلك ودعا أشياخهم فألقى إليهم ما أراد ؛ فلم يتفق له من ذلك أكثرُ من أن تشعّثتْ عليه البلاد وانتشرت عنه هذه الأُشنوعة القبيحة ، وبلغ الخبر أمير المؤمنين...

وأما عمر فكان قد بدأ من ذلك بتنقُّص أمير المؤمنين أبي يوسف على رءوس الأشهاد ، تعريضاً مرة وتصريحاً تارة ، وإلقاء ذلك إلى خواصّه ليُلقوه إلى وجوه الأندلس ؛ وانتهى أن قَتل قاضيَ مُرسية وخطيبَها المعروف بابن أبي جمرة ، وقيل إنه وَكزه برئاس السيف فى صدره وكزةً مات منها بعد أيام ...

فاستحثّتْ هذه الأخبارُ أميرَ المؤمنين وأزعجته ، فعَجِلَ من بجاية إلى فاس سبعَ عشرةَ مرحلة ؛ وهذا نهاية ما يكون من سرعة السير لمثله ؛ فلما سمع بقدومه أبو الربيع سليمان وعمر المذكوران ، خرجا يلتقيانه ؛ فعبر عمر البحر ، وجاء سليمان بمن معه من تادلا للقائه أيضاً ...

فأما عمر فلقيه بالقرب من مدينة مكناسة ، فلما رآه نزل عن دابته على العادة ليسلم عليه ، فلما قرب منه لم تَدُرْ بينهما كلمتان حتى أمر بالقبض عليه وتقييده ، وحُمل بعد التقييد إلى مدينة سَلاَ ...

ولقيه سليمان عمُّه ، ففعل به مثل ذلك ؛ وسار حتى نزل مدينة سلا ، وفَصَل عنها بعد أن وكل بهما من يقوم عليهما ، وأثقلهما بالحديد .

وسار حتى بلغ مراكش ، فكتب إلى القائم عليهما بقتلهما وتكفينهما

والصلاة عليهما ودفْنهما ؛ فقتلهما صبرًا ودفنهما وكتب يُعلمه بذلك ؛ فبلغنى أنه قال له : بنيتُ قبرهما بالكدان والرخام ؛ وجعل يذكر حسنَهما ، فكتب إليه : مالنا ولدفن الجبابرة ، إنما هما رجلان من المسلمين ، فادفنهما كيف يُدْفَنُ عامة المسلمين .

وبعد قتْله هذين الرجلين هابه بقيةُ القرابة وأُشربت قلوبُهم خوفه ، بعد أن كانوا متهاونين بأَمره محتقرين له لأَشياء كانت تظهر منه فى صِباه تُوجب ذلك ؛ وكان قتْله هذين الرجلين فى سنة ٥٨٣ ، وأظهر بعد ذلك زُهدًا وتقشُّفاً وخشونةَ ملبس ومأْكل .

وانتشر فى أيامه للصالحين والمتبتلين وأهلِ علم الحديث صِيتٌ وقامت لهم سوق ، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس ؛ ولم يزل يستدعى الصالحين من البلاد ويكتب إليهم يسأَلهم الدعاء ويصل من يقبل صِلته منهم بالصِّلات الجزيلة .

[دعوة أبى يوسف إلى الأَخذ بالكتا ب والسنة]

وفى أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاءُ ، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرِّد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ، ففعل ذلك ، فأَحرق منها جملة فى سائر البلاد ، كمدوَّنة سُحْنون وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أَبى زيد ومختصره ، وكتاب التهذيب للبراذعى ، وواضحة ابن حبيب ، وما جانَس هذه الكتب ونَحَا نحوها... لقد شهدتُ منها وأنا يومئذ بمدينة فاس ، يؤْتَى منها بالأَحمال فتوضع

ويطلق فيها النار ؛ وتقدَّم إلى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض فى شيء منه ، وتَوَعَّد على ذلك بالعقوبة الشديدة ؛ وأمر جماعةً ممن كان عنده من العلماء المحدِّثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة : (الصحيحين والترمذى ، والموَطَّإِ ، وسُنن أبى داود ، وسُنن النَّسائى ، وسنن البَزّار ، ومسند ابن أبى شَيبة ، وسنن الدَّار قُطنى ، وسنن البَيْهَقى) فى الصلاة وما يتعلق بها ، على نحو الأحاديث التى جمعها محمد بن تومرت فى الطهارة ؛ فأجابوه إلى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه ؛ فكان يُمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه ؛ وانتشر هذا المجموع فى جميع المغرب وحفظه الناس من العوّام والخاصة ؛ فكان يجعل لمن حفظه الجُعْلَ السَّنِىَّ من الكِسَا والأموال .

وكان قصْده فى الجملة مَحْوَ مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة، وحَمْلَ الناس على الظاهر من القرآن والحديث ؛ وهذا المقصد بعينه كان مقصدَ أبيه وجدِّه ، إلا أنهما لم يُظهراه وأظهره يعقوب هذا .

يشهد لذلك عندى ما أخبرنى غيرُ واحد ممن لقى الحافظ أبا بكر بن الجدّ ، أنه أخبرهم قال : لما دخلتُ على أمير المؤمنين أبى يعقوب أولَ دَخْلة دخلتُها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس ، فقال لى : يا أبا بكر ، أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أُحدثت فى دين الله ؛ أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعةُ أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا : فأى هذه الأقوال هو الحق وأيُّها يجب أن يأخذ به المقلِّد ؟ فافتتحت أُبيِّن له ما أشكل عليه من ذلك ؛ فقال لى وقطَع كلامى : يا أبابكر

ليس إلا هذا ؛ وأشار إلى المصحف ؛ أو هذا : وأشار إلى كتاب سُنَن أبي داود ، وكان عن يمينه ؛ أو السيف !

فظهر فى أيام يعقوب هذا ما خفى فى أيام أبيه وجده ؛ ونال عنده طلبةُ العلم — أعنى علم الحديث — مالم ينالوا فى أيام أبيه وجدِّه ؛ وانتهى أمره معهم إلى أن قال يوماً بحضرة كافة الموحِّدين يُسمعهم وقد بلغه حَسَدُهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم وخَلْوته بهم دونهم.. يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل ؛ فمن نابه منكم أمرٌ فَزِعَ إلى قبيلته ؛ وهؤلاء — يعنى الطلبة — لا قبيل لهم إلا أنا ، فمهما نابهم أمر فأنا ملجَؤُهم وإلىَّ فَزَعُهم وإلىَّ ينتسبون !

فعظم منذ ذلك اليوم أمرُهم وبالغ الموحِّدون فى برِّهم وإكرامهم .

[استرجاع مدينة شِلب]

ولما كان فى سنة ٥٨٥ ، قصد بِطْرُو بن الرّيق [1] — لعنه الله — مدينة شِلب ، من جزيرة الأندلس ؛ فنزل عليها بعساكره ، وأعانه من البحر الإفرنج بالبُطْس والشوانى : وكان قد وجَّه إليهم يستدعيهم إلى أن يعينوه ، على أن يجعل لهم سَبْىَ البلد وله هو المدينة خاصة ؛ ففعلوا ذلك ونزلوا عليها من البَر والبحر ؛ فملكوها وسَبَوْا أهلها ؛ وملك ابنُ الريق — لعنه الله — البلد .

وتجهز أميرُ المؤمنين فى جيوش عظيمة وسار حتى عبر البحر ؛ ولم يكن له

---

(١) هو بيدرو بن الفونس هنريكيز ملك البرتغال .

همٌ إلا مدينة شِلب المذكورة ، فنزل عليها : فلم تُطق الرومُ دفاعه وخرجوا عنها وعما كانوا قد ملكوه من أعمالها ؛ ولم يكفه ذلك حتى أخذ حصناً من حصونهم عظيماً يقال له طُرُّش ؛ ورجع إلى مراكش .

[طامعٌ آخر من بني عبد المؤمن]

وبعد رجوعه مرض مرضاً شديدًا خِيف عليه منه ؛ وكان قد ولّى أخاه أبا يحيى ، الأندلس ، فجعل يتلكأُ في خروجه ويبطئُ تربُّصاً به وطمعاً في وفاته ؛ وكلما أفاق هو سأل : هل عبر أبو يحيى أم لا ؟ فلما بلغ أبا يحيى استحثاثه إياه ، أسرع إلى العبور وهو لايشك أن أول ما يَرِد عليه خبرُ وفاته ؛ فاستمال أشياخ الجزيرة ودعاهم إلى نفسه ، وقال : ما تركتُ أمير المؤمنين إلا هامَة اليومِ أو غد ، وليس لها غيري !

فجعل أشياخُ الجزيرة يُحيل بعضهم على بعض ، وأهلُ بلد على أهل بلد ؛ حتى بلغ مُرْسية : وكتبوا بذلك مساطيرَ خوفاً على أنفسهم .

وأفاق أمير المؤمنين من مرضه ، وأشار عليه الأطباءُ بالسفر ، فخرج قاصداً مدينة فاس ، يُحْمَل في مَحَفَّةٍ على بغلين ؛ وبلغه أمرُ أبي يحيى المذكور ، وجاءته كتبُ أهل الأندلس والمساطيرُ التي كتبوها .

ولما سمع أبو يحيى بحركته ، جاء معتذرًا إليه حتى عبر البحر ، فلقيه بمدينة سَلاَ ؛ فلما وقعت عينُه عليه قال لمن عنده : هذا الشقيُّ قد جاء !

وأمر به فقُيِّد ، ووجَّه إلى أشياخ الأندلس فحضروا وأدُّوا شهاداتهم ؛ وأمر به فأُحضر وقال : إنما أقتلك بقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا بويع

خليفتان بأرض فاقتلوا الآخِر منهما » ! وأمر به فضُربت عنقُه ؛ تولى قتْله أخوه لأبيه عبد الرحمن بن يوسف ؛ وذلك بمحضرٍ من الناس ، وأمر به فكُفِّن ودُفن ؛ وأقبل على القرابة فنال منهم بلسانه وأخذ منهم أخذًا شديدًا ، وأمر بإخراجهم على أسوإ حال ، حُفاةً عُراة الرءوس ؛ فخرجوا وكلٌّ واحدٍ منهم لايشك أنه مقتول !

ولم يزل أمرُ القرابة من يومئذ فى خمول وهلُمّ ، وقد كانوا قبل ذلك لافرق بين أحدهم وبين الخليفة سوى نفوذِ العلامة ؛ فكان جملةُ من قتل يعقوبُ : أخويه وعمّه !

[وقعة الأَرك]

ولما كان فى سنة ٩٠ انتقض ما بينه وبين الأَدفنش – لعنه الله – من العهد [١] ؛ فخرجت خيلُ الأَدفنش تدوس البلاد وتجوس خلالها إلى أن كثر عيثُها بالأَندلس .

وتجهّز أمير المؤمنين وأخذ فى العبور ، فعبر البحر فى جمادى الآخرة من سنة ٥٩١ بجموع عظيمة ، ونزل مدينة إشبيلية ، فلم يُقم بها إلا يسيرًا ريثما اعترض الجندَ وقسم الأَموال ، وخرج يقصد بلاد الروم .

وسمع الأَدفنش – لعنه الله – بقصده ، فتجهز هو أيضاً فى جموع ضخمة ؛ والتقوا بموضع يُعرف بفُحْص الحديد : وكان الأَدفنش قد جمع جموعاً

(١) هو الفونس الثامن ملك قشتالة .

لم يجتمع له مثلُها قَطُّ [1] ؛ فلما تراءى الجمعان اشتد خوف الموحدين وساءت ظنونهم لِمَا رأوا من كثرة عدوهم ؛ وأميرُ المؤمنين فى ذلك كله لامستنَدَ له إلا الدعاءُ والاستعانة بكل من يظنّ عنده خيرًا من الصالحين .

فلما كان يوم الأربعاء وهو الثالث من شعبان[2] من هذه السنة المذكورة، التقى المسلمون وعدوُّهم ؛ فأنزل الله على الموحدين نصره ، وأفرغ عليهم صبره ، ومنحهم أكتافَ الروم ؛ وكانت الدائرة على الأدفنش ــ لعنه الله ــ وأصحابه ؛ ولم ينجُ إلا هو فى نحو من ثلاثين من وجوه قواده ؛ واستُشهد من المسلمين جماعة من أعيان الموحدين وغيرهم ، منهم الوزير أبو يحيى أبو بكر بن عبد الله ابن الشيخ أبى حفص المتقدمُ الذكر فى وزراء أبى يوسف [3] .

وخرج أمير المؤمنين بنفسه حتى أتى قلعة رباح وقد انجلى عنها أهلُها ، فدخلها وأمر بكنيستها فغُيِّرت مسجدًا فصلى فيها المسلمون ؛ واستولى على ما حول طُليطلة من الحصون ؛ ثم رجع إلى مدينة إشبيلية منصورًا مفتوحاً عليه .

وكانت هذه الهزيمة أختاً لهزيمة الزَّلاقة المتقدم ذكرُها فى مدة يوسف ابن تاشفين أمير المرابطين[4] .

---

(١) يحكى صاحب بغية الملتمس : ان عسكر الأدفنش كان ينيف على خمســة وعشرين الف فارس ومئة آلف راجل ، وكان معه جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين !

(٢) رواية ابن خلكان وغيره : ان الوقعة كانت يوم الخميس التاسع من شعبان .

(٣) انظر ص ٣٣٧ .

(٤) انظر ص ١٩٣ .

وأقام أمير المؤمنين بإشبيلية بقية سنة ٥٩١ ، وقصد بلاد الروم فى السنة الثانية ، فنزل على مدينة طُليطلة بعساكره ؛ فقطع أشجارها ، وانتسف معايشَها ، وغوَّر مياهها ، وأنكى فى الروم أشدَّ نكاية .

ثم عاد فى السنة الثالثة أيضاً وتوغَّل بلاد الروم ، ووصل إلى مواضع لم يصل إليها ملكٌ من ملوك المسلمين قط ؛ ورجع إلى مدينة إشبيلية ، فأرسل الأدفنش إليه – لعنه الله – يسأله المهادنة ، فهادنه إلى عشر سنين[1] فعبر البحر بعد أن أصلح الجزيرة ورتَّب فيها من يقوم بحمايتها ، وقصد مدينة مراكش ، وذلك فى سنة ٥٩٤ .

[عزم أبى يوسف على قصد مصر]

فبلغنى عن غير واحد أنه صرَّح للموحِّدين بالرحلة إلى المشرق ، وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ، ويقول : نحن إن شاء الله مُطهِّروها [2] : ولم يزل هذا عزمَه إلى أن مات – رحمه الله – فى صدر سنة ٥٩٥ – كما ذُكر – ودفن بتينملّ مع آبائه[3] .

---

(١) كان أبو يوسف – فيما يروى أهل التاريخ – موشكا ان يغلب الأدفوش على طليطلة دار ملكه ويعيدها الى الاسلام ، وانما حمله على قبول الهدنة ما بلغه من حركة ابن غانية فى افريقية مع قراقوش الأيوبى ...

(٢) كان ملك مصر فى ذلك التاريخ هو العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبى ، وقد مات فى المحرم سنة ٥٩٥ وخفله على العرش أخوه الأفضل على بن صلاح الدين . وكانت وفاة أبى يوسف أمير الموحدين بين صفر وجمادى الأولى من تلك السنة ، على اختلاف بين المؤرخين .

وانظر ص ٣٣٦ من هذا الكتاب .

(٣) يروى ابن خلكان نبأ غريبا عن آخرة أمير الموحدين أبى يوسف ، فيقول ان الروايات اختلفت فى امره بعد عودته الى مراكش من الأندلس ، فمن الناس من يقول انه ترك ماكان فيه =

[شيء من سيرته]

وكان فى جميع أيامه وسيره مؤثرًا للعدل ، متحرِّياً له بحسب طاقته وما يقتضيه إقليمه والأمةُ التى هو فيها .

كان فى أول أمره أراد الجرى على سُنن الخلفاء الأُول ؛ فمن ذلك أنه كان يتولى الإمامة بنفسه فى الصلوات الخمس ؛ لم يزل على ذلك مستمرًا أشهرًا ، إلى أن أبطأ يوماً عن صلاة العصر إبطاء كاد وقتها يفوت ، وقعد الناس ينتظرونه ؛ فخرج عليهم فصلَّى ثم أوسعهم لوما وتأنيباً ، وقال : ما أرى صلاتكم إلا لنا ، وإلا فما منَعكم عن أن تقدِّموا رجلا منكم فيصلى بكم ؟ أليس قد قدّم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم عبدَ الرحمن ابن عوف حين دخل وقت الصلاة وهو غائب ؟ أما لكم بهم أسوةٌ وهم الأئمة المتَّبعون والهداة المهتدون ؟ فكان ذلك سبباً لقطعه الإمامة .

* * *

وتجرد وساح فى الأرض حتى انتهى الى بلاد المشرق وهو مستخف لا يعرف ، ومات خاملا ، ومنهم من يقول انه توفى ... على اختلاف فى تاريخ وفاته ، قال ابن خلكان : « ثم حكى لى جمع كثير بدمشق فى شهر شوال سنة ٦٨٠ أن بالقرب من المجدل ، من أعمال البقاع ، قرية يقال لها حمارة والى جانبها مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب ، وكل أهل تلك النواحى متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف ... »

ويعلق المقرى صاحب نفح الطيب على هذه الرواية فيقول :

« ... وما يقال من أنه ساح فى الأرض وتخلى عن الملك ووصل الى الشام ودفن بالبقاع، لا أصل له ... وممن صرح ببطلان هذا القول : الشريف الغرناطى فى شرح مقصورة حازم ، وقال ان ذلك من هذيان العامة لولوعهم بالسلطان المذكور ! »

قلت : وحدثنى زميل من المشتغلين بالتعليم فى دمشق ـ لا أذكر اسمه ـ وأهله من البقاع ان بالقرب من موطن أهله فى البقاع ضريحا ـ لم يزل ـ يتبرك به العامة هناك ويسمونه ضريح ملك المغرب .

وكان يقعد للناس عامة ، لايُحجب عنه أحدٌ من صغير ولا كبير ؛ حتى اختصم إليه رجلان فى نصف درهم ، فقضى بينهما وأمر الوزيرَ أبا يحيى صاحب الشرطة أن يضربهما ضرباً خفيفاً تأديباً لهما ، وقال لهما : أماكان فى البلد حُكام قد نُصبوا لمثل هذا ؟ فكان هذا أيضاً مما حمله على القعود فى أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا ينفِّذها غيره .

* * *

ولما ولَّى أبا القاسم بن بَقِىٍّ المتقدم الذكر[1] كان فيما اشترط عليه أن يكون قعوده بحيث يَسمع حكمه فى جميع القَضايا ؛ فكان يقعد فى موضع بينه وبين أمير المؤمنين ستر من ألواح .

* * *

وكان قد أمر أن يدخل عليه أُمناءُ الأَسواق وأشياخُ الحَضَر فى كل شهر مرتين ؛ يسأَلهم عن أسواقهم وأسعارهم وحُكامهم .

* * *

وكان إذا وَفَد عليه أهلُ بلد فأَولُ ما يسأَلهم عن عُمالهم وقضاتهم وولاتهم ؛ فإذا أثنوا خيرًا قال : اعلموا أنكم مسئولون عن هذه الشهادة يوم القيامة فلا يقولَنَّ امرؤٌ منكم إلا حقاً ؛ وربما تلا فى بعض المجالس

---

(١) انظر ص ٣٣٩ .

«يا أيها الذينَ آمنُوا كونوا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ شُهَدَاءَ لله ولو على أنفُسِكُم أو الوالِدَيْنِ والأَقرَبِينَ» .

* * *

ولما خرج إلى الغزوة الثانية سنة ٩٢ – وهى الغزوة التى كانت بعد الوقعة الكبرى التى أذل الله فيها الأدفنش وجموعه وأعز الإسلام وأنصاره ، كتب قبل خروجه إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتمين إلى الخير وحَمْلهم إليه ؛ فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلما سار بين يديه ، فإذا نظر إليهم قال لمن عنده : هؤلاء الجند لا هؤلاء ! ويشير إلى العسكر ؛ فكان فى ذلك شبيهاً بما حُكى عن قتيبة بن مسلم والى خُراسان حين لقى التركَ وكان فى جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع ؛ فجعل يُكثر السؤال عنه ، فأُخبر أنه فى ناحية من الجيش متكئاً على سِيَةِ قَوسه رافعاً إصبعه إلى السماء يُنَضْنِضُ بها ؛ فقال قُتيبة : لأُصْبُعُه تلك أَحَبُّ إلىَّ من عشرة آلاف سيف !

ولما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف من وجهه هذا ، أمر لهؤلاء القوم بأموال عظيمة ، فقبل منهم من رأى القبول وردّ من رأى الردّ ؛ فتساوى عنده – رضى الله عنه – الفريقان ، وقال : لكلّ مذهب ، ولم يزدهؤلاء ردُّهم ولا نقَص أولئك قبولُهم .

* * *

وكان كثير الصدقة ؛ بلغنى أنه تصدّق قبل خروجه إلى هذه الغزوة –أعنى

التي كانت فيها الوقعة الكبرى ـ بأربعين ألف دينار ، خرج منها للعامّة نحوٌ من نصفها ، والباقي في القرابة . أدركتُهم وقد قسموا مدينة مراكش أرباعاً وجعلوا في كل رُبع أمناء معهم أموالٌ يتحرَّون بها المساتير وأربابَ البيوتات .

وكان كلما دخلت السنةُ يأمر أن يُكتب له الأيتام المنقطعون فيُجمعون إلى موضع قريبٍ من قصره ، فيُخْتَنُون ويأمر لكل صبي منهم بمثقال وثوب ورغيف ورُمانة ، وربما زاد على المثقال درهمين جديدين .

هذا كلُّه شهدته لا أنقله عن أحد من الناس .

* * *

وبنى بمدينة مرّاكش بيمارستاناً ما أظنّ أنّ في الدنيا مثله ؛ وذلك أنه تَخَيَّر ساحةً فسيحة بأعدل موضع في البلد ، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه ؛ فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكَمة ما زاد على الاقتراح ؛ وأمر أن يُغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشموماتِ والمأكولات ، وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت ، زيادةً على أربع بِرَكٍ في وسطه ، إحداها رخام أبيض ؛ ثم أمر له من الفُرُش النفيسة من أنواع الصوف والكتَّان والحرير والأديم وغيرِه بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت ، وأجرَى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما يُنْفَقُ عليه خاصة ، خارجاً عما جَلَب إليه من الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال ؛ وأعدَّ فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم ، من جهاز الصيف والشتاء ؛ فإذا نَقَهَ المريضُ فإن كان فقيراً

أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقلّ ، وإن كان غنيًّا دُفع إليه مالُه وتُرِكَ وَسَبَبَه ؛ ولم يَقْصره على الفقراء دون الأغنياء ، بل كلٌّ مَن مَرِض بمراكش من غريب حُمل إليه وعُولج إلى أن يستريح أو يموت .

وكان فى كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله ، يعودُ المرضى ويسأَل عن أهلِ بيتٍ أهل بيت ، يقول : كيف حالكم ؟ وكيف القُوَمَةُ عليكم ؟ إلى غير ذلك من السؤال ، ثم يخرج ؛ لم يزل مستمرًّا على هذا إلى أن مات رحمه الله .

[مماليك الغُزّ المصريون فى المغرب]

وفى أول ولايته ــ إما سنة ٨٣ أو ٨٢ وردَ علينا البلادَ الغُزُّ من مصر(١)

---

(١) الغز : جنس من الترك ، بلادهم فى أقصى المشرق على تخوم الصين ، وقد عرفهم العرب فى أيام الفتوح الأولى ، دخلوا بلاد المسلمين أسارى ومماليك ، فلم يلبث كثير منهم أن ملكوا حرياتهم وبرزوا فى الحياتين المدنية والعسكرية جميعا ، فصار منهم قواد ووزراء وولاة ، ثم قوى سلطانهم حتى صار الخلفاء فى قبضة أيديهم وسياسة الدولة وفق ارادتهم .

ومن الغز كان احمد بن طولون صاحب عرش مصر فى القرن الثالث .

على أن الأسارى والمماليك فى الدولة الاسلامية لم يكونوا جميعا من الغز، بل لم تكن الأكثرية منهم ، فقد كان منهم الترك والعجم والكرد والأرمن والروم والشركس والصقالبة وأجناس شتى، ولكن كتاب العربية فى مختلف اقطارها لم يكونوا يفرقون بين جنس وجنس حين يتحدثون عن المماليك أو من يمت الى المملوكية بصلة ، فهم ينسبونهم الى ما يشاءون من الأجناس لا يعنيهم من تلك النسبة الا الاشارة الى سابقتهم فى الرق والمملوكية، ومن هذا كانت تسمية هؤلاء بالغز حينا ، وبالترك حينا آخر ، وبالمماليك فى أحيان كثيرة . ومن العسير فى أغلب الحالات نسبة مملوك او طائفة من المماليك الى جنس معين ، ذلك لأن تجارة الرقيق بعد انتهاء عهد الفتح قد حملت طائفة من ذوى النفوس الغليظة على احتراف النخاسة ، فكانوا يخطفون الأطفال ، بنين وبنات ، من حجور أمهاتهم ويسلكون بهم المفاوز والمحيطات الى حيث يبيعونهم فى أسواق الرقيق بعد أن يقطعوا كل صلة لهم بماضيهم ، ومن ثمة يخفى جنسهم الحقيقى الا على ذوى الحذق والفراسة .

وهؤلاء الغز الذين يشير اليهم المراكشى ، كان لهم شأن فى تاريخ أفريقية أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع ، وكان وصولهم حوالى سنة ٥٦٨ ، وعلى عرش مصر وقتئذ =

وكان فيمن ورَدَ علينا مملوك يُسمَّى قَراقُش [1] ، ذَكروا أنه كان مملوكاً لتقيِّ الدين بن أخى الملك الناصر ؛ ورجل يسمى شعبان ، ذكروا أنه من أمراءِ الغُزِّ ؛ ومن أجناد المصريين رجلٌ يعرف بالقاضى عماد الدين ، فى آخرين ؛ فأَحْسنَ نُزُلهم ، وبالغَ فى تكرمتهم ، وجعل لهم مزيةً ظاهرةً على الموحِّدين ؛ وذلك أن الموحدين يأْخذون الجامكيةَ ثلاثَ مرات فى كل سنة ، فى كل أربعة أشهر مرة ؛ وجامكيةُ الغزِّ مستمرة فى كل شهر لا تختلّ ، وقال : الفرق بين هؤُلاء وبين الموحدين أن هؤُلاء غرباءُ لاشيءَ لهم فى البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية ، والموحدون لهم الأَقطاع والأَموال المتأَصِّلة . هذا مع أنه أَقطع أعيانَهم أَقطاعاً كأَقطاع الموحِّدين أو أوسع : أَقطعَ رجلا منهم فيما أعرف ، من أَهلِ إِرْبَل ، يُعرف بأَحمد الحاجب ، مواضعَ ليس لأَحد من قرابته مثلُها : وأَقطع شعبان المذكور بالأَندلس قرى

= الملك الناصر صلاح الدين ، وكانت الحروب الصليبية ناشبة فى الشرق والغرب ، فثمة صليبيون يغيرون على الشام ومصر ، قد تجمعوا من اقطار شتى ، وصليبيون فى صقلية يحاولون أن يغلبوا العرب على سواحل أفريقية ، وصليبيون من الأسبان والفرنجة يضيقون الخناق على العرب فى الأندلس وما يصاقبها من الجزر فى بحر الروم .

قال اهل التاريخ : وفى بعض هذه الحملات احس صلاح الدين الأيوبى صاحب عرش مصر والشام بحاجته الى معونة المسلمين فى المشرق والمغرب على رد عادية الصليبيين عن بلاده ، فأرسل الرسل والكتب الى أمراء المسلمين هنا وهنالك ، وكان فيمن أرسل اليهم صاحب عرش المغرب والأندلس من امراء الموحدين ، وسماه فيما كتب « أمير المسلمين ... » قالوا : فغضب ملك مراكش اذ لم يسمه صلاح الدين « أمير المؤمنين » ولم يستمع لندائه ...

وخلال ذلك ظهر المماليك المصريون فى ذلك التاريخ بأرض أفريقيه ، وأميرهم شرف الدين قراقوش مملوك تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين ... فحالفوا عرب بنى هلال ، وأغاروا على الأطراف الشرقية لمملكة الموحدين ، ففتحوا كثيرا من المعاقل واستولوا على كثير من البلاد ، وقد تقدمت الاشارة الى بعض ما كان بينهم وبين جيش الموحدين فى قفصة . انظر الهامش رقم ٢ ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ .

(١) هو غير بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين .

كثيرة تغلُّ فى كل سنة نحوًا من تسعة آلاف دينار ، هذا خارجاً عن جامكيتهم الكثيرة التى ليس لأحد من الأجناد غيرِهم مثلها .

[شعبان الغُزِّى المصرىّ]

ولم يرِد المغربَ من هذه الطائفة – أعنى الغُز – ألطفُ حِسًّا ولا أزكى نفساً ولا أحسنُ محاضرة ولا أطْيبُ عِشرة من شعبان هذا المذكور ؛ ما لقيتُه إلا استنشدنى أو أنشدنى .

أنشدته يوماً لشاعرٍ من أصحابنا من أهل إشبيلية :

وقائل : فيمَ لمَ تَهْجَعْ ؟ فقلت له :

كيف الهُجوعُ لطرفٍ نافر الوَسَنِ

لم تَدْرِ أن الكرى الممنوعَ عن بَصَرِى

هى السِّنَاتُ التى فى مُقْلَتَىْ حسن !

فضحك وقال : لقد حَوَّم هذا الشاعر وما وردَ ، ورفرفَ فما طار ، وأراد غايةً فوقع دونها ؛ ولله مَن أثار هذا المعنى بأوجز لفظ وأسهل مأْخذ وأيسر كلفة حيث يقول :

أَعِيدُوا صَباحِى فهو عِند الكواعبِ

ورُدُّوا رُقادى فهو لحْظُ الحبَائبِ

قلت : هو أبو الطيب . قال لى : نعم ، هو الطيب أبو الطيب .

وأنشدتُه يوماً – وقد جرى ذِكر التجنيس اللفظى ، فأنشد هو منه وأكثر – :

إذا صال ذو وُدٌّ بودٍّ صديقه   فيأيها الخلُّ المصاحبُ لى صُلْ بى

فإنىَ مثلُ الماء ليناً لصاحبي   وناهيك للأعداء مِن رجلٍ صُلْبِ!

فاستحسنهما وكتبهما عنده ، وقال لى رحمه الله : لك علىَّ بهذين البيتين حق ؛ فما وافقنى شئٌ من الشعر فى هذا المعنى ولا فى غيره ولا وقع منى موقعهما .

وفى الجملة كان له شغف بالآداب شديد ، وكان يقْرِض شيئاً من الشعر ، وربما ندَرَتْ له الأبياتُ الجيدة ؛ سألته أن يكتب لى شيئاً من شعره أو يُنشِدنيه فأبى علىَّ كلَّ الإباء وحلف لا يفعل ...

[أبو يوسف وعقيدة العامة فى ابن تومرت]

وخرج أمير المؤمنين أبو يوسف إلى تِينملّ للزيارة ومعه هؤلاء الغُزُّ ، المذكورون ، فقعدوا تحت شجرة خرُّوب مقابلةٍ للمسجد ؛ وقد كان ابن تومرت قال لأصحابه فيما قال لهم ووعدهم به : ليُبصرنَّ منكم من طالت حياتُه أُمراءَ أهلِ مصرَ مستظلِّين بهذه الشجرةِ قاعدين تحتها . فلما جلس الغُز على الصفة المتقدمة تحتها كان ذلك اليومُ فى تينمل يوماً عظيماً ؛ اتصل التكبير من كل جهة ، وجاء النساءُ يُولْوِلْن ويضربن بالدُّفوف ويقلن بلسانهم : صَدَق مولانا المهدى ! نشهد أنه الامام حقاً !

فأخبرنى من رأى أميرَ المؤمنين أبا يوسف حين رأى ذلك يتبسم استخفافاً لعقولهن ؛ لأنه لايرى شيئاً من هذا كلِّه ، وكان لايرى رأيهم فى ابن تومرت ؛ فالله أعلم .

أخبرنى الشيخ الصالحُ أبو العباس أحمد بن إبرهيم بن مطرف المَرِىّ ونحن بحِجْر الكعبة قال : قال لى أمير المؤمنين أبو يوسف : يا أباالعباس اشهد لى بين يدى الله عز وجل أنى لاأقول بالعصمة - يعنى عصمة ابن تومرت - قال : وقال لى يوماً وقد استأذنته فى فعل شىء يفتقر إلى وجود الإمام : يا أبا العباس ، أين الإمام ؟ أين الإمام ؟

أخبرنى شيخ ممن لقيته من أهل مدينة جَيّان من جزيرة الأندلس ، يسمى أبا بكر بن هانئ ، مشهور البيت هناك ؛ لقيتُه وقد عَلَتْ سِنّه فرويت عنه ، قال لى : لما رجع أمير المؤمنين من غزوة الأَرَك - وهى التى أوقع فيها بالأدفنش وأصحابه [1] - خرجنا نتلقّاه ؛ فقدّمنى أهلُ البلد لتكليمه ، فرُفعت إليه ، فسألنى عن أحوال البلد وأحوال قضاته ووُلاته وعُماله - على ما جرت عادته - فلما فرغتُ من جوابه سألنى كيف حالى فى نفسى ؛ فتشكرت له ودعوتُ بطول بقائه ؛ ثم قال لى : ما قرأتَ من العلم ؟ قلت : قرأتُ تواليفَ الإمام ؛ - أعنى ابن تومرت - فنظر إلىّ نظرة المُغْضَب وقال : ما هكذا يقول الطالب ! إنما حُكمك أن تقول : قَرأتُ كتابَ الله ، وقرأت شيئاً من السُّنة ؛ ثم بعد هذا قل ماشئت. فى أضراب لهذه الحكايات لو أوردناها لطال بها هذا التلخيص .

[اهتمامه بالتشييد والبناء]

وكان عند رجوعه من السّفرة التى استنقذ فيها مدينة شِلْب من أيدى

---

(١) انظر ص ٣٥٨ .

الروم على ما تقدم[١] ، أمر أن يُبنى له على النهر الأعظم ، نهر إشبيلية ، حصن ؛ وأن تُبنى له فى ذلك الحصن قصور وقباب ، جارياً فى ذلك على عادته من حب البناء وإيثار التشييد - فانه كان مهتماً بالبناء ، وفى طول أيامه لم يخلُ من قصر يستجِدُّه أو مدينةٍ يَعْمُرُها ؛ زاد فى مدينة مراكش فى أيامه زيادةً كثيرة يطول تفصيلها - فتمت له هذه القصور المذكورة على ما أراد وفَوْقَه ؛ وسَمَّى ذلك الحِصنَ «حِصنَ الفَرَج» .

[على بن حزمون الشاعر]

ولما رجع من غزوته العظمى - المتقدم ذكرها - فى سنة ٥٩١ ، جلس للوفود فى قبة من تلك القِباب مشرفةٍ على النهر الأعظم ، وأذن فدخلوا عليه على طبقاتهم ومراتبهم ؛ وأنشده الشعراءُ ؛ فممن أنشده فى ذلك اليوم صديقٌ لى من أهل مُرسية اسمه علىُّ بن حزمون ، أنشده قصيدةً فى عَروض يسمى الخَبَبْ[٢] كان يقترحه على الشعراء ، فوقعت القصيدة من أمير المؤمنين ومن الحاضرين موقع استحسان ، أولها :

حَيَّتْك مُعطَّرة النَّفَسِ نَفحاتُ الفتحِ بأَنْدَلُسِ
فذَرِ الكُفَّار ومأْتَمهم إن الإسلام لفى عُرُس
أَإمامَ الحقِّ وناصرَهُ طهَّرتَ الأَرضَ من الدَّنَس
وملأْتَ قلوبَ الناس هُدًى فدنا التوفيقُ لملتمس

(١) انظر ص ٣٥٦ وما بعدها .

(٢) تفعيلاته : « فعلن فعلن فعلن فعلن » مرتين .

ورفعت منارَ الدين على عُمُدٍ شُمٍّ وعلى أُسُس
وصَدعْتَ ردَاءَ الكُفرِ كما صَدَعَ الدَّيْجورَ سَنَا قَبَس
لاقيتَ جموعَهُمو فغَدَوْا فرصاً فى قبضةِ مُفترِس
جاءُوك تَضيقُ الأَرضُ بهم عَدَدًا لم يُحْصَ ولم يُقَسِ
خَرجوا بَطَرًا ورئاءَ النا س ليختلسوا مع مُختلِس
ومضيتَ لأَمر الله على ثقةٍ بالله ولم تَخِسِ
فأَناخ الموتُ كَلاكِلَهُ بِظُبَاكَ على بَشَرٍ رَجِس
وتساوَى القاعُ بهامهم الرُّبْضُ مع الحَرِبِ الضَرِسِ[1]
سُقِيَتْ بنَجيعِهِمُو أَكَمٌ وطِئُوا منهنَّ على دهسِ
فأُلئك حزبُ الكفر ألا إنَّ الكُفارَ لَفى نكس
أذوِى الصُّلبانِ وراءَكمو خيلُ الملكِ الخَبِرِ النَّدُس
لو أنّ البحرَ تَنَاولهُ جُرَعاً وطئتْه على يَبَسِ
ولو أن الصُّمَّ تُرَاجِمُها أَضحت كُحْلَ المُقَلِ النُّعس
ملأَ التوحيدُ أَعِنَّتَها وأَغارَ بِها رُوحُ القُدُسُ
نهضتْ فمضتْ فقضتْ أملاً أنسى عَتْبَ الدنيا فنُسِى
جاسَتْ جَنَباتِ الكفرِ فلم تترك لهمو ما لم تَجُسِ
لم يَبقَ بها مَثْوَى رجُلٍ إلا وعليه شَذَى فرس

(١) عجز البيت فى الأصل : « المرفض مع الحدب الضرس » .

لحقوا بقُرون الشُّمِّ فلا سُقْيًا لِطُلولهمو الدُّرُس

إن كان نجَا أذ فُنْشُهمو فإلى عيشٍ نكِدٍ تَعِسِ

نظر الملِكُ الأعلى فرأى ملكاً ما بين قَناً وقِسِى

كالصُّبح توشَّحَ رونَقه كالطُّور بنورِ الله كُسِى

فمضى لم يُلْوِ على أحد ورمى بالدِّرْعِ وبالتُّرُس

لصليل الهندِ بمفْرِقِهِ لايَسمعُ صلصلةَ الجَرَسِ

سَهِرَ الموتورُ وأرَّقَهُ تَذْكارُ المُنصُل والمَرَسِ

وبُكاءُ عقائلَ هاتفةٍ كالوُرْقِ ينُحْنَ مع الغَلَسِ

بَرَزَتْ وكأنَّ ذوائبَها أذنابُ روَامِحةٍ شُمسِ

ترنُو كظباءِ الرَّملِ على وجَلٍ لضَراغِمةٍ شُرس

قدكُنَّ مها أُنْسٍ فغَدَتْ تحتَ الرَّايات بلا أُنس

إن الأيام قد ازدهرتْ كالروض يَرُوق لمُغْترِسِ

وتناسقتِ الآمالُ لنا كالثَّغرِ تنظَّمَ فى لَعَسِ

وتلألأ نورُ الحقِّ على الـــأثَرِ المهديَّةِ فاقتبِسِ

أجزيرةَ أندلسٍ اعتصِمى بإمام الأُمةِ واحترِسِى

أرْعاكِ حِرَاستَه مَلِكٌ جبريلُ له أحدُ الحَرَسِ

حكمتْ أسيافُك سيِّدَنا فى كلِّ مُصِرٍّ الكفرِ مُسِى

ومضتْ فى الرومِ مَضاربُها وكذلك تفعل فى الفُرس

لايُخلِفُ ربُّك موعِدَهُ دَوِّخْ أقطارَهُمُو ودُس !

أوردتها على توَاليها وإن كان فيها طول ، لغرابة عَرُوضها وجودة أكثرِ أبياتها ؛ أنشدنيها مُنشئُها المذكور من لفظه ، ثم أعدتُها عليه بلفظى آخر مرة لقيتُه بمدينة مرسية فى سنة ٦١٤ .

ولِعلىٍّ بن حزمون هذا قدمٌ فى الآداب ، واتساعٌ فى أنواع الشعر ، ركب طريقةَ أبى عبد الله ابن حجاج البَغدادى [١] — سامحه الله وغفر له — فأربى فيها عليه ؛ وذلك أنه لم يَدَعْ موشحةً تجرى على ألسنة الناس بتلك البلادِ إلا عمل فى عَروضها ورَوِيِّها موشحةً على الطريقة المذكورة ؛ وله مع هذا فى الهجاء يدٌ لا تُطاوَل ، غير أنه يُفحش فى كثير منه ؛ فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأسلمه من الفحش والإقذاع ، أبياتٌ ركب فيها طريقة الحُطيئة : ابتدأ يهجو نفسه ، ثم استطرد يهجو رجلا من أعيان قُواد الأندلس يقال له محمد بن عيسى ، مشهور النجدة عندهم . والأبيات :

تأملتُ فى المرآةِ وجهى فخِلْتُهُ
كوجهِ عجوزٍ قد أشارتْ إلى اللَّهْوِ
كأن على الأزرار مِنِّىَ عَوْرَةً
تُنادى الوَرَى : غُضُّوا ولا تنظروا نحوِى

(١) هو ابو عبد الله الحسن بن احمد بن الحجاج ، من شعراء المئة الرابعة ، ذكره الثعالبى فى اليتيمة ، وكان هازلا ماجنا ، وهو وابن سكرة الهاشمى متعاصران وفى السخف متشابهان ، فكان يقال : ان زمانا جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخى جدا ...

فلو كنتُ مما تُنبت الأَرضُ لم أكن
من الرائق الباهى ولا الطَّيب الحُلْوِ

وأقبَحُ من مَرْآىَ بَطْنِى فإنه | يُقَرْقِرُ مثلَ الرعدِ قرْقرَ فى الجوِّ
وإلا كقلْبٍ بين جَنْبَىْ محمدٍ | سليلِ ابنِ عيسى حين فرَّ ولم يُلْوِ
يَوَدُّ بأَن لو كان فى بطن أُمِّه | جنيناً ولم يسمع حَديثاً عن الغزْو
ثقيل ولكنْ عقله مثلُ ريشةٍ | تَطيرُ بها الأَرواحُ فى مَهْمَهٍ دوِّى
تميلُ بشِدقيْهِ إلى الأَرض لحيةٌ | تظُنُّ بها ماءً يُفَرَّغُ من دلْوِ
وقد حدَّثوا عنه بكلِّ نقيصةٍ | ولكنّ مِثلى لايُرَوِّى ولا يَرْوِى

وله فى هذا المعنى أحسنُ من هذا كثيرًا إلا أنه أقذع فيه ؛ فلذلك لم أُودعه هذه الأَوراق لأَنى لا أَستجيز أن يُنقل مثلُ هذا عنى .

ونال ابنُ حزمون هذا عند قُضاة المغرب وعُماله ووُلاته جاهاً وثروة ؛ كل ذلك خوفاً من لسانه وحذرًا من هجائه ؛ ولا أعلم فى جميع بلادالمغرب بلدًا إلا وأهاجى هذا الرجل تُحفظ فيه وتُدرس ؛ أَسأَل الله له المسامحةَ ولجميع إخواننا من المسلمين .

[محمدبن عبد ربه الكاتب حفيد صاحب العقد]

وأمرَ أميرُ المؤْمنين بعرض الجند فى هذا اليوم[1] فى السلاح التام ؛ فلما انتشروا بين يديه وأَعجبه ما رأى من حسن هيآتهم ، قام فصلى ركعتين

(1) يعنى يوم عودته من وقعة الارك سنة ٤٩١ .

شكرًا لله عز وجل ؛ واتفق أثر فراغه من ذلك الركوع أن جاءت سحابة فأمطرت مطرًا جودا حتى ابتلّ الناس ؛ فقال في ذلك صديق لي من الكتاب اسمه محمد بن عبد ربه[1] ، أصله من الجزيرة الخضراء ، كان يكتب لأبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن ، وكان مختصًا به :

قد شَفَّعَ اللهُ آيات بآيات	بَادى الكرامةِ بل بادى الكرامات
قبل السلام ومِن بَعد التَّحيَّات	ياليت شعرى ما شئ دَعَوْتَ به
من السَّحائِبِ رايات برايات	شئ تأثر عنه الجو فاتصلت
ماء نقيًا على زَغْف نَقيَّات	من كلّ وطْفاء لَفَّاء الرباب هَمَتْ
تفتَّحت لكَ أبوابُ السماوات	قلْ كيفَ لا يَفْتَحُ اللهُ البلادَ وقدْ

فاشتهر من يومئذ أبو عبد الله هذا[2] وعُرف مكانُه ونَبُه قدرُه ؛ وله إحسانٌ كثير وَقَدَمٌ راسخة فى صناعتى النظم والنثر ، مع تَحَقُّقٍ بشىء من أجزاء الفلسفة من علوم التعاليم وعلم المنطق ؛ أنشدنى — رحمه الله — من شعره :

واسْأَلْهُمُ بِمَأَمِّهِمْ أن يعطفوا	قِفْ بالقِباب وأين ذاك الموقفُ
بين القِباب وما إخالُكَ تَعرِفُ	وأنشد فؤَادك إن عَرفت مكانه
وبَنانُها بدم القلوب مُطرَّفُ	عند التى رَمَت الجمارَ غُدَيَّةً

---

(١) ذكره المقرى مرتين فى نفح الطيب ، فيمن لهم رحلة الى المشرق .

(٢) يعنى محمد بن عبد ربه المذكور ،كنيته ابو عبد الله .

نفسى الفداءُ لها وإن لم تُبقِ لى نفساً تُذكِّرنى بها وتُعرِّفُ .

وهى قصيدة طويلة لم يُبقِ تَقادُمُ العهد [منها] على خاطرى سوى ما أوردتُه .

وأنشدته – رحمه الله – يوماً ونحن فى قبة على شاطىء نهر وقد أخذ المطر فى الانسكاب ، بيتين أحفظهما لشاعر قديم :

حاكت يمينُ الرياحِ مُحْكَمةً فى نَهَرٍ واضِحِ الأَسارِيرِ
فكُلما ضَعَّفَتْ به حَلَقاً قام لها القَطرُ بالمساميرِ

فاستحسنهما وقال لى : ذكَّرتنى هذا المعنى ؛ وأنشدنى فيه لنفسه أبياتاً ما سمعت بمثلها ؛ هذا على إكثار الناس فى هذا المعنى وتواردِهم عليه حتى صار أخلَقَ من الليل والنهار من كثرة تكراره على الأسماع فلا يَتَخَلَّص منه إلا من لَطُف حسُّه وجاد طبعُه وحَسُن مَيْزُه ؛ والأبيات :

بين الرِّياضِ وبين الجَوِّ مُعْتركٌ
بيضٌ من البرقِ أو سُمْرٌ من السّمرِ
إن أَوْترت قوسَها كفُّ السماءِ رَمَتْ
نَبْلاً من الماء فى زَغْفٍ من الغُدُرِ
لأَجل ذاك إذا هبَّتْ طلائعُها تدرَّع النهرُ واهتزَّتْ قَنا الشجرِ

فانظر – حفظك الله – إلى حسن توطئته لهذا المعنى وقوةِ تخلّصه إلى هذا التشبيه بأحسن لفظ وأسهله على السمع والنطق .

واستأذنتُ عليه يوماً وهو فى مجلس له[1] ؛ فلم ير - رحمه الله - أن يحجبنى ؛ فاسترفع ما كان لديه وأذن لى ؛ فدخلت ؛ فتلقَّانى أحسن لقاء ، وأخذ يحدّثنى ؛ وفهمت أنه مُسْتحيٍ خَجِلٌ إذ عَرَف أنى تفطَّنتُ لبعض الأمر ، فأنشدتُه رافعاً عنه كلفة الخجل لبعض الشعراء :

أدِرْها فما التحريمُ فيها لِذَاتِها ولكنْ لأسبابٍ تَضمَّنها السُّكر

إذا لم يكن سُكرٌ يزلُّ به الفتى فسيَّانِ ماءٌ فى الزجاجة أوخمر !

فطرب - نضر الله وجهه - وعاودَه أُنسُه وانبسط ، ثم سكت عنى ساعةً واستدعى الدواة وكتب بَديهاً فى قريب من المعنى الذى أنشدته فيه :

ما ضرَّت الخمرُ - لولا الشرعُ - يَشْربُها
قومٌ حديثُهمو هَمْسُ التَّسابِيحِ
لَيسوا برُعشٍ إذا أدَّوْا فرُوضَهمو
عِند القيام ولا مِيلٍ مَرَاجيحِ
بيتٌ كبيت وفيه شادِنٌ سَدِنٌ مَزْجُ الكؤوسِ به وقدُ المصابيحِ .

وأنشدنى بعد هذا لنفسه ، فى هذا المجلس ، من قديم شعره ، مقطوعةً سينيةً لم أسمع بأحسنَ منها ؛ لم يبق على خاطرى منها سوى آخر بيت فيها ، وهو :

ولكنَّ قوماً لا يغيبُ نهارُهم إذا غَرَبَتْ شمسٌ يُديرونها شَمْسا

---

(١) يعنى مجلس شراب .

وله ــ رحمه الله ــ رحلة إلى مصر لقى فيها ابنَ سناءِ الملك[1] وأخذ عنه من شعره ، وهو أولُ من سمعتُ يذكره عندنا ويَرْوِى شعرَه .

ولأبى عبد الله هذا اتساعٌ فى صناعة الشعر ، إلا أنَّه نَحَلَ كثيراً من شعره السيدَ الأجلَّ أبا الربيع سليمان بن عبدالله بن عبد المؤمن أيام كتابته له ، ولم يَدَّعِ بعد ذلك فى شىء مما نَحَله إياه من شعره ولا ذَكَر أنه له ؛ فكان أكثر شعره يُنشَد لأبى الربيع وتَرويه الرُّواة له ؛ عرفتُ ذلك بعد مفارقته إياه ، لأنى فقدت شِعر السيد أبى الربيع واختلف علىَّ كلامه ، ورأيت بخطه أشعارًا نازلةً عن رتبة الشعر جدًا ، فعلمتُ أن ذلك الأولَ ليس من نَسْجِه !

وأخبرنى ابن عبد ربه هذا قال : دخلت على السيد أبى الربيع وهو فى قبَّةٍ لهُ وقد دخلت عليه الشمسُ من كُوىً صِغارٍ فى أعلاها ، فلما رأيت ذلك المنظر أعجبنى وقلت بَديهاً :

لما رأته الشمسُ يفعلُ فعلَها فى العالَمين مُقاسِماً ومُساهما
خافت توَالى الجودِ يُنْفِدُ مالَه نَثَرَتْ عليه دنانرًا ودراهماً !

فحذف الياءَ من « دنانير » ، وهذا جائز ، كما قال الأوَّل :

* تضلُّ به أمْناً وفيه العصافر *

---

(١) هو القاضى السعيد هبة الله بن جعفر ، من شعراء مصر في المئة السادسة ، كانمعاصرا للقاضى الفـــاضل ، توفى بالقاهرة ســـنة ٦٥٨ .

[أبو جعفر الحميرى المؤدّب]

ومما يتعلق بأخبار أبي يوسف – رحمه الله – ما أخبرنى شيخى وأستاذى أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيي الحميرى – رحمه الله – أيام قراءتى عليه بقرطبة سنة ٦٠٦ ، وذلك ، أنّا بلغنا عليه فى الحماسة إلى مقطوعة ابن زَيَّابَةَ التَّيْمِيّ [١] التى أوّلُها :

يا لَهْفَ زَيَّابَةَ للحارِثِ الصابح فالغانم فالآيِبِ

فلما انتهينا منها إلى قوله :

والله لو لاقَيْتُه خالياً لآبَ سَيْفَانا مع الغالبِ !

قال لنا [٢] : أُحدِّثكم بأعجبِ ما اتفق لى فى هذا البيت ؛ وذلك أن أمير المؤمنين أبا يوسف – رحمه الله – لما فَصَل عن قُرطبة متوجهاً إلى لقاء الأدفنش – لعنه الله – قال لى ولدى عصام بعد انفصاله بليلة أو ليلتين : يا أبتِ ، رأيت البارحةَ أمير المؤمنين داخلا قرطبة وقد رجع من السفر وهو متقلد بسيفين ! فقلت : يا بُنَىَّ ، لئن صدقت رؤياك هذه ليهْزِمنَّ الأَدفُنشَ لعنه الله ! وخطر لى هذا البيت :

والله لو لاقيتُه خالياً لآب سيفانا مع الغالب

فصدقت الرؤيا والتعبير .

---

(١) هو مسلمة بن ذهل التيمى ، وزيابة : أمه ، وبها يعرف ، والحارث المذكور فى البيت هو الحارث بن همام الشيبانى ، وأنشد ابن زيابة هذه المقطوعة يناقض بها الحارث المذكور فى شعر قاله ، انظر ديوان الحماسة لأبى تمام .

(٢) يعنى أبا جعفر الحميرى .

وأبو جعفر هذا المذكور ، آخرُ من انتهى إليه علم الآداب بالأندلس ؛ لزمتُه نحوًا من سنتين ، فما رأيت أرْوَى لشعرٍ قديم ولاحديث ، ولا أذْكَرَ بحكاية تتعلق بأدبٍ أو مثلٍ سائر أو بيتٍ نادر أو سَجعةٍ مستحسَنة منه ، رضى الله عنه وجازاه عنا خيراً .

أدرك جِلّةً من مشايخ الأندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب وأعانه على ذلك طولُ عمره وصدق محبته وإفراط شغفه بالعلم ؛ قال لى ولده عصام ، وقد رأيتُ عنده نسخة من شعر أبى الطيب قُرئتْ علىَّ أو أكثرها فألفيتها شديدة الصحة فقلت له : لقد كتبتَها من أصل صحيح وتحرَّرْتَ فى نقلها . فقال لى : ما يمكن أن يكون فى الدنيا أصلٌ أصحُّ من الأصل الذى كتبتُ منه ! فقلت له : أين وجدتَه ؟ قال : هو موجود الآن بين أيدينا وعندنا ! وكنا فى المسجد فى زاوية ، فقلت له : أين هو ؟ فقال لى : عن يمينك ! فعلمت أنه يريد الشيخ ، فقلت : ما على يمينى إلاَّ الأُستاذ ! فقال لى : هو أصلى ، وبإملائه كتبْت ؛ كان يُملى علىَّ من حفظه ! فجعلت أتعجب ، فسمع الأُستاذ حديثنا ؛ فالتفت إلينا وقال : فِيم أنتما ؟ فأخبره ولدُه الخبر ، فلما رأى تعجُّبى قال : بعيدًا أن تُفلحوا ! يَعجَب أحدُكم من حفظ ديوان المتنبى ! والله لقد أدركتُ أقواماً لايَعُدّون مَن حفظ كتاب سيبويه حافظاً ولا يرونه مجتهداً !

توفى أبو جعفر هذا فى شهر صفر من سنة ٦١٠ وقد كملتْ له ست وتسعون سنة ؛ لم يبق فى الأندلس أعلى روايةً منه فى كل مايُروَى ، ولم أر قبله ولا بعده ـ مع اتساع علمه وشدة تمييزه وحُسنِ اختياره ومعرفته

بعلل هذه الصناعة – أكثر إنصافاً منه ولا أسرع رجوعاً إلى الحق ؛ كنت أُنشده من شعرى على ركاكته وكثرة تكلفه وبُعده من الجودة أبياتاً لا أعُدُّها شيئاً ؛ يحملنى على إنشادها إياه فرْطُ استدعائه ذلك منى ؛ فيلهج بهاويشتد استحسانه لها ، وربما درسها فحفظها .

أنشدتُه يوماً – وقد استدعى منى ذلك على عادته – بيتين ارتجلتُهما فى شاب كان يقرأُ معنا شديدَ العفة – رحمه الله – مع حسنٍ رائعٍ وظرف ناصع ، كان اسمه «فَتحاً» وهما :

يامَن له عن كِنَاسٍ من المتيمِ قلبُهْ
ما أَنت كاَسمِكَ فتحٌ وإنما أَنت قلبُهْ

فطرب والتفت إلى ابنه وقال له : هذا والله الشعرُ لا ما تُصدِّعُنِى به طولَ نهارِكَ ؛ إن كنت تقول مثل هذا وإلا فاسْكت ! فلما كان من الغد قال لى رحمه الله : أَعلمتَ ما صَنَع عصامٌ أمس ؟ قلت : لا ؛ قال : كان كما قالوا فى المثل : «سَكَتَ أَلْفاً ...»؛ لم يزل أمس يُعمل فكرته ، فبعد الجهد الشديد أَخَذَ معنى بيتيك فسلبه رُوحَه وأعدمه رونقَه ومسخه جملةً فقال :

سَبَى فؤَادىَ خشْفُ فَقُوَّتى اليومَ ضعْفُ
سَمَّوهُ فتحاً مَجازًا وفى الحقيقة حَتْفُ !

مازاد فيه أَكثرَ من المجاز والحقيقة ؛ فقلت أَنا : هذا والله أَحسنُ من شعرى ! فتغير لى وقال : يا بُنى ، دع عنك هذه العادة ؛ فإن أَسوأَ ما تَخَلَّقَ

به الإنسانُ الملقُ وتزيينُ الباطل ، سيّما إذا أضاف إلى ذلك الحَلِفَ الكاذب ؛ والله إنك لتعلم أن هذا ليس بشيء ، وإلا فقد اختل مَيْزُك وساء اختيارُك ؛ وما أظن هذا هكذا .

وسمعته – من شدة إنصافه رحمه الله – يستحسن بيتين هجاه بهما صاحبُنا عليٌّ بن خروف رحمه الله[1] ؛ وذلك أنَّ الأُستاذ رحمه الله وعفا عنه – كان يُلقَّبُ بالوَزَغِيّ[2] ، وكان عنده شابٌ يقرأُ عليه يلقب بالغُرْنوق – وهو اسم عندهم للكُركيّ ، والفصيح فيه غرْنيق [3] – فكان بعض الطلبة يتهمون الأُستاذ بالميل إلى ذلك الشاب ؛ وذلك خلقٌ قد أعاذه الله منه ونزَّهه بفضله عنه ؛ فقال ابن خروف فى ذلك ، سامحه الله :

أَحَقاً سامَّ أَبْرَصَ ما سمِعنا بأَنكَ قد تعشقْتَ ابنَ ماءِ
وكيف وأَنت فى الحيطانِ تمشى وذاك يطيرُ فى جوِّ السماءِ!

فأَبعده الأُستاذ – رحمه الله – وأَنهى خبره إلى القاضى أَبى الوليد بن رشد ، فأَوجعه ضرباً ؛ وامتنع الأُستاذ من قراءته عليه ؛ فحرمه الله بهذين البيتين فوائد علمه ، وأَبعده عن مَريع جنابه ، وولاه الأُستاذ خطته ، وأَلقى حبله على غاربه ؛ فلم يفلح ابن خروف بعدها ولا حصل على شيء من العلم ؛ وإنما كان يعتمد فيما يأْتى به على طبعه خاصة .

وقد امتد بنا عنان القول إلى ما لا حجة لنا بأَكثره ؛ رغبة فى تنشيط الطالب وإيثاراً للأَحماض ؛ ولنرجع الآن إلى ما قطعنا :

---

(١) نظنه يعنى أبا الحسن بن خروف القرطبى الشاعر .
(٢) لعل صوابه : يلقب بالوزغة .
(٣) كذا يقول المؤلف ، وانما هما فصيحـان كلاهما .

[اليهود فى عهد أبى يوسف]

وفى آخر أيام أبى يوسف أمر أن يُميَّز اليهود الذين بالمغرب[1] بلباس يختصون به دون غيرهم ؛ وذلك ثيابٌ كُحلية وأكمام مفرطة السَّعة تصل إلى قريب من أقدامهم ، وبدلاً من العمائم كلوتاتٌ على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم ؛ فشاع هذا الزِّى فى جميع يهود المغرب ؛ ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدراً من أيام ابنه أبى عبدالله ، إلى أن غيَّره أبو عبد الله المذكور ، بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة ، واستشفعوا بكل من يظنون أن شفاعته تنفعهم ؛ فأمرهم أبو عبد الله بِلِبْسَان ثيابٍ صُفر وعمائم صُفر ؛ فهم على هذا الزى إلى وقتنا هذا — وهو سنة ٦٢١ — وإنما حمل أبا يوسف على ما صنعه من إفرادهم بهذا الزِّى وتمييزه إياهم به شَكُّه فى إسلامهم ؛ وكان يقول : لو صحَّ عندى إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين فى أنكِحتهم وسائر أمورهم ، ولو صح عندى كُفرُهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريَهم وجعلت أموالهم فَيْئاً للمسلمين ؛ ولكنى متردد فى أمرهم .

ولم تنعقد عندنا ذِمةٌ ليهودى ولا نصرانى — منذ قام أمر المصامدة — ولا فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعةٌ ولا كنيسة ؛ إنما اليهود عندنا يُظهرون الإسلام ويصلُّون فى المساجد ويُقْرِئون أولادهم القرآن ؛ جارين على ملّتنا وسنتنا ، والله أعلم بما تُكنُّ صدورهم وتحويه بيوتهم .

---

(١) وكانوايظهرون الاسلام .

[محنة أبي الوليد بن رشد]

وفى أيامه نالت أبا الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد — المقدم الذكر [1] — محنةٌ شديدة ؛ وكان لها سببان جليٌّ وخفى ؛ فأما سببها الخفى وهو أكبر أسبابها ، فان الحكيم أبا الوليد — رحمه الله — أخذ فى شرح كتاب الحيوان لأرسطاطاليس صاحب كتاب المنطق ، فهذّبه وبسط أغراضه وزاد فيه ما رآه لائقاً به ، فقال فى هذا الكتاب عند ذكره الزرافة وكيف تتولد وبأى أرض تنشأ : «وقد رأيتُها عند ملك البربر ...» جارياً فى ذلك على طريقة العلماء فى الإخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم غير ملتفت إلى ما يتعاطاه خَدمةُ الملوك ومتحيِّلو الكتّاب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق ؛ فكان هذا مما أحْنَقهم عليه غير أنهم لم يظهروا ذلك ؛ وفى الجملة فإنّها كانت من أبى الوليد غفلة ؛ فقد قال القائل : «رحم الله من عَرَف زمانَه فمانَه ، وميَّزَ مكانه فكانَه !»

وما أحسن ما قال الأول :

وأنزلنى طولُ النوى دارَ غُربةٍ ... إذا شئتُ لاقيتُ الذى لا أُشاكله

فحامقته حتى يُقال سجيةٌ ... ولو كان ذا عقلٍ لكنتُ أُعاقِله

واستمر الأمر على ذلك إلى أن استحكم ما فى النفوس ؛ ثم إن قوماً ممن يناوئه من أهل قرطبة ويدّعى معه الكفاءة فى البيت وشرفِ السلف ، سَعوا به عند أبى يوسف ؛ ووجدوا إلى ذلك طريقاً ، بأن أخذوا بعض تلك

(١) انظر ص ٣١٤ .

التلاخيص التى كان يكتبها ، فوجدوا فيها بخطه حاكياً عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم : « فقد ظهر أن الزُّهرة أحدُ الآلهة ... » ، فأوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة ؛ فاستدعاه بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة وهم بمدينة قرطبة ، فلما حضر أبو الوليد – رحمه الله – قال له بعد أن نبذ إليه الأوراق : أخطُّك هذا ؟ فأنكر ! فقال أمير المؤمنين : لعن الله كاتبَ هذا الخط ! وأمر الحاضرين بلعنه .

ثم أمر بإخراجه على حال سيئة وإبعاده وإبعاد من يتكلم فى شىء من هذه العلوم ؛ وكُتبت عنه الكتبُ إلى البلاد بالتقدّم إلى الناس فى ترك هذه العلوم جملةً واحدة ، وبإحراق كتب الفلسفة كلها ، إلا ما كان من الطب والحساب وما يُتوصلُ به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سمت القِبلة ؛ فانتشرت هذه الكتب فى سائر البلاد وعُمل بمقتضاها .

ثم لما رجع [1] إلى مراكش ، نزع عن ذلك كله وجَنح إلى تعلم الفلسفة ، وأرسل يستدعى أبا الوليد من الأندلس إلى مراكش للإحسان إليه والعفو عنه ؛ فحضر أبو الوليد – رحمه الله – إلى مراكش ، فمرض بها مرضه الذى مات منه ، رحمه الله ؛ وكانت وفاته بها فى آخر سنة ٥٩٤ وقد ناهز الثمانين. رحمه الله .

* * *

ثم توفى أمير المؤمنين أبو يوسف بعد هذا التاريخ بيسير ، وكانت وفاته – كما ذكرنا – فى غرة صفر الكائن فى سنة ٥٩٥ [2] .

---

(١) يعنى أبا يوسف .
(٢) انظر ص ٣٣٦ .

ذكر ولاية أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف أمير المؤمنين

أبو عبد الله هذا هو محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ ، أمه أمُّ ولدٍ اسمها زَهر ، رومية ؛ بويع له بعهد أبيه إليه فى سنة ٥٩٥ بعد وفاة أبيه ؛ وقد كان أبوه أمر ببيعته فى سنة ٨٦ وسنه إذ ذاك عشر سنين إلا أشهرًا ؛ وكان مولده فى آخر سنة ٥٧٦ ، ولم يزل مرشَّحاً للخلافة معروفاً بها إلى أن مات أبوه واستقل بالأمر فى التاريخ المذكور ، وسنه يوم بُويع له البيعة الكبرى العامة ، سبع عشرة سنة وأشهر ؛ وكانت وفاته لعشر خلون من شعبان سنة ٦١٠ ؛ فكانت مدة ولايته ست عشرة سنة إلا أشهرًا .

صفاته

أبيض ، أشقر شعر اللحية ، أشهل العينين : أسِيل الخدين ، حسن القامة ، كثير الإطراق ، شديد الصمت بعيد الغَور - كان أكبر أسباب صمته لثغاً كان بلسانه - حليماً ، شجاعاً ، عفيفاً عن الدماء ، قليل الخوض فيما لايعنيه جدًا ، إلا أنه كان يُبخِّل أولادَه .

أولاده

كان قليل الولد جدًا ، لا أعلم له من الولد سوى يوسف ولى عهده ، ويحيي واسحاق ؛ توفى يحيي فى حياته بإشبيلية سنة ٦٠٨ ، وبلغنى عن جماعة

من الحَشَم. أنه كان رشح يحي هذا لولاية العهد ، وله بنات.

وزراؤه :

أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يُوجَّان ، وزير أبيه [1] .

ثم عزله بعد مدة يسيرة وولى بعده أخاه إبراهيم ابن أمير المؤمنين أبي يوسف ...

[صلة المؤلف بإبراهيم بن أبي يوسف]

... وهو خير ولده وأجدرُهم بالأمر لو كانت الأمور جارية على إيثار الحق واطِّراح الهوى ؛ لاأعلم فيهم أنجَبَ منه[2] ؛ كان لي - رحمه الله - محبًّا وبي حَفِيًّا ؛ وصلتْ إليَّ منه أموال وخلع جمَّةٌ غير مرة . لم أعرفه أيام وزارته ، لأني كنت إذ ذاك حديث السن جدًا كما ناهزت الاحتلام ؛ وإنما كانت معرفتي إياه حين ولَّوه إشبيلية في سنة ٦٠٥ من جهة رجل من أصحابنا من الكُتاب اسمه محمد بن الفضل - جازاه الله عني خيرًا - هو الذي أوصلني إليه ؛ أنشدته أولَ يومٍ لقيتُه قصيدةً مدحته بها ، أولها :

لكمو على هذا الورَى التقديمُ   وعليهمو التفويض والتسليمُ

الله أعلاكُم وأعلى أمرَهُ   بكمو وأنفُ الحاسدين رَغِيمُ

أحييْتمو المنصورَ[3] فهو كأنه   لم تَفتقِدْهُ معالمٌ وعلومُ

---

(١) انظر ص ٣٣٨ .

(٢) انظر التقديم ص ١٠ .

(٣) يعنى أمير الموحدين أبا يوسف ، وكان لقبه المنصور .

ومحابرٌ ومنابرٌ ومحارب وحِمىً يُحاطُ وأَرْمَلٌ ويتيمُ

إلى أن أقول فيها فى ذكر ولايته إشبيلية :

فكأنما حِمصٌ [1] جَمالاً سارَةٌ وكأنَّ إبراهيمَ ابراهيمُ

وأرى طُليطلةً كهاجَرَ إثرَها سيزُفُّها الأُدفُنْش وهو ذَميمُ

أقول فيها :

يذَرُ الصَّليبَ صَغيرَه وكبيرَه فيها جُذاذًا والعُلوجُ جُثُوم

ويُحرِّقُ الأعداءَ فيما أضرمتْ ويجُوبُ نارالحربِ وهىجحيمُ

لم يبق على خاطرى منها لتقادم عهدها وقلة اعتنائى بها سوى هذه الأبيات التى أوردتُها ؛ فاستحسنها ـ رحمه الله ـ وبالغ فى الثناء عليها ، تفضُّلا منه وسُوددًا ، وجَرْياً على سنن الأجواد ؛ هذا مع ركاكتها وقلةِ انطباعها وظهور تكلُّفها .

ثم علتْ حالى عنده بعد ذلك ـ نضر الله وجهه ـ إلى أن كان يقول لى فى أكثر الأوقات : والله إنى لأشتاقك إذا غبت عنى أشدَّ الشوق وأصدقه [2] ثم لم تزل حالى معه على هذا إلى أن فارقته ـ رحمة الله عليه ـ وهو والٍ على إشبيلية ولايتَه الثانية .

وكان توديعى إياه ـ قدّس الله روحه ـ آخر يوم من ذى الحجة سنة٦١٣ [3] ثم اتصلت بى وفاته وأنا بصعيدمصر [4] سنة٦١٧ .

(١) انظر التعليق ص ١٧٢ .
(٢) انظر التقديم ص ٧ .
(٣) انظر التقديم ص ٧ .
(٤) انظر التقديم ص ٧ ، ١٣ .

لم أر فى العلماء بعلم الأثر المتفرغين لذلك أنْقَلَ منه للأثر ؛ كان يذهب مذهب أبيه فى الظاهرية .

* * *

... ثم عزله أبو عبد الله وولى بعده أبا عبد الله محمد بن على بن أبى عمران الضرير جدٌّ يوسف بن عبد المؤمن لأُمه (١) ؛ وكناه أبا يحيى ؛ فكان أبو عبد الله الوزير هذا من أحسن الوزراء سيرةً وسريرة ، وكان يحضُّه على فعل الخير بجهده ، ونشْر العدل حسب طاقته ، والإحسان إلى الرعية والأجناد ؛ رأى الناسُ فى أيام وزارته من الخِصب وسعة الأرزاق وكثرة العطاء مثل الذى رأوا فى أيام أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أو قريباً منه .

ثم عزله وولى بعده أبا سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع ...

[أولية الوزير أبى سعيد بن جامع]

... كان إبراهيم بن جامع جدُّ هذا الوزير من جملة أصحاب ابن تومرت ، صحبه من مراكش ؛ وكان أصله من الأندلس ؛ آباؤه من أهل مدينة طُليطلة ، ونشأهو - أعنى إبراهيم - بساحل مدينة شَريش على البحر الأعظم ، بضيعةٍ تسمَّى رُوطَة ، وبها مسجد مشهور بالفضل يزوره أهل الأندلس قاطبة فى كل سنة ؛ ثم انتقل إبراهيم هذا إلى العدوة ، وكان

(١) انظر ص ٣٠٨ .

يحاول صنعة النحاس ؛ فتعرف بابن تومرت . فكان من أصحابه ، فهو معدود فيهم ؛ ووُلد له أولادٌ نالوا فى الدولة حظوة وجاهاً متسعاً ؛ فمن أولاده أبو العلاء إدريس وزير أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وقد تقدم ذكره[1] .

وأبو هذا الوزير المتقدم الذكر ، اسمه عبدالله ، كان يتولى فى إمارة أبى يعقوب مدينة سَبتة وجهاتها ، وزيادة على ذلك ولاية الأُسطول فى جميع بلادهم ؛ فلم يزل كذلك إلى أن مات – أظن أمير المؤمنين أبى يعقوب قتله – وترك من الولد : يوسف ، والحسين ، وعثمان الوزير هذا المذكور ، ويحيى ؛ وبنات .

فاستمرت وزارة أبى سعيد هذا إلى أن توفى أمير المؤمنين أبو عبدالله ؛ ووزر بعده لابنه أبى يعقوب إلى حينَ ارتحلتُ من البلاد – وهو سنة ٦١٤ –[2] ثم اتصل بى فى شهور سنة ٦١٧ أن أبا يعقوب عزله وولى من سيأتى ذكره بعد هذا إن شاء الله عز وجل .

حجابه :

ريحان الخصىّ ويدعى ريحان بيَنْكَ ؛ حَجَبه ريحان هذا إلى أن مات . ثم حجبه بعده مبشّرٌ الخصى . يدعى مبشر وَلدِى ؛ فلم يزل مبشرٌ هذا حاجباً له إلى أن توفى أمير المؤمنين أبو عبد الله ، رحمه الله .

---

(١) انظر ص ٣١٦ .
(٢) انظر التقديم ص ٧ .

كتابه :

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش المتقدم الذكر فى كتاب أبيه [1] .

وأبو الحسن على بن عياش بن عبد الملك بن عياش المتقدم ذكر أبيه فى كتاب عبد المؤمن وأبى يعقوب[2] .

وأبو عبدالله محمد بن يَخْلُفْتَنْ بن أحمد الفازازى ؛ ذكرَه الله فيمن عنده ، وقرّب مطالعتى تلك الغُرةَ الميمونة ، وسماعى تلك الألفَاظَ الحلوة ، واستمتاعى بتلك الشمائل الشريفة ؛ فما أشدًّ شوقى إلى تقبيل يديه[3] !

هؤُلاء كتبة الإنشاء . وكتّاب الجيش : أبو الحجاج يوسف المُرَانى (بتخفيف الراء وضم الميم) من أهل مدينة شريش من جزيرة الأندلس .

ثم بعده أبو جعفر أحمد بن منيع إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ٦٢١ .

قضاته :

أبو القاسم أحمد[بن محمد] بن بَقِىٍّ قاضى أبيه[4] .

ثم عزله وولى أبا عبد الله محمد بن مروان الذى كان أبوه قد عزله[4] فلم يزل قاضياً إلى أن مات .

---

(١) انظر ص ٣٣٨ .

(٢) انظر ص ٢٦٩ و ص ٣١٦ .

(٣) انظر التقديم .

(٤) انظر ص ٣٣٩ .

ووليّ بعده رجلا من أهل مدينة فاس ، اسمه محمد بن عبد الله بن طاهر [كنيته أبو عبد الله] ، يدّعى أنه من ولد الحسين بن على بن أبى طالب ؛ كان قبل اتصاله بهم ينتحل طريقة الوعظ ويتصوّف ، لم يزل هذا دأبه ولا برح معروفاً به ؛ وكان له مع هذا حظ جيدٌ من معرفة أُصول الفقه وأُصول الدين وشيءٌ من الخلاف ؛ اتصل بأَمير المؤمنين أبى يوسف شهور سنة ٥٨٧ ، فحظى عنده وكانت له منه منزلة ؛ سمعت أبا عبد اللهالحسينى هذا يقول وأنا عنده فى بيته : جملةُ ما وصل إلىّ من أمير المؤمنين أبىيوسف منذ عرفتُه إلى أن مات ، تسعةَ عشر ألف دينار ، خارجاً عن الخلعوالمراكب والأقطاع[1] .

لم يزل أبو عبد الله هذا قاضياً إلى أن مات بالأندلس فىشهور سنة٦٠٨ ، وكانت ولايته فى شهور سنة ٦٠١ .

ثم ولّى بعده أبا عمران موسى بن عيسى بن عمران ؛ كان أبوه من قضاة أبى يعقوب[2] ؛ فاستمرت ولاية أبى عمران هذا إلى هذا الوقت ــ وهو سنة ٦٢١ ــ لم يبلغنى عزلُه ولا وفاته .

وأبو عمران هذا لى صديق ، لم أرصديقاً لم تغيِّره الولايةُ غيرَه ،ولم يزل يعاملنى بما كان يعاملنى به قبل ذلك ، لم ينقصنى شيئاً من بِرِّه ؛ ما لقيتُه قط فى مركَبِه إلا سلّم علىّ مبتدئاً وجدّد لى بِرًّا ؛ جزاه الله عنى أفضل الجزاءِ ، وعمَّ بذلك سائر إخوانى !

(١) انظر التقديم ص ١٠ .

(٢) انظر ص ٣١٨ .

[أعمال أبي عبد الله بن أبي يوسف]

ولما تمت بيعة أبي عبد الله العامة كما ذكرنا ...

وكان الذى تولاها وقام بأمرها من القرابة : أبو زيد عبد الرحمن ابن عمر بن عبد المؤمن ، وهو الذى قام ببيعة أبيه[1] ؛ ومن الموحدين : أبو زيد عبد الرحمن بن موسى وزير أبيه[2] ؛ وأبو محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص ؛ وهو الذى ولاه محمدٌ بعد هذا أمر أفريقية .

...كان أول شيء شرع فيه تجهيز الجيوش إلى أفريقية ؛ وذلك أن يحيى بن إسحاق بن غانية المتقدم الذكر[3] ، كان استولى على أكثر بلادها أيام اشتغل الموحدون عنه بغزو الروم ؛ فأول جيش جَهَّز [أبوعبدالله] من الموحدين ، الجيش الذى استعمَل عليه السيدَ أبا الحسن على بن عمر ابن عبد المؤمن ؛ لم أرلهم جيشاً أضخم منه ولا أكثر منه سلاحاً ولا أحسن عُدة ؛ وكان فيه من أعيان الموحدين وأشياخهم جملةٌ وافرةٌ ؛ فسار أبوالحسن هذا بجيشه المذكور حتى التقى هووالميُورْقِيُّون فيما بين بجاية وقسنطينة وبالقرب من قسنطينة ؛ فانهزم الموحدون أصحابُ أبي الحسن المذكور ، ورجع أبو الحسن إلى بجاية على حالة سيئة .

وجهَّز بعد هذا الجيش جيشاً على مثاله وأمَّر عليهم من الموحدين أبا زيد عبد الرحمن بن موسى الوزير ؛ فسار بالجيش حتى بلغ قسنطينةَ المغرب .

---

(1) انظر ص ٣٤٠ .

(2) انظر ص ٣٣٨ .

(3) انظر ص ٣٤٢ وما بعدها .

[دخول الموحدين جزيرة ميورقة]

ثم استعمل أمير المؤمنين أبو عبد الله على أفريقية وأعمالها السيدَ الاجلَّ أبازيد عبدَ الرحمن بن عبد المؤمن ، وخرج هو فى سنة ٥٩٧ إلى تينملّ لزيارة قبر أبيه أبى يوسف وزيارة ضريح آبائه وابن تومرت ؛ ثم رجع إلى مراكش ، وأقام إلى أول سنة ٦٠٩ ، فتجهز بجيوش ضخمة حتى أتى مدينة فاس ونزل بها ، وأشاع أنه يقصد أفريقية — هذا بعد أن بلغه أن الميُرقى استولى على مدينة تونس وقبض على الوالى عليها عبد الرحمن — فأقام بفاس ثلاثة أشهر وأياماً ، وبدا له أن يبعث بَعثاً إلى جزيرة مُيرقة ، ليستأصل شأفة بنى غانية ويقطع دابرَهم ؛ فعمر الأسطول والطرائد فيها الخيل والرجال ؛ واستعمل على الأسطول عمّه أبا العلاء إدريس بن يوسف ابن عبد المؤمن ، وعلى الجيش أبا سعيد عثمان بن أبى حفص من أشياخ الموحدين ؛ فقصد الجزيرة هذان الرجلان ففتحاها عَنوة وقتلا عبدَ الله بن إسحاق بن غانية الأميرَ عليها [1] ؛ وكان الذى قتله رجلٌ من الأكراد يقال له عمر المقدَّم ؛ وذلك أنه حين نازله القومُ خرج على باب من أبواب المدينة سكران ، فكبَتْ به فرسُه هذا ، فضربه هذا المذكور بسيفه حتى مات . وقيل إنه قتله بسيف نفسه .

وكان دخولهما مُيرْقة وقتلهما أميرَها المذكور فى شهر ذى الحجة من سنة ٥٩٩ ، فانتهبا أمواله ، وسَبيا حُرَمه . ودخلا بهم مدينة مراكش على الجمال فى هيئة الأسارى . فأما النساءُ فدُخِلَ بهن ليلا فجُعلن فى بعض الخانات

(١) انظر ص ٣٥١ .

إلى أن نَفذَ الأمرَ بالمنِّ عليهن وإطلاقهن وتزويج من تحتاج إلى التزويج منهن وتجهيزها بمال ؛ وأما الرجال فلم يزالوا فى الحبس إلى أن منّ عليهم بعد أن ضمنهم أكابرُهم واتّخذوا أجنادًا فهم كذلك إلى اليوم .

وبلغنى أن المتولّين لفتحها انتهبوا منها أموالا عظيمة وذخائر نفيسة .

ثم رجع أمير المؤمنين أبو عبد الله إلى مراكش ، وبها اتصل به خبر فتح مُيرْقة ، وكان رجوعه إلى مراكش فى ذى القعدة من السنة المذكورة .

[عبد الرحمن الجزولىّ الثائر]

وقد كان قبل هذا فى سنة ٩٧ ، قام بسوس رجلٌ من جزولة اسمه عبد الرحمن[1] ، يعرف عندهم بما معناه بلسانهم «ابن الجزارة» فدعا إلى نفسه ؛ واجتمع إليه خلق كثير ؛ واشتد خوف الموحدين منه ، فلم يزالوا يجهزون إليه العساكر بعد العساكر ، وفى كل ذلك يهزمهم ؛ إلى أن بعثوا بعثاً من الموحدين والغُزّ وأصناف الجند ، بعد أن تقدموا إلى المصامدة والمجاورين للبلاد التى كان فيها ؛ وقالوا : إنما يقوَى هذا الرجل بتغافُلكم عنه ومُسامحتكم إياه ، ولو شئتم لم يبق بالبلاد يوماً واحدًا ! فتحركوا عند ذلك وأظهروا الحميّة ، والتَقَوْا هُم وأصحاب عبد الرحمن المذكور — وكان يدعى أبا قَصَبة — فأسلمته جموعه ، وقتل وسير برأسه إلى مراكش ؛ فكتب إلىّ بعضُ إخوانى ، وهو إذ ذاك صبى صغير كان مع أبيه بسوس — وكان أبوه من العمال من أهل جزيرة الأندلس من ناحية بَلَنسِية — يخبرنى

(١) يدعى ابا قصبة .

بهذا الفتح قبل وصوله إلىَّ من جهة كتَّاب الموحدين المتولين له ،[1] رسالة أولها :

«كُتِبَ من منزل سوس وقد تبلَّج فجرُ الفتح فأسفر ، وقال فريق الضلال وشيعتُه أين المفَرّ ؟ وقد ألقى النصرُ جِرانَه ، وأعزَّ الله حربَه المؤيَّدَ وأعوانه ؛ وشرْحُ الحالِ على غاية الإيجاز ، لأجل الاستعجال فى إنهاء هذه البشائر والانحفاز ، أن الناكثين النابذين للعروة الوُثقى ، المتمسكين بالسبب الأشقى ، حاصَرهم الموحدون ـ أنجدهم الله ـ أشدَّ الحصار، وقطعوا عنهم موادَّ المعايش وَزرافات الأنصار ؛ ولسانُ التأييد يتلو علينا بالعشِّى والإشراق : ما ينظُرُ هؤلاء إلا صيحةً واحدةً مالَها مِن فَوَاق ؛ ولحينِ ما أخذَ الموحدون ـ أنجدهم الله ـ فى حسم دائهم العُضال ، وجرَّدوا لهم من عَزَماتهم الصادقة ما هو أمضى من النصال ، طاحوا مُجَدَّلين بالحضيض ، وملأ جثمانهم الفضاءَ العريض ، وخيَّبَ الله ظنونهم الكاذبة وآمالهم ، وصيَّرهم إلى أُمِّهم الهاويةِ فكانت أولى بهم ؛ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسْخَطَ الله وكرِهوا رضوانَه فأحبط أعمالهم ؛ وأمكن الله من رأس ضلالهم المدعوِّ بأبى قصبَة ، فقهره الحزبُ المنصور وغلَبَه ، وحَزَّ الحسامُ منه قُنَّةً ورقبة ...» .

* * *

إنما أوردت هذه الرسالة هاهنا لغرابة شأن من وردتْ علىَّ منه ؛ وذلك أنه كان حين كتب بها إلىّ لم يحتلم بعد !

---

(١) انظر التقديم ص ١١ .

[فتح جزيرة منرقة]

ومع اتصال هذا الفتح بهم ، اتصل معه فتحُ جزيرة مُنرقة ؛ كان فيها من أصحاب ابن غانية رجلٌ اسمه الزُّبير بن نجاح ؛ دخلوها عليه فقتلوه ووجَّهوا برأسه إلى مراكش ، فهو معلَّق بها مع رأس أبي قصبة المذكور .

[محاربة يحيى بن غانية بأفريقية]

ولما كانت سنة ٦٠١ ، تجهز أمير المؤمنين أبو عبد الله فى جيوش عظيمة وقصد بلاد أفريقية ، وقد كان المُيرْقى يحيى بن غانية قد استولى عليها ، خلا قسنطينة وبجاية ، هيأله ذلك غفلةُ الموحدين عنه ، واشتغالُ أمير المؤمنين أبي يوسف بغزو الروم بالأندلس على ما قدمناه[١] .

فسار أبو عبد الله حتى نزل بلاد أفريقية ؛ فما استعصى عليه بلد من بلادها خلا المهدية ، مهدية بنى عُبيد ؛ فإنه أقام عليها أربعة أشهر قبل أن دخلها ؛ أوجب ذلك ما قدَّمنا من شدة مَنَعَتِها[٢] .

وكان يحيى بن غانية قد ولى فيها ابن عمه لَحًّا ، أبا الحسن عليَّ بن عبد الله بن محمد بن غانية .

فلما طال عليه الحصار سلَّم البلدَ وخرجَ بنفسه يقصد ابنَ عمه ؛ ثم بدا له أن يَرجع إلى الموحدين ، فأرسل إليهم فتلقَّوه أحسن لقاءٍ ، ووصلوه من الصلات النفيسة بما لا قيمــة له[٣] ولا يصل بمثله إلا الخلفاءُ ؛ وبعد

(١) انظر ص ٣٥٦ وما بعدها .
(٢) انظر ص ٢٩٨ .
(٣) انظر التعليق رقم ١ ص ٣٢٦ .

هذا نزع إليهم أخو يحيى بن غانية ، سيرُ بن إسحاق بن محمد ؛فأكرموا نُزُله وأقطعوه الأقطاع الواسعة بعد أن ملئوا يديه أموالا [1] .

ولم يزل أبو عبد الله أمير المؤمنين مقيما بأفريقية يُصلح ما أفسده ابن غانية ، إلى أن تم له ما أراد من ذلك .

وبلغنى أن جملة ما أُنفق فى هذه السفرة مئة وعشرون حِملاً ذهبا .

ثم رجع إلى مراكش دار الملك ؛ بعد أن ترك بأفريقية من الموحدين وأصناف الجند من يقوم بحمايتها ويذود عنها مَن رامها ، واستعمل عليها من أشياخ الموحدين أبا محمد عبدَ الواحد بنَ الشيخ أبى حفص عمر إينْتى [2] ، فأقام بمراكش [3] .

[انتقاض الهدنة بين الموحدين والفرنجة]

وكان رجوعه إليها فى شهور سنة ٦٠٤ ، فأقام بها – كما ذُكر – إلى أول سنة ٦٠٧ ، فانتقض ما بينه وبين الأذفنش – لعنه الله – من المهادنة ، وبَدَا له أن يقصد بلاد الروم للغزو ؛ فخرج بالجيوش حتى عبر البحر ؛ وكان عبوره فى شهر ذى القعدة من سنة ٧ المذكورة ، فسار حتى نزل إشبيلية على عادة من سلف قَبله ، فأقام بها بقية السنة المذكورة .

---

(١) انظر « حسن معاملة الموحدين لمن يغلبونهم من الملوك » ص ٣٢٧ .
(٢) انظر ص ٣٩٣ .
(٣) يعنى أبا عبد الله .

[فتح شلبتره]

وتحرك فى أول سنة ٨ فقصد بلاد الروم ؛ فنزل على قلعة عظيمة لهم فى غاية المَنَعَة تُدعى شَلْبَتَرّه[1] ـ معناه بلسان العرب : الأرض البيضاءُ ، إلا أن فيه تقديماً وتأخيراً كما جرت العادة فى لسان العجم ـ ففتحها بعد حصار وتضييق عليها شديد ؛ وكان أبوه قد نزل عليها قبل ذلك فحاصرها أياماً يسيرة ثم تركها شفقة على المسلمين وخوفاً عليهم ؛ فراع فتحُ هذه القلعة الروم ، وخامرهم الرعب ؛ وخرج الأدفنش ـ لعنه الله ـ إلى قاصية بلاد الروم مستنفراً من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم ؛ فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن السام[2] حتى بلغ نفيرُه إلى القسطنطينية ، وجاء معه صاحب بلاد أَرْغُن المعروفَ بالبرشنونى[3] لعنه الله !

---

(١) Salvatierra وقد ذكرت فى بعض المراجع العربيه باسم سربطرة ، وشربطرة .

(٢) كذا بالأصل . ومما يذكر فى تاريخ هذه الفترة أن الفونس الثالث ملك قشتالة حين راعه تقدم الموحدين صوب بلاده ، وخشى أن تنال الاسبانيين على يد الناصر محمد ، هزيمة مثل هزيمة الأرك التى نالتهم منذ بضع عشرة سنة على يدى أبيه المنصور يعقوب ، أوفد رسولا الى البابا فى رومية يستصرخه ويسأله أن يرسل الصيحة فى الأمم الصليبية التى كانت فى ذلك مولية وجهها شطر المشرق ، لكى تنظم حملة صليبية ضد المسلمين فى الأندلس ، ولم يكتف ملك قشتالة باستصراخ البابا ، فأرسل مطران طايطلة وعددا كبيرا من رجال الدين الى فرنسا والبلاد الواقعة فى شرقيها ، يبثون دعاية لحرب صليبية جديدة فى اسبانيا ...

وقد استجاب البابا ، كما استجاب الرعايا المسيحيون بين جبال البرانس وشواطىء البحر الأسود لهذا الصريخ ، فاجتمع على أرض الجزيرة جيوش من شتى بلاد أوربا المسيحية ، ومن الجزر البريطانية ، وكان اجتماعها تمهيدا لوقعة العقاب التى يورد المؤلف خبرها فيما بعد ، والتى كانت هزيمة المسلمين فيها سببا الى كل ما توالى بعدها من النكبات على مسلمى الأندلس !

(٣) هو بيدرو الثانى ملك أرجون ، وقد عقد فى تلك الفترة حلفا مع ألفونس الثالث ملك قشتالة .

[أشهر الإمارات الإسبانية فى ذلك العهد]

وذلك أن جزيرة الأندلس يملك جهاتها الأربع أربعةُ ملوك من الروم : إحدى الجهات تسمى أرغون – وهى التى ذكرنا – وهى شرقىُّ الجزيرة مما يقابل الجنوب منها .

والجهة الأخرى – وهى المملكة الكبرى – بلاد تسمى بلاد قَشتال ، يملكها الأدفنش لعنه الله ؛ وحد هذه الجهة فيما بين الجنوب والشمال ، أمْيَلُ إلى الجنوب قليلا .

والجهة الاخرى تسمى ليون ، فهو أول الحد الشمالى المغربى ، يملكها رجل يدعى بالبَبُوج[1] ؛ ومعنى هذا الاسم بالعربية : الكثير اللُّعاب !

والجهة الأُخرى فى الشمال مما يلى البحر الأعظم ، بحر أقيانس[2] ، يملكها رجل يعرف بابن الريق ، وقد تقدم ذكره فى مواضع من هذا الكتاب[3] .

والجزيرة بأسرها ، أعنى جزيرة الأندلس ، تسمى فى قديم الدهر عند الروم جزيرة إشبانية .

* * *

(١) ملك ليون فى تلك الفترة هو ألفونس لناسع .

(٢) يعنى مملكة البرتغال .

(٣) انظر ص ٣٣٠ ، و ص ٣٥٦ ، ويعنى المؤرخون العرب بابن الريق ، أو ابن الريك : ملك البرتغال العونس هنريكيز ، وهم يطلقون هذه التسمية على كل من ملكها من ولده، وقد كان ملك البرتغال فى ذلك العهد ، شانجه الأول هنريكيز المذكور ، ويغلب على الظن أن كلمة « ابن الريق » هذه هى تحريف كلمة « هنريكيز » مع شىء من الترخيم .

وبعد رجوع أمير المؤمنين أبي عبد الله من هذا الفتح المتقدم الذكر إلى إشبيلية ، استنفر الناس من أقاصي البلاد ، فاجتمعت له جموع كثيفة ، وخرج من إشبيلية في أول سنة ٦٠٩ ، فسار حتى نزل مدينة جيَّان ؛ فأقام بها ينظر في أمره ويعبئ عساكره ، وخرج الأدفنش - لعنه الله - من مدينة طليطلة في جموع ضخمة ، حتى نزل على قلعة رباح - وهي كانت للمسلمين ، افتتحها المنصور أبو يوسف في الوقعة الكبرى[1] - فسلَّمها إليه المسلمون الذين بها بعد أن أمَّنهم على أنفسهم ؛ فرجع عن الأدفنش - لعنه الله - بهذا السبب من الروم جموعٌ كثيرة ، حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة ، وقالوا : إنما جئتَ بنا لتفتتح بنا البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين ؛ ما لنا في صحبتك من حاجة على هذا الوجه !

[وقعة العقاب وهزيمة المسلمين]

وخرج أمير المؤمنين من مدينة جيَّان ، فالتقى هو والأدفنش بموضع يعرف بالعِقاب ، بالقرب من حصن يدعى حصن سالم ؛ فعبأ الأدفنش جيوشه ورتب أصحابه ، ودَهَم المسلمين وهم على غير أُهبة ؛ فانهزموا ، وقُتل من الموحدين خلقٌ كثير[2] .

(١) يعني وقعة الأرك ، انظر ص ٣٥٨ .

(٢) بلغ عدد القتلى من المسلمين في هذه المعركة مئات الآلاف ، يقول المكثر ان عددهم بلغ خمسمئة ألف ، والمقل انهم مئة ألف ، ولم يجر على مسلمي الأندلس في تاريخهم الطويل مثل ما جرى عليهم في هذه الوقعة المشئومة التي كانت نذيرا بذهاب ملكهم وانقراض عقبهم في تلك البلاد بعد ذلك التاريخ !

وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلافُ قلوب الموحدين ؛ وذلك أنهم كانوا على عهد أبي يوسف يعقوب يأْخذون العطاء فى كل أربعة أشهر ، لا يخلّ ذلك من أمرهم ؛ فأبطأ فى مدة أبي عبد الله هذا عنهم العطاء ، وخصوصاً فى هذه السّفرة ، فنسبوا ذلك إلى الوزراء ؛ وخرجوا وهم كارهون ؛ فبلغنى عن جماعة منهم أنهم لم يَسُلُّوا سيفاً ولا شرعوا رمحاً ولا أخذوا فى شىء من أهبة القتال ؛ بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم قاصدين لذلك

وثبت أبو عبد الله هذا فى ذلك اليوم ثباتاً لم يُرَ لملك قبله ، ولولاثباته هذا لاستُؤْصلت تلك الجموع كلُّها قتلا وأسرًا !

ثم رجع من هذا الوجه إلى إشبيلية ، وأقام بها إلى شهر رمضان من هذه السنة ، ثم عبر البحر قاصدًا مدينة مراكش ...

وكانت هذه الهزيمة الكبرى على المسلمين ، يوم الاثنين منتصف صفر الكائن فى سنة ٦٠٩ .

...

وفصل الأَدفنش – لعنه الله – عن هذا الموضع بعد أن امتلأت يداه وأيدى أصحابه أموالا وأمتعة من متاع المسلمين ؛ فقصد مدينتَى بَيَّاسة وأُبذَة ؛ فأما بياسة فوجدها أو أكثرها خالية [1] ، فحرَّق أدؤرها وخرَّب مسجدها الأَعظم ؛ ونزل على أُبذة وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المنهزمة وأهل بياسة وأهلِ البلد نفسه ؛ فأقام عليها ثلاثة عشر يوماً ، ثم دخلها عَنوةً فقتل وسَبَى وغنم ؛ وفصَل هو وأصحابه من السَّبْى

---

(١) لم يكن فى بياسة سوى طائفة من المرضى والضعفاء قد لجئوا الى مسجد المدينة ينتظرون مصيرهم ، فاجهز عليهم النصـــارى وخربوا المسجد !

من النساء والصبيان بما ملئوا به بلادَ الروم قاطبة ؛ فكانت هذه أشدَّ على المسلمين من الهزيمة !

[وفاة الناصر محمد]

ولم يزل أمير المؤمنين أبو عبد الله مقيماً بمراكش بقية سنة ٩ وأشهرًا من سنة ١٠ إلى أن توفى فى شهر شعبان كما قدمنا ؛ واختلف علينا فى سبب وفاته[١] ؛ فأصحُّ ما بلغنى أنه أصابته سكتة من وَرَم فى دماغه ؛ وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان ؛ فأقام ساكتاً لا يتكلم يوم السبت والأحد والاثنين والثلاثاء ؛ وأشار عليه الأطباءُ بالفَصْد فأبى ذلك ؛ وتوفى يوم الأربعاء لعشر خلون من شهر شعبان من سنة ٦١٠ ، ودفن يوم الخميس ؛ صلَّى عليه خاصةُ الحشَم !

---

(١) يروى ابن خلكان عن بعض المغاربة انالناصر اوصى عبيده المشتغلين بحراسة بستانه فى مراكش ان كل من ظهر لهم بالليل فهو مباح الدم لهم ، ثم اراد ان يختبر قدر امره فتنكر وجعل يمشى فى البستان ليلا ، فعندما راوه جعلوه غرضا لرماحهم ، فجعل يقول : انا الخليفة ! انا الخليفة ! فما تحققوه حتى هلك .

ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن محمد

هو يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي[1] ، أمه أم ولد رومية اسمها قمر ، تُلقّب حكيمة ؛ كانت ولادته فى صدرشوال من سنة ٥٩٤ ؛ قبل وفاة جده أبي يوسف بأربعة أشهر .

بويع له وسنه يومئذ ستّ عشرة سنة ، لا أعلم له ولدًا لحداثة سنّه ؛ ثم اتصل بي فى شهور سنة ٦٢١ أن يوسف هذا تُوفّى فى أحد الشهرين من شوال أو ذى القعدة سنة ٢٠ ، فكانت مدة ولايته من يوم بُويع له ـ وذلك لأحد عشر يوماً خلت من شعبان من سنة ٦١٠ ـ إلى أن توفى كما ذُكر فى فى التاريخ المذكور ، عشرة أعوام وشهرين .

صفته

كان صافى السمرة ، مستدير الوجه ، شديد الكحل ، يشبّهونه بجده أبي يوسف فى أكثر خَلْقه وخُلقه .

وزراؤه :

أبو سعيد ـ المتقدم الذكر ـ[2] وزير أبيه ؛ استمرت وزارته إلى آخر سنة ٦١٥ .

(١) لقبه المستنصر بالله .
(٢) هو ابو سعيد عثمان بن جامع ، انظر ص ٣٨٩ .

ثم عزله وولى بعده رجلا اسمه زكريا بن يحيى بن أبي إبراهيم إسماعيل الهزرجى صاحب ابن تومرت والمقتول فى حياة عبد المؤمن كما تقدم[1] أمُّ هذا الوزير هى بنت أبي يوسف المنصور ؛ فهو وزيره إلى أن توفى كما ذكر .

حجابه :

مبشّر الخصىّ حاجب أبيه[2].

ثم حجبه بعده فارح الخصىّ ، يكنى أبا السرور ؛ فلم يزل حاجباً له إلى أن توفى كما قيل .

قضاته :

أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران قاضى أبيه[3] ؛ لم يزل أبو عمران هذا قاضياً له إلى أن توفى كما قيل .

كتابه :

أبو عبد الله بن عياش كاتب أبيه وجده[4] .

وأبو الحسن بن عياش .

(١) انظر ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥ .
(٢) انظر ص ٣٩٠ .
(٣) انظر ص ٣٩٢ .
(٤) انظر ص ٣٣٨ و ٣٩١ .

ثم اتصلت بى وفاة هذين الكاتبين وأنا بالديار المصرية فى شهور سنة ٦١٩ ، وأنهم استعادوا أبا عبد الله محمد بن يَخْلُفْتَن الفازازى المتقدم الذكر فى كتاب أمير المؤمنين أبى عبد الله [(١)] ؛ وكان قاضياً بمدينة مُرسية من شرق الأندلس ، وبها فارقته ؛ فأعادوه إلى الكتابة كما كان .

واستكتبوا معه أبا جعفر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عياش . أبوه هو كاتبهم المشهور بكتابتهم ، وقد تقدم ذكره فى كتّاب ثلاثة أمراء منهم [(٢)] .

وكاتب الجيش أحمد بن منيع ؛ لم يتغير .

بيعته :

بويع لأبى يعقوب هذا يوم دفن أبيه ، لا أدرى أبعهد أبيه إليه أم لا ؛ لأنى أعلم أن أباه كان كثير الانحراف عنه فى آخر أيامه ؛ لما كان يسمع من سوء أخباره .

والذين قاموا ببيعته من القرابة : أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ، عمّ جدّه الذى دخل عليه المُيرْقِيُّون [(٣)] بجايَة ، وهو آخِرُ من بقى من ولد عبد المؤمن لصلبه ، لم تبلغنى وفاته إلى وقتنا هذا .

وأبو زكريا يحي بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن .

---

(١) انظر ص ٣٩١ .

(٢) هو أبو عبد الله المذكور قبل بضعة أسطر ، كتب له ، ولابيه ، ولجده .

(٣) انظر ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧ .

كانا قائمين على رأسه يأذنان للناس .

ومن الموحدين : أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن أبي زيد الهنتاتي ـ كان أبوه أولَ وزير وزر لأبي يوسف ، وقد ذُكر[1] .

وأبو علي عمر بن موسى بن عبد الواحد الشرقي[2] .

وأبو مروان عبد الملك بن يوسف بن سليمان ، من أهل تينملّ .

وبويع البيعةَ الخاصة يوم الخميس ، ويومَ الجمعة بايعه أشياخ الموحدين والقرابة ، وفي يوم السبت أذن للناس عامة .

شهدتُ ذلك اليومَ[3] وأبو عبد الله بن عياش الكاتبُ قائمٌ يقول للناس :

« تبايعون أمير المؤمنين ابن أُمراء المؤمنين على ما بايع عليه أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولَ الله ، من السمع والطاعة في المَنْشَط والمَكْره واليُسر والعُسر والنُّصح له ولولاته ولعامة المسلمين ؛ هذا ماله عليكم ولكم عليه : ألا يُجَمِّر بعوثكم ، وألا يدخر عنكم شيئاً مما تعمُّكم مصلحته ، وأن يعجِّل لكم عطاءكم ، وألا يحتجب دونكم ؛ أعانكم الله على الوفاء وأعانه على ما قُلِّدَ من أموركم . » .

يعيد هذا القول لكل طائفة ، إلى أن انقضت البيعة .

ثم اتصلت وفادة أعيان البلاد ورؤسائها ووجوه القبائل عليه للبيعة إلى أن تم له الأمر .

---

(١) انظر ص ٣٣٧ .

(٢) انظر ص ٢٤٨ .

(٣) انظر التقديم ص ١٣ .

[فاطمي من سلالة ملوك القاهرة يثور بمراكش]

ولأربعة أشهر من ولايته قُبض على رجل كان قد ثار عليهم يَدّعى أنه [من بنى عُبيد ويقول إنه ولد العاضد لصُلبه[1] ، اسمه عبد الرحمن .

كان قد ورد البلاد فى حياة أبى يوسف أيام كونه بإشبيلية ورام الاجتماع به فلم يأذن له ؛ وأقام بالبلاد مطَّرحاً إلى أن حبسه أمير المؤمنين أبو عبد الله فى شهور سنة ٥٩٦ ، فلم يزل فى الحبس إلى أن كانت سنة ٦٠١ وتحرك أمير المؤمنين إلى أفريقـية ؛ شفع له فيه أبو زكريا يحيى بن أبى إبراهيم الهزرجى ، فأطلقه له بعد أن ضمن عنه أنه لا يتحرك فى أمر يكرهونه ؛ فلم يُقم هذا العُبيدى بمراكش إلا أياماً يسيرة بعدخروج أمير المؤمنين أبى عبد الله ، ثم خرج وقصد بلاد صُنهاجة ، فالتفّت عليه منهم جماعة وانتشر له فيهم تعظيم ؛ لأن هذا الرجل كان كثير الإطراق والصمت ، حسن الهيئة ؛ لقيتُه مرتين فلم أر فى أكثر من شهدتُه من المشبَّهين بالصالحين مثلَه فى الآداب الظاهرة ، من هدوء النفس وسكون الأطراف ووزن الكلام وترتيب الألفاظ ووضع الأشياء مواضعها ،

---

(١) العاضد : آخر ملوك العبيديين فى القاهرة ، غلبه بنو ايوب على عرش مصر ، ولكنهم لم يعزلوه ، بل صابروه حتى مات حتف أنفه سنة ٥٦٧ ، فاستقل من يومئذ صلاح الدين الأيوبى بملك البلاد وانتهى عهد العبيديين .

وقد مات العاضد شابا فى الحادية والعشرين ، وليس يعرف له ولد من صلبه ، وقد حكى بعض المؤرخين انه منع أن يتصل بنسائه وجواريه لينقطع بموته نسب بنى عبيد فلا يطالب بعرش البلاد أحد منهم ، ولكن ذلك لم يمنع ظهور أدعياء يزعمون أنهم من صلبه ليجعلوا ذلك سببا الى الملك ، وقد ظهر دعى من هؤلاء فى القاهرة بعد سنين من موت العاضد ، ولكن دعواه لم تجد تأييدا .

مع الرياضة المفرطة . ثم قصد مدينة سجلماسة فى حياة أمير المؤمنين أبى عبد الله بجيش عظيم ، فخرج إليه مُتَوليها السيد أبو الربيع سليمان بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ؛ فهزمه العبيدىُّ المذكور وأعاده إلى سلجماسة أسوأ عَوْد ؛ ولم يزل ينتقل فى قبائل البربر من موضع إلى موضع ، وفى ذلك كلِّه لا يستقيم له أمر ولا تثبت عليه جماعة ؛ أوجَبَ ذلك كونُه غريبَ البلد واللسان ، لا عشيرة له ولا أصل بالبلاد يرجع إليه ؛ إلى أن قُبض عليه بظاهر مدينة فاس ؛ لم يبلغنى تفصيلُ قضية القبض عليه ؛ وكتب إلى أميرِ المؤمنين متولِّى فاس أبو إبراهيم إسحاق بن أمير المؤمنين أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، يُعلمه بالقبض عليه وبكونه عنده فى سجنه ؛ فكتب إليه يأمره بقتله وصَلبه ، فضرب عنقه وصلب جسده ووجَّه برأسه إلى مراكش ؛ فهو معلق هناك مع عدة رُءُوس من الثُّوار والمتغلِّبين .

[عود إلى الحديث عن أبى يعقوب الثانى]

ولم يغيِّر أبو يعقوب هذا على الناس شيئاً من سير آبائه ، ولا أحدث أمرًا يتميز به عمن كان قبله ؛ خلا أنى رأيت كل من يعرفه من خواص الدولة قد ملىءقلبه منه رعباً ؛ لما يعلمون من شهامته وشدة تيقُّظه .

لقيتُه وجلستُ بين يديه خالياً به [1] ، وذلك فى غُرة سنة ٦١١ ؛ فرأيت — من حِدَّة نفسه وتيقُّظ قلبه وسؤاله عن جزئيات لا يعرفها أكثرُ

[1] انظر التقديم ص ٦ و ٩ .

السوق فكيف الملوكُ – ما قضيْتُ منه العجب ؛ وإلى وقتنا هذا لم يظهر منه شيءٌ مما يُتَوقع .

[ثائران آخران على أبى يعقوب الثانى]

وثار فى أيام يوسف هذا – بعد قتل العبيدى – رجلان : أحدهما ببلاد جزُولة من سُوس ، كان يُدْعى بالفاطمى ؛ قُتل وجىء برأسه إلى مراكش فى شهور سنة ٦١٢ وأنا يومئذ بجزيرة الأندلس ؛ لم يبلغنى تفصيلُ أمره لبعدى عن الحضرة ، غير أنى رأيتهم أعظَموا الفرح بأخذه وقتْله .

والآخر من صُنهاجة ، قتل فى سنة ٦١٨ بعد أن أثر آثارًا قبيحة فيما بلغنى وهزمَ بعوثاً عدة واستَفْسدَ خَلقاً كثيراً .

بلغنى هذا كلُّه وأنا بالبلاد المصرية فى التاريخ المتقدم[1] .

وكان الذى تولى قتلَ هذا الرجل والإراحةَ منه وحَسْمَ الخلاف الواقع بسببه . السيد الأجلُّ أبا محمد عبد العزيز ابن أمير المؤْمنين أبى يعقوب ابن عبد المؤْمن بن على ، وهو يومئذ والٍ على مدينة سجلماسة وأعمالها .

[وفاة أبى يعقوب الثانى]

ثم اتصل بى فى هذه السنة – وهى سنة ٦٢١ – أن أبا يعقوب أمير المؤْمنين توفى فى أحد الشهرين من شوال أو ذى القعدة من سنة ٦٢٠ ولم

---

(١) انظر التقديم ص ٧ .

يبلغنى كيفيةُ وفاته[1] ؛ فاضطرب الأمر واشرأبَّ الناس للخلاف .

[ولاية أبي محمد عبد العزيز بن أبي يعقوب الأول]

ثم ذُكر لى أن عامتَهم ومعظهم اجتمعوا على تقديم السيد الأجل أبى محمد عبد العزيز [2] ابن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف ابن أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن بن على ، رحمهما الله ونضَّر وجوههما وجزاهما خيراً عن صَلاحهما وإصلاحهما !

وأبو محمد عبد العزيز هذا من أصاغر أولاد أبي يعقوب ؛ أُمه حرة اسمها مريم ، صُنهاجية من أهل قلعة بنى حماد ، تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب فى حياة أبيه ؛ وكانت سُبيت هى وأُمُّها ملكة فيمن سُبُوا من أهل القلعة ؛ فأعتقهما أبو محمد عبد المؤمن ، وزوَّج مريمَ هذه لابنه أبي يعقوب ، فولدت له ثمانية من الولد ؛ أربعة ذكور ، وأربع بنات ؛ فالذكور هم : إبراهيم ، وموسى ، وإدريس ، وعبد العزيز هذا المذكور ، وهو أصغرهم ؛ توفى موسى بظاهر مدينة تاهَرْت ؛ قتله العرب أصحابُ المُيرقى فى شهور سنة ٦٠٥ ؛ وتوفى إبراهيم منهم بإشبيلية وأنَا بِها فى شهور

(١) كان أبو يعقوب هذا ـ فيما يروى ـ شابا كثير اللهو ، وكان من هواه ان يرعى الأبقار ويحاول رياضتها ، فبينما هو ذات يوم يحاول ان يروض بعض ابقاره هجمت عليه بقرة شموس وضربته بقرنها فاصابت قلبه ، وكذلك كانت ميتته ، فى الثالث عشر من ذى الحجة سنة ٦٢٠ على ما يحكى روض القرطاس .

(٢) فى غيره : ان الذى ولى عرش الموحدين بعد أبى يعقوب ، هو عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ، لا عبد العزيز . وكان من اولاد يوسف : عبد الواحد ، وعبد العزيز . انظر ص ٣١٨ .

سنة ٦١٢ ؛ وتوفى أبو العلاء إدريس منهم بأفريقية كما سيأتى ؛والبنات هن : زينب ، ورقية ، وعائشة ، وعلية .

لم يتول أبو محمد عبد العزيز هذا شيئاً من أمرهم في حياة أبيه ، ولا فى حياة أخيه أبى يوسف ؛ فلما ولى أبو عبد الله الأمر[1] ولاه مدينة مالقة وأعمالها من جزيرة الأندلس[2] ؛ وذلك فى شهور سنة ٥٩٨ ؛ ثم عزله عنها فى شهور سنة ٦٠٣ وولاه أمر قبيلة هَسْكُورَه ، وهى ولاية ضخمة ؛ فلم يزل والياً عليها إلى أن عزله وولاه أمر سجلماسة ، فلم يزل والياً عليها بقية مدته ومدة ابنه أبى يعقوب ، إلى أن قَتَل هذا الثائرَ المتقدم الذكر [3] فى ولاية أبى يعقوب ابن أبى عبد الله ؛ فعزله أبو يعقوب عن سجلماسة وولاه مدينة إشبيلية حين عزل عنها أخاه أبا العلاء وولاه أمر أفريقية ؛ فلم يزل أبو العلاء إدريس والياً بأفريقية إلى أن مات بها فى رمضان من سنة ٦٢٠ على ما بلغنى ، رحمة الله عليه .

فهذه جملة أخبار هذا الرجل ، أبى محمد عبد العزيز المذكور بالولاية

---

(١) يعنى الناصر محمد بن أبى يوسف .

(٢) وردت العبارة الآتية فى هامش المخطوطة مع اشارة الى أن موضعها من صـلب الكتاب بعد عبارة « ولاه مدينة مالقة وأعمالها من جزيرة الأندلس » ، وهذه هى العبارة :

« وبها عرفتُه وصاحبتُه ، على طريقه من التصوُّف »

وقد لاحظ دوزى ان المراكشى كان ما يزال فى أفريقية حوالى سـنة ٥٩٨ ، وأنه عبر الى الأندلس فى سنة ٦٠٣ ، وهى السنة آلتى يروى أن أبا عبد الله ولاه فيها أمر هسكورة ، وبناء على هذه الملاحظة يعتقد دوزى أن مقابلة المراكشى له كانت فى سجلماسة من أفريقية لا فى جزيرة الأندلس .

(٣) انظر ص ٤١٠ .

لأمرهم كما قالوا ؛ ولئن كان ما قالوا حقاً وتم هذا الأمر له[1] ، ليملأنها خيرًا وعدلا ، ولتزكُوَنَّ الأرض وتُخرجُ بركاتها ، ولترسلنّ السماءُ مدرارَها ؛ بيمن نقيبته وحسن سيرته وحميدِ سريرته ؛ هذا إذا ساعده الدهروقيّض الله له أعواناً صالحين ؛ فإنه – ما علمتُ – صوّام قوّام ، مجتهدٌ في دينه ، شديد البصيرة في أمره ، قويٌّ العزيمة ، شديد الشكيمة ، لاتأخذه في الحق لَومةُ لائم ؛ أَرْطَبُ الناس لساناً بذكر الله ، وأتلاهم لكتاب الله ؛ شهدتُه والولاية قد اكتنفته ، وأمور الرعية قد استغرقت أوقاته ، وهو في كل ذلك لايُخلُّ بشيء من أوراده ، ولا يترك وظيفةً من الوظائف التي رتبها على نفسه ، مِن أخْذِ العلم وقراءة القرآن ، وأذكارٍ رتَّبها على أوقات الليل والنهار ؛ شهدتُ هذا كلَّه منه بنفسي ، لا أنقله عن أحد ولا أستند فيه إلى رواية ؛ هذا مع دماثة خُلق ولينِ جانب وخَفْض جناح لأصحابه ولمن عَلِم فيه خيرًا من المسلمين أو ظَنَّه مُضافاً إلى سخاء نفس وطلاقة وجه .

صفته

أبيض تعلوه صفرة ، جميلُ الوجه جدًا ، معتدل القامة ، متناسب الأعضاء ؛

وله من الولد – على علمي – ثلاثة : محمد ، وهو أكبرهم ؛ وعبد الرحمن ؛ وأحمد ؛ وبنات .

---

(1) يبدو من عبارة المراكشي انه لم يكن على يقين بان عبد العزيز قد ولي عرش المغرب بعد ابي يعقوب الثاني ، وفي شكه هذا ترجيح لما رواه غيره من ان صاحب العرش بعد ابي يعقوب هو عبد اللاوحد بن يوسف لا أخوه عبـــد العزيز .

هذا تلخيص التعريف بأخبار دولة المصامدة من أول قيام أمرهم – وهو سنة ٥١٥ – إلى وقتنا هذا – وهو سنة ٦٢١ – فذلك مئة سنة وست سنين ، على الإجمال لا على التفصيل .

وإنما أوردنا من ذلك ما تدعو الحاجة إليه ، وتُجشم الضرورة مَنْعُنى بالأخبار إلى معرفته ، من غير تعرُّض إلى ما لا حاجة بنا إليه ، من ذكر أولاد عبد المؤمن ، وأولادِ أولاده ، وأولادِ أولادِ أولاده ، وتفاصيل أخبارهم فى ولايتهم وعزْلهم وأمهاتهم وكُتابهم وحُجابهم ووزرائهم ؛ إذ لو تتبعنا ذلك لخرج هذا المجموع عن حد التلخيص ولَحِقَ بالكتب المبسوطة ؛ هذا على أنَّا لو كُفينا ضروراتِ المعاش وأُعفينا من كَدِّ الزمان لأوردنا من ذلك ما أحاط به العلم وبلغته الرواية وحصَّلته المشاهدة .

* * *

ولم أُثبت فى هذه الأوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها إلا ما حققتُه نقلا من كتاب ، أو سماعا من ثقةٍ عَدل ، أو مشاهدةً بنفسى ؛ هذا بعد أن تحرَّيتُ الصدق وتوخيت الإنصاف فى ذلك كله ، وجَهَدْتُ ألا أنقص أحدًا ذرةً مماله ، ولا أزيده خردلة مما لايستحقه ؛ وبالله أستعين ، وإياه أسأل ، وإليه أضرع فى إلهام الصواب والسداد فى القول والعمل ، فهو حسبى ونعم الوكيل[1]

(١) الى هنا ينتهى حديث المراكشى عن دولة الموحدين فى المغرب والأندلس ، لو أن الزمن تاخر به سنين قليلة لشهد خاتمة هذه الدولة ووصف لنا آخر احداثها وكيف انتهى أمرها ، على اننا لا نبعد عن الحق كثيرا اذا زعمنا أن عبد العزيز – أو عبد الواحد – ابن يوسف بن

... ...

عبد المؤمن كان هو آخر أمراء الموحـــدين ، بل لعل الأقرب الى الحق أن نقول ان آخرهم هـــو ابو عبد الله محمد بن أبى يوسف الذى ولى العرش من سنة ٥٩٥ الى سنة ٦١٠ ، والذى كانت هزيمته الساحقة في وقعة العقاب أذانا بانتهـــاء دولة الموحدين ، فقد كان ولده أبو يعقوب الثانى صبيا ليس له أهلية ولا كفاية ، ولم يكن له ــ خلال السنوات العشر التى قضاها على العرش ــ أمر ولا نهى فى شئون البلاد ، ثم لم يخلص بعده عرش الموحدين لواحد من بنى عبد المؤمن وآذنت الدولة بالزوال ، واذن فان من حقنا أن نقول ان عبد الواحد المراكشى قد انتهى فى كتابه مع نهاية دولة الموحدين ، على اننا مع ذلك كنا نتمنى لو أن كتابه قد وصف لنا اللحظـــات الأخيرة التى كانت فيها دولة بنى عبـــد المؤمن تلفـــظ آخر أنفاسها ، فيما بين سنتى ٦٢١ و٦٦٨ ، واننــــا نحاول فى هذا التعليق أن نستدرك هذا النقص الذى لم يتهيأ لعبد الواحد ان يتمه ، بوصـــف الأحداث التى جرت خلال تلك الســـــنين والتى انتهت بها الدولة ، فنقول :

ولاية ابن أبي يعقوب بن عبد المؤمن

لم يكد عبد الواحـــد ــ أو عبد العزيز ــ ابن أبى يعقوب يجلس على عرش المغرب بعـــد موت أبى يعقوب الثانى سنة ٦٢٠ ، حتى تفرق أمر بنى عبد المؤمن واضطرمت مطامعهم حول العرش الموحدى ؛ فقام بالأندلس أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور ، أمير شرق الأندلس وأعلن نفسه أميرًا على مرسية ، وتلقب بالعادل ؛ ثم أخذ يهيئ أسبابه للوثوب على مراكش ليستخلص العرش لنفسه ؛ وتـم له ما أراد ؛ إذ ثار المغاربة على عبد الواحد ــ أو عبد العزيز ــ ابن أبى يعقوب ، فخلعوه وقتلوه ، بعد بضعة أشهر من ولايته !

... ...

ولاية العادل بن المنصور

ولكن عرش المغرب والأندلس لم يخلص للعادل بن المنصور ، كما لم يخلص من قبله لعمه ابن أبى يعقوب ؛ فقد ثار عليه المغاربة فى مراكش كما انتقض عليه أمراءُ الموحدين فى الأندلس ، وانتهى الأمر بقتله فى سنة ٦٢٤ .

ولاية المأمون بن المنصور

وكان أبو العلاء إدريس بن المنصور ، أمير إشبيلية وأخو العادل ، هو مدبِّر تلك الفتنة ، طمعاً فى العرش ؛ فلم يكد يعلم بمقتل العادل حتّى ادعى الخلافة فى إشبيلية وتسمَّى بالمأمون ؛ وبايعه أهل الأندلس .

المعتصم بن الناصر

ولكن المغاربة فى مراكش لم يرتضوه خليفة ، وبايعوا شاباً من ولد أخيه الناصر محمد بن يعقوب ، اسمه أبو زكريا يحيى ، ولقبوه بالمعتصم ؛ فسار المعتصم هذا إلى الأندلس على رأس قوة من الجند لإخضاع عمه المأمون ؛ فالتقيا فى معركة دامية بشَذُونة ؛ فانهزم المعتصم وفرّ ناجياً بنفسه فى طائفة قليلة من جنده .

وأُتيحت الفرصة للمأمون ليجتاز المضيق إلى المغرب ويتسنم عرش

... ...

مراكش ؛ ولكن المعارك لم تفتر بينه وبين المعتصم بن الناصر ، ولم يخلص له عرش البلاد ، حتى مات فى ذى الحجة سنة ٦٢٩ .

خروج الأندلس عن طاعة الموحدين

وحين كانت المعارك الطاحنة دائرة فى المغرب بين المأمون وابن أخيه المعتصم ، كان النصارى يستولون على بلاد المسلمين فى الأندلس حصناً بعد حصن ومدينة بعد مدينة !

وفى تلك الأثناء قام أمير من سلالة بنى هود الجذاميين أصحاب سرقسطة السابقين (انظرص ٤٨–٥٠) اسمه أبو عبد الله محمدبن يوسف ، فاستولى على مرسية وأعلن نفسه أميرًا عليها ، وتلقب باسم المتوكل على الله ، وخطب للعباسيين خلفاء بغداد ، واتخذ السواد شعارًا : ثم لم يلبث أن دانت له جيان ، وقرطبة ، وماردة ، وبطليوس ، ثم فقد الموحدون غرناطة ،وبذلك خرجت الأندلس جملة من طاعة الموحدين ، عدا إشبيلية والجزيرة الخضراء.

ولاية الرشيد بن المأمون

وظن المعتصم بن الناصر أن عرش المغرب قد خلص له بعد موت المأمون ؛ ولكن أمانيه لم تلبث أن خابت ؛ إذ بايع أصحابُ المأمون ولدَه الصبى أبا محمد عبد الواحد ، ولقبوه بالرشيد .

... ...

=واستمرت المعارك ناشبة بين المعتصم وابن عمه الرشيد ، حتى مات المعتصم في رمضان سنة ٦٣٣ .

ثم مات الرشيد غريقاً في جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ .

ولاية المعتضد بن المأمون

وولي العرش بعد الرشيد ، أخوه السعيد أبو الحسن علي بن المأمون — وتلقب بالمعتضد ؛ وفي عهده استشرف بنو زيَّان أصحاب تلمسان ، وبنو مَرين ملوك المغرب فيما بعد ، إلى استخلاص عرش مراكش ...

وقد قُتل المعتضد هذا في صفر سنة ٦٤٦ في موقعة نشبت بينه وبين يحيي ابن زيان أمير تلمسان .

ولاية المرتضى أبي حفص بن إسحاق

ثم تولى بعد المعتضد ، أميرٌ من أحفاد أبي يعقوب يوسف ، اسمه أبوحفص عمر بن أبي إبراهيم إسحاق ، وتلقب بالمرتضى ...

أبو دبوس الواثق

... ولكن العرش لم يخلص للمرتضى ؛ فقد خرج عليه أمير من أمراء الموحدين اسمه أبو العلاء إدريس ، ويعرف بأبي دبوس ؛ وتلقب بالواثق ،

... ...

=وتحالف مع بنى مَرين ليعينوه على استخلاص العرش من يد المرتضى ، وسلّم إليهم مدينة مراكش ثمناً لمعونتهم ؛ ففر المرتضى ناجياً بنفسه ، ولكنه لم يستطع أن يفلت من أجله ؛ فمات قتيلا سنة ٦٦٥ .

تغلب بنى مرين

ولبث الواثق أميرًا بعد المرتضى ثلاث سنين ، ثم أدركه أجله فى معركة دارت بينه وبين بنى مرين حلفائه السابقين ، فى المحرم سنة ٦٦٨ ؛ وبموته انتهى حكم الموحدين فى مراكش والأندلس ؛ ليبدأ تاريخ دولة بنى مرين الذين غلبوا الموحدين على أمرهم فى مراكش ، ودولة بنى الأحمر أصحاب غرناطة الذين غلبوا المتوكل بن هود على ما بيده من شرق الأندلس !

[انتهى ما أضفناه الى حديث المؤلف عن دولة الموحدين] .

جامع سير المصامدة وأخبارهم وقبائلهم[1]

واحوالهم فى ظعنهم واقامتهم

قد قدمنا أن أول من صحب المهدى محمد بن تومرت ، عشرةُ أنفس ؛ وهم المسمَّون بالجماعة[2] .

أولهم عبد الواحد الشرقى على الصحيح .

ثم عبد المؤمن بن على أمير المؤمنين [3] .

ثم عمر بن عبد الله الصُّنهاجى المعروف عندهم بعمر أزناج .

ثم فَصْكَة بن ومَزَّال ، سماه ابن تومرت : عمر ، وكناه أبا حفص ؛ انتشر من ظهر عمر هذا بشرٌ كثير ، وكان له عدّة من الولد ، منهم : إبراهيم ، وإسماعيل ، ومحمد ـ أمُّ محمد هذا ابنةُ عبد المؤمن . ويحيى ، وعيسى ، وموسى ، ويونس ، وعبد الحق ، وعثمان ، وأحمد ، وعبدالواحد؛ كان عبد الواحد هذا يتولى أمر أفريقية ، ولاه أمرها أمير المؤمنين أبوعبدالله سنة ٦٠٣[4] فلم يزل والياً عليها إلى أن مات بها يوم الخميس وهو أول يوم من شهر محرم سنة ٦١٨ .

---

(١) من هنا نعود الى الكتاب فى نصــه الاصيل .

(٢) انظر ص ٢٥٥ .

(٣) انظر ص ٢٤٨ ، وهناك يقرر المراكشى ـ خلافا لما يذكر هنا ـ ان عبد الواحد اول من صحبه بعد عبد المؤمن ...

(٤) انظر ص ٣٩٣ و ٣٩٨ .

وكان ابن تومرت يُسَمِّى فَصْكة هذا : المبارك ، ويقول : لا يزالون بخير ما بقى فيهم هذا الرجل أو أحدٌ من ولدِه ! فكان الأمر كما قال ، وانتفعوا به وبأولاده وأولاد أولاده ، وهو المشهور بعمر إينْتى ، وقد تقدم ذكره فى مواضع من هذا الكتاب ؛ ولم يبق فى وقتنا هذا من ولده لصُلبه سوى رجلٍ واحد اسمه عثمان ، فارقتُه بمدينة مرسية ، وبها ودّعته حين ارتحلتُ إلى هذه البلاد ؛ وقد ولّوه مدينة جَيَّان وأعمالها ؛ هذا آخر عهدى به ؛ ثم اتصل بى بديار مصر أنهم ولّوه بلنسية ثم عزلوه عنها ، فلا أدرى أهو بالأندلس اليوم أو بمراكش ؟ وهو معدود عندى من جملة إخوانى ، رضى الله عنه وعنّا وعن جميع المسلمين .

ثم يوسف بن سليمان .

وأخوه عبد الله بن سليمان .

وهما من أهل تينملّ ، من قبيلة تدعى مَسَكَّالة حسبما تقدم[1]

ثم أبو عمران موسى بن على الضرير ، صهر عبد المؤمن ؛ كان ضرير البصر ؛ كان عبد المؤمن يستخلفه على مراكش إذا سافر عنها[2]

ثم أبو إبراهيم اسماعيل الهزرجى ، وهو الذى أسلم نفسه للقتل وفَدى عبدالمؤمن بذلك على ما تقدم[3] .

ثم رجل من أهل تينملّ ، يعرف عندهم بابن بيجيت ، أنا شاك فى اسمه .

---

(١) انظر ص ٢٦٢ .
(٢) انظر ص ٣٠٨ .
(٣) انظر ص ٣٠٣ .

ثم أيوب الجِدميوىّ ، وهو الذى تولى قسمة الأقطاع بين الموحدين فى أول الأمر .

فهولاء العشرة المسمون بالجماعة .

وبعض الناس يَعُدفيهم أبا محمد واسْنار ، وهو رجل دبَّاغٌ أسودُ من أهل مدينة أغمات ، صحب أبا عبد الله بن تومرت حين مرّ بها ؛ فاختصه أبو عبد الله بن تومرت لخدمته لما رأى من شدّته فى دينه وكتمانه لما يرى ويسمع ؛ فكان يتولى وضوءه وسِواكه والإذن عليه للناس وحجابته والخروج بين يديه ؛ فلم يزل على ذلك إلى أن توفى ابنُ تومرت ، فكان يتولى خدمة ضريحه وضريح عبد المؤمن حين دفن هناك . توفى وَاسْنار هذا فى صدر دولة يعقوب بعد أن علتْ سنه ؛ وكان من العُباد المجتهدين والزُّهاد المتبتلين ؛ لم يكتسب شيئاً ولا خلَّف دينارا ولا درهماً ، مع أنه لو شاء لكان أكثرَ الناس مالا ، لمكانِه من عبد المؤمن ومن المصامدة ، لما كانوا يعلمون من قُربه من صاحبهم وثنائه عليه فى أكثر الأوقات .

وانضاف إلى هؤلاء القوم المسمَّين بالجماعة خَلْقٌ من قبائلهم فعُدُّوا فيهم ونسبوا إليهم .

وأول من يعترض فى العرض العام ، ولدُ عمر بن عبدالله الصنهاجى . ثم فَرَسُ عبد المؤمن أو من كان من ولده يتولى الأمر ، ثم سائرُ أهل الجماعة على طبقاتهم مِن سَبْقٍ وإبطاء ، ثم أهل خمسين ، وهم خلقٌ كثير .

ذكر قبائل الموحدين

وقبائل الموحدين الذين يجمعهم هذا الاسم ويعمُّهم - وهم الجند والأعوان والأنصار ومَن سِواهم من سائر البربر والمصامدة رعيَّةٌ لهم وتحت أمرهم ، سَبْعُ قبائل :

أولهم قبيلة ابن تومرت ، وهى قبيلة تُسَمَّى هرغة ، وهى قليلة العدد بالنسبة إلى قبائل الموحدين .

ثم قبيلة عبد المؤمن ، تُسمى كُومية ، وهى قبيلة كثيرة العدد جَمَّةُ الشعوب ، لم يكن لها فى قديم الدهر ولا فى حديثه ذِكر فى رياسةٍ ولا حَظٌّ من نباهة ، إنما كانوا أصحابَ فلاحة ورُعاة غنم وأصحابَ أسواق يبيعون فيها اللبن والحطب وسوى ذلك من سقط المتاع ؛ فتبارك المعزُّ المذل المعطى المانع ؛ فأصبح القوم اليومَ وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب ولا تُطاوِل أيديَهم يَدٌ بكون عبد المؤمن منهم ؛ هذا على أنه - كما قدمناه - ينتسب إلى غيرهم[1] .

ثم أهل تِينملّ ، وهم قبائل شتى يجمعها اسمُ هذا الموضع .

ثم هَنْتَاتة ، وهى أيضاً قبيلة ضخمة جدًا ، وفى بعضها رياسة وشرفٌ فى الدهر القديم .

ثم جِنفيسة ، وهى قبيلة عزيزة منيعة ، ولغتُها أجودُ اللغات وأفصحُها فى ذلك اللسان .

---

(١) انظر ص ٢٦٥ .

ثم جِدميوَه ، وليست كلها - بل بعضها - رعية :

ثم من استجاب للموحدين من قبائل صُنهاجة .

ثم بعض قبائل هَسْكُورة ...

فهذه جملة قبائل الموحدين المستحقين لهذا الاسم عندهم ، والذين يأخذون العطاء وتجمعهم الجيوش وينفرون فى البعوث ؛ وغيرُ هؤلاء القبائل من المصامدة رَعيّة .

[حدّ بلاد المصامدة]

وإذ قد جرى ذكرهم - أعنى المصامدة - على هذا النسق ، فلنذكر لك الآن - حفظك الله وأصلحك وأصلح بك - القبائلَ التى يجمعها هذا الاسم ، أعنى المصامدة ، وحَدَّ بلادهم ؛ لتعرفهم ممن سواهم من البربر .

فحدُّ بلادهم النهرُ الأعظم الذى يصب من جبال صُنهاجة وينتهى إلى البحر الأعظم ، بحر أقيانس ، يُدْعى هذا النهر أمّ ربيع ، عليه قبيلتان ، إحداهما تسمى هَسكورة ، وأخرى صنهاجة ؛ وهما من المصامدة ؛ وآخر بلادهم الصحراءُ التى تسكنها قبائل لمْتُونة ومسوفة وسَرْطَة ؛ وهؤلاء ليسوا مصامدة ؛ وقد كانت المملكة فى هذه القبائل أيام المرابطين كماتقدّم فهذا حدُّ بلاد المصامدة عَرْضا .

وحدُّها طولاً من الجبل المعروف بِدَرَن[1] إلى البحر الأعظم المسمى

(١) جبال أطلس .

أقيانس ؛ وقبائلها الذين ينطلق عليهم هذا الاسم : هسكورة ، وصنهاجة ، ودكَّالة ، وحاحة ، ورجراجة ، وجزولة ، ولمطة ، وجنفيسة ، وهنتاتة ، وهرغة ، وقبائلُ أهلِ تينملّ ؛ وحول مراكش قبائلُ منهم أيضاً ، وهم : هزمير ، وهَيْلانة ، وهزْرَجة ؛ يدْعُونهم الموحدون بالقبائل [1].

فهؤلاء الذين يجمعهم اسمُ المصامدة ، ثم يجمع الكلَّ جنسُ البربر ، من طرابلس المغرب إلى أقصى سوس وما وراء ذلك ممن ذكرْنا ، من لمتونة ومسوفة وسرطة ؛ وآخرُ بلادهم أولُ حدٍّ بلاد السودان .

وللمصامدة بعد هذا جُندٌ من سائر أصناف الناس ، كالعرب ، والغُزّ ، والأندلس ، والروم ، وقبائل من المرابطين ، وغيرهم .

[أصناف الموحدين]

ثم من ذكرنا من الموحدين صنفان :

فالصنف الأول يُدْعَوْن الجموع ، وهم المرتزِقة الذين يكونون بمراكش لا يبرحونها .

والصنف الآخر يُدْعوْن العموم ، وهم الكائنون ببلادهم لا يحضرون إلى مراكش إلا فى النفير الأعظم .

وعدد المرتزقة الذين بمراكش من قبائل الموحدين وسائرِ من ذكرنا من الأجناد — على ما صحّ عندى تلخيصه — عشرةُ آلاف نفس ؛ هؤلاء الذين

(١) كذا بالأصل ، والفصيح : يدعوهم الموحدون ... الخ .

بمراكش خارجاً عما فى سائر البلاد من الموحدين وأصناف الجند .

وإذا كان العَرْضُ العامّ فأول من يعترض ذريةُ أبى حفص عمر الصنهاجى على طبقاتهم فى أسنانهم ، ثم بعدهم فَرَسُ الخليفة من بنى عبد المؤمن ، ثم أهل الجماعة على ترتيب طبقاتهم ، ثم أهل خمسين ، ثم القبائل .

وأولهم عَرْضاً هرغةُ قبيلةُ ابن تومرت ، ثم بعدهم أهل تينملّ ، ثم كومية ثم الموحدون بعد هذا على طبقاتهم فى سُرعة الهجرة وبُطئها .

[صفة أحوالهم فى السفر والحضر]

وقد جرت عادتهم بالكَتْبِ إلى البلاد واستجلاب العلماء إلى حضرتهم من أهل كلِّ فن ، وخاصة أهل علم النظر . وسمُّوهم طلبَةَ الحَضَر ، فهم يكثرون فى بعض الأوقات ويقلُّون ؛ وصنف آخر ممن عُنى بالعلم من المصامدة يسمُّون طلبةَ الموحدين .

ولابد فى كل مجلسٍ عام أو خاص يجلسه الخليفة منهم من حضور هؤلاء الطلبة الأسياخ منهم ؛ فأول ما يفتتح به الخليفةُ مجلسَه مسألة من العلم يُلقيها بنفسه أو تُلقَى بإذنه ؛ كان عبد المؤمن ويوسف ويعقوب يُلْقون المسائلَ بأنفسهم .

ولا ينفصلون من مجلس من مجالسهم إلا على الدعاء : يدعو الخليفة ويؤمِّن الوزير جهرًا يُسمِع من بَعُد من الناس .

ثم إذا سافروا لا يزال القرآن يُقرأ بين أيديهم بالغدوّ والعشىّ رُكباناً .

وإذا نزلوا فأَولُ شيء يصنعونه فى أول النهار بعد صلاتهم الفجر أن يَخرج من ينادى : « الاستعانة بالله والتوكلُ عليه ! » هذه عندهم للركوب ؛ فحينئذ يركب الناس ، ويخرج الخليفة من خَيمته راكباً وأعيانُ القرابة وأشياخُ الموحدين بين يديه مُشاة خطوات كبيرة ؛ ثم يأمرهم بالركوب ؛ فاذا ركبوا وقف وبسط يديه ودعا ، فإذا فرغ الدعاء افتتح القراءةَ طلبةُ الموحدين خَلْفَه ؛ فيقرءُون حِزْباً من القرآن فى نهاية الترتيل وهم سائرون سيراً رفيقاً ، ثم شيئاً من الحديث ، ثم يقرءون تواليف ابن تُومرت فى العقائد بلسانهم وباللسان العربى ، فإذا فرغوا وقف الخليفة أيضاً وبسط يديه ودعا ؛ وإذا كان وقتُ النزول أيضاً نزلوا مشاةً بين يديه إلى خيمته ؛ فاذا بلغها بسط يديه ودعا ؛ فلايزال هذا دأبَهم فى جميع سَفرهم كلِّه .

صفة أحوالهم فى إقامة الجمعة

فأما صفة أحوالهم وخطبتهم فى جُمَعِهم ، فيخرج الخليفة منهم عند زوال الشمس من خوخة فى القبلة ، ويخرج معه خواص حَشَمه ، ويركع ركعتين ثم يجلس ؛ فيقرأُ قارئ قَدْرَ عشرِ آيات ، حَسَن القراءة حَسَن الصوت ؛ ثم يقوم رئيسُ المؤذِّنين ومعه العصا التى يتوكأُ عليها الخطيب فيقول : « قد فاء الفىءُ يا سيدَنا أميرَ المؤمنين ، والحمد لله رب العالمين ! »

يريد بهذا القول استئذانه فى صعود الخطيب المنبر ، فيقوم الخطيب ويصعد المنبر ، ثم يناوله ذلك الرجل العصا ؛ فاذا جلس الخطيبُ

فوق المنبر أَذَّن ثلاثةٌ من المؤَذِّنين مفترقين ، أَصواتُهم فى نهاية الحسن ، قد انْتُخِبُوا لذلك من البلاد ؛ ثم يقوم الخطيب فيخطب ، فأَول شىء يقول :

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يَهْدِ اللهُ فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضْلِل فلا هادىَ له ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ أرسله بالحق بشيرًا ونذيرًا بين يَدَى الساعة ؛ من يُطع الله وَرسوله فقد رَشَد ، ومن يَعْصِ الله ورسوله فلا يَضُرّ إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً ؛ أَسأَل الله ربَّنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ، ويتبعُ رضوانه ويجتنبُ سخطه ؛ فإنما نحن به وله ... » .

ثم يتعوذ ويقرأُ سورة قاف من أَولها إلى آخرها ، ثم يجلس .

فاذا قام إلى الخطبة الثانية قال :

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونتوكل عليه ، ونبرأُ من الحوْل والقوة إليه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأَصحابه الذين اتبعوه ففاتوا الأَنام جِدًّا وعَزْما ، وأَنفَدُوا وسْعَهم فى نصره والصبرِ على ما أَصابهم فيه وفاءً وصِدقا وحَزماً ، وعلى الإمام المعصوم المهدىِّ المعلوم أَبى عبد الله محمد بن عبد الله العربى القرشى الهاشمى الحسنى الفاطمى المحمدى ، الذى أُيِّدَ بالعصمة فكان أمره حتما ، واكْتُنِفَ بالنور اللائح والعدل الواضح الذى يملأُ البسيطة حتى لا يَدَعَ فيها ظلاماً ولا ظُلماً : وعلى

وارث شرفه الصميم قسيمه – رضى الله عنه – فى النسب الكريم ، المجتبى لوراثة مقامه العلىّ ، الخليفة الإمام أبى محمد عبد المؤمن بن على ؛ وعلى أبى يعقوب ولىّ ذلك الاستخلاص ومستوجب شرف الاجتباء والاختصاص . اللهم وارضَ عن المجاهد فى سبيلك ، المُحْيِى سُنّة رسولك ، الخليفة الإمام أبى يوسف أمير المؤمنين ؛ ابن أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ؛ وعلى الخليفة الإمام أبى عبد الله ابن الخلفاء الراشدين[1] . اللهم وانْصُرْ ولىّ عهدهم ، الطالعَ فى أفق سعدهم ، القائمَ بالأمر من بَعدهم ، الخليفةَ الإمامَ أمير المؤمنين أبا يعقوب ابنَ أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، ابن أميرَ المؤمنين ، اللهم كما شَدَدْتَ به عُرَا الإسلام ، وجمعتَ على طاعته قلوب الأنام ، ونصرتَ به دينَ نبيك محمد عليه الصلاة والسلام ؛ فاقض له بالنصر المقرون بالكمال والتمام . اللهم كما اجتبيته من الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديّين ، فاجعله من المقتفين لآثارهم ، المهتدين بمَنارِهم ،المقتبسين من أنوارهم . اللهم وأيِّد الطائفةَ المنصورة والجماعة ، إخوانَ نبيِّك ، وطائفةَ مَهديِّك ، الذين أخبرتَ عنهم فى صريح وَحْيك أنهم لا يزالون ظاهرين على أمرك إلى قيام الساعة ؛ وأمِدَّهم وكافةَ من انتظم فى سلكهم من أنصار الدِّين ، وحزبك الموحِّدين ، بموادّ النصر والتمكين ، والفتح المبين ؛ واجعل لهم من عضدك وتأييدك أعزّ ظهير ، وأكرم نصير... » .

---

(1) يعنى الناصر محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، أمير الموحدين فى عهد المراكشى .

ثم يدعو وينزل فيصلى ؛ فاذا فرغ دعا الخليفةُ بنفسه وأمّن الوزيرُ على ما تقدم .

فهذه كليات سِيرتهم مجملةً على ما يقتضيه شرطُ التقريب ؛ وفى أثناء ذلك تفاصيلُ يطول شرحُها وليس بالناظر فى هذا الكتاب إليها كبيرُ حاجة ؛ إذ قد بُيِّن له ما يسْتَدلُّ على ما لم يُرْسَم فى هذه الأوراق بما رُسِم .

ذكر أقاليم المغرب والأندلس

وهذا ـ أصلحك الله ـ منتهى ما بلغ من أخبار المغرب وسِير ملوكه ووزرائهم وكتّابهم وما تعلق بذلك حسب الاستطاعة ؛ وقد تقدم بسطُ العذر عما يقع من التقصير أو الخلل ، مع أن أصغر خدم مولانا[1] لم تجر عادته بالتصنيف ولا حدّث قَط نفسَه به ، وإنما بعثته عليه الهمة الفخرية ـ أعلى الله رُتبها ـ فما كان من إحسان فإلى تلك الهمة العلية نسْبَتُهُ ، وعنها مُنْبعَثُه ، وما كان من غير ذلك فإغضاؤُها يستره ، ومُسامحتُها تَغْمُره .

وقد رَسَم مولانا ـ حرس الله مجدَه ـ أن يُضافَ إلى هذا التصنيف ذكرُ أقاليم المغرب وتعيينُ مُدنه وتحديدُ ما بينها من المراحل عددًا ، من لَدُنْ بَرْقة إلى سوس الأقصى ؛ وذكر جزيرة الأندلس وما يملكه المسلمون من مدنها على ما تقدم ؛ فلم يرَ المملوكُ بُدًّا من الجرْى على العادة فى سرعة الإجابة وامتثالِ

(١) يعنى نفسه ، و « مولانا » المقصود به لخطاب : هو السيد الذى ساله املاء هذا الكتاب. انظر التقديم .

برسوم الخدمة ؛ لوجوب ذلك عليه شرعاً وعُرفاً ؛ هذا مع أن هذا الباب خارجٌ عن مقصود هذا التصنيف ، وداخلٌ فى باب المسالك والممالك؛ وقد وضع الناسُ فيه كتباً كثيرة : ككتاب أبى عُبيد البكرى الأندلسى ، وكتاب ابن فياض الأندلسى أيضاً ، وكتاب ابن خُرْدَاذبه الفارسى ، وكتاب الفرغانى ؛ وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشأن المستوعِبَة له ؛ ونحن إن شاء الله ذاكرون من ذلك ـ موافَقَةً لرأى مولانا العالى ـ ما يقف به على حدود البلاد ويصوِّر له صورتَها على التقريب من غير تطويل ، جارين فى ذلك على ما سلف من عادتنا فى سائر الكتاب ؛ فنقول وبالله التوفيق ومنه الإعانة .

قد تقرر واشتهر أن أولَ حدٍّ البلاد المصرية مما يلى الشام ، العريش ؛ وآخره مما يلى المغرب ، مدينة انطابُلس المعروفة بِبرقة[1] هذا عَرض الديار المصرية ؛ وحدُّها فى الطول من ثغر أُسوان إلى مدينة رشيد الكائنة على ساحل البحر الرومى ؛ هكذا ذكر أصحاب المسالك والممالك والمعتنون بهذا الشأن .

[أولا : المدن العامرة على الساحل]

وأول حدٍّ بلاد أفريقية[2] والمغرب مدينة أنطابلس المذكورة ، المدعوّة ببرقة ، بناها الروم فكانت حاضرةً لتلك البلاد ومجتمعاً

---

(١) يطلق اسم برقة الآن على الولاية التى تتاخم حدود مصر الغربية ، من الاراضى الليبية ، وعاصمتها بنغازى ، والى الغرب منها ولاية طـرابلس .

(٢) يعنى ببلاد افريقية ، ما يشـمل المغرب الأدنى واقليم تونس الى مدينة قسطينة ، وأما ما يلى لك غربا فهو المغرب فى اعتباره .

لأهلها ؛ افتتحها المسلمون فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه[1] ؛ ومنها كان ابتداءُ فتح المغرب ؛ ومن هذه المدينة - أعنى أنطابلس - إلى مدينة طرابُلس المغرب ، قريبٌ من خمس وعشرين مرحلة .

[اتصال العمران بين الإسكندرية والقيروان]

وما بين الإسكندرية وطرابُلس المغرب خمس وأربعون مرحلة ؛ وكانت العمارة متصلةً من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القَيروان ، تمشى فيها القوافل ليلا ونهاراً ؛ وكان فيما بين الإسكندرية وطرابلس المغرب حصونٌ متقاربة جدًا ، فإذا ظهر فى البحر عدوٌّ نوَّر كلُّ حصن للحصن الذى يليه ، واتصل التنوير ؛ فينتهى خبرُ العدوّ من طرابلس إلى الإسكندرية ، أو من الإسكندرية إلى طرابلس ، فى ثلاث ساعات أو أربع ساعات من الليل ؛ فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوَّهم !

لم يزل هذا معروفاً من أمر البلاد إلى أن خرّبت الأعرابُ تلك الحصون ونَفَتْ عنها أهلَها أيامَ خلَّى بنو عُبيد بينهم وبين الطريق إلى المغرب - وذلك فى حدود ٤٤٠ - حين تغيَّر ما بينهم وبين المعزّ بن باديس الصنهاجى وقطع الدعاءَ لهم على المنابر ودَعَا لبنى العباس[2] ؛ فاستولى الخراب عليها إلى وقتنا هذا ، واستوطنها الأعراب من سُليم بن منصور بن عِكرمة بن خَصَفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان

(١) فتحها عمرو بن العاص سنة ٢٢ هـ .
(٢) انظر ص ٢٧٢ - ٢٧٥ و ٢٩٣ - ٢٩٤ .

وغيرهم ، فهم اليوم بها ، وآثار المدن والحصون باقية إلى اليوم .

* * *

ومدينة أنطابلس هذه خراب ، لم يبق منها إلا آثارها ، وفيما بين برقة وطرابلس حصنٌ يسمّى طُلْمَيْثَة ، بالقرب منه معدنُ كبريت ؛ فأما مدينة طرابلس فلم تزل معمورةً إلى هذا الوقت ، وهى أول مملكة المصامدة وقد استولى عليها فى مدة مُلكهم وفى ملك أبى يعقوب منهم ، المملوك قراقُش المتقدمُ ذكره فى ترجمة أبى يوسف [1] . ثم أخرجه منها المصامدة ؛ واستولى عليها أيضاً يحيى بن غانية وعلى كثيرٍ من أفريقية حسبما تقدم تلخيصه [2] ، ثم أخرجه عنها أيضاً المصامدة ، فهى فى ملكهم إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ٦٢١ .

[بلاد أفريقية الساحلية]

فحدُّ بلاد أفريقية مما يلى المشرق مدينة أنطابلس المذكورة . وحدُّها مما يلى المغرب ، المدينة المعروفة بقسنطينية الهواء ، سُمِّيَتْ بذلك لإفراط عُلُوِّها وشدة منَعتها ؛ ومسافة ما بين أنطابلس وقسنطينية المغرب قريبةٌ من خمس وخمسين مرحلة ، فهذا حدّ أفريقية طولاً ؛ وعرضُها يختلف بحسب مُزاحمة الصحراءِ العمارةَ ومباعَدَتِها .

---

(١) انظر ص ٣٦٥ وما بعدها .

(٢) انظر ص ٣٤١ وما بعدها .

وسُمِّيت أفريقية بذلك لنزول أُفريقش من ولد حام بن نوح بها ، وأفريقش هذا هو أبو البربر ، فالبربر كلُّهم من ولد حام بن نوح ، خلا صُنهاجة ، فإنهم يرجعون إلى حِمْيَر ؛ هذا كلُّه قول أبي جعفر[1] محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه ، من لدُن ذِكر أفريقش إلى ذكر صُنهاجة .

فأوّل مدن أفريقية المعمورة ، طرابُلُس المغرب المتقدّم ذكرها ، ومنها إلى مدينة تسمّى قابس ، عَشْرُ مراحل ؛ وقابسُ هذه على ساحل البحر الرومىّ وكذلك طرابلس ؛ وتنصبُّ إلى قابس هذه أنهارٌ من بعض تلك الجبال التى تليها ، فهى بذلك أخصب بلاد أفريقية وأوسُعها فواكهَ وأعنابا ؛ ومن قابس هذه إلى مدينة صغيرةٍ على الساحل أيضاً تسمّى سَفاقس : أربع مراحل ؛ ومن سفاقس إلى مهدية بنى عُبيد ، ثلاث مراحل ؛ وقد تقدمت صفة المهدية فى أخبار أبى محمد عبد المؤمن بن على[2] ؛ وبظاهرِ المهدية المذكورة وقريبٌ منها جدًّا ، مدينة تدعى زويلة ؛ بناها بنو عُبَيْد حين بنوا المهدية ؛ فاختصوا المهديةَ لأنفسهم وحَشَمِهم وأعيانِ جُندهم ووجوهِ قُوادهم ؛ وأسكنوا زويلةَ هذه سائرَ الناس من الرعية والسُّودان وأراذل كِتامة وغيرِهم من أتباعهم ؛ ولما ارتحل المعزُّ إلى مصر بعد أن افتتحها على يَدَىْ خادمه جَوْهر ؛ ارتحلت معه طائفة كبيرة من أهل زويلة هذه ؛ فإليهم يُنْسَبُ البابُ والحارة التى بالقاهرة اليوم[3]

---

(1) فى الأصل : ابى عبد الله .

(2) انظر ص ٢٩٨ ــ ٢٩٩ .

(3) لم يزل هذا البـاب والحارة موجودين حتى اليوم ، ويعرف العامة هذا الباب فى مصر باسم « بوابة المتولى » .

ومن مهدية بنى عبيد إلى مدينة تسمى سُوسة – وإليها تُنسب الثيابُ السوسية – مرحلتان ؛ ومن سوسة إلى مدينة تونس ، ثلاث مراحل ؛ ولم تكن تونس هذه فى قِدَم الدهر على أيام الإفرنج مدينة ، وإنما بنيت فى أول الإسلام ، بناها عُقبة بن نافع الفهرى لمصلحة رآها [1] ، وإنما كانت المدينة الكبرى مدينة على الساحل هناك تسمى قَرْطاجَة[2] بينها وبين تونس نحوٌ من أربع فراسخ .

[شأن مدينة قرطاجة فى القديم]

وهذه المدينة – أعنى قَرْطاجة – هى كانت حاضرةَ أفريقية أيام الروم ، وهى مدينة عظيمة ، ظهر فيها من قوّتهم وشدّةِ طاعة رعيّتهم لهم وفرطِ جَبَروتهم ما يَعجَبُ منه مَن تأمّله ، ويعتبر فيه مَن وَقَف عليه ؛ وذلك أنهم جلبوا إليها المياهَ من بُعد شديد ، وتحيّلوا على ذلك بغرائبَ من الحيل يعجِز عن أيسرها جميعُ من فى هذا العصر ؛ وكانوا يُضاهون بها مدينة القسطنطينية العظمى ، المنسوبة إلى قسطنطين بن هَيلان ملكِ الإفرنج ؛ ثم لما افتتح المسلمون أفريقية فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، خرّبوا

---

(١) كذا يذكر المراكشى ، ونظن الصواب غيره ، فان تونس مدينة قديمة ، قيل انها أقدم من قرطاجه ، الا انها لم يكن لها شأن الا بعد خراب قرطاجة ، فرفع العرب شأنها وعمروها ، وفيها اسس حسان بن النعمان – بأمر عبد الملك بن مروان – دارا لصناعة السفن والآلات البحرية، فكانت بذلك أول دار صناعة بالاسلام .

وفى تونس جامع الزيتونة الشهير ، بناه عبد الله الحبحاب فى خلافة هشام بعد عبدالملك واليها ينسب ابن خلدون صاحب التاريخ والمقدمة .

(٢) فى الأصل : قرطجنة ، وهو خطا ، فان قرطاجنة من ثغور الأندلس لا من ثغور المغرب.

هذه المدينة المذكورة[1] ، واتّخذوا مدينة القَيرَوان دارَ مُلكهم[2] ومَقَرَّ وُلاتهم ومُجتمعَ جُندهم ومركزَ جُيوشهم ؛ وأسَّسوا على ساحل البحر مدينة تونس المذكورة [3] ؛ وكان هناك قبل ذلك دَيرٌ معظَّم عند الروم يزورونه من أقاصى بلادهم ، فهدمه المسلمون وبنوه مسجدًا ، وسمّوا المدينة تونس ، باسم الراهب الذى كان فى ذلك الدَّير ؛ فما زالت تونسُ معمورةً إلى وقتنا هذا .

ولما خَرِبتْ مدينةُ القَيروان على ما سيأْتى الإيماءُ إليه ، صارت مدينة تونس حاضرةَ أفريقية ومَقَرَّ وُلاتها وموضعَ مخاطبةِ أُولى الأَمر منها ؛ وكل ما بتونس من جيِّد الرخام وخالص المرمر فمن مدينة قرطاجة المذكورة .

* * *

ومن مدينة تونس هذه إلى مدينة صغيرة على ساحل البحر تُدعى بُونة[4] – ومعنى هذه اللفظة بلسان الإفرنج : جيدة – ستُّ مراحل : فيما بين تونس وبُونة بُليدةٌ صغيرة تسمى بَنِى زَزْت[5] ، بينها وبين تونس يومٌ تام فى البَرِّ للمُجِدِّ [[6] ولبنِى ززتَ ، هذه شأْنٌ غريب ، وذلك أنه يخرج

---

(1) كذا ... وانما خربها الرومان قبل الفتح الاسلامى ، تخلصا من اسباب النزاع التى لبثت دهرا بين رومية وقرطاجة .

(2) انظر التعليق رقم ١ ص ٣٢ .

(3) انظر التعليق رقم ١ ص ٤٣٥ .

(4) هى مدينة Hippos Reghis القديمة على حدود المغرب الأوسط ، وتسمى الآن « عنابة » .

(5) بنزرت .

(6) ما بين العلامتين [ ] منقول عن هامش المخطوطة .

فى بحرها كلما طلع هلالٌ نوعٌ من السمك لم يكن فى الشهر الذى قبل ذلك ؛ هذا متواتر عند أهلها لا يختلف فيه منهم أحد ، والمتفطّنون من الصيادين يعرفون الشهور باختلاف السمك عليهم وإن لم يروا الأهلة ؛ وهذا منسوبٌ إلى الطِّلّسمات ، اعتنى به من عُنِى بخدمة القمر[1]] ،
ومن مدينة بونة إلى مدينة قسنطينية التى هى أحد حَدَّىْ أفريقية ، خمس مراحل ؛ وقسنطينية بينها وبين البحر مرحلتان أو أكثر من ذلك قليلا .

هذا ما على ساحل البحر أو قريبٌ منه من مدن أفريقية ؛ وبها مما يلى الصحراء مُدنٌ أنا ذاكرها إن شاء الله تعالى إذا فرغتُ مما على ساحل البحر من بلاد المغرب .

[بلاد المغرب الساحلية]

ومن قسنطينية المغرب إلى بِجاية خمسُ مراحل على الرِّفق ؛ وبجايةُ هذه هى دارُ مُلك بنى حمَّاد الصُّنهاجيين الذين تنتسب قلعة بنى حماد إليهم وكانوا يملكون من قسنطينية المغرب إلى موضع يُعرف بسِيوسِيرات ، وقد تقدم هذا الموضع[2] ، بينه وبين بجاية قريبٌ من تسع مراحل .

لم يزل بنو حماد يملكون بجايةَ وجهاتها إلى أن أخرجهم عنها فى ولاية يحيى منهم ، أبو محمد عبد المؤمن على حسبما سبق[3] .

ومن مدينة بجاية إلى مدينة صغيرة تدعى الجزائر — وتُنسب إلى قوم

---

(١) نفس الهامش رقم ٦ فى الصفحة السابقة .
(٢) انظر ص ٢٧٢ وما بعدها .
(٣) انظر ص ٢٧٢ — ٢٧٦ .

يقال لهم بنو مزْغنّة[1] — قريبٌ من أربع مراحل ؛ وهذه المدينة — المعروفة بالجزائر — على ساحل البحر الرومى : وكذلك مدينة بجاية ؛ ومن الجزائر هذه إلى مدينة صغيرة تسمى تَنَس ؛ أربع مراحل ؛ ومن مدينة تَنَس إلى مدينةِ وِهران ، سبع مراحل ؛ ومن مدينة وهران إلى مدينة سَبتة على التقريب ، ثمانى عشرة مرحلة .

[بلاد على المضيق]

وبساحل سبتة هذه يلتقى البحران ؛ بحر ما نطس الذى هو بحر الروم ، وبحر أقيانُس الذى هو البحر الأعظم[2] : وهذا أولُ الخليج المعروف بالزقاق .

وسعة البحر فيما بين سبتة والأندلس ، ثمانية عشر ميلا ؛ ثم لايزال يضيق إلى أن ينتهى ذلك من عُدوة البربر إلى موضع يُدعى قصر مصمودة ، بينه وبين سبتة نصفُ يوم[3] ، ومن جزيرة الأندلس إلى موضع يدعى جزيرة طريف ، مقابلٍ لقصر مصمودة المذكور ؛ فأَضيَقُ ما يكون البحر هنالك ، وسعتُه فيما بين هذين الموضعين اثنا عشر ميلا ؛ ترى رمال كلٍّ واحد من الشطين من الآخر فى كل وقت من أوقات النهار .

وقد ذكر المؤرخون أن الروم بَنَتْ فى قديم الدهر قنطرةً على هذا الخليج ،

(١) هى الآن عاصـــمة القطر الجزائرى ، واليها لجأ أبو يحيى الحسن بن على آخر ملوك بنى باديس . انظر التعليق ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

(٢) انظر التعليق رقم ٣ ص ٢٨ .

(٣) تقطعها السفينة فى ساعتين .

ثم طغت المياهُ فغطتها ؛ فيذكر قومٌ من أهل جزيرة طريف أنهم يرونها أوانَ سكون البحر وهدوئه حين تصفو المياه !.

* * *

ومن مدينة سبتة إلى مدينة طنجة ؛ يومٌ تامٌّ فى البر ؛ وطنجة هذه آخر الخليج الذى به يلتقى البحران ، وهى على ساحل البحر الأعظم الذى لاعمارة وراءه[1] ، وهو المعروف عندنا بالبحر المحيط ، المتصل ببحر الهند والحبشة ...

وطنجة هذه آخرُ بلد بالمغرب المحقق ؛ وما بعدها من البلاد فإنما هو فى الجنوب ، كمدينة سلاَ ، ومدينة مراكش – ثم لا يزال[2] دائرًا فى الجنوب إلى أن يأتى بلاد الحبشة والهند .

فأول بلاد المغرب مما على ساحل البحر الرومى ، مدينة أنطابلس المعروفة ببرقة[3] ؛ وآخرها مما على ساحل البحر الأعظم ، مدينة طنجة ؛ ومسافة ما بين ذلك على التقريب ، ست وتسعون مرحلة ؛ فهذا ذِكر المدن التى على ساحل البحر من بلاد المغرب .

[البلاد التى ليست على ساحل]

ثم نعود إلى ذكر ما ليس على الساحل من مدن أفريقية والمغرب ، فنقول:

---

(١) انظر التعليق ٢ ص ٢٩ .

(٢) يعنى المحيط .

(٣) انظر التعليق رقم ١ ص ٤٣١ .

[بلاد أفريقية]

من مدينة قابس المتقدم ذكرها إلى مدينة تسمَّى قَفْصَة ، ثلاث مراحل ؛ ومن مدينة قَفْصة إلى مدينة تَوْزَر ، أربع مراحل .

وتوزر هذه هى حاضرةُ بلاد الجريد وأم قُراهـا ؛ وبلاد الجريد التى يقع عليها هذا الاسم تنقسم قسمين : قسمٌ يسمَّى قَسْطِيلِيَّة ، وهذا الاسم يقع على توزر وأعمالِها ؛ وقسمٌ يسمَّى الزاب ، وهذا الاسم أيضاً يقع على مدينة بِسْكرة وأعمالها .

ومن مدينة تَوْزَر إلى مدينة بِسكرة ، أربع مراحل ؛ وبالقرب من مدينة بسكرة مدينة صغيرة تسمى نَقَاوس ، بينها وبينها مرحلتان ؛ فهذه المدن التى تلى الصحراءَ من بلاد أفريقية ، ويتخللها قُرى كثيرة لم نذكرها لصغرها .

[شأن القيروان فى قديم الزمان]

وفيما بين مدينة تونس وتوزر ، مدينةُ القَيروان المشهورة ؛ منها إلى الساحل ثلاث مراحل ؛ وهى كانت — أعنى القَيروان — دارَ مُلك المسلمين بأفريقية منذ الفتح ؛ لم يزل الخلفاءُ من بنى أُمية وبنى العباس يُولُّون عليها الأُمراءَ من قبلهم ، إلى أن اضطرب أمر بنى العباس واستبدّ الأَغالبة بمُلك أفريقية بعض الاستبداد ، وهم بنو أَغْلَبَ بن محمد بن إبراهيم بن أغلب التميميون ؛ فاتخذوا القيروان دارَ مُلكهم ؛ فلم يزالوا بها إلى أن

أخرجهم عنها بنو عبيد[1] وملكوها أيام كونهم بأفريقية ؛ ثم ولَّوا عليها حين ارتحلوا إلى مصر زيرى بن مَنَاد الصُّنهاجى ،[2] فلم يزل زيرى وبنوه ملوكاً عليها ، إلى أن كان آخرهم الذى أخرجه العرب[3] عنها ، تميم بن المعزّ بن باديس بن منصور بن بلجين بن زيرى بن مناد المذكور ؛ فانتهبتها الأعراب وخرّبتها ، فهى كذلك خرابٌ إلى اليوم ، فيها عمارة قليلة يسكنها الفلاحون وأرباب البرية .

وكانت القيروان هذه فى قديم الزمان ـ منذ الفتح إلى أن خرّبتها الأعراب ـ دارَ العلم بالمغرب ؛ إليها ينسب أكابر علمائه ، وإليها كانت رحلة أهله فى طلب العلم ؛ وقد ألَّف الناس فى أخبار القيروان ومناقبه وذِكر علمائه ومَن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين كتباً مشهورة ؛ ككتاب أبى محمد بن عفيف ، وكتاب ابن زيادة الله الطُّبْنى ، وغيرهما من الكتب ؛ فلما استولى عليها الخراب ـ كما ذكرنا ـ تفرّق أهلُها فى كل وجه ؛ فمنهم من قصد بلاد مصر ، ومنهم من قصد صقِلِّية والأندلس ؛ وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب ، فنزلوا مدينة فاس[4] ، فعَقِبُهُمْ بها إلى اليوم .

* * *

---

(١) الفاطميون .

(٢) انظر التعليق ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤ .

(٣) يعنى بنى هلال ، حين كثر عبثهم فى تلك البلاد حتى غلبوا بنى باديس على القيروان فانتقلوا عنها إلى المهدية .

(٤) واليها ينسب جامع القرويين فى فاس، على غير قاعدة النسب .

فهذه نبذة من أخبار أفريقية ، وفيها مدن كثيرة قد خَرِبتْ لا أعرف أسماءها ؛ لقلة معرفتى بتفاصيل أحوال أفريقية ؛ لأنى لم أدخل منها إلاَّ مدينة تونس خاصة ؛ أتيتها فى البحر من الأندلس ، وذلك سنة ٦١٤ ؛ وإنما نقلت ما نقلته من أخبارها حسب المستفيض من السماع .

وفى خراب القيروان على ما تقدّم يقول أبو عبد الله محمد بن أبى سعيد ابن شرف الجذامى :

تُرَى سَيِّئات القَيروانِ تعاظَمَتْ فَجَلَّتْ عن الغُفرانِ واللهُ غافرُ!
تُراها أُصيبتْ بالكبائر وَحدها ألم تَكُ قِدْما فى البلادِ الكبائرُ ؟

[بلاد المغرب]

... فقسنطينية آخرُ بلاد أفريقية(١) ، ما يلى البحرَ منها وما يلى الصحراء ؛ وما بعد قسنطينية فهو من المغرب غير أفريقية ؛ فأول ذلك بُليدة صغيرة قبليٌّ بجاية فى البر ، تسمَّى مِيلة ، بينها وبين بجاية ثلاث مراحل ، ومن بجاية إلى قلعة بنى حماد أربع مراحل ؛ وهى أيضاً ـ أعنى القلعة ـ قبليٌّ بجاية .

[طريق السُّفَّار من بجاية إلى مراكش]

وها أنا أذكر طريق السُّفَّار من بجاية إلى مراكش ؛ فمن بجاية إلى مدينة

(١) انظر التعليق ص ٤٣١ .

تلِمْسان عشرون مرحلة ، وفيما بين ذلك بُلَيدات صغار كمليانة ، ومازونة ووهران — وقد ذكرناها فى بلاد الساحل — وبين مدينة تلمسان وبين البحر أربعون ميلا ؛ وذلك يومٌ للمُجِدّ ؛ ومن مدينة تلمسان إلى مدينة فاس عشر مراحل ، سبعٌ منها إلى المدينة التى تُدعى رِباط تازا ، وثلاث إلى فاس ؛ وقبليٌّ مدينة تلمسان فى الصحراء ، مدينة سِجلمَاسَة ، منها إلى تلمسان عشرُ مراحل ؛ وهذه المدينة — أعنى سجلماسة — متوسطة فى الصحراء ، مسافة ما بينها وبين تلمسان وفاس ومراكش ، على حد سواءٍ ؛ فمن حيث قصدتَ إليها من أحد هذه البلاد ، كان ذلك مسافة عشر مراحل .

[التعريف بمدينة فاس]

ومدينة فاس هذه هى حاضرة المغرب فى وقتنا هذا وموضعُ العلم منه ؛ اجتمع فيها علمُ القيروان وعلمُ قرطبة ؛ إذ كانت قرطبة حاضرةَ الأندلس ، كما كانت القيروان حاضرة الغرب ؛ فلما اضطرب أمر القيروان — كما ذكرنا — بِعَيْثِ العرب فيها ، واضطرب أمرُ قرطبة باختلاف بنى أُمية بعد موت أبى عامر محمد بن أبى عامر وابنِه ، رحل مِن هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة ؛ فِرارًا من الفتنة ؛ فنزل أكثرهم مدينة فاس ؛ فهى اليوم على غاية الحضارة ، وأهلها فى غاية الكيس ونهاية الظَّرف ، ولغتهم أفصح اللغات فى ذلك الإقليم ؛ وما زلت أسمع المشايخ يدّعونها بغداد المغرب ، وبحق ما قالوا ذلك ؛ فانه ليس بالمغرب شىءٌ من

أنواع الظَّرف واللباقة فى كل معنى إلا وهو منسوب إليها وموجود فيها ومأخوذ منها ، لايدفع هذا القول أحدٌ من أهل المغرب ؛ ولم يتخذ لمتونةٌ والمصامدةُ[1] مدينة مراكش وطناً ولا جعلوها دار مملكة لأنها خيرٌ من مدينة فاس فى شىء من الأشياء ، ولكنْ لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة[2] ؛ فلهذا السبب كانت مراكش كرسىَّ المملكة ؛ وإلا فمدينة فاس أحقُّ بذلك منها ؛ وما أظن فى الدنيا مدينةً كمدينة فاس ، أكثر مرافق ، وأوسعَ مَعايش ، وأخصبَ جهات ؛ وذلك أنها مدينة يَحُفُّها الماء والشجر من جميع جهاتها ، ويتخلل الأنهارُ أكثرَ دُورها زائداً على نحو من أربعين عيناً ينغلق عليها أبوابُها ويحيطُ بها سورها ؛ وفى داخلها وتحت سورها نحوٌ من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء ؛ ولا أعلم بالمغرب مدينة لاتحتاج إلى شىء يُجلبُ إليها من غيرها - إلا ما كان من العطر الهندى - سوى مدينة فاس هذه ؛ فإنها لاتحتاج إلى مدينة فى شىء مما تدعو إليه الضرورة ، بل هى تُوسِع البلادَ مرافق وتملؤها خيراً .

* * *

ومن مدينة فاس إلى مدينة مِكناسةِ الزيتون ، يومٌ تامٌّ للمجدّ ؛ ومن مكناسة الزيتون إلى مدينة سَلاَ ، أربع مراحل .

ومدينة سلا هذه على ساحل البحر الأعظم المسمى أُقيانس ، وهى فى

(١) يعنى المرابطين ثم الموحدين .

(٢) أما الآن فان كرسى الحكم فى الرباط ، رباط الفتح ، لا فى مراكش ولا فى فاس ، وتوشك طنجة أن تقاسم الرباط هذا الشرف فتصير كرسى الحكم فى الصيف .

الجنوب كما ذكرنا ، ينصب إليها نهر يسمى وادى الرمان[1] ، يصب فى البحر الأعظم المذكور .

[مدينة الرباط]

وقد بنى المصامدة على ساحل هذا البحر مما يلى مراكش مدينة عظيمة ، سمّوها رباط الفتح ، كان الذى اختطّها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وأتمها ابنُه يعقوب ، وبنى فيها مسجدًا عظيماً قد تقدّم ذكره[2] ؛ وقيل إنهم إنما بنوْها بأمر ابن تومرت إياهم بذلك ؛ وذلك أنه قال لهم : «تبنون مدينة عظيمة على ساحل هذا البحر – يعنى البحر الأعظم – ثم يضطرب أمركم وتنقض عليكم البلاد حتّى ما يبقى بأيديكم إلا هذه المدينة ؛ ثم يفتح الله عليكم ويجمع كلمتكم ويعود أمركم كما كان ! » فلهذا سموها رباط الفتح ؛ وبين هذه المدينة وبين سلاَ العتيقة ، النهرُ المذكور ؛ وقد بنوا عليه قنطرة من ألواح وحجارة يعبر الناس عليها حين يَجْزر النهر ، فإذا مَدَّ عبَروا فى القوارب .

* * *

وبين مدينة سلا هذه ومدينة مراكش كرسىِّ المملكة ، تسعُ مراحل ؛ فمراكش آخر المدن بالمغرب ؛ وكان الذى اختطها ملك لمتونة تاشفينُ بن على[3] ؛ ثم زاد فيها بعده ابنه يوسف بن تاشفين ؛ ثم زاد فيها بعدهما

(١) وادى الرقراق .

(٢) انظر ص ٣٤١ وهى الآن عاصمة المغرب .

(٣) انظر ص ١٥٦ .

عليُّ بن يوسف بن تاشفين ؛ ثم ملكها المصامدة فزادوا فيها حتى جاءت فى نهاية الكبر ؛ فهى اليوم طولا وعرضاً قَدْرُ أربع فراسخ - هذا إذا ضُمَّت إليها قصورُ بنى عبد المؤمن - وأجْرَى المصامدةُ فيها مياهاً كثيرة لم تكن فيها قبل ذلك ، وبنوا فيها قصوراً لم يكن مثلُها لملكٍ ممن تقدمهم من الملوك ؛ فصارت بذلك فى نهاية الحسن وغاية الكمال ، كما قال الأول :

ليس فيها ما يقال له كمُلَتْ لو أنه كمُلا

[ترجمة المؤلف لنفسه]

وبهذه المدينة - أعنى مراكش - مسقط رأسى ، وهى أولُ أرضٍ مس جلدى ترابها : وكان مولدى بها لسبعٍ خلون من ربيع الآخر سنة ٥٨١ ، فى أول أيام أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على .

ثم فَصَلْتُ عنها وأنا ابن تسعة أعوام إلى مدينة فاس ؛ فلم أزل بها إلى أن قرأتُ القرآن وجوَّدتُه ورويته عن جماعة كانوا هنالك مبرِّزين فى علم القرآن والنحو .

ثم عدت إلى مراكش ؛ فلم أزل متردداً بين هاتين المدينتين .

ثم عبرت إلى جزيرة الأندلس فى أول سنة ٦٠٣ فأدركتُ بها جماعة من الفضلاء من أهل كل شأن ؛ فلم أُحصِّلْ بحمد الله من ذلك كلِّه إلا معرفةَ أسمائهم ومواليدهم ووفَيَاتهم وعلومهم ؛ انفردوا دُونى بكل فضيلة ؛ ولا مانع لما أعطى الله ولا معطى لما منع ؛ يختص برحمته من يشاءُ وهو ذو الفضل العظيم !

[بلاد السوس الأقصى]

فمراكش هذه آخر المدن الكبار بالمغرب المشهورة به ؛ وليس وراءها مدينة لها ذكر وفيها حضارة ، إلا بُلَيْدات صغار بسوس الأقصى ؛ فمنها مدينة صغيرة تسمى تَارُودَانْت ، وهى حاضرة سوس ، وإليها يجتمع أهله

ومدينة أيضاً صغيرة تدعى زُجُنْدَر ، هى على معدن الفضة ، يسكنها الذين يستخرجون ما فى ذلك المعدن.

وفى بلاد جُزُولة مدينةٌ هى حاضرتهم أيضاً تسمى الكُسْت .

وفى بلاد لَمْطة مدينةٌ أُخرى هى حاضرتهم أيضاً تسمى نُول لمطة .

فهذه المدن التى وراء مراكش ، فأما تارودانت وزُجندر فدخلتهما وعرفتُهما ؛ ولم أزل أعرف السُّفَّار من التجار وغيرِهم ، وخاصة إلى مدينة المعدن المعروفة بزجُندر ؛ وأما مدينة جُزولة ومدينة لمطة فلايسافر إليهما إلا أهلُها خاصة .

ذكر ما بالمغرب من معادن الفضة والحديد

والكبريت والرصاص والزئبق وغير ذلك ، وأسماء مواضعها

قد تقدّم ذكر معدن الكبريت الذى بين برقة وطرابلس وأنه بالقرب من حصن يدعى طُلْمَيْثَة[1] .

وفيما بين سبتة ووهران موضع قريب من ساحل البحر يسمى تِمْسامان فيه معدنُ حديد .

(١) انظر ص ٤٣٣ .

وفيما بين سَلاً ومراكش قريباً من ساحل البحر الأعظم بمقدار يوم أو أكثر قليلا ، موضع يدعى إبسَنْتار ، فيه معدن جديد أيضاً : وليس هذا الموضع على طريق السُّفار ، إنما يقصده من أراد حَمْلَ الحديد منه .

وبالقرب من مكناسة الزيتون على ثلاث مراحل منها حصنٌ يدعى وَرْكَنّاس ، فيه معدنُ فِضة .

وقد ذكرنا معدن زُجندر الذى بسوس ، غير أن فِضَّته ليست هناك ، أعنى فضة معدن زُجندر .

وبسوس أيضاً معدنان للنحاس ، ومعدن توتيا ، وهى التوتيا التى يُصْبغ بها النحاس الأحمر فيصير أصفر .

فهذا جملة ما بالعُدوة من المعادن .

(المعادن بجزيرة الأندلس)

وبجزيرة الأندلس معادن أيضاً ؛ فمنها معدنُ فِضة ببلاد الروم فى الجهة المغربية ، بموضع يدعى شَنْتَرة .

وعلى أربع مراحل من مدينة قُرطبة موضع يسمى شلون ، فيه معدن زئبق ، منه يفترق الزئبقُ على جميع المغرب .

وفى أعمال المَرِيَّة وعلى يوم ونصف منها بموضع يعرف بدَلاية ، فيه معدنُ رصاص .

وفى أعمال المرية أيضاً على يوم ونصف منها ، موضع يسمى بَكارش ، فيه معدن حديد أيضاً .

وما بين دانية وشاطبة موضع يسمى أُوْرِبَة ، على نصف يوم من دانية ، فيه معدنُ حديد .

فهذا أيضاً جملة ما بالأندلس من المعادن ؛ فأما الذهب فَمسُوقٌ إليها من بلاد السودان .

ذكر أسماء الأنهار العظام التى بالمغرب

فأول ذلك نهر ببلاد أفريقية على نصف مرحلة من مدينة تونس ، يسمى بَجَرْدة ، ينصبُّ من جبل هنالك ينتهى إلى البحر الرومى .

ونهر بجاية الذى يسمى الوادى الكبير ، هو مُتَنَزَّهُها وعليه بساتينها وقصورها .

ونهرٌ آخر فيما بين تلمسان ورباط تازا يدعى وادى مُلْوِية ، يصب فى البحر الرومىّ أيضاً .

ونهر يدعى سَبُو ، هو محيطٌ بمدينة فاس من شرقها وغربها .

ويجاور نهر سَبُو هذا نهرٌ آخر كبير يسمى وَرْغَة .

وهذان النهران ينصبّان إلى البحر الأعظم ، بحر أُقيانس ، بعد أن يلتقيا بموضع يدعى المعمورة .

وفيما بين مكناسة وَسَلا نَهْرٌ يدعى بَهْتا ، ينصبُّ إلى البحر الأعظم أيضاً. ونهرُ سَلا المتقدم الذكر[1] .

(1) هو نهر الرقراق الذى يسميه المؤلف « وادى الرمان » ويصب فى البحر الأعظم . انظر ص ٤٤٥ .

وفيما بين سَلاَ ومراكش ، وعلى ثلاث مراحل من مراكش ، نهرٌ عظيم يدعى أمَّ ربيع ، ينصب من جبال صُنهاجة من موضع يدعى وانْسيفَن ، يصب فى البحر الأعظم أيضاً .

ونهر على أربعة أميال من مراكش ، عليه قنطرة عظيمة ، يسمى تانَسيفت

ونهر سوس الأقصى .

ونهرٌ ببلاد حاحة ، يسمَّى شَفْشَاوَة .

هذه الأنهار كلها تصبُّ إلى البحر الأعظم .

فهذه جملة الأنهار الكبار التى بالمغرب التى لايقل ماؤُها ولا ينقطع شتاءً ولا صيفاً ؛ ولم نتعرض لذكر الأودية الصغار والأنهار التى تَيْبَس فى الصيف .

ـ ذكر جزيرة الأندلس وأسماءُ مدنها وأنهارها

فأما جزيرة الأندلس فهى المعروفة فى قديم الزمان عند الروم بجزيرة إشبانية . وقد تقدم ذكر حدودها فى صدر هذا الكتاب فأغنَى ذلك عن إعادته ههنا ؛ وكان دين أهلها فى الدهر القديم دينَ الصابئة من عبادة الكواكب واستنزال قُواها والتقرُّبِ إليها بأنواع القرابين ؛ شهدتْ بذلك طِلَّسْماتٌ وُجدت بها وضعتْها القدماءُ من أهلها . ثم انتقل أهلُها إلى دين النصرانية حين ظهر على أيدى أصحاب المسيح عليه السلام .

وكانت هذه الجزيرة ــ أعنى الأندلس ــ منتظمة فى مملكة صاحب رُومية ، يستعمل عليها من شاءَ من أصحابه ؛ فلم تزل كذلك والروم يملكونها ــ

ـ وقاعدة مَلكهم منها مدينة تسمى طالقة ، على فرسخين من إشبيلية ، وهى مدينة عظيمة باقٍ أثرها إلى هذا اليوم ـ إلى أن غلبهم عليها القُوطا ، وهى قبيلة من قبائل الإفرنج ، فأخرجوهم عن الجزيرة وألحقوهم برومية مدينتهم العظمى .

وانفرد القُوطا هؤلاء بمملكة الجزيرة ، فملكوها أضخمَ مُلك قريباً من ثلاثمئة سنة ، وكانت دارُ ملك القوطا مدينة طُليطلة ؛ وهى فى قريب من وسط الجزيرة ، فلم يزالوا بها وطليطلة دارُ ملكهم ـ كما ذكرنا ـ إلى أن افتتحها المسلمون فى شهر رمضان من سنة ٩٢ من الهجرة ، على ما تقدّم فى صدر الكتاب .

فلما افتتحها المسلمون تخيروا قُرطبة دارَ مُلكهم ومقرًّ تدبيرهم وموضع حَلِّهم وعَقدهم ؛ فلم تزل قرطبة على ذلك إلى أن انتشرت الفتنة واضطرب أمر بنى أمية بالأندلس بموت الحكم المستنصر وتغلُّبِ أبى عامر محمد بن أبى عامر وابنه على هشام المؤيد بن الحكم المستنصر حسبما تقدّم فى صدر هذا الكتاب[١] .

فهذا تلخيص أخبار جزيرة الأندلس .

[مجاز الأندلس]

وأنا ذاكرٌ إن شاء الله أولَ ما يلقاه من يعبر إليها من حدودها ومدنها ، فأول ذلك أنى أقول :

(١) انظر ص ٧٢ وما بعدها .

قد تقدم أن البحرين : بحر الروم ، وبحر أُقيانس ، يلتقيان بساحل سبتة ؛ ثم يضيق الخليج ويتقارب العُدْوَتان حتى ينتهى ذلك إلى قصر مصمودة من العُدوة وجزيرةِ طريف من الأَندلس ، ثم يأْخذ فى السعة ؛ وأول هذا الخليج مما يلى طنجة ، الجبلُ الخارج فى البحر الأَعظم المعروفُ بطرف أَشْبَرْتال ، وآخره الجبل الذى شرقىُّ سبتة ؛ فإذا عبرتَ إلى جزيرة الأَندلس من سبتة ، كان الذى تنزل به المدينةَ المعروفةَ بالجزيرة الخضراء ؛ وإذا عبرتَ من قصر مصمودة وقعت إلى جزيرة طريف ؛ فالمدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء هى – فى التحقيق – على ساحل البحر الرومى ، وجزيرةُ طريف على ساحل البحر الأَعظم ؛ وبين الموضعين – أعنى الخضراء وطريف – ثمانية عشر ميلا .

وفى شرق الجزيرة الخضراء الجبلُ المعروف بجبلِ الفتح ، ويسمَّى أيضاً جبلَ طارق ؛ وله طرف خارج فى البحر يسمى طرف الفتح ؛ وعنده يلتقى البحران بجزيرة الأَندلس .

فهذا تلخيص التعريف بخبر مجاز الأَندلس .

[البلاد التى تغلب عليها النصارى إلى سنة ٦٢١]

فاما ذِكر مُدنها فقد كانت فيها مدنٌ كثيرة تغلَّبَ النصارى على أكثرها ؛ فأَنا ذاكر أسماءَ المدنِ التى بأَيدى النصارى فى وقتنا هذا ، ومواضعها من الجزيرة من مشرقٍ ومغربٍ ، من غير تعرُّضٍ إلى ما بينها من المسافات ؛ إذ كان كوْنُ النصارى بها ما نعاً من معرفة ذلك :

فأول المدن فى الحد الجنوبى المشرق على ساحل البحر الرومى : مدينة برشنونة ، ثم مدينة طَرَّكُونة ، ثم مدينة طرطوشة ؛ هذه البلاد التى على ساحل البحر الرومى المذكور ؛ أعادها الله للمسلمين !

والمدن التى على غير الساحل فى هذا الحد المذكور : مدينة سرقسطة ، ولاردة ، وأفراغة ، وقلعة أيوب ؛ هذه كلها يملكها صاحب برشنونة - لعنه الله - وهى الجهة التى تسمَّى أَرْغُنْ .

وفى الحد المتوسط ما بين الجنوب والمغرب من المدن : مدينةُ طليطلة ، وكُونْكَة ، وأَقْلِيج ، وطَلَبَيْرَة ، ومَكَّادَة ، ومَشْرِيط ، ووَبْذ ، وأبلة ، وشُقوبية ؛ هذه كلُّها يملكها الأذفنش - لعنه الله - وتسمى هذه الجهةُ قشْتَال .

وتجاور هذه المملكةَ فيما يميل إلى الشمال قليلاً مدنٌ كثيرة أيضاً ، وهى : سَمّورة ، وشَلَمَنْكة ، والسّبْطاط ، وقُلُمْرِيَة ؛ هذه كلها يملكها رجل يعرف بالبَبُوج[1] - لعنه الله - وتسمى هذه الجهة ليُون .

وفى الحد المغربى الذى هو ساحل البحر الأعظم أُقيانس ، مدن أيضاً ، منها : مدينة الأشبونة ، وشَنْترين ، وباجة ، وشنترة ، وشَنْت ياقُو ؛ ومدينة يابرة ، ومدن كثيرةٌ ذهبت عنى أسماؤُها ، يملكها رجل يُعرف بابن الريق[2] ، لعنه الله .

فهذا ما بأيدى النصارى من مدن جزيرة الأندلس مما يلى بلاد المسلمين ؛

---

(١) انظر التعليق ١ ص ٤٠٠ .

(٢) انظر التعليق ٣ ص ٤٠٠ .

ووراء هذه المدن مما يلى بلاد الروم ، مدنٌ كثيرة لم تشتهر عندنا لبعدها عنا وتوغُّلها فى بلاد الروم ؛ لم يملكها المسلمون قط ؛ لأنهم لم يملكوا الجزيرة بأسرها حين افتتحوها ، وإنما ملكوا معظمها واستولوا على أكثرها .

[المدن التى بقيت بأيدى المسلمين إلى سنة ٦٢١]

وأنا ذاكر بعد هذا ما بقى بأيدى المسلمين من البلاد ، وعدد المراحل التى بينها ، وقُربَها من البحر وبُعدها ؛ حتى يبين ذلك إن شاء الله تعالى :

فأول شىء يملكه المسلمون بجزيرة الأندلس اليوم ، حصنٌ صغير على شاطىء البحر الرومى يسمى بَنَشْكُلَة ، بينه وبين مدينة بلنسية ثلاث مراحل ؛ وهذا الحصن مما يلى بلاد الروم ، بينه وبين طرطوشة مرحلتان أو أكثر قليلا .

ثم مدينة بلنسيه ، وهى مدينة فى غاية الخصب واعتدال الهواء ، كان أهل الأندلس يدعونها فيما سلف من الزمان : مُطيَّبَ الأندلس ؛ والمطيَّبُ عندهم حُزمة يعملونها من أنواع الرياحين ويجعلون فيها النرجس والآس وغير ذلك من أنواع المشمومات ؛ سمُّوا بلنسية بهذا الاسم لكثرة أشجارها وطيب ريحها ؛ وبين بلنسية هذه وبين البحر الرومى قريبٌ من أربعة أميال .

ثم بعدها مدينة تُدعى شاطبة ، بينها وبينها مرحلتان .

وبينهما مدينة صغيرة تدعى جزيرة الشُّقْر ؛ وسميت جزيرة لأنها فى وسط نهر عظيم قد حفَّ بها من جميع جهاتها فلا طريق إليها إلا على القنطرة.

ومن شاطبة هذه إلى مدينة دانية التي على ساحل البحر الرومى ، يومٌ تامٌ .

ومن شاطبة إلى مدينة مرسية ثلاثة أيام .

ومن مرسية إلى البحر الرومى عشرة فراسخ .

ومن مدينة مرسية إلى مدينة أغرناطة سبع مراحل .

وبين ذلك بلاد صغار ؛ أولها مما يلى مُرسية : حصن لرقة ، ثم حصن آخر يدعى بَلَّس ، ثم حصن آخر يدعى قُلْيَة ، ثم بليدة صغيرة تسمى بَسْطة ، ثم بليدة أخرى على مسيرة يوم من أغرناطة تسمى وادى آش ، ويقال لها أيضاً وادى الأشى ؛ هكذا سمعت الشعراء ينطقون بها فى أشعارهم فهذه البُليدات التى بين أغرناطة ومرسية .

وفى مقابلة وادى آش على ساحل البحر الرومى ، مدينةُ الْمَرِيَّة (مخففة الراء) وهى مدينة مشهورة ، تَضرب أمواجُ البحر فى سورها ، بينها وبين وادى آش هذه مرحلتان للمُجدّ .

وبعد المدينة المعروفة بالمرية على ساحل البحر الرومى ، حصنُ مُنكّب ، وهى بليدة صغيرة يضرب البحر أيضاً فى سورها ، بينها وبين المرية أربع مراحل .

وبين حصن منكّب هذا وبين مدينة مالقة ثلاث مراحل .

وبين مالقة وبين الجزيرة الخضراء ثلاث مراحل للمُجدّ .

وبالجزيرة الخضراء ، أو بجبل الفتح ، يلتقى البحران كما ذكرنا ؛ فالذى على ساحل البحر الرومى من بلاد المسلمين بالأندلس : الجزيرة

الخضراء ، ومالقة ، ومنكّب ، والمرية ، ودانية ؛ وبين المرية ودانية نحو من ثمان مراحل ؛ ووراء دانية الحصنُ الذى يسمى بِنَشْكُلة ، وقد تقدم ذكره .

فهذا ما على الساحل من بلاد المسلمين بالأندلس ، أعنى ما يضرب الموج فى سوره ؛ فأما مدينة بلنسية فبينها وبين البحر ــ كما ذكرنا ــ قريب من أربعة أميال .

* * *

ثم نعود إلى ذكر البلاد التى ليست على الساحل ؛ فنقول :

من مدينة أغرناطة إلى البحر قريب من أربعين ميلا ؛ وذلك مسيرة يوم تام أو يومين على الرِّفق .

ومن مدينة أغرناطة إلى مدينة جيان ، مرحلتان ؛ فبين جيان وبين البحر الرومى ثلاث مراحل .

ومن مدينة جيان إلى مدينة قرطبة مرحلتان .

(ذكر قرطبة)

وقد تقدم ذكر قرطبة هذه وأنها كانت دارَ مُلك المسلمين ومقرٌّ تدبيرهم إلى أن نشأت الفتنة واختل أمر بنى أمية بالأندلس .

وبلغت قرطبةُ هذه من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغاً لم تبلغه بلدة . حَكى ابنُ فياض فى تاريخه فى أخبار قرطبة قال : كان بالرَّبَض

الشرق من قرطبة مئة وسبعون امرأة كلُّهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى ؛ هذا ما فى ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها ؟ .

وقيل إنه كان فيها ثلاثة آلافُ مُقَلَّس ؛ وكان لايتقلَّس عندهم فى ذلك الزمان إلا من صلح للفُتْيا .

وسمعت ببلاد الأندلس من غير واحد من مشايخها ، أن الماشى كان يستضىء بِسُروج قرطبة ثلاثَ فراسخ لاينقطع عنه الضوء .

وبها الجامع الأعظم الذى بناه أبو المطرّف عبد الرحمن بن محمد المتلقب بالناصر لدين الله ، وزاد فيه بعده ابنه الحكم المستنصر بالله ؛ فزيادة الحكم معروفةٌ إلى اليوم .

وحكى أبو مروان بن حَيَّان ــ رحمه الله ــ فى أخبار قرطبة ، أن الحكم لما زاد زيادتهَ المشهورة فى الجامع اجتنب الناس الصلاة فيها أياماً ؛ فبلغ ذلك الحكَم ، فسأل عن علته ؛ فقيل له إنهم يَقولون : ما نَدْرِى هذه الدراهم التى أنفقها فى هذا البنيان من أين اكتسبَها فاستحضر الشهودَ والقاضىَ أبا الحكم المنذرَ بن سعيد البلوطى المتقدم الذكر فى قضاته [1] ، واستقبل القبلةَ وحلف باليمين الشرعية التى جرت العادة بها أنه ما أنفق فيه درهما إلا من خُمس المَغْنَم . وحينئذ صلى الناس فيه لما علموا بيمينه .

ومن الخُمس أيضاً كان أبوه بناه وزاد فيه أبو عامر (المنصور) محمد بن أبى عامر زيادة أخرى من هذه النسبة ؛ فهو مسجد لم ينفق فيه درهمٌ إلا من خُمس المغنم ؛ وهو معظم القدر عند أهل الأندلس ، مبارك ، لا يصلّى

(١) انظر ص ٥٥ .

فيه أحدٌويدعو بشيء من أمر الدنيا والآخرة إلا استُجيب له ؛ قد عُرف ذلك من أمره واشتهر .

[وحكى[1] غيرُ واحدٍ أن الأدفنش – لعنة الله – لما دخلها فى شهور سنة ٥٠٣ ، دخل النصارى فى هذا المسجد بخيلهم ، فأقاموا به يومين لم تَبُلْ دوابُّهم ولم ترُثْ حتى خرجوا منه ؛ وهذه الحكاية مما تواتر عندهم واستفاض بقرطبة[1]] .

وقد جمع أهل الأندلس كتباً فى فضائل قرطبة وأخبارها ومن كان بها أو نزلها من الصالحين والفضلاء والعلماء .

(ذكر إشبيلية)

ومن مدينة قرطبة إلى مدينة إشبيلية ثلاث مراحل ؛ وإشبيلية هذه هى حاضرة الأندلس فى وقتنا هذا . وهى التى تسمى عندهم فى قديم الزمان حمص . سُمِّيت بذلك لنزول أجناد حمص إياها حين افتتح المسلمون الأندلس[2] .

وقد زاد أمرُ هذه المدينة على صفة كل واصف ، وأتى فوق نعْت كل ناعت ؛ وهى على شاطىء نهر عظيم ينصبُّ من جبل شَقُورة ؛ وتنصب فيه

(١) يرى دوزى ان هذه العبارة ليست من كلام المؤلف .
(٢) انظر التعليق ص ١٧٢ .

أنهارٌ كثيرة ، فلا يصل إلى إشبيلية إلا وهو بحر خضَمٌّ ؛ تَصعَد فيه السفنُ الكبار من البحر الأعظم ، تُرْسِى على باب المدينة ، بينها وبين البحرالأعظم سبعون ميلا ، وذلك مرحلتان .

وهذه المدينة كانت قاعدة ملك بنى عباد حسبما تقدم[1] ، ثم صيَّرها المصامدة منزلاً لهم أيام كونهم بالأندلس ؛ منها ينفذ أمرهم ، وفيها يستقر ملكهم ؛ وبنوا بها قصوراً عظيمة ، وأجروا فيها المياه ، وغرسوا البساتين ؛ فزاد ذلك فى حسن هذه المدينة ، أعنى إشبيلية .

* * *

ومن إشبيلية إلى مدينة شِلْب التى على ساحل البحر الأعظم ، خمس مراحل ؛ وبين ذلك بُليدات صغار ؛ كمدينة لَبْلَة ، وحصن مَرْتُلَة ، ومدينة طبيرة ، ومدينة العليا ، والمدينة المعروفة بشَنْتَمرِيَّة .

هذه البلاد كلها فيما بين شِلب وإشبيلية من مغرب الأندلس .

وبين قرطبة وبين البحر الرومى خمس مراحل ؛ وقرطبة أيضاً على ساحل هذا النهر الذى ينصب إلى إشبيلية ؛ يعظم جداً حتى تصعد فيه السفن كما تقدم ، وينحدر من أراد فى القوارب من قُرطبة إلى إشبيلية ، ويصعدون من إشبيلية إلى قرطبة ؛ كهيئة النيل .

---

(١) انظر ص ١٢٦ ثم ١٤٨ وما بعدها .

وبين مدينة إشبيلية ومدينة شَريش مرحلتان .

وبين شريش وبين البحر ثلاث مراحل .

فهذه جملة أخبار بلاد المغرب وجزيرة الأَندلس ومسافاتُ الأَبعاد التى بين كل بلد وبلد على التقريب ؛ منها ما سافرتُ فيه بنفسى ، ومنها ما نقلته مستفيضاً عن السُّفَّار المترددين .

فصـــــل

أنهار الأندلس الكبار المشهورة

وقد رأيت أن أذكر ههنا جملة أنهار الأندلس الكبار المشهورة بها ؛

فأول ذلك مما يلى المشرق : نهر طرطوشة ، وهو نهر عظيم ينصبٌّ من جبال هناك إلى مدينة طرطوشة ، ثم يصب فى البحر الرومى . وبين طرطوشة وبين البحر الرومى اثنا عشر ميلا .

ثم نهر مرسية ، وهو يصب أيضاً فى البحر الرومى ، منبعه من جبل شَقورة ؛ وهو قَسِيم نهر إشبيلية ؛ منبعهما واحد ثم يفترقان ؛ فينصب هذا إلى إشبيلية وهذا إلى مرسية .

ثم نهر إشبيلية الأعظم — وقد تقدم ذكر منبعه — ثم تنصب فيه قبل وصوله إلى إشبيلية أنهار كثيرة ، فيعظم حتى يصير بحراً كما ذكرنا ، ثم يصب فى البحر الأعظم المسمى أقيانس .

ثم نهر عظيم ببلاد الروم يسمَّى تاجُو ، وهو الذى عليه مدينة طليطلة وشَنترين ؛ وبين هاتين المدينتين قريبٌ من عشر مراحل ؛ وعلى هذا النهر أيضاً مدينة الأشبونة ، وبينها وبين شنترين ثلاث مراحل ؛ ثم ينصب هذا النهر إلى البحر الأعظم .

فهذه جملة أنهار الأندلس المشهورة بها .

خاتمــة

وقد نجز بحمد الله جميع هذا الإملاء حسبما رسمه مولانا ، وجريتُ فى ذلك كلِّه على عادتى فى التلخيص ، وتركت أسماءَ القرى والضِّياع والأَنهار الصغار وغير ذلك مما لا تدعو إليه الحاجة ولا يُخلُّ بالتصنيف تركُه ؛ فإن وافق غرض مولانا ولاق بنفسه وأتى وَفْقَ مراده فهى البغية الكبرى والأُمنية العظمى التى لم أزل أكدح لها وأسعى فيها وأُسابق إليها ؛ وإن يَكُ غيرَ ذلك فما أنا بأَّول من اجتهد فحُرِم الإصابة ولم يقع على المراد ولا وفى المقصود !

وبالله أعتصم ، وإياه استرشد ، وعليه اعتمد ؛ وهو حسبى ونعم الوكيل.

* * *

وكان الفراغ من هذا الإملاء يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة من سنة ٦٢١ . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

(مكتوب فى آخر المخطوطة ما يأتى :)

« بلغ قراءة وتصحيحا على جامعه بتاريخ السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٢١ » .

فهـــــارس الـكتاب

فهـــرس الموضوعات

فهرس الأعلام والبلدان والقبائل

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)